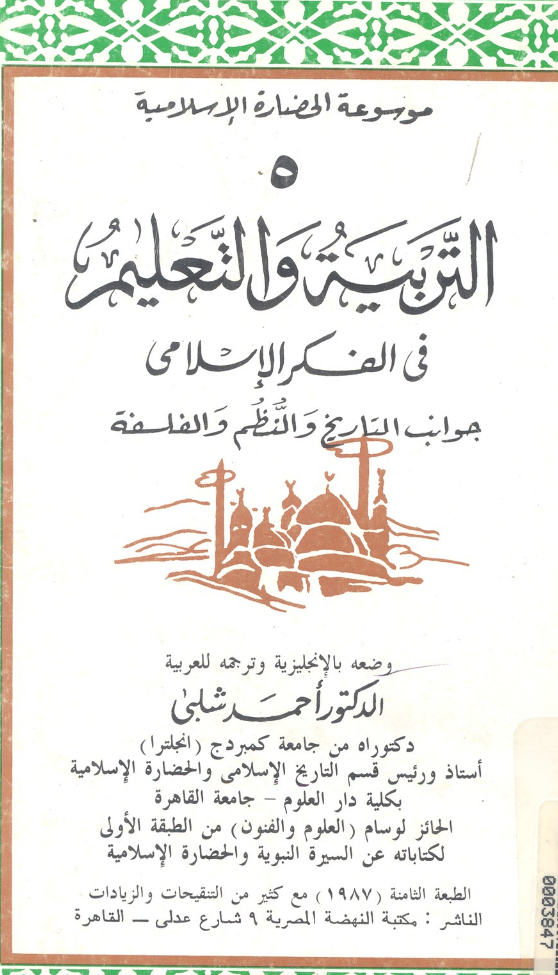


موسوعة الحضارة الإسلامية

٥

التربية والتعليم

فى الفكر الإسلامى

جوانب التاريخ والنظم والفلسفة

وضعه بالإنجليزية وترجمه للعربية

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
الحائز لوسام (العلوم والفنون) من الطبقة الأولى
لكتاباته عن السيرة النبوية والحضارة الإسلامية

الطبعة الثامنة (١٩٨٧) مع كثير من التنقيحات والزيادات
الناشر : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى — القاهرة

موسوعة الحضارة الإسلامية

٥

التربية والتعليم

في الفكر الإسلامي

جوانب التاريخ والنظم والفلسفة

وضعه بالإنجليزية وترجمه إلى العربية

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

اعتمدت جامعة كمبردج هذه الدراسة لدرجة الدكتوراه
وقررت جامعة القاهرة طبعها على نفقتها

الطبعة الثامنة (١٩٨٧) مع كثير من التنقيحات والزيادات



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤
الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠
الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦
الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣
الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٥
الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨
الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢
الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٧

الطبعات الأولى لهذا الكتاب كانت بعنوان « تاريخ التربية الاسلامية »

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟

قرآن كريم

سورة الزمر الآية التاسعة

الحضارة الاسلامية ....

منحة الاسلام لهداية البشرية

دكتور احمد شلبى

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع ابراز الجوانب الحضارية التى تحققت فى كل عصر اسلامى أو كل دولة اسلامية فى مجالات الأمن والتعليم والاقتصاد ...

١ — الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : تطلق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ....

— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة

— الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ — الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

انصاف تاريخ الأمويين وابراز جهودهم السياسية والحضارية .

٣ — الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ — الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

— السنوسية : ميادئها وتاريخها .

٥ — الجزء الخامس : (الطبعة الثامنة)

— تاريخ مصر من عمرو بن العاص الى حسنى مبارك .

(تدوين جديد لتاريخ مصر — دورها الحضارى — اهم آثارها) .

— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .

— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

تكملة موسوعة التاريخ الاسلامى :

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهــا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربيه وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجيــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الرابعة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن:

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا

الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثه)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .

(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجــزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاســلام لهداية البشرية فى شئــون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصــاد ، وفى مجــال الحيــاة الاجتماعية والتربوية والعســكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى احياء الحضارة التجريبية وتطويرها ، واجزاء الموسوعة هى :

١١ — الجزء الأول : المناهج الاسلامية (الطبعة الخامسة)

أصولها الصحيحة — انحرافاتها — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثانى : (الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره
(مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية
(الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : الســياسة (الطبعة السابعة)
فى الفــكر الاســلامى
مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصــاد (الطبعة السابعة)
فى الفــكر الاســلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .
٢ — مبادىء الاسلام الاقتصادية .
٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار . . .) .
٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه . . .) .
٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

تكملة موسوعة الحضارة الاسلامية :

١٥ — الجزء الخامس : التربية والتعليم (الطبعة الثامنة)
في الفكر الاسلامي
جوانب التاريخ والنظم والفلسفة

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وامكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثامنة)
المجتمع : تكوينه وعلاج مشكلاته
في الفكر الاسلامي
ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — اداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)
في الفكر الاسلامي
— في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...
— وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : التشريع والقضاء (الطبعة الرابعة)
في الفكر الاسلامي
مع بحوث واسعة من القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الخامسة)
العلاقات الدولية
في الفكر الاسلامي

دراسات علمية توضح النهج الاسلامي في تنظيم العلاقات بين الدول الاسلامية والدول غير الاسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الاديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة التاسعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة.

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئه البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية : الرهبنة والأديرة . خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

٢٣ — الجزء الثالث : الاســلام : (الطبعة التاسعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصـاد فى الاسـلام . آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الاديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بوجاواسستها « كيتـا » .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات اجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا او رسالة

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

(الطبعة الثامنة عشرة — مع ثلاثة ملاحق مهمة)

٢٦ — **الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن**

عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٢٧ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٨ — History of Muslim Education

وباللغة الفرنسية :

٢٩ — Islam : Croyance - Législation - Morale

وباللغة الاندونيسية والمالايزية :

Pustaka National (Singapore)

٣٠ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٣١ — Masjarakat Islam

٣٢ — Hukum Islam

٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٣٤ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam II

٣٥ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam III

٣٦ — Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٧ — Perbandingan Agama (Masihi)

٣٨ — Perbandingan Agama (Islam)

٣٩ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٤٠ — Sadjarah Pendidikan Islam

٤١ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٢ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤٣ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٤ — Perang Salib

٤٥ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٦ — Pengajian Al Quraan

٤٧ — Sedjarah Kehakiman Dalam Islam

كتب المؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسّر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٨ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة بموضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٩ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـاد طبعها

٥٠ — فى قصور الخلفاء العباسيين :

اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥١ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :

واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٢ — الحكومة والدولة فى الاسلام :

واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٢ من هذه القائمة .

٥٣ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٤ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٥ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى :

واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

كتب المؤلف

سادسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن .... للأولاد والشباب والسيدات والرجال ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ (أ) الرسول فى بيته : زوجات الرسول — اسباب تعدد الزوجات

ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اعقبت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الاخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ اجزاء)

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشــكلات التى واجههـــا
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) أبو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى ادائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل والمقارنة بينها .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : اسراره واعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا .
(الترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن —قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصـــة الرجلين والجنتين — قصـــة ذى القرنين ويأجوج ومأجـــوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٥ اجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الاموية : الانحراف فى تدوينه ومحاولة انصافه . معاوية الخليفة الاموى الاول : عام الجماعة — الدهاء — الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد فقهاء المدينة الاربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك . عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم فى العهد الاموى واهم ميادينه .

ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع . قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ اجزاء) كالآتى :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب — جعفر بن أبى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار ومحاكمته .

ج ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ ثلاثة اجزاء فى مجلد واحد عن :
الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامى من مطلع الاسلام حتى الآن .

ج ٤٥و٤٦ جزءان فى مجلد واحد عن :
شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين فى شهور رمضان على : قريش — الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول — الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمراة (٦ اجزاء) :

ج ٤٧ المراة فى الحضارات غير الاسلامية — ماذا قدم الاسلام للمراة؟

ج ٤٨ نماذج من السيدات المسلمات (من بيت النبوة) :
السيدة زينب بنت الامام على — السيدة سكينة بنت الامام الحسين .

ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات (فى قصور الخلفاء والملوك) ام سلمة — الخيزران — زبيدة — شجرة الدر .

ج ٥٠ نماذج من السيدات فى مجالات الآداب والعلوم والفنون السيدة نفيسة — رابعة العدوية — الخنساء — ولادة — زينب طبيبة بنى رد — عليه بنت المهدى — دنانير — عريب .

ج ٥١ زيجات شهيرة فى التاريخ : زبيدة — بوران — قطر الندى .

ج ٥٢ **الميراث فى الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .**

كتب للمؤلف

سابعا — التفسير الميَسَّر للقرآن الكريم

مسيرة علمية جديدة لتفسير القرآن الكريم ، تفسيرا يهدف لان يفهم الانسان كتاب الله اذا قراه او سمعه ، وقد اقدمت على هذا العمل بعد دراسة واسعة للتفاسير القديمة والحديثة ، فوجدت اننى استطيع — بعون الله وتوفيقه — أن اجد لى مكانا ، وان أضيف شيئا .

وهذا العمل يخلو تماما من الاسرائيليات والشبهات وتعدد الآراء ، مع اسلوب سهل ، ومع ربط الآيات القرآنية بعضها ببعض ، وايراد سبب النزول كلما كان محققا .

ومع الاتجاه للايجاز فان هناك وقفات تفصيلية للقضايا المهمة التى يعرضها القرآن الكريم ، ولا يستطيع العقل استيعابها بسهولة : ومن القضايا التى برزت فى سورة البقرة نذكر ما يلى :

١ — الله والانسان .

٢ — وفضلناهم على العالمين .

٣ — الرسالة الأخيرة ومكانها من رسالات الله تعالى .

٤ — كلمة عن السحر .

٥ — كلمة عن النسخ فى القرآن .

٦ — وجه الله ، ويد الله .

واعلن اننى اقوم بهذا العمل حسبة لوجه الله تعالى واننى لا اتقاضى اى ربح مادى عنه ، وانه يباع بسعر التكلفة .

وقد ظهر المجلد الأول من هذا العمل وهو يشمل المقدمة وتفسير سورتى الفاتحة والبقرة .

والله المسئول ان يهبنا العون والتوفيق لاخراج هذا العمل الجليل ، وما اسعدنى ان انضم لخدم كتاب الله .

محتـــويات الكتـــاب

الموضـــــــوع	الصفحة
توصية جامعة كمبردج بطبع الكتاب	١٧
قرار جامعة القاهرة بطبع الكتاب على نفقتها	١٨
تقدير واعتراف	١٩
تقديم الكتاب : بقلم بروفسور ارثر اربرى	٢٠ — ٢٢
كتاب « التربيـــة الاســـلامية » أول دعامـــة لموســـوعة الحضارة الاسلامية	٢٣ — ٢٥
مقدمة الطبعة الثامنة	٢٦
مقدمة البحث ودراسة عن مصادره ومراجعه	٢٧ — ٣٩
مقدمة الترجمة العربية	٤٠ — ٤١

الباب الأول
أمكنة التعليم ٤٣ — ١٣٨

الموضوع	الصفحة
أولا : أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس :	٤٦ — ١١٥
١ — الكتّاب لتعليم القراءة والكتابة	٤٧
٢ — الكتّاب لتعليم القرآن ومبـــادىء الدين الاسلامى	٥٢
مـــدى العلاقة بين هـــذا الكتّاب والمسجد	٥٦
الكتاتيب والتحذير من التفاصيل فى قواعد اللغة العربية	٥٩
٣ — التعليم الأولى بالقصور	٦٢
٤ — حوانيت الوراقين	٦٦
٥ — منازل العلماء	٧١
٦ — الصالونات الأدبية	٧٦
آداب وقيم للصالونات الأدبية ..	٧٧
الصالونات وتطورها من جيل الى جيـــل	٨٠
الصـــالونات الأدبيـــة فى أزهى عصـــورها	٨٥
أسس علم البحث والمناظرة ..	٨٩
٧ — البادية	١٠٠
٨ — المســـجد	١٠٥
ثانيا : المدارس	١١٦ — ١٣٨

الموضـــــوع الصفحة

مقدمـــــة :

لمـــاذا انتقل التعليم من المساجد الى المدارس ؟ ١١٦
ملذا كان الفرق بين المساجد والمدارس ؟ ١١٧
لمـــاذا عنيت مدارس المسلمين بالعلوم الدينية أكثر من سواها ؟ ١١٧
نشأة المدارس فى العالم الاسلامى ١١٩
مدارس نظام الملك ١٢١
مدارس نور الدين زنكى ١٢٢
مدارس العهد الايوبى ١٢٤
مدارس الطب ١٢٦
المدرســـة النورية الكبرى (نمـــوذج لمدارس المسلمين فى ذلك العهد) ١٢٩

الباب الثانى

المكتبات ١٣٩ — ٢٠٨

المكتبات والتعليم ١٤١
القيمة الادبية للكتاب ١٤٤
الجاحظ والكتاب ١٤٤
كتب تغمر الاسواق لا تحمل فكرا ولا لهوا ١٤٧
القيمة الادبية للمكتبات ١٤٨
ابنية المكتبات ونظمها ١٥١
الفهارس ١٥٥
استعارة الكتب ١٥٨
موظفو المكتبة : ١٦١
١ — الخازن (أمين المكتبة) وثقافته ١٦١
٢ — المترجمون ١٦٥
٣ — النسّاخ ١٦٧
٤ — المجلدون ١٧٢
٥ — المناولون ١٨٠
حالة المكتبة المـــالية ١٨٢
انواع المكتبات : ١٨٥
ا — المكتبات العامة ١٨٦
ب — مكتبات بين العامة والخاصة ١٩٧
ج — المكتبات الخاصة ٢٠٣

الموضـــــوع — الصفحة

الباب الثالث
المدرســـون ٢٠٩ — ٢٨٥

مقدمـــــات :

١ — المعلمون الذين لم يتحلق حولهم الطلاب .. ٢١١
٢ — عناية المسلمين بتلقى العـلم من معلم لا من الصحف والكتب ٢١١
٣ — المسلمون الأول ادركوا ضرورة فنّ التربية للمدرس ٢١٢
٤ — تعاون البيت والمدرسة فى تربية التلميذ .. ٢١٣
العلاقة بين الحكومات والمدرسين ٢١٤
المستوى الاجتماعى للمدرسين ٢٢٠
حالة المدرسين المـادية ٢٢٥
مدرسو المدارس النظامية ٢٥٠
تحقيق نهاية نظامية بغداد ٢٥٢
تحقيق مكان نظامية بغداد ٢٥٣
المعيـــدون ٢٥٦
اخلاق المدرسين وواجباتهم ٢٥٩
الاجازات العلمية ٢٦٣
العقوبات ٢٧٢
الجوائز والمكافآت ٢٧٦
ملابس المدرسين ٢٧٨
نقلبة المعلمين ٢٨٣

الباب الرابع
التلاميذ ٢٨٧ — ٣٥٩

الاسلام والتعليم ٢٨٩
رياضة الأطفال فى نظر بعض فلاسفة المسلمين :
الغزالى ٢٩٢
ابن سينا ٢٩٤
ابن مسكويه ٢٩٥
ابن الجوزى ٢٩٥
من كتاب منهاج المتعلم ٢٩٥
الطفل بين الوراثة والاكتساب ٢٩٥

الموضـــــوع | الصفحة

تكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين ٢٩٦
العناية بالطلاب الموهوبين ٢٩٧
اعطاء العلم لغير المستحق ٣٠٢
توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم ٣٠٣
مراحل التعليم وتصنيف الطلاب ٣٠٥
سن التعلم ٣٠٧
عدد التلاميذ فى الفصل أو الحلقة ٣١٠
العقل والجسم ٣١٣
اخلاق التلاميذ وواجباتهم ٣١٧
صلة التلميذ بالتلميذ ٣٢٠
جهود التلاميذ لتحصيل العلم ٣٢١
الرحلات لطلب العلم ٣٢٤
سلوك الطلب عقب عودته من رحلة العلم .. ٣٣٢
تعليم المرأة المسلمة ودراسات مهمة حـول هـذا الموضوع ٣٣٤

الباب الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية ٣٦١ — ٣٩٤

منشئو المعاهد العلمية :
المـأمون ٣٦٣
نور الدين زنكى ٣٦٤
صلاح الدين الايوبى ٣٦٤
نظام الملك ٣٦٥
الأوقاف على التعليم ٣٧٣
حلقة التعليم ٣٨٢
الاسئلة وآدابها ٣٨٥
مراحل التعليم ٣٨٧
الداخلية فى المدارس ٣٩٢
آداب الطلبة فى الداخلية ٣٩٤

الباب السادس

موضوعات الدراسة ٣٩٥ — ٤٣٢

بين التعليم والعلم ٣٩٧
المذهب الاسماعيلى فى مصر والأسباب التى دعت الى دراسته ٣٩٩

الموضـــــوع الصفحة

مبادئ مهمة أسجلها هنا ٤٠٠
أولا : الفكر السنى لم يختف من مصر خلال العهد الفاطمى ٤٠٠
ثانيا : حديثنا عن الاسماعيلية حديث مؤرخ ناقد .. ٤٠١
ثالثا : جذور هذا المذهب ليست اسلامية ٤٠١

تفاصيل عن المذهب الاسماعيلى

أولا : عقائد الاسماعيلية :
أ — الوصى والأئمة ٤٠٤
ب — العصمة ٤٠٧
جـ — صفات أخرى للأئمة ٤٠٩
د — الظاهر والباطن ٤١١
هـ — الأئمة والتشريع ٤١٣
ثانيا : جهود الفاطميين للدعوة لعقائدهم :
أ — بواسطة حلقات التعليم ٤١٦
ب — الشعر فى خدمة المذهب الاسماعيلى .. ٤٢٠
١ — من شعر ابن هانىء ٤٢٠
٢ — من شعر الأمير تميم ٤٢٢
٣ — من شعر المؤيد فى الدين ٤٢٣
جـ — الاحتفالات بمناسبات معينة : ٤٢٤
١ — عيد الغدير ٤٢٤
٢ — عاشوراء ٤٢٦
٣ — أعياد الميلاد ٤٢٦
د — اسناد الوظائف للاسماعيلية ٤٢٧
ثالثا : المصريون والمذهب الاسماعيلى ٤٣١
مصادر البحث .. .. ٤٣٣ — ٤٣٨

فهرس الأشكال والمخططات

الصفحة

شكل رقم (١) منظر للجامع الأموى بدمشق ١١١

شكل رقم (٢) منظر آخر للجامع الأموى بدمشق ١١١

مخطط للمدرسة النورية الكبرى ١٢٨

شكل رقم (٣) صحن المدرسة النورية الكبرى ١٣١

شكل رقم (٤) مدخل المدرسة النورية الكبرى ١٣٣
وقد سجلت على عتبته العليا الأوقاف على المدرسة

شكل رقم (٥) منظر خارجى لقبة ضريح نور الدين ١٣٤

شكل رقم (٦) ايوان المدرسة النورية (قاعة المحاضرات) .. ١٣٥

شكل رقم (٧) نظام ترتيب الكتب فى المكتبات الاسلامية المبكرة .. ١٥٤

شكل رقم (٨) التجليد المصرى فى عهد مبكر ١٧٥

شكل رقم (٩) تجليد رائع للقرآن الكريم محلى ببعض الآيات القرآنية ١٧٦

شكل رقم (١٠) تجليد رائع للقرآن الكريم ١٧٧

شكل رقم (١١) تجليد رائع للقرآن الكريم ١٧٨

شكل رقم (١٢) تجليد رائع للقرآن الكريم ١٧٩

خريطة تقريبية لبغداد فى القرن السابع الهجرى ويظهر بها موقع المدرسة النظامية ٢٥٥

شكل رقم (١٣) اجازة علمية على مقامات الحريرى بخط المؤلف .. ٢٦٧

شكل رقم (١٤) اجازتان علميتان أخريان ٢٦٨

شكل رقم (١٥) اللوح الذى سجلت عليه اوقاف المدرسة الشامية ٣٧٩

from PROFESSOR A. J ARBERRY, PEMBROKE COLLEGE, CAMBRIDGE



10 October 1952

I have much pleasure in warmly recommending the publication of Dr Ahmad Shalaby's thesis entitled "The History of Muslim Education with special reference to Egypt". This work, which secured for Dr Shalaby the award of the Degree of Doctor of Philosophy in this University, is a most valuable contribution to knowledge. Based very largely upon unpublished manuscripts, together with extremely wide reading of printed texts, it collects together a vast range of important information, which has been critically examined and competently arranged. The publication of this book will be a great service to scholarship.

كتب أستاذى العظيم المرحوم الدكتور آرثر اربرى الخطاب المنشور أعلى هذا باللغة الانجليزية ، وفيما يلى ترجمته :

يسرنى بالغ السرور أن أوصى بطبع الدراسة التى قام بها الدكتور احمد شلبى فى رسالته التى قدمها لجامعة كمبردج ، ونال بها درجة الدكتوراه وعنوانها « تاريخ التربية الإسلامية » فهذه الدراسة ثمينة للغاية ، وإسهام كبير لخدمة الثقافة والفكر ، وقد اعتمدت بشكل واسع على مجموعة نادرة من المخطوطات بالإضافة الى قراءات واسعة فى الكتب المطبوعة ، ومن هذه المصادر وتلك جمع المؤلف مادة غزيرة واختبرها ادق اختبار ، ونظمها أروع نظام ، مما يجعل هذا البحث خدمة عظيمة للفكر والمفكرين .

أرثر اربرى

الأستاذ بجامعة كمبردج بانجلترا



كلية دار العلوم

عن: موافقة الجامعة على منح رسالة الدكتور أحمد شلبي الدكتوراه [illegible]

رقم [illegible] ١٠٦٦

[illegible] ١٩٥٢/٤/٢٠

جامعة فؤاد الأول
الإدارة العامة

[illegible]
٢٩ / ٤ / ١٩٥٢

[illegible] / ٤ / ١٩٥٢

حضرة الأستاذ الدكتور عميد كلية دار العلوم

أتشرف بأن أخبر حضرتكم أن حضرات أعضاء لجنة الكلية والطبع والنشر [illegible] وافقوا على أن [illegible] على نفقة الجامعة رسالة حضرة الدكتور أحمد شلبي المدرس بالكلية التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة كمبردج [illegible] حضرته [illegible] الرسالة [illegible] مطبعة الجامعة [illegible].

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

المراقب العام
للكليات الجامعية
(توقيع)

حضرة الدكتور أحمد جاد الله شلبي

يسرني أن أبلغ حضرتكم موافقة [illegible] من الجامعة [illegible] لجنة الكلية والطبع والنشر [illegible] رسالتكم الدكتوراه على نفقة الجامعة.

مع قبول فائق التحية والتقدير.

عميد الكلية
[illegible]




تقـدير واعتـــراف

احس اننى مدين دينا عظيما لجامعة القــاهرة التى رشحتنى عضواً لإحدى بعثاتها للخارج ، ومدين كذلك للحكومة المصرية التى تفضلت فوافقت على هذا الترشيح ، واتاحت لى أن أدرس بجامعات انجلترا بضع سنوات ، وأن ازور أقطاراً اخرى فى الشرق والغرب لهذه الأغراض العلمية ، فلهذه الجامعة شكرى وتقديرى ، ولمصر العزيزة حبى وولائى .

ويطيب لى أن أســجل عميق شكرى لأســتاذى العظيم المرحــوم البروفسور آرثر اربرى ، الذى اقترح هذا الموضوع واشرف على إعداده ، والحق انه كان لتوجيهات البروفسور أربرى ، واقتراحاته النافعة ، ونقده البنّاء ، وقيادته الملهمة ، فضل كبير فى إنتاج هذه الرسالة ، وسأظل دائما أذكر فضله ، فمن الوفاء والولاء ألا ينسى الطــلاب جهودَ شيــوخهم وأساتذتهم ، وهذا كل ما يستطيع أن يقدمه الطالب لأستاذه .

وفى أثناء الرحلة العلمية التى قمت بها للبحث والدراسة ، إبّان إعداد هذه الرسالة ، لاقيت كثيراً من الرعاية ، وموفوراً من العون ، من هيئات متعددة ، وأفراد كثيرين ، وكان لأبناء العروبة الأفاضل القدح المعلّى فى هذا الشأن ؛ فقد احتفوا بى ، ويسّروا مهمتى ؛ فى دمشق الفيحاء ، وفى حلب ، وبيروت ، وبغداد ، والنجف ، وغيرها ، وكان لكثير من العلمــاء والمشرفين عــلى دور الكتب فى انجلترا وهولنــده وأسبانيا والقــاهرة واستانبول فضل لا ينسى ، فإلى هؤلاء جميعاً أزجى عميق شكرى وصادق تقــديرى .

ديسمبر ١٩٥١ — دكتور أحمد شلبى

FOREWORD

Islam has many chaims upon the admiration and gratitude of mankimd. Much has been written of the contribution made by the Muslim peoples to art, literature science, politics. None of these achievements would have been Possible but for that devotion to learning and education which has characterised those peoples throughout their history; men and women who obeyed implicitly their Prophet's command, «Seek after Knowledge even if it be in china.» To investigate and describe the eductional systems established in Islam is therefore obviously a most important and interesting task

In the present book, my friend and former pupil Dr. Ahmad Shalaby publishes the results of his investigation, which he undertook as candidate for the degree of Doctor of Philosophy in the University of Cambridge. Every reader will agree that this research has been both profound, and highly successful. Many printed works, and a large number of unpublished manuscripts were consulted in the course of the study. In choosing and using these sources Dr. Shalaby has displayed the qualities so necessary to the researcher, patience, throughness, enthusiasm, discrimination a capacity to recognise and go to the heart of a problem, a gift of clear and orderly exposition. The book is not only a substantial contribution to knowledge; it is also a pleasure to read, a volume to gratify the pride of every Muslim lover of knowledge.

It gives me great pleasure to congratulate Dr. Ahmad Shalaby on bringing his doctorate thesis to print, and to Commend what he has written to the serious attention of his readers.

A. J. ARBERRY

Pembroke College Cambridge.

Professor of Arabic and Islamic Studies in the University of Cambridge.

تقديم الكتاب

للأستاذ الدكتور آرثر أربرى
أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة كمبردج
(الترجمة العربية للأصل الإنجليزى السابق)

للإسلام على الجنس البشرى مآثر تدعو إلى الإعجاب وتستدعى الشكران ، ولدينا مؤلفات عدة تصف ما أسهم به المسلمون فى ترقية الفنون والآداب والعلوم والسياسة ، ومن الواضح أن المسلمين ما كانوا يَصِلُون إلى تحقيق هذه الأهداف العلمية الرفيعة لولا حرصهم البالغ على التعلم والتعليم ، ذلك الحرص الذى تميز به الشعب الإسلامى خلال تاريخه الطويل ، فهبَّ رجاله ونساؤه مستجيبين لدعوة الرسول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

ومن أجل هذا كانت دراسة المعاهد التعليمية الإسلامية وتَتَبُّع خططها ومناهجها عملا عظيم الأهمية جليل الخطر ، وفى هذا الكتاب يقدم صديقى وتلميذى السابق الدكتور أحمد شلبى نتيجة أبحاثه ودراساته فى ذلك الموضوع ، وهى التى قدَّمها إلى جامعة كمبردج فحصل بها على درجة الدكتوراه . وسوف يتفق معى كل قارئ على أن هذه الدراسة جمعت بين قوة الدعائم وقمة النجاح ، وقد اعتمد الباحث فى إخراجها على عدد ضخم من المصادر الأصيلة ، وكذلك على مجموعة كبيرة من المخطوطات التى تيسَّرتْ له قراءتها فى أثناء رحلته العلمية إلى دول أوربا وإلى دول الشرق الأوسط ، وأشهد أن الدكتور شلبى فى اختياره لهذه المصادر ، وفى دراسته لها ، وانتفاعه بها ، قد تجلَّتْ فيه مواهب البحاثة الدقيق ، من جَلَد ، وعمق ، وإحاطة ، وحماسة ، وتفوّق ، ومقدرة على الوصول إلى قلب المشكلة ، وموهبة الوضوح ، وحسن النظام ، وروعة العرض .

ولذلك فهذا الكتاب ليس فقط مساهمة مهمة فى صرح الدراسات الإسلامية ، بل إنه كذلك متعة للقارىء ، وهو — إلى جانب ذلك — يدعم فخر المسلمين بما حققوه فى مجال العلوم والمعارف .

إنه ليسرنى بالغ السرور أن اهنىء الدكتور أحمد شلبى على قيامه بطبع هذه الدراسة ونشرها ، وأتمنى أن تلاقى هذه الدراسة مكانها من الاهتمام عند القراء .

آرثر أربرى

استاذ اللغة العربية والدراسات الاسلامية بجامعة كمبردج

تعليق قصير على هذا التقديم :

إننى أحس بخجل عندما أقرا هذا التقديم الذى كتبه أستاذى العظيم بروفسور اربرى ، فقد أضفى على مجموعة من الصفات يندر أن نراها مجتمعة وبخاصة فى تعبيرات اللغة الإنجليزية ، فإن كان ما دونه مجاملة فإنى أشكره على هذا التشجيع ، وإن كان حقيقة فإنى أنحنى لله وأشكره على ما منح .

المؤلف

كتاب

« تاريخ التربية الإسلامية »

أول دعامة

لموسوعة الحضارة الإسلامية

ارتبطت بدراسة الحضارة الإسلامية منذ سنة ١٩٤٧ حين تحدد « تاريخ التربية الإسلامية » ليكون موضوع رسالتى للدكتوراه بجامعة كمبردج ، وسرت فى دراسة هذا الموضوع بصبر ومثابرة ، وكان واضحاً لى وللأستاذ المشرف المرحوم الدكتور أرثر أربرى وللأساتذة والزملاء بقسم الدراسات الإسلامية بالجامعة أن موضوعى حلقة من دراسة ينبغى أن تتم عن الحضارة الإسلامية ، فلما أكملت دراستى عن التربية الإسلامية رأيتنى أحمل العبء لأكمل الشوط ، ولأكتب عن الحضارة الإسلامية كلها ، وقد شجعنى المحيطون بى على هذا العمل ، ذاكرين أننى تعرفت على أهم مصادرها عندما كنت أدرس التربية ، بل جمعت بعض المادة العلمية التى تتصل بالجوانب الأخرى للحضارة غير التربية ، وهذا ما سيجعل الموضوع أيسر لى من سواى .

وعشت فى الموضوع منذ ذلك الحين .

ودراستى للحضارة الإسلامية كانت شاملة ، تضم جانبى هذه الحضارة وهما :

أولا — الحضارة التى جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبله كرأى الإسلام فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية وغيرها .

ثانيا — الجهود التى قام بها علماء الإسلام فى خدمة العلوم التجريبية ، تلك العلوم التى كانت موجودة قبل الإسلام ثم ضعفت واختفت تقريباً

قبل الاسلام أيضا ، وأحياها هؤلاء العلماء ، وأضافوا اليها ، وابتكروا فى نطاقها ، كما فعل الرازى وابن سينا وابن زهر فى الطب ، وكما فعل الخوارزمى وثابت بن قرة فى الرياضة ، وابن الهيثم فى العلوم الطبيعية وغيرهم (انظر مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية بكتاب « الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره » وهو الجزء الثانى من هذه الموسوعة) .

وهناك حضارة أخرى قام بها المسلمون ولكنها لم تدخل فى نطاق دراستنا هنا ، وهى جهود الحكومات الاسلامية فى مجال الزراعة والتجارة والصناعة والأمن والتعليم ، وهذا النوع من الحضارة مرتبط بالتاريخ الإسلامى فكلما تحدثنا عن تاريخ دولة من الدول الاسلامية أعقبنا ذلك بالحديث عن حضارتها وجهودها لخدمة المسلمين أو خدمة الإنسانية بوجه عام .

ويمكن القول إننى بهذا الاتجاه أصحح ما سبقنى من اتجاهات ، فالذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية كآدم متز وجورجى زيدان خلطوا فى دراستهم بين موضوعين لا يجوز الخلط بينهما : عما رأى الإسلام فى شىء ، وموقف المسلمين منه ، وكثيرا ما تحدثوا عن شىء عمله المسلمون على أنه تصرف إسلامى ، وعابوه على الإسلام ، والإسلام منه براء ، كقضية الرق ، والديكتاتورية ، وشيوع الخمر ...

لهذا عزلت الحضارة الإسلامية عن حضارة المسلمين ، فتحدثت عن حضارة المسلمين مرتبطة بتاريخهم دولة دولة ، وذلك فى موسوعة التاريخ الإسلامى وخصصت موسوعة الحضارة الاسلامية لدراسة الجهود الحضارية التى قدمها الإسلام ، أو قام بها علماء الإسلام فى العلوم التجريبية .

وإذا كانت حضارة المسلمين تختلف من مكان إلى مكان ، ومن زمن إلى زمن ، فإن حضارة الإسلام لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فرأى الإسلام فى السياسة ، ورأيه فى الاقتصاد ، والحياة الاجتماعية

والتربوية والعلاقات الدولية لا يختلف مع مرور الزمن ومع تغير المكان ، وإن كانت ظروف الاجتهاد أو المصالح المرسلة قد تقضى بتطوير الحكم أو اقتراح حكم ، ولكن على أن يكون ذلك فى إطار الإسلام العام .

وهكذا كان لكتاب « التربية الإسلامية » الفضل فى كتابة هذه الموسوعة لأنه كان نواة هذه الدراسة التى استنفدت حوالى أربعين سنة ، واحتاجت إلى كثير من الصبر والأناة ، لأن المصادر المباشرة فى الحضارة الإسلامية تكاد تكون معدومة ، وعلى الذى يمارس هذا العمل أن يتذرع بالصبر ليجمع أشتات الفكر من هنا وهناك كما أوضحنا ذلك فى مقدمات كل حلقة من حلقات هذه الموسوعة التى تتكون الآن من عشرة مجلدات .

وكتاب « التربية الإسلامية » يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية والإسلامية ، فقد كان المثقفون المسلمون يعرفون الكثير عن التربية الإغريقية والإنجليزية . . ولا يعرفون شيئاً ذا بال عن التربية الاسلامية .

وإننى أحس بغبطة شاملة إذ تكتمل الأجزاء العشرة لهذه الموسوعة ، ويسرنى أن أقدمها أطيب هدية لعشاق الفكر الإسلامى ودارسى ثقافته واتجاهاته .

وقد لاقى كتاب « التربية الإسلامية » الذى أتشرف بتقديمه الآن عناية كبيرة من المثقفين فى شتى ربوع العالم ، فعدَّه الباحثون فى التربية مرجعاً رئيسيًّا لم يُسْبَق فى مجاله ، وتُرْجِم إلى عدة لغات .

والله أسأل أن يحقق النفع بهذه الموسوعة ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الثامنة ...

فى تقديم هذه الطبعة أتقدم إلى الله واهب النعم بانحناءة الشاكر ، وتسبيحة الذاكر ، فلقد حبانى — سبحانه — من تأييده وتوفيقه ما يسّر الصعب وذلّل الشاق ، ثم حبّب إلى الناس عملى ، فذاع وشاع كلُّ ما كتبتُ فى كل الربوع .

صحيح أننى تعلمت من أدب الإسلام أن أجوّد عملى ، وألا أضنّ عليه بشىء من الجهد والفكر والمراجعة ، وقد نفّذت ذلك بإصرار فى كل كتبى ، ولكن عون الله كان أساس النجاح وباب التوفيق .

شكراً للسيد من عبده ، ولا يملك العبد إلا شكر سيده ، واعترافاً بأننى طالما استغلق علىّ أمر فدققتُ — يارب — بابك أستلهم ومضة من علمك ، فعرفت عقب ذلك ما لم أكن أعرف، واتضح لى ما كان غامضاً مضطرباً، فالخير منك ، والشكر لك ، ويدفعنا جودك الفسيح أن نرجو منك المزيد من العون لنقدم المزيد من الفكر ، لعلنا ننير بالإسلام طريق البشرية ، وننقذ به الإنسان من الانحراف والتيه .

واجعل اللهم هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، وانفعنا به ، إنك سميع مجيب الدعاء .

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٧ .

دكتور أحمد شلبى

مقــدمة البحث

ودراسة عن مصادره ومراجعه

تقدمت لدراسة « تاريخ التربية الإسلامية » بخطا بطيئة ولكنها ثابتة ، فقد كنت أدرك ما يحتاجــه هذا الموضــوع من تفكير وجهــد وعمق ، وهو موضوع بِكْر لأنه لم يعالج من قبل على النسق الذى يُعرض به الآن ، وكل ما كتب عنه لا يعدو بضع مقالات قليلة وإشارات استطرادية من بعض المؤلفين ، ثم إن ما كُتِبَ عنه لم يعتمد على المخطوطات والمصادر التى أتيح لى أن أعتمد عليها عند كتابتى لهذه الرسالة ٠

ودراسة تاريخ التربية ــ كدراسة غيره من موضوعات الحضارة ــ تحتاج إلى صبر ودأب ومثابرة ، ويقول Paul Monroe فى مقدمة كتابه :

«The Educational Renaissance of the Sixteenth century».

(النهضة التعليمية فى القرن السادس عشر) ما ترجمته : « إنه لمن الشاق العسير أن يحاول الإنسان أن يحصل على معلومات دقيقة فيمــا يختص بالنشاط التعليمى فى العهود المــاضية ، وبخاصــة فيمــا يتعلق بتفاصيلَ عن الحياة المدرسية » وقد لمست أن ما قرره Monroe عــن صعوبة الحصول على هذه المادة فيما يتعلق بالتعليم فى أوروبا ، ينطبق تمام الانطباق على النظم التعليمية عند المسلمين ، ولهذا احتاجت هذه الرسالة إلى جد متصل ، وكفاح طويل فى سبيل إتمامها ، وأذكر أننى طالما قرأت كتباً ضخمة بعضها يقع فى عدة أجزاء وكنت آمل أن أجد فيها ما يفيدنى فى هذا الموضوع ، ولكننى كنت أخرج منها بمحصول ضئيل ، أو أخرج بلا شىء ٠ ويرجع السبب فى ذلك ، إلى أن المؤرخين المسلمين ركّزوا جهدهم فى تسجيل النشاط السياسى والعسكرى للخلفاء والملوك والعظماء ، ولم يهتموا اهتماماً يذكر بتسجيل الإصــلاحات التعليمية ٠ ومن ذلك مثلا أن هؤلاء المؤرخين تحــدثوا فى ســطور قليلــة جداً عن

مدارس نظام الملك ذات الشهرة الواسعة ، ولكنهم تحدثوا بإفاضة عن إصلاحاته الاقتصادية وانتصاراته العسكرية . ومما يثير الدهشة أكثر من هذا ، أن كتاب « المحاسن اليوسفية » الذى ألفه عن صلاح الدين قاضيه ابن شداد ، قد خلا تماما من أية إشارة للنهضة التعليمية التى رعاها مؤسس أسرة الأيوبيين . وبينما يشمل الكتاب تفاصيل دقيقة عن مولد صلاح الدين ، وحياته ، وأخلاقه ، وحروبه تراه لا يذكر شيئاً قط عن مدارسه ، ومنهاجه التعليمى .

بل إن الرسائل التى كتبها المسلمون عن التعليم من أمثال ابن جماعة وابن سحنون والزرنوجى والعاملى لم تعد تشفى غلة الباحث فى العصر الحاضر ، لأنها مقتضبة ، ولأن بعضها تكرار للبعض الآخر ، وتميل غالبا إلى الحديث عن أخلاق الطلاب والمدرسين وواجباتهم ، ثم لأنها تذكر من أسباب قوة الحفظ ، وأسباب عدم النسيان ، وما ماثلها ، ألوانا إن كانت قد قُبِلَتْ فى الزمن الماضى ، فهى غير مقبولة فى العصر الحديث ؛ فإن الباحث الآن لا يميل إلى أن يعتقد أن قراءة تسابيح معينة تشحذ الذهن ، وأن قراءة ألواح القبور تورث النسيان . وغير ذلك مما ازدحمت به هذه الملخصات . فهذه الرسائل مع فائدتها لا تَمُدُّ الباحث الحديث بالمادة المتنوعة التى يحتاج إليها لدراسة موضوع كهذا .

وهناك حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ؛ هى أن كل باب من أبواب هذا الكتاب كان يحتاج الى مصادر غير تلك التى تلزم عند كتابة باب آخر منه ، بل إن كل فصل من فصول الباب الواحد كان يحتاج إلى مصادر غير مصادر فصل آخر فى نفس الباب ، ففى الباب الأول مثلا لكل من الكُتَّاب ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية ، والمساجد ، والمدارس ، مراجع تكاد تكون خاصة .

وعلى ذلك فقد احتاج هذا الكتاب إلى عدد كبير من الكتب والمخطوطات والوثائق لتَمُدَّ الموضوع بالمادة التى تشرح جوانبه وتكشف عن غموضه ؛ ومن أجل هذا قمت برحلة طويلة زرت فيها المكتبة الوطنية

بباريس ومكتبة ليدن بهولندة ، ومكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ثم عرجت على الشرق الأوسط ؛ فزرت مكتبات عدة بمصر ، وسوريا ، والعراق ، ولبنان ، وفلسطين ، وتركيا ، كما استطعت فى هذه الرحلات أن أزور من أمكنة التعليم بهذه البلاد ما انحدر من العصور الوسطى التى ندرس تاريخ التربية فيها . وقد أفادتنى هذه الزيارات فائدة عظيمة القيمة ، جليلة الشأن .

والمصادر التى أمدتنى بالمادة لهذا الموضوع يمكن تقسيمها أربعة أقســـــام :

١ ــ دراسة الأمكنة و (اللوحات) التاريخية .

٢ ــ الرسائل التعليمية التى سبقت الإشارة إليها .

٣ ــ مؤلفات عن الثقافة العامة .

٤ ــ كتب التاريخ .

وفيما يلى كلمة عن كل من هذه الأقسام :

١ ــ أما دراسة الأمكنة واللوحات التاريخية فقد كانت ذات قيمة عظمى فى هذا الموضوع ، وبخاصة تلك المـدارس وهذه اللوحـات التى شاهدتها فى دمشق ؛ فلقد أتيح لى هناك أن أدرس عدة مدارس تنحدر من العصور الوسطى وبخاصة مدرسة نور الدين زنكى التى شيدت فى القرن السادس الهجرى ، وأتاحت لى دراستها أن أضع يدى على نظم تخطيط المدارس ، فظهر لى أن الداخلية مثلا كانت من الملحقات الضرورية لكـل مدرسة ، كما وضح تخطيطها موقع مطبخ المدرسة ، وحجرة الطعام ، وغير ذلك مما سيظهر فيما ذكرته مفصلا فى مكانه ، وقد قرأت عـدة لوحات أثبتُّ صور بعضها فى هذه الرسـالة ، ومنها حصلت على معلومات كبيرة القيمة فيما يختص بالأوقاف على التعليم وبحالة المدرسين المالية ، كما وضحت بما هو مكتوب على بعضها ما وقع فيه بعض المؤرخين من هفوات نشأت ــ فيما يبدو ــ عن أنهم كتبوا عن هذه المدارس دون أن يزوروها .

٢ — **الرسائل التعليمية** : وهى مجموعة من الرسائل كتبها كبار الباحثين فى التربية والنظم التعليمية مثل :

الإمام الغزالى	:	أيها الولد
ابن جماعة	:	تذكرة السامع والمتكلم
ابن شداد	:	الأعلاق الخطيرة (مخطوط بدمشق)
النعيمى	:	الدارس فى تاريخ المدارس (جزءان)
ابن عبدون	:	رسالة ابن عبدون نشرت فى (Journal Asiatique 1934)
الجاحظ	:	رسالة المعلمين (مخطوط بالموصل)
القابسى	:	الفضلة
القطموني	:	ترغيب الناس إلى العلم (مخطوط باستنابول)
ابن سحنون	:	آداب المعلمين
؟	:	منهاج المتعلم (مخطوط بحلب : مؤلفه غير معروف)
أبو حنيفة	:	نصيحة لأحد تلاميذه (مخطوط باستانبول)
الزرنوجى	:	الوجازة فى أحكام الإجازة (مخطوط ببغداد)
الوليد بن بكر	:	تعليم المتعلم
الشهيد	:	المنية (مخطوط بالنجف)
طاش كبرى زادة	:	رسالة فى علم الأدب (مخطوط ببغداد)
العاملى	:	أدب المفيد والمستفيد .

ولا نزاع أن المعلومات التى استقيتها من هذه الرسائل كانت ثمينة جداً ؛ فابن جماعة مثلا شرح لى بإفاضة عدة مسائل وبخاصة وصف الحلقة ، وآداب الطلاب فى الأقسام الداخلية ، وأعمار التلاميذ ثم نظُمَ استعارة الكتب من المكتبات ، وأكثر هذه المسائل لم يعالجها — فيما أعرف — غير ابن جماعة .

وأما منهاج المتعلم — وهو هذه المخطوطة الثمينة التى كان لى حظ العثور عليها بين مجموعة كبيرة من المخطوطات التى كانت مكدسة فى صندوق مقفل بحلب — فيبدو لى أنها فريدة فيما تعرضت له من اختبار ذكاء الطلاب ، وتوزيعهم على فصول متعددة حسب مواهبهم ودرجاتهم من الذكاء والفطنة •

وقد تفضل الأستاذ عباس العزاوى المحامى ببغداد بإطلاعى على مجموعة من المخطوطات من بينها « أنوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة » وهى مصدر هام فيما يختص بالشهادات الدراسية التى يمنحها المدرسون للتلاميذ •

وكانت رسالة المعلمين للجاحظ — التى كان يُعْتَقَد أنها فُقِدت — مفيدة للغاية وبخاصة فيما يتعلق بحالة المدرسين الاجتماعية •

كما كان أدب المعلمين لابن سحنون الذى نسبه ابن خلدون سهواً لمحمد بن زيد المصدر الهام الذى وضح أن البنت كانت تتعلم فى مكان خاص لا مع الولد كما حكاه بعض الكُتّاب نتيجةً لغفلة فى فهم النصوص •

واقتبستُ معلومات هامة نافعة عن مدارس دمشق من النعيمى •

وفى الحقيقة إن جميع الرسائل التعليمية التى ذكرت هنا أسهمت بشىء مفيد فى هذا البحث •

٢ — اما ذلك الانتاج الذى اسميناه « مؤلفات عن الثقافة العامة » فقد كان ذا فائدة عظمى استمدتُ منه هذه الرسالة الشىء الكثير • ومن المعروف أن اللغة العربية تفخر بمثل هذا النوع من الانتاج الذى يشمل معلومات وافرة عن نواح متعددة من الحضارة الإسلامية : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، فإذا ما درس الباحث فى التعليم هذا النوع بشىء من الأناة والدقة فإنه يخرج منه بمحصولٍ وفير • ويمكن تقسيم هذه المؤلفات إلى المجموعات الآتية :

(أ) كتب الرحالة والجغرافيين من أمثال :

كتاب البلدان	:	لليعقوبى
البلدان	:	لابن الفقيه
أحسن التقاسيم	:	للمقدسى
المسالك والممالك	:	لابن حوقل
الرحلة	:	لابن جبير
معجم البلدان	:	لياقوت
تحفة النظار	:	لابن بطوطة

وقد حفلت هذه الكتب بالمفيد النافع ؛ ذلك لأن هؤلاء الرحالة قاموا بهذه الرحلات الطويلة عَبْرَ العالم الإسلامى ، وسجلوا عن كل مكان ما رأوا فيه ، وما سمعوا عنه من الثقات ، ومن ذلك وصف مسجد دمشق وذكر تكاليف تشييده ، وقد أخذت ذلك من كتاب « البلدان » . كما وجدت فى أحسن التقاسيم للمقدسى مادة نافعة عن ملابس المدرسين . ووجدت فى رحلة ابن جبير مادة غزيرة عن مجموعة من النقاط كالأوقاف على التعليم وكالمكتبات ووصف الحلقات الدراسية وغيرها .

(ب) كتب التراجم : يقول Von Grunebaum فى مقال نشره فى The Journal of General Education [1] « إن مجموعة كتب التراجم التى أنتجها المسلمون لشىء يدعو إلى الدهشة والإعجاب ؛ لكثرتها ، ودقتها ، وما جمعته من مادة رائعة ، وإن علماء الغرب فى العصور الوسطى ليس لديهم ما يقارَن بنتاج معاصريهم من العرب فى هذا الميدان » .

وفى الحقيقة إن مجموعة كتب التراجم لتَمثل جانباً غنياً فى الأدب العربى ، وهى بجانب كثرتها منظمة تنظيما دقيقاً ؛ فللأطباء تراجمهم الحافلة ، وللأدباء والأعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم وسِيَرُهم .

---

(١) العدد الرابع ص ٢٥ .

وهناك بجانب — هذا التوزيع العلمى — توزيع زمنى يرتبط بالقرون ، مثل :

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة .

والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع .

والكواكب السائرة فى تراجم علماء المائة العاشرة .

وخلاصة الأثر فى تراجم علماء القرن الحادى عشر .

وسلك الدرر فى ذكر أعيان القرن الثانى عشر . وهكذا .

ومن تراجم الأشخاص الذين عاشوا فى العهد الذى قمت بدراسته كنت أستخلص مادة ذات قيمة كبيرة انبثت فى أعطاف هذا البحث ، وعلى هذا فالقارىء سيرى فى أغلب الفصول إشارة إلى المراجع الآتية :

الأغانى	:	لأبى الفرج الأصفهانى
الفهرست	:	لابن النديم
طبقات الأدباء	:	للابيارى
تاريخ بغداد	:	للخطيب البغدادى
معجم الأدباء	:	لياقوت
وفيات الأعيان	:	لابن خلكان
فوات الوفيات	:	لابن شاكر الكتبى
الوافى بالوفيات	:	للصفدى (مخطوط بدار الكتب المصرية)
أخبار الحكماء	:	للقفطى
عيون الأنباء	:	لابن أبى أصيبعة
طبقات الشافعية	:	للسبكى
نفح الطيب	:	للمقرى
مناقب الشافعى وأصحابه	:	للسيوطى (مخطوط بدمشق)
أخبار النساء	:	للسيوطى (مخطوط بدمشق)

فالأغانى مثلا كان مصدراً أساسياً للفصل الذى عُقِدَ للحديث عن الصالونات الأدبية ، وكذلك عن تعليم البنت ، وفى الموضوع الأخير كانت مخطوطة السيوطى سالفة الذكر ذات فائدة كبرى . أما مؤلفات ياقوت ، وابن خلكان ، والقفطى ، وابن أبى أصيبعة ، فقد كانت مصادر هامة لنقاط متعددة : كالتدريس بالمساجد ، وملابس المدرسين ، وحالتهم المالية والاجتماعية ، وعدد تلاميذ الفصل الدراسى ، والرحلات للتعليم ، وجهود التلاميذ لتحصيل العلم ، وغيرها .

(جـ) — **كتب الحسبة :** فى كتب الحسبة دائماً فصل يُعْقَد للحديث عن « **الحسبة على المدرسين** » . ومن ذلك الفصل حصلت على مادة توضح مكان تعليم الصبيان القرآن ، ومسألة العقوبات التى كان ينزلها المدرسون بالتلاميذ . وعلى هذا فقد قرأت من كتب الحسبة :

نهاية الرتبة	:	للشيزرى
معالم القربة	:	للقرشى
الحسبة	:	لعبد الرازق الحصان

د — كتب أخرى يتعذر وضعها تحت عنوان واحد ، مثل :

العقد الفريد	:	لابن عبد ربه	
البيان والتبيين	:	للجاحظ	
التاج فى أخلاق الملوك	:	»	
الامتناع والمؤانسة	:	لأبى حيان التوحيدى	
المقابسات	:	» »	
الصداقة والصديق	:	» »	
القانون	:	لابن سينا	
جامع بيان العلم	:	لابن عبد البر	
رسوم دار الخلافة	:	للصابى	(مخطوط ببغداد)

أدب النديم : لكشاجم
إحياء علوم الدين : للغزالى
المدخل : للعبدرى
معيد النعم : للسبكى
المقدمة : لابن خلدون
الخطط : للمقريزى
حسن المحاضرة : للسيوطى
صبح الأعشى : للقلقشندى

ومن هذه الكتب حفلت الرسالة بمعلومات وفيرة ؛ فلقد اعتمدت إلى حد كبير على كتب أبى حيان التوحيدى عند كتابة الفصل الخاص بالدراسة فى منازل العلماء .

ومن كتاب الأحياء وكتاب « أيها الولد » أخذت رأى الغزالى فيما يتعلق بتربية الأطفال .

أما كتب الجاحظ فهى دوائر معارف ، حافلة بألوان من العلم والمعرفة فى نواح متعددة ، ومنها استقيت معلومات كثيرة عن المنهاج العلمى الذى وضع لأولاد الملوك ، وعن حالة المدرسين الاجتماعية ، وقيمة الكتب الأدبية ، وعن الآداب التى يجب أن يتحلى بها أولئك الذين يتاح لهم أن يحضروا الصالونات الأدبية .

وفى الحديث عن الصالونات الأدبية أسهم بنصيب وافر كل من كشاجم فى كتابه « أدب النديم » والصابى فى « رسوم دار الخلافة » .

أما الخطط وحسن المحاضرة فكانا مع ابن دقماق مراجع مهمة فى كل ما يتعلق بمدارس مصر .

٤ — كتب التاريخ : فى العرض التاريخى الذى استدعته هذه

الرسالة ، انتفعت انتفاعا كبيراً بكتب التاريخ ؛ سواء منها العام وهو ما دوّن تاريخ العالم الإسلامى كله ؛ كالطبرى ، وابن الأثير ، والعبر ، أو كتب التاريخ المحلية التى تحدث كل منها عن جزء معين من العالم الإسلامى ، كتاريخ آل سلجوق ، وتاريخ الأمم المنقطعة ، (مخطوط بالمتحف البريطانى) والروضتين ، ومفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، (مخطوط بمكتبة جامعة كمبردج) واتعاظ الحنفا ، وغيرها ، وينبغى أن أخص الروضتين لأبى شامة بكلمة ؛ إذ سبق هذا الكتابُ غيرَه من الكتب التاريخية فيما قدمه لهذه الرسالة من عون وإفادة ، وبخاصة فى توضيح النهضة التعليمية التى قام بها نور الدين زنكى فى مملكته قصيرة العمر ،

الكتب الحديثة عربية وغير عربية :

وقد أسهمت الكتب الحديثة بنصيب يذكر فى انتاج هذا الكتاب فقد كان كتاب Lammens عن :

Etudes sur le Régne du Calife Omaiyade Moaw'a Ier

مرشداً هاماً فى الفصل الذى عقدناه هنا لدراسة التعليم الأولى لأولاد العظماء •

ومن الفصول الأربعة التى عقدها Adam Mez فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » عن « العلماء ، وعلوم الدين ، والمذاهب الفقهية ، والقضاة » ، اقتبست مادة مفيدة جداً عن المكتبات ، وملابس المدرسين ، والتعليم الأولى لأولاد الخلفاء والعظماء بقصور أهليهم •

وكانت كتب Lane-Poole عن : Saladin - Cairo - Egypt in the Middle Ages ذات فائدة عظمى ، وبخاصة فى الكلام عن مجانية التعليم وعن الداخلية فى التعليم بمصر •

كما كان كتابا الأستاذ Gibb : Arabic Literature and Muhammadanism مفيدين كل الفائدة فى عدة نقط وبخاصة فى الصالونات الأدبية •

وهناك كتب أخرى حديثة غير هذه يجدر بنا ذكرها لما لها من عظيم الأثر فى هذا العمل وهى :

Ricbard Coke	:	Baghdad : The Cily of Peace.
Palmer	:	Harun al Rashid.
Nicholson	:	A Literary History of the Arabs.
Browne	:	A Literary History of Persia.
Khuda Bukhesh	:	Islamic Civil:zation.
Amir Ali	:	A Short History of the Saracens.
Barthold	:	Muslim Culture.
Stern	:	Marriage in Early Islam.
Hitti	·	The History of the Arabs.

كوركيس عواد	:	خزائن الكتب فى العراق
أحمد أمين	:	فجر الإسلام
أحمد أمين	:	ضحى الإسلام

الدوريات العلمية :

كما أن هناك كثيراً من المجلات العلمية الدورية أفادتنى فائدة جديرة بالذكر ، بما حوته من أبحاث قيمة ، ومن هذه الدوريات :

المشرق	Islamic Culture.
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية	Journal of Education.
مجلة الجامعة الإسلامية (حلب)	The Nineteenth Century

وسيجد القارىء إشارة لهذه المجلات ولغيرها هنا وهناك فى أعطاف هذا الكتاب .

العرض التاريخى أو تقرير المبادىء :

ويجدر بى أن أقرر أن طبيعة العمل فى بعض عناصر هذا الموضوع كانت تحتاج إلى أن تعرض عرضاً تاريخياً متطوراً ، كما كانت هنـاك

عناصر أخرى هي بالمبادىء أشبه ، فلا تحتاج إلى عرض تاريخي وإنما تحتاج إلى أن تُقَرَّر ويقام الدليل عليها .

ومن النوع الأول ما كان يحتاج إلى عرض منذ نشأته إلى نهاية الفترة التاريخية التي نتحدث عنها ، كالمساجد وكحالة المدرسين المالية ، ومنها ما كنت أتتبعه في تطوره التاريخي حتى يستقر في فترة ما فأتوقف عن مواصلة البحث فيه ، كملابس المدرسين التي تطورت من عهد إلى آخر حتى وضع الإمام أبو يوسف نظاماً لها ظل قدوة لمن جاء بعده ، وكالشهادات الدراسية .

ومن النوع الثاني العقوبات والجوائز والمكافآت ونقابة المدرسين ، فهذه وأمثالها بالمبادىء أشبه فلا تحتاج لعرض تاريخي وكل ما يُحتاج إليه في دراستها أن تُقرَّر وأن يورد من النصوص ما يدل على أنها وُجِدَتْ في معاهد التعليم .

* * *

وحينما كنت أسير في معالجة أي موضوع سيراً تاريخيا كنت أجد لزاماً عليَّ عندما أصل إلى القرن الرابع الهجري — أن أهتم بمصر اهتماماً خاصاً ، فقد كانت مصر منذ ذلك العهد مركزاً ثقافياً عظيم الأهمية في العالم الإسلامي . ومن ظواهر الاهتمام بمصر الفصل الأخير الذي وضع للحديث عن التعليم في العهد الفاطمي ، ثم من ظواهر هذا الاهتمام أيضاً العناية بالدولة الأيوبية التي قامت على أنقاض الفاطميين ، وورثت حضارتهم ، ثم تسلمت قيادة النهضة التي ابتدأها نظام الملك وورثها نور الدين عن السلاجقة وورثها عنه صلاح الدين . فاجتمعت في مصر في العهد الأيوبي حضارة الخلافة العباسية وحضارة الخلافة الفاطمية ، وتطلعت

عيون المسلمين إلى مصر ، فنجحت فى أداء رسالتها نجاحا عظيماً ، وبسقوط الأيوبيين فى مصر سنة ٦٤٨ استمر تيار الحياة العلمية يسير فى العهود التالية فى المجرى الذى انتظم له فى عهد الأيوبيين .

وإنى أرجو أن يملأ هذا الكتاب فراغا فى المكتبة الإسلامية ، وأن يقدم لعشاق التراث الإسلامى زاداً جديراً بما بُذِل فى إعداده من جهد وصبر ، والله أسأل أن يحقق به النفع لكاتبه وقارئه ، إنه سميع مجيب .

كمبردج فى أبريل سنة ١٩٥١ .

أحمد شلبى

مقدمة الترجمة العربية

قابلت كثيراً من العلماء والمشتغلين بالدراسات الإسلامية فى أثناء زياراتى للدول العربية وبعض أقطار أوروبا ، وكان جلتهم يشجعوننى ويبذلون لى كثيراً من المساعدات والتيسير ، ويبْدون أملهم أن يظهر للوجود موضوع التربية الإسلامية فى أقرب فرصة .

وكان كلُّ يوم يمر إبَّان دراستى لذلك الموضوع يزيدنى تعلقاً به وحباً له ، فما كدت أنتهى منه حتى كان قد أصبح قطعة من نفسى ، ولقد سررت كثيرا بالنتائج التى حصلتُ عليها ، والتى أوضحتْ مدى الرقى الذى وصلت إليه التربية الإسلامية فى تلك العصور .

وكان أستاذى Professor A. J. Arberry يبدى رغبة شديدة أن ينشر هذا البحث سريعاً ، وقد تفضل فكتب تقريره وتوصيته بطبعه ونشره ، توصية رقيقة ، تنمُّ عن خلقه الكريم ، وعنايته بتلاميذه ، فى أثناء عملهم معه ، وبعد أن يستقلوا عنه ، وقد أوردنا فى مطلع هذا الكتاب صورة زنكوغرافية لهذه التوصية .

ولما حصلت على الدكتوراه ، أدركت أن عملى لم ينته بعد ، فبدأت أفكر فى نشر هذا البحث باللغة الإنجليزية وباللغة العربية وبغيرهما إن أمكن ، وسرعان ما تحقق لى هذا الأمل فنشرته باللغة الإنجليزية ليتمكن المستشرقون والمسلمون الذين يتكلمون الإنجليزية من الاطلاع عليه ، بل سرعان ما تُرْجم للغة الأوردية والفارسية والإندونيسية وحظى بحفاوة بالغة من قرائه هنا وهناك .

وبقى علىَّ أن أخرجه باللغة العربية لأقدمه للناطقين بالضاد ، فعكفت على ترجمته ، وكان من الممكن أن يكون عملى سهلاً يسيراً لو قمت بالترجمة من الأصل الإنجليزى إلى اللغة العربية ، ولكنى عدت إلى بطاقاتى وأوراقى وإلى الكتب نفسها التى اقتبست منها ، لأحصل على المادة الأصلية من

المراجع الأساسية ، ولأنقل للقارىء لغـة المؤلفين العرب من مراجعهـا المختلفة كلما استشهدت بها •

وعندما كنت أكتب رسالتى باللغة الإنجليزية ، كان علىّ أن أوجز ، إذ يحتم القانون بجامعة كمبردج ألا تتجاوز رسالة الدكتوراه فى التاريخ والأدب ستين ألف كلمة ، ولكننى وأنا بصدد ترجمتها للغة العربية كنت فى حلٍّ من ذلك الشرط ، ولهذا فقد فصّلت فى الترجمة العربية ما أجملت أحيانا فى الأصل الإنجليزى ، وشرحت هنا ما أوجزت هناك •

وفى الترجمة العربية — بجانب ذلك — معلومات جديدة استطعت أن أحصل عليها من متابعة الدراسات الحديثة ومن استمرار القـراءة فى الكتب الأصلية ، وقد كان حظ الترجمة العربية فى ذلك أوفر من الأصل الإنجليزى إذ كانت الفترة بين نشر الأصل الإنجليزى ونشر الترجمـة العربية خصبة فى هذا الشأن ، وقد استدعى ذلك تغييرَ بعض الفصول تغييراً تاماً كموضـوع نقابة المدرسين ، كما استدعى إحـداث كثير من الحذف والإضافة فى كثير من الفصول الأخرى •

وختمته بفهارس شاملة تعين القارىء على تتبع ما قد يحتاج إليه ، وإنى إذ أقدم للقارىء ثمرة جهدى المتواضع أرجو أن أكون قد وُفّقت فى أن أقدم للمسلمين وللمشتغلين بالدراسات الإسلامية ولأبناء اللغة العربية شيئاً فيه جدوى وغناء •

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٥٣ •

دكتور أحمد شلبى

الباب الأول

أمكنة التعليم



يعتبر عام ٤٥٩ هـ حداً فاصلا فيما يختص بأمكنة التعليم عند المسلمين ؛ ففي هذا العام افتُتِحَت في بغداد أولُ مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة المنظمة التي أنشأها الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك ، وقد انتشرت هذه المدارس في العالم الاسلامي حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة ، بالإضافة إلى المدارس الكبرى في عواصم الأقاليم ، ثم اقْتَدَى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء في ذلك المضمار على ما سيأتي تفصيله •

وقبل انتشار المدارس كانت حلقات التعليم لا تُعْقَد في أمكنة من طراز واحد ، بل تُعْقَدُ في أمكنة مختلفة المشارب ، كالمساجد ، ومنازل العلماء ، ودكاكين بيع الكتب ، وغيرها ، فلما انتشرت المدارس وهُيِّئَتْ فيها فرص أوسع للمدرسين والطلاب ، ووُجِدَتْ فيها نظم مهذبة ، واستعدادات كاملة ، جَذَبَت لها جِلَّةَ الأساتذة والجمهرة العظمى من الطلاب • وبذلك قلَّ الإقبال على الأنواع الأخرى التي كانت عامرة من قبل ، وإن ظلت محتفظة بطابعها ، واستمرت تؤدي عملها التقليدي مع قلتها وقلة المقبلين عليها •

وعلى هذا ففي دراستنا لأمكنة التعليم سندرس نوعين :

١ — أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس •

٢ — المدارس •

ولن نقف بطبيعة الحالَ في دراستنا لأمكنة التعليمُ قبل انتشار المدارس عند سنة ٤٥٩ ، بل سنتخطى ذلك لأن هذه الأمكنة — كما قلنا آنفاً — استمرت تؤدي مهمتها بعد إنشاء المدارس وانتشارها •

أولا — أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس

إن أمكنة التعليم قبل إنشاء المدارس كانت كما يلى :

١ — الكُتّاب لتعليم القراءة والكتابة .
٢ — الكُتّاب لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامى .
٣ — التعليم الأولى بالقصور .
٤ — حوانيت الوراقين .
٥ — منازل العلماء .
٦ — الصالونات الأدبية .
٧ — البادية .
٨ — المسجد .

وسنتكلم عن كلٍّ من هذه الأمكنة مبرزين منهاجَ الدراسة بكلٍّ منها ، والدور الذى قامت به لخدمة الفكر والثقافة ، ثم نتكلم بعد ذلك عن المدارس .

ا ـ الكتّاب لتعليم القراءة والكتابة

وُجِدَ هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ، ولو أنه آنذاك كان قليل الانتشار ، ويقال إن أول من تعلم الكتابة العربية من أهل مكة هو سفيان ابن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب ، وقد تعلماها من بشر بن عبد الملك الذى تعلمها من الحيرة [١] . ويَروِى ابن خلدون [٢] « أن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان ابن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة » والخطُّ من الصنائع الحضرية كما يقول ابن خلدون [٣] ، وقد تعلمه هؤلاء المكيون من البلاد المتحضرة التى كانوا يرحلون إليها فى تجارتهم ، ولكن أول شخص اتخذ تعليم الخط مهنة له فى جزيرة العرب هو رجل من وادى القرى أقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها [٤] .

وبهذا بدأت القراءة والكتابة تنتشر فى جزيرة العرب ، ولكن انتشارها كان بطيئاً ، إذ أنه لما جاء الإسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط [٥] ولكن الدين الجديد والنظام السياسى الذى نشأ فى أحضانه شجعا الناس على تعلم القراءة والكتابة ، إذ أصبحتا ضروريتين وبخاصة لذوى الطموح وكبار الآمال الذين كانوا يطمعون أن يشغلوا المناصب اللازمة للعهد الجديد ، ثم كانت القراءة والكتابة ضروريتين لكتّاب الوحى ،وكذلك للذين رغبوا فى أن يكونوا رواة لأحاديث الرسـول ، إذ اعتُبر المكفوفون من المحدّثين غير ثقـات ، لعدم استطاعتهم القراءة والكتابة اللتين تعينان على الضبط والدقة [٦] ولما تقدم العهد بالإسلام وتُرجمت الدواوين إلى اللغة العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ظهرت وظائف كثيرة ولكن لهؤلاء الذين

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٧ . (٢) المقدمة ص ٢٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ . (٤) البلاذرى ص ٤٥٧ .
(٥) المصدر نفسه . (٦) النووى : تهذيب الأسماء ص ٧٦ .

يجيدون القراءة والكتابة ، ثم ظهر بعد ذلك الجاحظ وهو فى القمة من الأدباء الكبار الذين رفعوا شأن القراءة والكتابة وأعلَوْا قدرهما . استمع إليه وهو يقول فى رسالة المعلمين [1] « ولولا الكتاب (الكتابة) لاختلَّتْ أخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين ، فاللسانُ للشاهد لك ، والقلمُ للغائب عنك ، وللماضى قبلك ، والغابرِ بعدك . فصار نفعُه أعمَّ والدواوينُ إليه أفقر ، والملكُ المقيمُ بالواسطة لا يدرك مصالحَ أطرافه ، وسدَّ ثغورِه ، وتقويمَ سُكَّان مملكته إلا بالكِتَاب ، ولولا الكتاب لما تمَّ تَدبيرٌ ولا استقامت الأمور ، وقد رأينا عمِدَ صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل فى نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب » .

كل هذا جعل الناس يتجهون نحو تعلُّم القراءة والكتابة ، وقد بدأ ذلك منذ مطلع الإسلام وكلما تقدم بهم الزمن جدَّ دافع جديد يحسِّن لهم إجادة هذا الفن بل الإبداعَ فيه .

ولما كان عدد المسلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلا فى صدر الإسلام فقد استخدمهم الرسول كلَّهم أو جُلَّهم للكتابة بين يديه [2] ، ومن ثم اضطلع الذميون بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين فى تعلمها . وفى غزوة بدر وقع كثير من أهل مكة فى الأَسْر وقد جعل الرسول للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة عدداً من أبناء المسلمين [3] ومن أجل هذا أصبح من الشائع المتعارَف عليه أن يقوم غير المسلمين بمهنة تعليم القراءة والكتابة [4] .

وكان هذا النوع من التعليم يجرى فى منازل المعلمين وربما خَصص هؤلاء حجرةً فى بيوتهم لاستقبال الطلاب ، وقد حافظ الكُتَّاب من هذا النوع فى الكثير الغالب على استقلاله التام عن الكُتَّاب الآخَر الذى

---

(١) مخطوط ورقة ٨ ب .
(٢) انظر البلاذرى ١٤٧ ، ٤٥٩ .
(٣) الكامل للمبرد طبعة Weight ص ١٧١ .
(٤) . Lammens p. 361 انظر البلاذرى فى المواضع السابقة وانظر كذلك :

سنتحدث عنه فيما بعد والذى كان يجرى به تعليمُ القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى • وكثير من الباحثين لم يفرّقوا بين نوعَىْ الكُتّاب هذين ، وقرروا أنه كان هناك نوع واحد من الكتاتيب تُعلم فيه القراءة والكتابة ويُحفظ فيه القرآن وتدرس به علوم الدين • ومن هؤلاء الباحثين الدكتور فيليب حتى الذى يقول [1] :

« وكان منهاج المدرسة الأولية (الكتّاب) يتركّزُ فى القرآن الذى كان يقوم مقام كتابٍ للمطالعة ليتعلم التلاميذ القراءة ، ثم يَختارون منه ما يكتبون ليتعلموا الكتابة ، ومع القراءة والكتابة كان التلاميذ يتعلمون قواعد اللغة العربية ، وقصص الأنبياء ، وبخاصة أحاديثُ الرسول محمد » •

وقد قرر الأستاذ أحمد أمين هذه النتيجة أيضاً إذ يقول [2] « وبعض المكاتب كان لتعلّم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن وبعضها كان يُعلّم فيه أيضاً اللغة وما إليها » •

ولكن النصوص التى حصلتُ عليها تجعلنى أعتقد أن هذا النوع من الكتاتيب حافظ غالباً على استقلاله عن الكتّاب الآخر ، وبخاصة فى بلاد المشرق ، وأنا أسوق على هذا من الأدلة ما يَدْعَم هذا الرأى ، وهذه الأدلة كما سيرى القارىء متسلسلة فى عصور مختلفة مما يدل على أن فكرة الفصل بين الكتّابين عاشت حِقباً طويلة :

١ — وأول هذه الأدلة يتعلق بالعصر الإسلامى الأول وقد سبقت الإشارة إليه وهو أن تعليم القراءة والكتابة كان من أعمال الذميين وأسرى بدر ، وليس لهؤلاء بطبيعة الحال أيةُ صلةٍ بالقرآن الكريم ولا بالدين الإسلامى ، وقد تلت هذه الفترةَ حقبةٌ أخرى كان المتعارف عليه فيها

---

(١) History of the Arabs, p. 408.

(٢) ضحى الاسلام ٢ : ٥٠ .

أن هذا العمل هو من أعمال غير المسلمين ، أما مَنْ تعلم القراءة والكتابة من المسلمين فقد كان لا يجنس مجلس معلم القراءة والكتابة ، إذ كانت هناك مهامّ أخطر تنتظره على ما سبق إيراده .

٢ — وأكثر صراحة من هذا ما يسجله العالم الأندلسى أبو بكر ابن العربى (٥٤٢ هـ) فى ذلك الموضوع حيث يقول « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فإذا حذقه كله أو حذق منه ما قدّر له ، خرج إلى المقرىء فلقّنه كِتَابَ الله ، فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزبا [1] .

٣ — ثم يجىء ما شاهده الرحالة العظيم ابن جبير (٦١٤ هـ) وسجله فى الرحلة [2] ونصّه « وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلّمون الخط فى الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو ، وقد يكون فى أكثر البلاد الملقّن على حدة ، والمكتّب على حدة . فينفصل من التلقين إلى التكتيب . لهم فى ذلك سيرة حسنة . ولذلك يأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده فى التعليم ، والصبىّ فى التعلم كذلك » .

٤ — ومثل هذا ما سجله ابن بطوطة [3] (٧٧٩ هـ) إذ يقول : ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتابة الأشعار وسواها ، ولا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيهاً له ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره .

٥ — ويقول ابن خلدون [4] (٨٠٨ هـ) « ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون خاص ومعلمون له على انفراد ، كما تُتعلّم سائر الصنائع ،

---

(١) أحكام القرآن ح ٢ : ص ٢٩١ . (٢) ص ٢٧٢ .
(٣) تحفة النظار ١ : ٢١٣ . (٤) المقدمة ٣٩٨ .

ولا يتداولونه فى مكاتب الصبيان المخصصة لتعليم القرآن ، وإذا كتبوا لهم القرآن فى الألواح فبخط قاصر عن الإجادة ، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يَسْنَح له بعد ذلك من الهمة فى طلبه ويبتغيه من أهل صنعته .

وعلى هذا فقد كان هذا النوع من الكتاتيب اسبق أنواع المعاهد التعليمية وُجوداً فى العالم الإسلامى ، وقد اشتق اسم هذا المعهد (الكُتَّاب) من التكتيب وتعليم الكتابة ، وهى المهمة التى اضطلع بها ، ويؤيد ذلك ما ورد فى اللسان [1] من أن « الكُتَّاب موضع تعليم الكِتَاب » أى الكتابة وهذا أيضاً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الكُتَّاب وُجِدَ مرتبطا فى الغالب بتعليم الكتابة والقراءة ولا شىء سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فى هذا الكُتَّاب وهم الذين يتعلمون فى المعهد الآخر الذى كان مخصصاً لتعليم القرآن والدين فقد كان ذلك سبباً فى أن أطلق اسم الكُتَّاب على المعهد الثانى أيضاً ، ثم شاع هذا الإطلاق وأصبح اسم الكتاب يطلق على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أياً كان الموضوع الذى يتعلمونه قرآناً كان أو قراءة وكتابة . ومن هنا خالف المبردُ صاحبَ اللسان وعرفَ الكُتَّاب بأنه « موضع التعليم بوجه عام » [2] غير أن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن المعهدين التقيا وأصبحا معهداً واحداً .

---

(١) لسان العرب ح ٢ : ص ١٩٣ .
(٢) المبرد جـ ٢ : ص ١٩٣ .

٢ ـ الكُتَّاب لتعليم القرآن ومبادىء الدين الإسلامى

كتب Goldziher مقالا مهماً فى دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين ، وقد حاول فيه أن يثبت أن كُتَّاب تعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامى قد أنشىء فى عهد مبكر ، وأنه يرجع إلى صدر الاسلام ، وقد دَعَمَ رأيه بالأسانيد الآتية :

١ ـ أرسلت أم سلمة « إحدى زوجات الرسول صلوات الله عليه مرةً إلى معلم كتّاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتّابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله .

٢ ـ كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التى تقى الإنسانَ شرَّ العَيْنِ ، وقد أسندها إلى سعد بن أبى وقاص الذى كان يعلّمها أولادهَ ويكتبها لهم ، قائلا : إنى أفعل ذلك كما يفعل المدرس مع تلاميذه .

٣ ـ مرَّ ابن عمر وأبو أسيد فى مناسبة ما بكتّاب فلفتا إليهما أنظار التلاميذ .

٤ ـ كان اللوح المخصص للكتابة موجوداً فى وقت مبكر جداً ؛ فلقد رُوِى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات فى الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة [1] .

ذلك مجمل ما أدلى به الباحث Goldziher من براهين ، و Goldziher لم يميز بين نوعى الكُتّاب ، ومن أجل هذا اتخذ أية إشارة إلى اللوح أو الكُتّاب كأنها دليل على أن كتّاب تَعليم القرآن قد ظهر للوجود فى وقت مبكر ، ولكنى أعتقد أن هذا المعهد نشأ فى عهـد متأخر نوعاً ما . وأن المقصود من الكتّاب فى العبارات التى أوردها Goldziher إنما هو كتّاب

(1) Encyclopeadia of Religions & Ethics vol. v p. 199.

تعليم القراءة والكتابة ، وقد ظهر هذا بشكل واضح فى الدليل الثانى والرابع اللذين نصّ فيها على تعليم الكتابة وعلى التدريب عليها باستعمال صيغة الرقية أو عبارات الحكمة .

والذى دعانى إلى الاعتقاد أن الكتاب الذى نتحدث عنه الآن لم يظهر فى وقت مبكر ، أن منهجه مبنىٌ على القرآن ، مما يجعل وجوده متوقفا على وجود حَفَظَةٍ للقرآن الكريم ، وهذا يدعونا إلى أن نُبرزَ حقيقة مهمة وهى أن حِفظَ شخص للقرآن فى العهد الاسلامى المبكر كان نادراً جداً ، يقول ابن العربى [1] : « ومنهم (من المتعلمين) وهو الأكثر من يؤخِّر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله ، فربما كان إماما وهو لا يحفظه ، وما رأيت بعينى إماماً يحفظ القرآن ، ولا رأيت فقيهاً يحفظه إلا اثنين » وقد تباطأ المسلمون فى حفظ القرآن ، لأن القرآن رسم لهم ذلك فى الآية الكريمة « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته » [2] إذ فهموا نه لم يكن المقصود الحفظ وإنما التدبر والتفكير والعمل بهدى القرآن ، يروى السيوطى [3] « أن الرجل من الصحابة كان يحفظ من القرآن عشر آيات ثم لا يتجاوزها حتى يفهم معناها ويؤدى ما طلب فيها » وعلى هذا أمضى ابن عمر ثمانى سنوات فى حفظ سورة البقرة وأخرج ابن اشته فى المصاحف بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال مات أبو بكر ولم يجمع القرآن ، وقتل عمر ولم يجمع القرآن ، قال ابن اشته قال بعضهم يعنى لم يَقْرَأ جميع القرآن حفظاً [4] وروى ابن حنبل فى مسنده [5] أنه « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . يعنى عظُم » .

وأولئك الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانت تنتظرهم أعمال

---

(١) احكام القرآن ٢ : ٢٩١ .

(٢) سورة ٣٨ الآية ٢٧ .

(٣) الاتقان فى علوم القرآن ٢ : ٢٠٨ .

(٤) الاتقان فى علوم القرآن ٢ : ٢٠٨ .

(٥) ج ٣ ص ١٢٠ .

أعظم ومهام أضخم من تعليم الأطفال ، يقول ابن خلدون [١] « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالته ، بما تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من السابقين ، وكانوا يسمون لذلك القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ ، وبقى الأمر كذلك زمناً ، ثم عظمت أمصار الإسلام ، وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه ، وأصبح صناعة وعلماً ، فأخذوا اسم الفقهاء والعلماء بدل القراء » .

متى ظهر هذا الكتاب ؟

والنتيجة التى نقررها بناء على ذلك هى أن الكتّاب من هذا النوع لم يظهر خلال العهد المبكر للاسلام ، بل كانت قلة من الأطفال يتعلمون عن طريق الاندساس بين الكبار فى حلقات المساجد ، كما كان يفعل على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، أما جمهرة الأطفال فكانوا يتلقون القرآن عن آبائهم وذويهم ، أو عن معلمين خصوصيين ، ومن هنا يمكن تفسير ظاهرة هامة ، هى أن النصائح التى كانت تتصل بتعليم الأطفال كانت توجه لا إلى معلمى الكتاتيب كما حدث فيما بعد ، بل إلى الآباء والمدرسين الخصوصيين كما سيظهر من النصائح التى حددت منهاج التعليم لهؤلاء الأطفال والتى وجهها ولاة الأمور للآباء والمؤدبين ، وسنورد فيما بعد نماذج منها .

وإذا كان الكتّاب من هذا النوع لم يظهر فى العهد الاسلامى المبكر فمتى ظهر ؟ لقد حاولت فى دراستى أن أحدد تاريخاً تقريبياً لنشأة هذا المعهد ، وانتهيت فى محاولاتى إلى أن هذا الكتّاب كمعهد عام كان تطوراً لتعليم

---

(١) المقدمة ص ٣١٣ .

أولاد الملوك وأبناء العظماء فى قصور ذويهم ، وتطوراً لتعليم الأولاد بمعرفة أهليهم ، ومما يدل على ذلك أن الرسول صلوات الله عليه وجَّه نصحه ، لا إلى المعلمين إذ لم تكن المعاهد قد ظهرت ، بل إلى الآباء ، قال عليه السلام : **ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن** . وقال : لأن يؤدب الرجل ولده خير من الصدقة يتصدق بها ، ومما يدل على ذلك أيضا ما سنورده فيما بعد من أن عمر كان يوصى **الآباء** بتعليم أبنائهم كذا وكذا من العلوم ، فلما أنشىء الكتاب كانت الوصايا تتجه **للمعلمين** ، ويبدو أن الحجاج بن يوسف كان يمثل مرحلة الانتقال من معلمى أولاد الملوك إلى معلم عام ، والذى يدعو إلى هذا الاعتقاد أن اسم الحجاج كمعلم لم يرد — فيما أعرف — مرتبطاً بكلمة كتَّاب ، وإنما بكلمة صبيان ، فيقال له فى جميع المراجع « معلم صبيان » ومن هنا تنشأ فكرة أن الكتَّاب من هذا النوع لم يكن قد وُجد فى ذلك الوقت ، أما صلة الحجاج بتعليم الصبيان فيحددها القزوينى [1] بقوله : « إن الحجاج كان فى أول أمره معلماً لوشاقية سليمان ابن نعيم ، وزير عبد الملك بن مروان ، فاختاره سليمان ليعمل فى بلاط عبد الملك حيث ترقى فيه . . . » (كلمة وشاقية كلمة فارسية ومعناها الأولاد والأتباع) .

ومن ذلك يفهم أن الحجاج كان مؤدباً إلا أنه خطا خطوة جديدة فلم يعد مؤدباً لأولاد الخاصة فقط ، ولكن لأتباعهم أيضاً ، ولم يكن مؤدباً لأمير أو أميرين كما كان العهد بالمؤدبين ، وإنما أصبح معلماً لعدد من الأولاد والأتباع ، ولكن المسألة لم تصل إلى حد تكوين الكتَّاب ، وبهذا نستطيع التوفيق بين الروايات والظروف المختلفة لهذه المسألة [2] . وهناك

---

(١) اخبار البلاد وآثار العباد ص ٦٥ .

(٢) ليس من المسلم به ما ذكره ابن خلكان (١ : ١٧٣) من ان الحجاج وأباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف ، وقد اورد ابن نباته ما يوحى بالتشكيك فى رواية ابن خلكان ، قال فى سرح العيون (١٠٢ — ١٠٤) :

وزعم بعض الرواة ان الحجاج كان اول امره معلم صبيان ويسمى كليباً وفيه يقول الشاعر :

شيء آخر يدعم الاتجاه الذي يميل إليه ، وهو ما ورد عن كتاب أبي القاسم البلخي [1] من أنه كان يتعلم به ٣٠٠٠ تلميذ ومثل هذا العدد الضخم يوحي بأن هذا النوع من الكتاتيب كان — في نهاية القرن الأول ومطلع الثاني — حديث الوجود وقليل الانتشار ، مما دعا إلى أن يؤمه جمهرة عظيمة من التلاميذ .

مدى العلاقة بين هذا الكتاب والمسجد :

أما عن المكان الذي كان يوجد به الكتاب من هذا النوع ، فقد وردت توصيات كثيرة بألا يكون في المسجد ؛ ومن ذلك ما قاله الإمام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز ، لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة [2] » .

= اينسى كليب زمان الهزال   وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر   وآخر كالقمر الأزهر

وعلق ابن نباتة على ذلك بقوله : وبعض الرواه ينكر هذا القول ويقول ان هذه من اكاذيب الشعراء .

ويروى ابن نباتة كذلك أن يوسف بن ابى عقيل الثقفى والد الحجاج كان رجلا نبيلا ، جليل القدر ويستدل على ذلك بأنه لما هم بالخروج لعبد الملك ومعه الحجاج ، اقبل سليم بن عمرو القاضى ، وكان من اكثر الناس ورعا ، فقام اليه يوسف فسلم عليه ، وقال له : انى اريد أن آتى امير المؤمنين فان كان لك حاجة فاعلمنى ... ولما انصرف القاضى قال الحجاج لأبيه : من هذا الذى قمت اليه ؟ فقال : يا بنى هذا سليم بن عمرو القاضى . فقال الحجاج : يغفر الله لك يا ابت ، انت ابن ابى عقيل تقوم الى رجل من كندة ؟

فرجل هكذا مكانته من عبد الملك ومكانته فى اهله لا يعقل ان يكون رزقه من الرغفان التى ترد مختلفة الاحجام والاشكال من بيوت الناس ؟ هذا الى أن تسمية الحجاج كليبا ليست من المسلم بها ايضا . وقد شكك فى ذلك ابن نباتة كما سبق .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٧٢ .

(٢) التعليم عند القابسى ٦٧ ب (مخطوط) .

وقد ورد فى كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصّت على أنه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسوّدون حيطانها ، ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتّخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق » [١] .

وأضاف الحصان [٢] قوله « ويمْنَع المعلمون من التعليم فى المساجد » .

ولكن على الرغم من كل هذا التحذير اتخذ المعلمون لهم زوايا بالمساجد ، وغرفاً ملتصقة بها لتعليم الأطفال ، مهملين لسبب أو لغيره هذه التوصيات الواضحة . والذى يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، يجد ذكراً لكثير من الحلقات التى التفت فيها الأطفال فى المسجد حول معلم يعلمهم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل [٣] أمثلة أخرى لهذا النوع .

وبجانب الكتاتيب التى اتّخذت بالمسجد أو التصقت به نجد كتاتيب أخرى قامت مستقلة عن المسجد تمام الاستقلال يحدثنا الإمام الشافعى عن أحدها فيقول : كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتّاب . . . فلما ختمت القرآن دخلت المسجد [٤] .

وهناك كتّاب مهم سبقت الإشارة إليه ، وهو كتّاب أبى القاسم البلخى ، وكان يتعلم به ٣٠٠٠ تلميذ ، وتدل رواية ياقوت [٥] على أن هذا

---

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، القرشى : معالم القربة ص ١٧٠ وانظر أيضاً ابن عبدون محمد التجيبى
Journal Asiatique, Tome cc XXIV of 1934

(٢) الحسبة ص ١٢٤ .

(٣) كتاب صورة الأرض ١٢١ ، ١٢٧ .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ ، ٩٨ .

(٥) معجم الأدباء ٤ ، ٢٧٢ .

الكتّاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحاً جداً ليتسع لهذا العدد الكبير ، أو قل شغل أكثر من مكان ، ولهذا كان يحتاج البلخى أن يركب حماراً ليتردّد بين تلاميذه هنا وهناك ، وليشرف على جميع تلاميذه .

وكان هناك بلخى آخر اسمه أحمد بن سهل (٣٢٢ هـ) وكان فاضلا قائماً بجميع العلوم القديمة والحديثة يسلك فى مصنفاته طريقة الفلاسفة إلا أنه بأهل الأدب أشبه ، وكان معلماً للصبيان ثم رفعه العلم إلى مرتبة عليّة [١] ... وإزداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى وما تلاه من قرون ، وكانت الزيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتّاب ، بل ربما وجد فيها أكثر من كتّاب ، وقد ذكر ابن حوقل [٢] أنه عدّ حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية [٣] .

المنهج الدراسى لتعليم الأطفال قبل إنشاء هذا الكتّاب :

أما المنهاج المبكر الذى وُضع لتعليم الأطفال قبل هذا الكتّاب فقد كتبه عمر بن الخطاب وبعث به الى ساكنى الأمصار وهو : أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر [٤] وكان ابن التوأم يقول : من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب والحساب والسباحة [٥] .

---

(١) المرجع السابق ١ : ١٤١ — ١٥٢ .

(٢) كتاب صورة الأرض ١ ، ١٢٦ .

(٣) واضح ان هؤلاء المعلمين كانوا يعلمون فى اقل من ٣٠٠ كتاب ، فقد ذكر ابن حوقل نفسه ص ١٢٩ انه رأى كتاباً واحداً يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ومن المحتمل ان يكون ذلك متكرراً فى كتاتيب اخرى ! وعلى هذا فيجب أن يصحح ما ذكره Earnst Diez فى مقاله بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان (مسجد) من أن ابن حوقل عد فى بلرم ٣٠٠ كتاب .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٩٢ .

(٥) المصدر السابق .

الكتاتيب والتحذير من التفاصيل فى قواعد اللغة العربية :

ولما أنشئت الكتاتيب وتولى حفظة القرآن العمل بها ، أصبح القرآن الكريم نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة الابتدائية ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوصى الغزالى بأن يتعلم الطفل فى المكتب القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، ثم الشعر على أن يُحَفَّظ الطفل من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله [١] . ويضيف ابن مسكويه [٢] مبادىء الحساب ، وقليلا من قواعد اللغة العربية ، ويضع الجاحظ [٣] منهاجاً مفصلا يحذِّر فيه من الإكثار من النحو والصرف ويحثُّ على قراءة التاريخ والأدب وهاك ما قاله : « **ولا تشغل قلب الصبى بالنحو إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام ، فى كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشىء إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به** ، كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع ، ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلِّم كتابة الإنشاء بلفظ سهل وعبارة حلوة ، ويحذر التكلف ، ويحثه — فى قراءة كتب البلغاء — أن يستفيد المعانى لا الألفاظ » .

هفوة باحث وردّها :

ولا يمكن أن نوافق على ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية [٤] من أن « **الأدب كان الموضوع الرئيسى الذى يعلم للأطفال مما دعا إلى أن تسمى الكتاتيب مجالس الأدب » وقد ذكر كاتب المقال Earnst Diez أن مرجعه فى هذا الاقتباس هو لأغانى ١٨ : ١٠١ ، وقد رجعت الى الأغانى فوجدت ما ورد به لا يعنى هذا من قريب أو من بعيد ؛ فكل ما ورد فيه هو**

---

(١) الغزالى : الاحياء ٣ : ٥٧ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .
(٣) رسالة المعلمين مخطوط ورقة ١٣ ، ١٤ .
(٤) Encyclopaedia of Islam, v3 p. 360.

حديث الحسن بن عبد الله بن جبلة الذى يقول فيه : كان لجدى أولاد ، وكان علىّ أصغرهم ، وكان الشيخ يَرِقُّ عليه ، فجُدِرَ ، فذهبت إحدى عينيه فى الجدرى ، فأُسلِم فى الكتّاب ، فحذِق بعض ما يحذقه الصبيان ، فحمل على دابة ، ونثر عليه اللوز ، فوقعت على عينه الصحيحة لوزةٌ ، فذهبت ، فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرازق من السلطان ، فإن أعنتمونى على هذا الصبى ، وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه ، فقلنا : وما تريد ؟ قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب » فمجالس الأدب انضم إليها على بن جبلة بعد أن أتم دراسته بالكتاب بتفوق ، فهى مرحلة أخرى غير مرحلة الكتاب .

اختلافات من منطقة إلى أخرى :

وما ذكرناه هنا عن منهاج تعليم الأطفال ، هو المنهاج العام ، ولكن اختلافاً جزئياً كان يحدث تبعاً لاختلاف الأمكنة ، وللعناية ببعض العلوم وتقديمها على البعض الآخر ، وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى فصل عقده بالمقدمة [1] وعنوانه « تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه » ويمكن تلخيصه فيما يلى : تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان ؛ فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، مع العناية برسمه ، واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواه فى مجالس تعليمهم ، لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب (الكتابة) معا وهذا الذى يراعونه فى التعليم ، فلا يقتصرون على القرآن ، بل يخلطون

---

(١) ص ٣٩٧ — ٣٩٩ .

فى تعليمهم للولدان رواية الشعر ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وتجويد الخط ، ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها .

وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم (أى العلوم الدينية) ، وتلقين بعض مسائلها ، إلا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر ، وعنايتهم بالخط تبع ذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك .

هذا وقد كان المعلمون يَعْنَوْن عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور [1] .

ونختم هذا البحث بأن نذكر أسماء بعض المعلمين الموهوبين الذين بدءوا حياتهم معلمين للأطفال . ثم خطت بهم مواهبهم فأصبحوا لامعين فى المجتمع الإسلامى ، وانتقلوا إلى مكانة جديدة ضمنت لأسمائهم الخلود وهم :

الضحاك بن مزاحم	١٠٥ هـ
الكميت بن زيد	١٢٦ هـ
عبد الحميد الكاتب	١٣٢ هـ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ : ص ٩٢ .

٢ — التعليم الأولى بالقصور

كان من الجلى الواضح عند المسلمين منذ العصور الأولى أن تتلون مناهج التعليم تبعاً لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام [١] . وفى ضوء هذه الفكرة وُجد نوع من التعليم الابتدائى بقصور الخلفاء والعظماء ، يجد أبناءُ هؤلاء فيه ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التى سينهضون بها فى المستقبل . فهذا النوع من التعليم مرتبط بالنوع الذى سبقه ، إذ أن كلا منهما مهمته تغذية الصبيان بنوع من الثقافة وقسط من المعرفة ، ولكن التعليم الأولى بالقصور ينبسط ويجاوز هذا الحد ، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأب فى وضعه ليكون ملائماً لابنه ، والمعلم هنا لا يسمى معلم صبيان أو معلم كتاب ، وإنما يطلق عليه لفظ « مؤدب » وقد « اشتق اسم المؤدب من الأدب ، والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك إذ كانوا يتولون الناحيتين جميعاً [٢] ثم إن المتعلم هنا يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد الصبى ، وينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب ، إلى مستوى الطالب فى حلقات المساجد أو المدارس .

ويمتاز هذا التعليم بلون آخر ذى أهمية كبرى ؛ ذلك هو أن المؤدب كثيراً ما يخصص له جناح فى القصر يعيش فيه ، ليكون إشرافه على الأمير أحكم وأشمل ، قال أحمد بن يحيى أبو العباس ثعلب : أقعدنى محمد بن عبد الله بن طاهر مع ابنه طاهر ، وأفرد لى داراً فى داره ، وأقام لنا وظيفة ، فكنت أقعد معه إلى أربع ساعات من النهار ، ثم أنصرف إذا أراد الغَداء ، فنُقِلَ ذلك إلى أبيه ، فكسا البهو والأروقة ، وصاعف ما كان يُعَدّ من الألوان ، فلما حضر وقت الانصراف انصرفت ، فنُمى ذلك إليه ، فقال للخادم الموكل بنا : قد نمى إلىَّ انصرافُ أحمد بن يحيى

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ١ ص ٢٦٣ ومحاضرات الأدباء للأصفهانى جـ ١ ص ٢١ .

(٢) رسالة المعلمين للجاحظ : (مخطوط) ظهر الورقة رقم ١٠١ .

فظننت أنه يستقل ما يحضر ولم يستطب الموضع فأمرنا بتضعيفه ، ثم نُمِيَ إليَّ أنه انصرف فقل له : أبيتُك أبرد من بيتنا ؟ أو طعامك أطيب من طعامنا ؟ ... فلما عرَّفني الخادم ذلك أقمت فكنت على هذه الحال ثلاث عشرة سنة [1] .

مناهج التعليم الأوّلى فى القصور :

وتتضح من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده الأهداف التى حفزت الوالد أن يمهد لمؤدب ولده أن يعيش معه ، تلك الأهداف التى تتجاوز التعليم لتشمل أن يربّى المؤدبُ عقلَ الولد وقلبه وجسمه . يقول عبد الملك : **علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجَنِّبْهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة [2] ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، وأَحفِ شعورَهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يَمْجُدُوا ويَنْجُدُوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصُّوا الماء مصًّا ولا يعبوه عبا ، وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى سَتر ، لا يعلم به أحد من الحاشية فيهونوا عليه [3] .**

أما منهاج التعليم لهذه الطبقة فإنه يلتقى فى أسسه العامة بمنهاج التعليم الذى وُضع لجميع الصبيان ، مع بعض الحذف أو الإضافة استجابة لتوجيه الوالد ، وتمشيا مع الرغبة فى إعداد هـذا الصبى إعداداً خاصاً يناسب الأهداف والمسئوليات التى ستواجهه فى مستقبل حياته كما قلنا ، وفيما يلى أمثلة للمناهج والارشادات التى وضعها الآباء بين أيـدى المؤدبين ليسيروا فى ضوئها وليعملوا على تحقيقها :

---

(١) ياقوت طبعة فريد رفاعى ٥ : ١٢٥ — ١٢٦ .
اما طبعة Margolioth التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث فغير دقيقة فى هذا الموضع . انظر الجزء الثانى منها ص ١٤٤ .

(٢) يقال سيء الرعة اذا كان قليل الورع .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٦٧ .

١ — قال عمر بن عتبة لمؤدب ولده : ليكن أولَ اصلاحك لولدى اصلاحُك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ؛ علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك [١] .

٢ — قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى لما اتخذه مؤدباً لابنه : إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينىَّ ، وقد وليتك تأديبه ؛ فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روّه الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم ، وبصّره طرفاً من الحلال والحرام والخطب والمغازى [١] .

٣ — ومن أحسن المناهج التربوية التى قدمها الآباء للمؤدبين ذلك المنهج الشامل الذى تقدم به الرشيد للأحمر معلم ولده الأمين ولى عهده والخليفة من بعده ، وفيه يقول : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيَّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من

---

(١) العقد الفريد ١ : ٣٦٢ .

وردت هذه الوصية فى عيون الأخبار لابن قتيبة (٢ : ١٦٦) منسوبة الى عتبة بن ابى سفيان ، وموجهة لعبد الصمد مؤدب ولده ، ومغايرة فى بعض اجزائها للنص المنسوب الى عمرو بن عتبة ، وهاك نصها فى عيون الاخبار : ليكن اصلاحك ولدى اصلاحك نفسك ، فان عيونهم معقودة بعينك ؛ فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت ، وعلمهم سير الحكماء ، واخلاق الادباء ، وتهدّدهم بى ، وادبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، ولا تتكل على عذر منى فانى قد اتكلت على كفاية منك .

(٢) الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ٢٩ .

الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورَفْعِ مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرَّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تُمْعِن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقَـوِّمه ما استطعت بالقُرْب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة (١) .

وقد خطا الفاطميون فى هذا المجال خطـواتٍ أوسع ، فأنشئوا فى قصورهم مدارس خاصة يلتحق بها أولاد علِيَّة القوم وسَراتهم ، ويسير المؤدبون فى تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج خاص ، يرمى إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية فى دولة الخلافة (٢) .

وكانت هذه الوظيفة (وظيفة المؤدب) جذابة للغـاية ؛ تضـع من يشغلها فى مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال ، ومع هذا فقد أباها بعض العلماء ؛ يروى ابن الانبـارى أن سليمان بن على وَجَّه وهـو بالاهواز إلى الخليل بن أحمد لتأديب ولده ، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً ، وقال : كلْ فما عندى غيره ، وما دمت أجده فـلا حاجة لى إلى سليمان . فقال له الرسول : فما أبلغه ؟ فأنشأ :

أَبْلغْ سليمان أنِّى عنه فى سَعَةٍ — وفى غنى ، غير أنى لست ذا مال

والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه — ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال (٣)

وقد فعل عبد الله بن إدريس نظير ذلك فلم يقبل أن يخصَّ المأمون بدرس وحده ، حتى ولو سعى له المأمون ، وكان جوابه للرشيد وقد رجاه أن يحدِّث المأمون أن قال : إن جاءنا مع الجماعة حدثناه (٤) .

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٦٩ والبيهقى : المحاسن والمساوىء ٦١٧ .
(٢) المقريزى ١ : ٤٤٣ — ٤٤٤ . (٣) طبقات الادباء ٥٧ — ٥٨ .
(٤) ابن جماعة ص ٢١١ بالهامش .

٤ ـ حوانيت الوراقين

لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب فى الجاهلية : عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وبين دكاكين بيع الكتب فى الإسلام ، ففى تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع فى الناحية الأدبية ، فينشدون الأشعار ، ويعقدون المناظرات ، ويلقون الخطب الرنانة [١] • وحاكتها فى ذلك دكاكين بيع الكتب ، هذه الدكاكين التى فتحت فى الأصل لأعمال تجارية ، ثم إذا هى تصير مسرحاً للثقافة والحوار العلمى ، عندما أمها المثقفون والأدباء ، واتخذوا منها مكاناً لاجتماعاتهم وأبحاثهم •

ولم تكن دكاكين بيع الكتب محاكاة تامة لأسواق العرب فى الجاهلية ، بل كانت هناك نقاط خلاف بين هـذه وتلك ، ومن أبرز هذه النقـاط أن الاجتماعات الثقافية كانت يومية فى دكاكين بيع الكتب ، ولكنها فى أسواق العرب كانت ترتبط بعمران هذه الأسواق التى ما كـانت تعمر إلا فى مواسم خاصة •

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية [٢] ، ثم انتشرت بسرعة انتشارا ملحوظا فى العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الإسلامى ، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها ذكر اليعقوبى [٣] فى جملة كلامه عن أرباض بغداد « ••• ثم ربض وضـاح مولى أمـير المؤمنين ••• وبه أكثر من مائة حانوت للوراقين » وكان فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات [٤] وقد تعرض المقريزى فى مواضع كثيرة من كتابه « الخطط » للحديث عن هذه المحال [٥] •

---

(١) انظر الأغانى ٤ : ٣٥ وانظر كذلك ابو الفدا ٢ : ٢٣ •

(٢) Hitti : History of the Arabs p. 414.

(٣) البلدان ص ١٧ •

(٤) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى ٣٣ ، ٤٤ خط ١٤٦١ تاريخ تيمور بدار الكتب •

(٥) ١ : ٣٦٢ ، ٢ : ٩٦ ، ١٠٢ •

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح ، وإنما كانوا — في أغلب الأحايين — أدباء ذوى ثقافة ، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء ، وعلى هذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة ، كابن النديم صاحب الفهرست [١] ، وعلى بن عيسى المعروف بابن كوجك وقد ذكر عنه ياقوت [٢] أنه كان وراقاً ، وكان أديباً فاضلا ، وقد ألف عدة كتب ، وكياقوت مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان [٣] .

ولم تكن مهنة الوراقة فى عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات التجارية وبيع الكتب ، وإنما كانت تتعدى ذلك إلى مهام ثقافية بالغة الأهمية فى ذلك الحين ، إذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين فيها ، ويتقاضون على ذلك أجراً متواضعاً متوسطه دينار عن كل كتاب [٤] . وكان الجاحظ — كما حدث بذلك أبو هفان الراوية — يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر [٥] ثم — وذلك ما يعنينا أن نوضحه هنا بشيء من التفصيل — كانت حوانيت الوراقين مغدى ومراحاً للطلاب والعلماء ، يتذاكرون فيها ويتناقشون ، وقد

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ٥ : ١٧٩ .

(٣) ابن خلكان : ٢ : ٣١١ — ٣١٢ .

ولا نزال حتى الوقت الحاضر نجد فى كثير من البلاد العربية علماء افاضل يشتغلون بهذه المهنة ، وقد تحدث السندوبى وهو يقدم كتاب المقابسات لابى حيان التوحيدى عن واحد من هؤلاء فقال : عرفت رجلا يبيع الكتب فى خان الخليلى يسمى الشيخ عبد الملك الفشنى ، وكان على علم ومعرفة وسعة اطلاع ، وكان يدلنى بصدق واخلاص على ما يلزمنى من الكتب القيمة والاسفار النافعة ، وقد كان يذاكرنى فى المسائل العلمية والادبية ، وينبه ذهنى الى حقائق الاشياء ، ودقائق الأمور ، ويشير على بما يجب ان اقرأ من الكتب ، ويدلنى على الكيفية التى توصلنى الى الانتفاع بها انتفاعا ناجحا مثمراً .

(٤) Ameer Ali : A short History of the Saracens p. 460.

(٥) ياقوت معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .

مرّ فى السطور السابقة إشارة لهذه الحقيقة ، ولكنا نوضحها هنا ببضعة أمثلة قليلة أخرى :

١ — كان ياقوت الحموى يتاجر فى الكتب ويزور أسواق الوراقين ليعرض تجارته ، وكان متعصباً عى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك فى ذهنه من ذلك طرفٌ قوى . وتوجه إلى دمشق فى سنة ٦١٣ ، وقعد فى بعض أسواقها ، وناظر بعض من يتعصب لعلى . . [1] .

٢ — كان من عادة الإمامين الشهيرين ابى الفرج الأصفهانى وأبى نصر الزجاج أن يلتقيا كثيراً فى دكان فى سـوق الوراقين ، وفى إحـدى جلساتهما كان أبو الحسن على بن يوسف الشاعر جالساً عند أبى الفتح ابن الحزاز الوراق وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصولى التى يقول فيها :

رأى خَلّتى من حيث يخفى مكانُها فكانت قذى عينيـه حـين تجلت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرره ، حدث أبو نصر الزجاج قال : قال لى أبو الفرج : قم إليه فقل له : قد أسرفت فى استحسان هذا البيت ، وهو كذلك ، فأين موضع الصنعة فيـه ؟ فقمت فقلت لـه ذلك فقال : قولُه « وكانت قذى عينيه » فعدت إلى الأصفهانى وعرفته ذلك فقال : عد إليه فقل له أخطأت . الصنعةُ فى قوله « من حيث يخفى مكانها » [2] .

٣ — ووصف ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) سوق الوراقين ببغداد فى زمنه بقوله : إنها سوق كبيرة وهى مجالس العلماء والشعراء [3] .

٤ — أما سوق الكتبيين بمصر فلنقتبس الحديث عنه من المقريزى [4]

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣١١ . (٢) ياقوت ٥ : ١٥٧ : ١٥٨ .
(٣) ابن الجوزى : مناقب بغداد ص ٢٦ .
(٤) الخطط ٢ : ١٠٢ .

وهاك موجز ما أورده : هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية أحدث فيما أظن بعد سنة ٧٠٠هـ • وكان سوق الكتب قبل ذلك تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو ••• وما برح هذا السوق مجمعاً لأهل العلم يترددون عليه وقد أنشدت قديماً لبعضهم :

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب

فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب

فهاتيك آلة أهل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب

* * *

وكان لحوانيت الوراقين أثر عقلى ملحوظ ، كثيراً ما تعدى الوراقين إلى أسرهم ومن أمثلة ذلك زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق الذى كان يعيش فى وادى الحمى بالقرب من غرناطة فقد برعتا فى الآداب والعلم وكانتا على قدم المساواة مع أساتذة العصر [١] •

حوانيت أخرى تخدم الفكر :

ولم يقف النشاط العلمى بالدكاكين على حوانيت الوراقين بل انتقل منها إلى غيرها من مجال البيع والشراء ؛ فإلى الحانوت المتواضع الذى كان أبو العتاهية يبيع فيه الجرار والفخار كان يتوافد الأحداث والمتأدبون فينشدهم أبو العتاهية أشعاره ثم يأخذ هؤلاء ما تكسر من الخزف فيكتبونها عليها [٢] •

وكان أبو بكر الصبغى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه فى حانوته ، وكان هو من أعيان فقهاء الشافعية ، كثير السماع والحديث ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين ، وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس [٣] •

---

(١) سيد أمير على ٥٦٩ بالهامش •
(٢) الأغانى ٣ : ١٢٩ •
(٣) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٨ •

ويروى أبو الحاج عن بعض شيوخه أن رجلا رحل فى طلب العلم إلى بغداد ، فقرأ ما شاء الله ثم أراد الانصراف إلى وطنه فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة ، ولكنه وقف ليشتري صاحبُ الدابة بعضَ حاجاته ، فسمع الطالب نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت المتجاورة فطلب الطالب من صاحب الدابة إعادته إلى بغداد قائلا : إن بلداً باعته فى هذه المنزلة من العلم لا ينبغى أن يُرْحَل عنه [1] .

---

(١) الألف باء للألبا ١٤٧ ا مخطوط .

٥ ــ منازل العلماء

لم يَعُدَّ المسلمون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم العام ؛ إذ أن السكان والطلاب جميعاً لا يجدون الراحة واليسر فى التوفيق بين هدوء المنــزل وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط . وقد أشار إلى ذلك كتاب الله فى الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبى إلا أن يُؤذَنَ لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق » [1] .

وقد شرح العبدرى فى كتابه المدخل [2] هذه القضية ذاكراً أن أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة ، او تخمد به بدعة ، أو يتعلم بــه حكم من أحكام الله تعــالى ، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفراً ، لأنه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، وعاليهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فإنه محجور على الناس إلا من أبيح لــه ، والبيوت تُحْتَرم وتُهابُ حتى لــو أبيحت للجميع » . ويقرر العبدرى فى مكان آخر [3] « إن المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » .

وإذاً فاستجابة لإلحاح الضرورة وتحت ضغط أحوال معينة قامت حلقات علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتى :

جرى التعليم الاسلامى بالمنزل فى عهد الاسلام المبكر ، وقبل نشأة المساجد ، فلقد اتخذ الرسول عليه السلام دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزاً يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ، ليعلمهم مبادىء الدين الجديد ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣ وانظر أيضا تفسير الفخر الرازى لهــذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧ وتفســير أبى الســعود على هامش الفخــر الرازى ج ٦ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٢) المدخل جـ ١ ص ٨٥ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٩٧ .

ويُقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان الرسول يستقبل فى هذا المنزل مَنْ جنحوا إلى الإسلام ومالوا اليه ، ليغمر الرسولُ قلوبَهم بإرشاده وتعليمه : فيعتنقوا الإسلام وينضموا إلى جماعة المسلمين [١] .

وبالإضافة إلى دار الأرقم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل إنشاء المساجد أيضاً يجلس بمنزله بمكة والمدينة ، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، وقد ظلوا كذلك إلى أن نزلت بالمدينة الآية السابقة وكان نزولها بعد إنشاء المساجد ، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعانى من تدفق الجموع على بيته تدفقاً يكاد يكون متصلا ، مما لا يدع له وقتاً للراحة والاستجمام .

ومن الواضح أن منزل الرسول فقط هو الذى أشارت إليه الآيةُ الكريمة ، وقد فُهِم من هذا عدم الرغبة فى اتخاذ البيوت مكاناً للدرس ، غير أن ذلك لم يَرْقَ إلى درجة المنع ، فلظروف خاصة أصبحت بيوت متعددة ملتقىً للطلاب والمدرسين ، ومركزاً علمياً مهمًّا على الرغم من انتشار المساجد .

ومن أهم هذه المنازل منزل الرئيس ابن سينا يقول الجورجانى صاحبه : « كان يجتمع كل ليلة فى دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أنا وزملائى نقرأ معه « الشفاء » ، وكان يُقرىء غيرنا فى « القانون » ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمةً للأمير (شمس الدولة) . وقضينا على ذلك زمناً » [٢] .

وكان أبو سليمان السجستانى (محمد بن طاهر بن بهرام) الذى توفى فى العقد الأخير للمائة الرابعة الهجرية ، أعور به وضح فكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب

---

(١) انظر الطبرى ٣ : ١٣٣٥ .

(٢) ابن ابى اصيبعة ٢ : ٤ القفطى ٤٢٠ .

علم ، وكان منزله مَقيلا لأهل العلوم القديمة ، فكان يتصدى لقراءتها ويقصده الرؤساء والأجلاء (١) . وفى ترجمة أبى الحسن عبد الله المنجم يذكر القفطى (٢) ان أبا الحسن كان صديقاً لأبى سليمان وملازماً له ، وكان كثيراً ما يجتمع بمنزل أبى سـليمان بجماعة من سادة العلمـاء ، فيأخذون فى المذاكرة والمناظرة فى موضوعات شتى ، وكان لأبى سليمان الكلمة الفاصلة . وممن كانوا يحضرون هذا المجلس العلمى الرائع أبو محمد المقدسى ، وأبو الفتح النوشجانى ، وأبو زكريا الصيمرى ، وأبو بكر القومسى ، وغلام زحل ، وأبو حيان التوحيـدى ، ويذكر أبو حيـان التوحيدى (٣) أن كل واحد من هؤلاء كان فريداً فى علمه ، وقد سـأل الوزير ابن سعدان مرة أبا حيان التوحيدى أن يحدثه بما أفاد فى يوم معين ، فأخذ أبو حيان ينقل للوزير صورة ما دار فى منزل أبى سليمان ، وآراء الأخير فى النفس (٤) . وكثيراً ما نقل أبو حيان الوزير مما كـان يدور فى هذا المجلس من موضوعات شتى (٥) ، فقد كانوا يتعرضون كثيراً إلى آراء القدماء من الفلاسفة بالبحث والنقاش والشرح والتعليق ، فيتفقون معهم أو يختلفون عنهم (٦) ، فإذا قال سقراط : « الكلام اللطيف ينبو عن الفهم الكثيف » وافق أبو سليمان على ذلك وزاده شرحاً بمـا ينقله عن فيلسوف آخر من أن المريض يفرح بالطبيب ويقبل نصيحته لأنه عالم بما عنده أما الجاهل فلا يفعل هذا مع العالم لعدم علمه بمـا عنده (٧) وإذا روى قول أفلاطون : « العلم مصباح النفس » قـال أبو سليمان : ما أحسن المصباح إذا كان زجاجه نقياً (٨) ، وإذا قـال أفلاطون : « من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته ، كما لا يجزع

---

(١) القفطى . اخبار الحكماء ١٨١ — ١٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) المقابسـات ١٢٠ . (٤) الامتاع والمؤانسة ١ : ٤٠ .

(٥) انظر الجزء الثانى ١٨ و ٢٣ و ٢٤ و ٤٣ والجزء الثالث ٩٩ و ١٢٤ و ١٢٥ .

(٦) انظر الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٤٣ و ٤٩ .

(٧) المرجع نفسه ٢ : ٤٤ . (٨) ٢ : ٤٥ .

الغواص من ملوحة البحر » قال أبو سليمان : هذا كلام ضرره أكثر من نفعه ، قوّاه صاحبه بالمثل ، والمثل يستجيب للحق كما يستجيب للباطل ، ولا يَبْعُد عن السلطان إلا إذا جار (١) .

وكما حفل الإمتاع والمؤانسة بما دار فى هذه الجلسات الغنية ، فقد حفل بها كذلك المقابسات (٢) .

ومن الدور الهامة التى كان يلجأ إليها الطلاب والمدرسون فيستفيدون منها استفادة بالغة ، دار الإمام الغزالى (٥٠٤ هـ) التى كان يستقبل فيها تلاميذه بعد أن اعتزل العمل بنظامية نيسابور على أثر رحلته التى قام بها للحج والاعتكاف بالجامع الأموى بدمشق حيث كتب كتابه الشهير « إحياء علوم الدين » (٣) .

ولما اتهم على بن محمد الفصيحى (٥١٦ هـ) بالتشيع ، وسئل عن ذلك الاتهام فلم ينكره ، فصُل من النظامية حيث كان من مشاهير مدرسيها ، ولكن أفواجاً من المتعلمين راحوا يقصدونه فى داره ليواصلوا القراءة عليه (٤) .

وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى على معرفة واسعة بالمذهب الاسماعيلى ، وقد كتب فى فقه الاسماعيلية كتاباً كبيراً ضمنه كل ما سمعه من المعز والعزيز ، وكان منزله كل يوم جمعة مأوى للعلماء والطلاب ليقرأ لهم من هذا الكتاب ومن سواه (٥) .

وكان السلفى أحمد بن محمد أبو طاهر (٥٧٦ هـ) من العلماء الفقراء ،

---

(١) ٢ : ٤٧ — ٤٨ .

(٢) انظر مثلا هذه الصفحات : ١٢٠ — ١٣٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٥٥ — ٣٥٨ .

(٣) انظر ترجمته فى صدر كتابه هذا ص ٣ .

(٤) ياقوت ٥ : ٤١٥ .

(٥) الخطط ٢ : ٤٣١ .

بطاف البلاد حتى وصل إلى الإسكندرية ، فتزوج امرأة ذات مال واتخذ من بيته بالإسكندرية مكانا للتعليم ، وفى الجزء الثالث من منتخباته من أصول سماعات أبى الحسن على بن المشرف يقول : « بلغت من أوله قراءة وسماعا ومعى اسحق ومحمد ابنا أحمد بن موسى المروزانى ، وصح لنا ذلك فى منزلى بالإسكندرية [1] .

تلك أمثلة قليلة تعد نماذج فقط لسواها مما حفلت به كتب الأدب والتاريخ ، وهى تبين بوضوح أن منازل العلماء أسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، ولما كان البيت مكاناً خاصاً يحس روّاده بالوحشة والانقباض كان على صاحب البيت — وقد جعل منه ملتقىً للطلاب — أن يقابل رواده ببشاشة وترحيب ، ويسرّى عنهم ، وإلا فقد يتسبب عن ذلك انقطاعهم عن الحضور [2] مما يجعل الدرس قليل الجدوى محدود الفائدة ، ويتحتم على الطلاب كذلك أن يتسموا بالوقار والهدوء حفا ظا على حرمة البيت وجلاله .

(١) ورقة رقم ٩ مخطوط بمكتبة Prof Arberry انظر ايضا تذكرة الحفاظ ٤ : ٩٣ .

(٢) العبدرى ٢ : ٩٧ — ٩٨ .

٦ — الصالونات الأدبية

يبدو لى أن الصالونات التى ظهرت ساذجة فى العصر الأموى ، وانتشرت رائعة غنية فى العصر العباسى ، ليست إلا تطوراً لمجالس الخلفاء الراشدين ، فالخليفة فى الإسلام ينظم أعمال الدنيا ويفتى فى شئون الدين ، ومن أجل هذا كان من أهم شرطه العلم المؤدى إلى الاجتهاد (١) .

وعلى ذلك كان الخلفاء الراشدون — وهم الذين اختيروا اختياراً شرعياً — يجلسون إلى الناس بالمسجد أو خارجه ليفتوهم فيما يعنُّ لهم من مشكلات ، فإذا لم يستطع الخليفة أن يهتدى بنفسه إلى الحل استدعى الصحابةَ ليشاورهم فى الأمر ، وليستعين بهم وبآرائهم للحصول على جواب سديد (٢) .

وهكذا تلتقى مجالس الخلفاء الراشدين مع الصالونات الأدبية فى أن كلا النوعين خَدَمَ التطور الثقافى وعَمِلَ على نشر المعرفة ، فى ظل الخليفة وحضرته ، وفيما عدا ذلك تظهر فوارق شاسعة بين تلك المجالس وهذه الصالونات ، ففى المجالس كان لكل واحد الحرية الكاملة فى أن ينضم إلى المجلس أو يدَعه وقتما يشاء تبعاً لرغبته ، وكان الخليفة ينادَى باسمه الخالص أو بعبارة « يا خليفة رسول الله » التى استبدل بها فيها بعد عبارة « يا أمير المؤمنين » وكان الحشد يجلس على سجادة متواضعة ، أو على حصير ، وأحياناً على الأرض الجرداء (٣) .

بين مجالس الخلفاء والصالونات الأدبية :

أما الصالونات الأدبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التى اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التى خضعت لسلطانهم فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً ، تحدث عنه ابن عبد ربه (٤) ،

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٥ ؛ الفخرى ٢٠ — ٢١ .

(٢) انظر « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(٣) انظر التمدن الاسلامى ٥ : ١٣١ .

(٤) العقد الفريد ٤ : ١٠١ — ١٠٨ .

والمقرى [١] ، والمقريزى [٢] .

ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين ، وإنما كان يسمح لطبقة معينة فى الدخول .

ولم يكن الحاضرون أحراراً فى اختيار الموعد الذى يحضرون فيه أو ينصرفون عنده ، وإنما كانوا يحضرون فى موعد محدد ، وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها الخليفة ، وقد اتخذ كل خليفة إشارة عرف بها ؛ فكان معاوية إذا قال « ذهب الليل » قام سُمَّاره ومَنْ حَضَرَه ، وكان عبد الملك إذا ألقى المِخْصَرة [٤] قام من حضره ، وكان الوليد إذا قال « أستودعكم الله » قام من حضره ، وكان الهادى إذا قال « سلام عليكم » قام من حضره ، وكان الرشيد إذا قال « سبحانك اللهم وبحمدك » قام سماره ، وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل قام من حضره ، وكان الواثق إذا مس عارضيه وتثاءب قام من حضره [٥] .

وكان الخليفة ولا أحد سواه يفتتح النقـاش فى الصـالونات [٦] ، ويروى ابن خلكان [٧] أن أحمد ابن أبى داود كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكان لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه .

وأخيراً فإن الموضوعات التى تَعْرِض للبحث والنقاش والمناظرة فى الصالونات الأدبية كانت أوسع وأعمق من تلك التى كانت تعرض فى مجالس الخلفاء الراشدين .

آداب وقيم للصالونات الأدبية :

وللصالونات الأدبية آداب خاصة ، وتقاليد معيّنة ، يجب أن يرعاها أولئك الذين كان يسمح لهم بحضورها ، وقد سجلها مفصلة الصابى فى كتابه « رسوم دار الخلافة » (مخطوط) وكشاجم فى كتابه « أدب النديم » ونحن نقتبس منهما طرفاً يتحتم إيراده فى هذا المقام :

---

(١) نفح الطيب ٢ : ١١٢٨ .
(٢) الخطط ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦ .
(٣) التاج للجاحظ ص ٢١ .
(٤) العصا أو السوط .
(٥) التاج ١١٩ — ١٢٠ .
(٦) التاج ٤٩ — ٥٠ .
(٧) الوفيات ١ : ٢١ .

« فالداخل إلى حضرة الخليفة ، أو إلى مجلس سمره ، يجب أن يكون نظيفاً فى بزته وهيئته ، وقوراً فى خطوه ومشيته ، متبخراً بالبخور الذى تفوح روائحه .. وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه [١] ، فإذا دخل الداخل إلى حضرة الخليفة قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. وربما تقدم الداخل إذا كان وزيراً أو كبيراً فأعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه إكراماً له بتقبليها ، وأما ولاة العهود والأهل من بنى هاشم والقضاة والفقهاء فلا يقبلون يد الخليفة ويقتصرون على السلام [٢] .

« ويأخذ الداخل مكانه المناسب لترتيبه من غير أن يتجاوزه إلا استجابة لدعوة الخليفة ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات إلى جانبيه وورائه ، والتحريك ليده أو شيء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى إلا شخص الخليفة وحده ، وألا يسارّ أحداً فى مجلسه ولا يشير إليه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتاباً بين يدى الخليفة إلا ما احتاج الخليفة إلى قراءته وأذِن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه فى تعرّف أمر منه أو إقامة حجة عليه إلا بأخف الألفاظ وأشد الاستيفاء ، وأن يمتنع من الضحك وإن جرى ما يوجبه ... وليعلم أن أجلّ ما يكون الإنسان فى عين صاحبه إذا كان شخصاً صمتاً ، وجسماً صلداً ، لا يخرج منه شيء كالبصاق والمخاط ، ولا يدخل إليه شيء كالطعام والشراب ، على أن الثانية تجوز مع الاخوان والجلساء ، وتحرم مع الرؤساء ، وأما الأولى فتقبح مع الجميع [٣] .

« وليس لحاضر مجلس الخليفة أن يذكر شيئاً إلا ما يُسْأَل عنه ، أو يورد قولا اختياراً أو مطالعة إلا ما استأذَن فيه ، وسبيله أن يخفض صوته فى حديثه ومحاورته ، ولا يرفعه إلا بقدر السماع الذى لا يحتاج معه إلى استفهامه واستعادته [٤] وأن يتجنب ايراد حكاية تَسْتَمحل (تكْرَه)

---

(١) الصابى ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) ملخص من صفحتى ٤٥ ، ٤٦ من رسوم دار الخلافة .

(٣) رسوم دار الخلافة ملخص من صفحة ٥٠ — ٥١ — ٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

أو لفظ يسترذل ، ولْيصغ الجالس إلى الخليفة إذا تحدث حتى يفهم قوله دون أن يستعيده ، فاستعادة الخليفة ليست من الآداب اللائقة » [١] .

ويوصى كشاجمُ [٢] الجليسَ أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع إمهالُ المتحدث حتى ينقضى حديثه ، والإقبالُ عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدّث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه إلى حديث يبدأ به ، لمعرفة السامع بذلك الحديث بل يريه من الارتياح له ، والتعجب منه ، ما يوهمه أنه لم يخطر بباله ، ولا وقر فى سمعه . ويضيف كشاجم [٣] قوله : ومن أدب الحديث ألا يُقتَضب اقتضابا . ولا يُهجَم عليه ، وأن يتوصل إلى اجترار بما يشاكله ، ويُسبِّب له ما يحسن أن يجرى معه فى غرضه ... وأحلى للحديث وأحسن لموقعه أن يتنكب منه الطوال ، ذوات المعانى القلقة والألفاظ الوحشية ، فإنهم لم يزالوا يمدحون الأحاديث بالقصر قال عبد الله بن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير ... هو سحر وما سواه كلام [٤]

وقال آخر :

إذا هن حدثن الحديث قَضَيْنَه ... ومنَّيْنَنا أن الحديث يُعاد

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ . (٢) أدب النديم ٣٢ — ٣٥ .

(٣) أدب النديم ٣٣ — ٣٤ .

(٤) هذا البيت من قصيدة عبد الله بن المعتز التى يقول فيها :

ولقد حث بالمدامة كفى ... غصنُ بان عليه بدرٌ تمام
عجباً ينهب العيون ويشتا ... ق اليه التقبيل والالتزام
وندامای فى شباب وحسن ... اكملت ما بهم نفوس كرام
بين اقداحهم حديث قصير ... هو سحر وما سواه كلام

(ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣)

ومن أدب الحديث ألا يكثر المتحدث التبسم والقهقهة ؛ قال نجاح بن سلمة للمتوكل لما دعاه إلى منادمته : فيَّ خصال لا تصلح معها منادمة الخلفاء ، قال : وما هي ؟ قال : سلس البول ، وأبتسم إذا حدثت ، ولا أقدر من الشرب على أكثر من رطلين . فقال له : من حق صدقك أن نسامحك فيها (١) .

وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة العلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء ومن أجل هذا نجد أن المعتضد بالله لما أراد بناء قصره (الشماسية) ببغداد استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما اختاره فيأخذ عنه (٢) .

وعلى هذا أصبح تاريخ الصالونات الأدبية مرتبطاً بتاريخ القصور ، وبخاصة قصور الخلفاء ، فبدأت الصالونات منذ تربع فى قصر شاهق معاوية الخليفة الأموى الأول ، روى المسعودى (٣) أن عبد الله بن هاشم حضر ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية : من يخبرنى عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ؛ أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الإقدام والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح فى الدين والإصلاح للحال والمحاماة عن الجار .

الصالونات وتطورها من جيل إلى جيل :

وكان معاوية يستدعى إلى مجلسه بعض العلماء والأدباء وأرباب

---

(١) كشاجم : أدب النديم ص ٢٥ .

(٢) المقريزى ٢ : ٣٦٢ — ٣٦٣ . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٩ .

السِّيَر ليقرءوا له ويحدثوه عن تاريخ العرب ، ومواقعهم الشهيرة ، كما كان يستدعى من لهم خبرة بتاريخ الفرس والروم فيحدثوه عن الأباطرة والأكاسرة . ونظم حكوماتهم وإداراتهم وسير الأمور فى ممالكهم [١] .

ويحكى العاملى [٢] أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه ، وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه مرتبةً وله علىَّ ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال : هات . فقال سويد : أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلْق خد دماغ .... فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) نفس المصدر ج ٥ : ٧٧ — ٧٨ Ed : Barbier De Meynard

كان يغلب على مجالس الخلفاء أن تكون مسرحاً للمناظرات العلمية والادبية وكان المقصود بها خدمة الثقافة بالاضافة الى الترويح والترفيه ، ولكن الدهاة من الخلفاء كانوا يتجهون فى بعض الأوقات بهذه المجالس الى دراسة التاريخ ، وأعمال القواد ، واشهر الوقائع وحوادث الشجاعة ، ليستعينوا بذلك على مقابلة مشكلات مماثلة كانت تواجههم ، وقد فعل ذلك معاوية كما ذكرنا من قبل ، وفعله ايضا مروان بن محمد الذى كانت تقرأ فى مجلسه سير الملوك وأخبارهم ولم ينقطع عن ذلك حتى فى أشد الأوقات حرجا ، يوم كان ابو مسلم الخراسانى على وشـــك السيطرة على خراسان (المســعودى ٢ : ٢٠٢) وسار أبو جعفر المنصور هذه السيرة اذ كان أيضا المؤسس الحقيقى لدولة العباسيين وكان فى حاجة الى ثقافة من هذا اللون .

ولعل السبب فى توجيه المجالس الادبية هذا الاتجاه هو — كما مر — رغبة الخلفاء فى الاستفادة بخبرة السابقين ، ثم انه كان من عادة الخلفاء الدهاة أن يوقفوا فى الظروف الحـــالكة كل مظاهر الترف والترفيه ، وأن يتجهوا بكل مرافق الدولة الى الجد والحزم ، ومما يدل على ذلك انهـم فى هذه الظروف كانوا يعتزلون النساء والطيب ، كما فعل عبد الملك بن مروان حينما كان الحجاج يحارب الأشعث وكما فعل مروان بن محمد أيام انتفاض خراسان وانشد عبد الملك فى ذلك :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهـــار

(المسعودى ٢ : ٢٠٢ — ٢٠٣)

(٢) الكشكول ١٥٥ .

أنا أقولها فى جسد الإنسان مرتين . فقال سويد : أنا أقولها ثلاثاً . وأنشأ : أنف أسنان أذن . . . . فأجازه عبد الملك : وأنعم عليه ، وبالغ فى الإحسان إليه [١] .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى [٢] أن أعرابياً حضر مجلس عبد الملك ابن مروان أيضا وكان جرير حاضراً فسأل عبد الملك الأعرابى ، من أنت ؟ قال : أنا رجل جانبَتى عنعنة تميم وأسد ، وكسكسة ربيعة ، وحوشى أهل اليمن وإن كنتُ منهم . فقال : من أيهم أنت ؟ قال : من أخوالك من عذرة . قال : أولئك فصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال : سلْنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين . قال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت قالته العرب أفخر ؟ قال : قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغضَّ الطرف أنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فاستشرف جرير لذلك ، ثمّ قال عبد الملك : فأى بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلْننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أحسن تشبيهاً ؟ قال : قول جرير :

سرى نحوهم ليلٌ كأن نجومه قناديلُ فيهن الذُّبال المفتَّلُ

---

(١) القصة كاملة فى الكشكول . (٢) الأغانى ٧ : ٥٤ — ٥٥ .

فقال جرير : جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين • فقال له عبد الملك : له مثلها فوقها من بيت المال ، ولك جائزتك يا جرير لا ننتقص منها شيئاً ، وكانت جائزة جرير ٤٠٠٠ درهم وتوابعها من الحملان والكسوة • فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة ثياب •

واجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان ، فقال لهما بشر : إنكما قد تقارضتما الأشعار ، وتقاولتما الفخر ، وتهاجيتما ، فأما الهجاء فليس بي إليه حاجة ، فجدِّدا بين يديَّ فخراً واتركا الهجاء • فقال الفرزدق :

نحن السَّنام والمناسِمُ غيرُنـا فمن ذا يساوي بالسنام المناسما [1]

وقال جرير :

وأنبأتمونا أنكم هـام قومكم ولا هامَ إلا تـابع للخراطم [2]

فقال الفرزدق :

فنحن الزِّمام القائدُ المقتدَى به من الناس ، مازلنا ، ولسنا لهاما [3]

فقال جرير :

فنحن بني زيـد قطعنا زمامهـا فتاهت ، كسارٍ طائش الرأس عارم

فقال بشر ، غلبته يا جرير بقطع الزمام وذهابك بالناقة • وأحسن الجائزة لهما ، وفضل جريراً [4] •

وكان عَديّ بن الرِّقاع شاعراً مقدَّماً عند بني أمية ، مدَّاحاً لهم ، خاصاً بالوليد بن عبد الملك ؛ وله بنه شاعرة" يقال لها سلمى ، فأتاه ناس من الشعراء مرة ليعارضوه في الشعر ، وكان غائباً ، فعرفت سلمى ذلك فخرجت إليهم وأنشأت تقول :

(١) المناسم جمع منسم وهو طرف خف البعير.
(٢) الخراطم جمع خرطم وهو انف الفيل .
(٣) اللهازم أوساط الناس لا أشرافهم كما في تاج العروس .
(٤) الأغاني ٧ : ٥٢ ، ٥٣ .

تجمعتمُ من كل أوْبٍ وبلدة على واحد ، لازلتمُ قرْن واحد

فأفحمتهم ، وقد حدثت لعدى أحداث طريفة فى مجلس الوليد بن عبد الملك ، فلقد اجتمع مرة عند الوليد عدىّ وجرير ، فقال الوليد لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين • فقال الوليد : هذا عدى بن الرّقاع • فقال جرير : فشرُّ الثياب الرقاع ، ممنْ هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : من عاملة • قال جرير : من التى قال الله تعالى فيها : عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية [1] ! ! •

وجمعه مجلس الوليد مرة مع كُثَيِّر ، وقد كان يبلغه عن عدى أنه يطعن على شعره ، فأخذ عدى ينشد الخليفة قصيدة مدح حتى أتى إلى قوله :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمع شملها حتى أُقَوِّمَ ميلها وسِنادها

فقال له كثير : لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً لم تأت فيها بميل ولا سناد فتحتاج إلى أن تقوّمها •

واستمرَّ عدىّ يُنشد حتى وصل إلى قوله :

نظر المثقّف فى كعوب قَنَاته حتى يقيمَ ثِقافُهُ مُنَآدها

فقال له كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأنْ تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود بها •

واستأنف عدىّ إنشاده حتى وصل إلى قوله :

وعلمتُ حتى ما أسائل واحدا عن علم شاردةٍ لكى ازدادها

فقال كثير : كذبت ورب البيت الحرام ••• ما كنت قط أحمق منك الآن حتى تظن هذا بنفسك • فضحك الوليد ومن حضر وقُطِعَ بعدى حتى ما نطق [2]

---

(١) سورة الغاشية الآيتان ٣ — ٤ .

(٢) انظر ترجمة عدى فى الأغانى جـ ٨ ص ٧٩ وما بعدها .

صالون السيدة سكينة بنت الحسين :

وهناك صالون فى هذا العصر عُرِف بنشاطه فى خدمة الأدب والموسيقى ، هو صالون السيدة سكينة بنت الإمام الحسين ، وقد تحدثنا عنه بإفاضة فى « المكتبة الإسلامية » [1] .

الصالونات الأدبية فى أزهى عصورها :

تلك صورة خاطفة لمجالس الأدب فى العهد الأموى ، وهى مع جمالها كانت أقل بكثير من نظيراتها فى العهد العباسى ، فإنه لما قامت الدولة العباسية واستقرت ، بدت الصالونات الأدبية بمعناها الصحيح تظهر فى العالم الاسلامى ، واتخذت هذه الصالونات أهبتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذى برزت فيه الحضارة الأجنبية ، وبخاصة مدنيّة الفرس ، وأصبحت هذه الصالونات تعقد فى أوقات منتظمة وشملت مع قصور الخلفاء قصور الأمراء والعظماء ، واتُّخذ لها الأثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة فى ذلك الحين ، ثم تنوعت الصالونات فأصبحت للآداب أو العلوم أو الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف آنذاك ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت أرفع هذه المجالس قدراً ، وأعظمها قيمة ؛ يدل على ذلك ما ورد فى الأغانى [2] أن إسحاق الموصلى سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فإذا أراده للغناء غنّاه . فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له .

وقد بدأ النشاط الواسع يظهر فى عهد الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) إذ كان الخليفة نفسه فى درجة عالية من الثقافة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد وصلت إلى حياة الاستقرار بعد أن اجتازت مرحلة الخطورة التى تواجه الدول عند قيامها ، ففى مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ، ومناقشات بين الفقهاء ، ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء .

---

(١) المكتبة الاسلامية لكل الاعمار جـ ٤٨ .

(٢) ج ٦ ص ٦٠ .

وكانت هالة الرشيد في بغداد تتكون من أسماء لامعة ، جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل فى ناحية من نواحى الثقافة ، ومن هؤلاء ، من الشعراء : أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس ابن الأحنف ، ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلى ، وابنه إسحاق ، ومن اللغويين : أبو عبيدة ، والأصمعى ، والكسائى ، ثم ابن السمان الواعظ ، والواقدى المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء [1] .

ومن أهم المناظرات التى حدثت فى مجلس الرشيد تلك المناظرة اللغوية الشهيرة التى حدثت بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح فإذا هو هى ، فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه ، فاستدعى عربياً وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائى . فقال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فإنه ما يسبق إلا إلى الصواب . فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقال العربى « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربى وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد [2] .

ومن المناظرات الطريفة التى حدثت فى مجلس الرشيد ، تلك المناظرة التى جرت بين الفقيه أبى يوسف والكسائى النحوى ، إذ ادعى أبو يوسف أن الكسائى إنما يحسن شيئا من كلام العرب . وقال الكسائى : من تبحر فى علم اهتدى به إلى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها

---

(1) Nicholson : A Literary History of the Arabs p: 261.

(٢) ابن خلكان ١ : ٥٤٥ ، ومجالس ابى مسلم مخطوط ٢ ب ، ١٣ .

فى سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائى : لا . فسأله محمد : لماذا ؟ فأجاب الكسائى : لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر [١] .

وفى نفس الوقت كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل النحل ، ويبدو أن هذا المجلس كان مجلساً خصباً للغاية ، يتناول عوماً شتى ، يدل على ذلك ما رواه المسعودى من أن يحيى قال لهم مرة : قد أكثرتم الكلام فى الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والماسة والمباسة ، والوجود والعدم ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتحرير ، والكمية والكيفية ، والإمامة أنصٌ هى أم اختيار ، وسائر ما نورده من الكلام فى الأصول والفروع ، فقولوا الآن فى العشق . فقال على بن الهيثم : أيها الوزير ، العشق ثمر المشاكلة ، وهو دليل على تمازج الروحين ... وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجىُّ المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر [٢] .

أما عهد المأمون فكان كما يصفه Hughes [٣] أزهر فترة فى تاريخ النهضة بالعالم الإسلامى ؛ إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلماء ، واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفذاذ فى الشرق والغرب ، هذا إلى جانب الأساتذة والمستشارين والمترجمين والمفكرين الذين حلَّى بهم بلاطه وزيَّن ملكه . ويضيف سيد أمير على [٤] : أن بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب ، والشعراء ، والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين ، وشملهم جميعاً بعنايته ، مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم .

وكثيراً ما أخذ المأمون نفسه دوراً رئيسياً فى المناظرات التى كانت

(١) ابن خلكان ١ : ٤٦٩ ، وانظر كذلك ابن الأنبارى ٩١ — ٩٣ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٣ — ٢٨٤ .
(٣) Dictionary of Islam 295-296.
(٤) A Short Histor- of the Saracens, p. 278.

تدور فى مجلسه ؛ فقد روى أنه قال مرة لمن حضره من جلسائه : أنشدونى بيتاً لملك : يدل البيت وإن لم يعرف قائله أنه شعرُ ملكٍ ، فأنشده بعضهم قول امرىء القيس :

أمن أجــل أعرابية حــل أهلهــا جنوب « الملا » عيناك تبتدران [1] ؟

قال : وما فى هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز أن هذا سوقة من أهل الحضر ، فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية : ثم أجاب المأمون عن السؤال بقوله : الشعر الذى يدل على أن قائله ملكٌ قول الوليد :

لى المحض من ودّهم وإليهم نائلى

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ، ولا يَطلُب من الممنوح إلا الولاء ومحض الود [2] .

وفى مجلس آخر كان الحوار مذهبياً ، فسأل المأمون علياً الرضا : بم تدّعون هذا الأمر ؟ قال بقرابة على من النبى صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضى الله عنها . فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شىء إلا القرابة ففى خلف رسول الله من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ومن هو فى القرابة مثله ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق ، وهما حيان ، وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان ، واستولى علىٌّ علَىَ مالا يجبُ له ، فما أحار علىٌّ بن موسى نطقاً [3] .

واستفادت هذه المجالس استفادة واضحة من التطور العلمى والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العهد ، ووجدت هذه العلوم طريقَها إلى مجالس المأمون فازدهرت ونمت نمواً واضحاً ، شأنها فى ذلك شأن العلوم الدينية واللسانية .

---

(١) الملا : موضع .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ١١٥ طبعة الساسى .

(٣) عيون الأخبار : الكتاب الثانى ١٤٠ — ١٤١ .

واعتنق المأمون مذهب المعتزلة وهم أرباب النظر دون جميع الناس ، والكلام لهم دون سواهم [1] . فكان انضمامه لهم فاتحة عهد جديد لمذهبهم ، حتى أصبحت الدولة دولتهم ، والكلمة كلمتهم ، وكانوا لا يعتمدون على السلطان بقدر ما كانوا يعتمدون على المنطق ، وقوة الجدل ، وسلامة الحجة ، فإذا أفلس مناظرهم ولم يعتنق رأيهم بعد عجزه عن الاستمرار في المناظرة فقد حقت عليه كلمة العذاب ؛ إذ كان مذهب المأمون : من لم يردعه المنطق والبيان ، فليردعه بطش السلطان .

اسس علم البحث والمناظرة :

ولما كانت المناظرة والجدل من أهم ما كان يعتمد عليه المعتزلة في نشر آرائهم فقد وضعوا أسساً تعتبر بحق قواعد علم البحث والمناظرة فقد رُوى **« أنه اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال علَى شرائط : ألاّ تغضب ، ولا تشغب ، ولا تَحكم ، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تُجيز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا أجزتَ لى تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلاً منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته ، والرشد غايته »** [2] وكان عهد المأمون سلسلة انتصارات للمعتزلة في مجالس البحث والمناظرة الكثيرة التى عقدوها مع الشيعة ، ومع الملحدين من الدهرية ، والثنوية [3] ، وسواهم ، فقد ناظر أبو الهذيل العلاف صالحَ بن عبد القدوس عندما قال في العالم إنه من أصلين قديمين : نور وظلمة ، وكانا متباينين فامتزجا . فقال أبو الهذيل : فامتزاجهما أهو هما أم غيرهما ؟ قال : بل أقول : هو هما . فألزمه أن يكون ممتزجين متباينين إذ لم يكن هناك معنى غيرهما ، ولم يرجع ذلك إلا إليهما . فانقطع ، وأنشأ يقول :

أبا الهذيل جزاك الله من رجل   فأنت حقاً لعمرى مِفصلٌ جَدِلُ

---

(١) الخياط المعتزلى : الانتصار والرد على ابن الروندى ص ٧٢ .

(٢) محاضرات الأدباء للأصفهانى ١ : ٤٥ .

(٣) الذين يؤمنون بالخير والشر والصراع بينهما .

ومات لصالح هذا ابن فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظام وهو غلام حدث ، فرآه حزيناً فقال له : لا أعرف لجزعك وجها إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع (حصاده فى وقت معين) فقال : إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك قال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شكّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وشكّ فيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان . قال أبو الهذيل : فشكّ أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات ، وشكّ أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأه [١] .

ويحفل كتابه الانتصار والرد على ابن الروندى بمجالس ومناظرات رائعة كان النصر فيها دائما لأئمة المعتزلة [٢] .

وقد اتصل كثير من المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، وتزودوا منها بما يساعدهم ، ويضمن انتصاراتهم ، كما فعل أبو الهذيل العلاف . وابراهيم النظام [٣] ، ودرسوا كذلك المذاهب الأخرى ليتعرفوا مواطن الضعف فيها وليعدّوا أنفسهم للرد عليها . ومن أشهر هؤلاء واصل بن عطاء الذى يقول عنه عمرو بن عبيد : ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة ، والدهرية ، والمرجئة ، وسائر المخالفين والرد عليهم ، منه [٤] .

وكانت مسألة خلق القرآن أهم موضوع جدلى أثير فى عهد المأمون ، وقد اعتنق المأمون رأى المعتزلة فيه ، ولم يدع للناس حرية ما يعتقدون فى هذه المسألة ، بل رأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مطعون فى دينه ، وكانت وسيلته الأولى الإقناع والمناظرة ، ومن ثم حفلت المجالس بالقول والجدل فى هذا الموضوع الخطير ، وقد دونت كتب الأدب والتاريخ

---

(١) أحمد بن يحيى المرتضى : المنية والأمل ص ٢٧ .

(٢) انظر مثلا الصفحات ٣٠ — ٣٦ ، ١٤٤ — ١٥٢ .

(٣) انظر المنية والأمل ص ٢٦ . (٤) انظر المنية والأمل ص ١٨ .

صوراً من هذه المناظرات [٥] التى عاشت بعد المأمون طيلة عهدى المعتصم والواثق وصدراً من عهد المتوكل [٦] .

ولندع الآن عهد المأمون الزاخر بالعلم والمعرفة ، ولنسر إلى العهود التالية له :

فى مجلس من مجالس الأدب والمناظرة التى عقدت فى عصر الواثق تلاحى مخارق وحسين بن الضحاك فى أبى العتاهية وأبى نواس أيهما أشعر ، وكانت الملاحاة على مال ، فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما يتناظران فيه ، فاختار الحسين بن الضحاك شيئاً من شعر أبى نواس جيداً قوياً لمعرفته بذلك ، واختار مخارق شيئاً من شعر أبى العتاهية ضعيفاً غزلا لا لشىء عرفه فيه إلا لأنه استملحه وغنّاه ، واختار الواثق أبا محلم ليتحاكما إليه بالشعرين ، فحكم أبو محلم لحسين بن الضحاك . فقال مخارق : لم أحسن الاختيار للشعر ، ولأبى العتاهية خير مما اخترت وقد اختار حسين أجود ما قدر عليه لأبى نواس لأنه أعلم منى بالشعر ولكنا نتناظر بالشاعرين ففيهما وقع الجدال فحكم أبو محلم لأبى نواس وقال : هو أشعر ، وأذهب فى فنون الشعر ، وأكثر إحساناً فى جميع تصرفه . فأمر الواثق بدفع المال إلى الحسين بن الضحاك وانكسر مخارق [١] .

الصالونات الأدبية فى الممالك المستقلة هنا وهناك :

وبموت الواثق انتهى عهد الخلفاء الأقوياء ، ذوى الهيبة والجلال ، وبدأ عهد الانحلال السياسى ، ولكن بعد أن أشرب القادة والأمراء حب العلم والأدب ، وأصبحوا يجدون متعة ولذة فى حماية العلم ، وتكوين

---

(١) انظر طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ — ٢١٥ .

(٢) ابتدأت محنة خلق القرآن — كما اصطلح على تسميتها — سنة ٢١٨ هـ وظلت حتى سنة ٢٣٤ هـ . واقرأ تفاصيلها فى « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف ج ٣ ص ١٨٢ وما بعدها من الطبعة الثامنة .

(٣) الأغانى ٦ : ١٨٦ .

مجالس له على غرار تلك التى كان يعقدها الخلفاء . وعلى هذا فالتدهور السياسى صحبته نهضة علمية ، وضعف العاصمة واضمحلالها نشأ عنه عدة عواصم، كل منها مثلت دور بغداد بنجاح عظيم ، يقول Khuda Bukhsh [1]

« وفى الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم لها العالم الإسلامى ، قامت أسر حاكمة ؛ وكانت هذه ينافس بعضها بعضاً فى حماية العلم والمتعلمين ، فأصبحت القصور الجديدة فى العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة ، وكانت تلك القصور وما فيها من مجالس فى ذلك العهد تقوم مقام مجالس البحث العلمى اليوم » [2] .

ولا يتسع المقام هنا بطبيعة الحال أن نلم بهذه العواصم جميعاً ، وأن نتتبع كل قصر من هذه القصور لنرى ما أسداه للعلم والتعليم من فضل ، وعلى هذا فسنجترىء الموضوع بإعطاء أمثلة قليلة :

ذكر أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة [3] أن مجلس الوزير ابن الفرات (أبو الفضل جعفر) انعقد مرة سنة ٣٢٦ ، وفيه أبو سعيد السيرافى ، والخالدى ، وابن الأخشاد ، والكتبى ، وابن أبى بشر ، وابن رباح ، وابن كعب ، وقدامة بن جعفر ، والزهدى ، وعلى بن عيسى الجراح ، وابن أبى فراس ، وابن رشيد ، وابن عبد العزيز الهاشمى ، وابن يحيى العلوى ، وأبو بشر متّى ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزبانى صاحب آل سامان . فقال الوزير : ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق ؟ فإنه يقول : لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، إلا بما حويناه من المنطق ... فأحجم القوم . فقال ابن الفرات : والله إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته ، فإنى لأعدّكم فى العلم بحاراً .. فقال السيرافى : أعذِرْ أيها الوزير ؛ فإن

---

(1) Contribution to the History of Islamic Cvilization p. 184.

(2) انظر ايضا ظهر الاسلام : ٢٨٧ .

(3) ج ١ من ص ١٠٨ الى ص ١٢٨ .

العلم المصون فى الصدر ، غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة والعقول الحادة ... فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك راجع إلى الجماعة بفضلك ، فقبل أبو سعيد ودارت مناقشة طريفة ممتعة ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى . نورد هنا منها مسألة فرعية وصلت لها المناقشة :

قال أبو سعيد : ما تقول فى قول القائل : زيد أفضل الأخوة ؟

قال متى : صحيح .

قال أبو سعيد : فما تقول إن قال : زيد أفضل إخوته ؟

قال متى : صحيح أيضاً .

قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فغَصَّ متى بريقه ولم يُجِبْ .

فقال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلا عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لى ما هذا .

قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس ، إذا حضرت الحلقة استفدت .

قال ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس .

قال أبو سعيد : زيد أفضل الأخوة صحيح لأن زيداً بعض الأخوة وأحدُهم ، فكأنك تقول حمارك أفره الحمير ، وأما زيد أفضل إخوته فخطأ لأن زيداً ليس بعض إخوته إذ أن إخوته غيره فكأنك قلت حمارك أفره البغال .

وهناك مجلس آخر ذو شأن كبير فى تاريخ الصالونات الأدبية ، ذلك هو مجلس أبى عبد الله الحسين بن سعدان (٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة ، فقد سأل ابن السعدان أبا حيان التوحيدى الأديب الكبير أن يمضى أمسياته فى مجلسه ، واستجاب أبو حيان لدعوة الوزير ، فكانا يناقشان موضوعات فلسفية بالغــة الأهمية كحياة الإنسان ، وطبيعة الروح ، ومميزات ذوى الشأن من المعاصرين . ومواهب العرب البارزة موازنةً بمواهب غير العرب من الجنسيات الأخرى ، وأيهما أفيد للحاكم وأدعم للملك : كتبة الحسابات أم كتبة الرسائل ، وامتياز علوم اللغة وقواعدها على المنطق [(١)] .

وكان مجلس هذا الوزير حافلا بجلة العلماء والأدباء فى ذلك العصر . منهم — مع أبى حيان — أبو زرعة الفليسوف النصرانى ، وابن مسكويه صاحب تهذيب الأخلاق ، وتجارب الأمم ، وأبو الوفاء المهندس ، وغيرهم ، وكان هذا الوزير يباهى بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له ؟ مثل المهلبى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، فيقول عن مجالسيه : ما لهذه الجماعة شكل ولا نظير ، وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويتصايحون [(٢)] .

وقد طلب أبو الوفاء المهندس من أبى حيان أن يجمع له هذه المجالس فى كتاب على ما فيها من هزل وجد ، وخير وشر ، وباد ومكتوم ، فاستجاب له أبو حيان [(٣)] فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة ، هذا العرض الرائع لهذه المناقشــات البديعة ، وهى كما يرى من يطالعها إما أفكــار جدت فى ذلك المجلس ، أو حكاية مناظرات حدثت من قبل كالمناظرة التى

---

(١) Von Grunebaum : The Journal of General Education vol. IV October 1949.

(٢) رسالة الصداقة والصديق ص ٣٢ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ص ٧ .

حدثت فى مجلس الوزير ابن الفرات بـين أبى سعيد السـيرافى ومتى المنطقى وقد سبق إيرادها .

وهناك قصر آخر لو لم يحظ بغير المتنبى يغرد فيه لكفى لتخليده ورفع شأنه ، ذلك هو قصر سيف الدولة الحمدانى الذى يحدثنا عنه Prfessor Gibb (١) فيقول : وانتقل تيار الأدب العربى لمدة بضع سـنين إلى شمالى سوريا واتخذ مقراً له مدينة حلب عاصمة الدولة الحمدانية الشيعية المذهب ، وقد استطاع سيف الدولة أن يجمع حوله فى مملكته الصغيرة جماعة قل أن تضـارع ، إذ كانت متعددة النواحى فى العبقرية ، وقد كان كرمه الفائق سبباً فى أن ينجذب نحوه ذوو الرياسـة من أدبـاء العصر وعلمائه فأحاطوا اسمه بإطار من السمعة الخالدة .

ويقول Nicholson (٢) عن قصر الغزنويين : إن محمود الغزنوى كان شديد الرغبة والحماس فى أن ينال العظمة التى يستحقها ملك جعل من بلاطه ملتقى تدور فيه فنون المناقشات فى الآداب والعلوم التى وصل لها أساطين العلماء فى ذلك العهد . ويعد فيليب حتى (٣) بعض جلساء محمود الغزنوى بقوله : إن مجلس العباقرة ببلاط محمود الغزنوى كان يزدان بالعتبى المؤرخ العربى ، والبيرونى المؤلف والعالم الشهير ، كمـا سطع فيه الفردوسى الشاعر الفارسى اللامع . ويقول العينى (٤) : وكان السلطان محمود يحب العلم والعلماء ، ويكرمهم ويجالسهم ، ويحسن إليهم ، وكانت تعقد مناظرات طويلة بين يديه .

وحينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الإسلامى ، ظهر اسم الوزير نظام الملك الذى كان السلطان الحقيقى لدولة السلاجقة الأولى ، وكان هو نفسه فقيهاً وعالماً (٥) ، فكـانت تعقـد المناظرات فى

(١) Arabic Literature p. 61.

(٢) A Literary History of the Araps p. 269.

(٣) History of the Arabs p. 495.

(٤) عقد الجمان ١٦ : ٢٩٧ مخطوط .

(٥) انظر طبقات الشافعية ٣ : ١٣٢ — ١٤٥ .

حضرته ، وقد خرج له الغزالى مرة وناظر الأئمة والعلماء فى مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ... فولاه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد [١] . وطالما جرت مناظرات بين أبى إسحق الشيرازى وإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى بحضرة نظام الملك [٢] .

وعند قيام أمارات الأتابك والشاهات على أنقاض السلاجقة ، كان لنور الدين زنكى الذى أصبح ملكا لسورية شغف كبير برعاية الثقافة ، وكان لأهل العلم عنده مجلس عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة [٣] .

ولنعرج الآن على مصر لنخصص للحديث عنها مساحة محـدودة بقدر ما يسمح المقام ؛ فقد بدأت الصالونات الأدبية فى القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية ، وهى أول دولة استقلت بمصر منذ فتحها العرب ؛ ويروى ابن زولاق : [٤] « أنه فى عهد الطولونيين والإخشيديين لم تكن هناك مدارس ، فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء » . وفى بلاط الإخشيد كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء ، وقد تربى كافور فى هذا البلاط وترقى إلى أن جعله الإخشـيد « أتابك » ولديه ومعلمهما [٥] فلما تسلم كـافور الأمر أدنى الشـعراء وأجازهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السيرُ وأخبار الدولة الأموية والعباسية [٦] ، وأصبح كافور حامياً للعلم والعلماء ، وامتاز صالونه بأن ازدهى بوجود المتنبى بين جماعته ينشد من شعره الخالد :

ولكن بالفسـطاط بحراً أزَرْتُه ... حياتى ونصحى والهوى والقوافيا

وجرداً مددنا بين آذانها القنـا ... فبتن خفافاً يتبعْن العواليـا

تجاذب فرسان الصباح أعنـة ... كأن على الأعناق منها أفاعيـا

---

(١) الاحياء ١ : ٣ . (٢) ابن الأثير ١٠ : ٨١ .
(٣) مفرج الكروب : ١٦٥ مخطوط . (٤) اخبار سيبويه المصرى : ١٩ .
(٥) ابن خلكان ١ : ٦١٤ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ : ٦ .

بعزم يسير الجسمُ فى السرج راكباً ... به ، ويسير القلب فى الجسم ماشيا
قواصدَ كافور ، توارك غـيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنـا إنسان عـين زمـانه ... وخلَّت بياضـا خلفهـا ومآقيا
نجوز عليها المحسنين إلى الـذى ... نرى عندهم إحسـانه والأياديا
فتى ما سرينا فى ظهـور جدودنا ... إلى عصره إلا نرجى التلاقيا [1]

وعلى كل حال فإن مجالس الطولونيين والإخشيديين لتذبل وتتضاءل بالقياس إلى صالونات الفاطميين الباهرة ، فلقد سار الفاطميون ، كما يقول سيد أمير على [2] على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر ، وقوامُ هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعاً لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون ، وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكاناً رابعاً ، وهكذا ، كل واحد من هؤلاء يرتدى الخلعة الجامعية التى تشبه (الروب) الذى يرتديه حملة الدرجات العلمية العليا فى العهد الحاضر .

ورتب يعقـوب بن كلس مجلساً فى داره فى يوم الثلاثاء من كـل أسبوع ، يجتمع فيه العلماء والفقهاء والقضاة ، وتجرى بينهم المناظرات وتصرف لهم المنح والأرزاق [3] .

وفى سنة ٤٠٣ هـ أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلَعَ على الجميع ووصلهم [1] .

(١) ديوان المتنبى شرح العكبرى ٤ : ٢٨٥ — ٢٨٦ .
(٢) A Short History of the Saracens p. 614.
(٣) المقريزى الخطط ٢ : ٣٤١ .
(٤) الخطط ١ : ٤٥٩ .

وعندما انتقلت السلطة الفعلية من الخلفاء الفاطميين إلى الوزراء العظام ، لم يكن هؤلاء أقل حماسة من الخلفاء ؛ فقد اجتمع فى بلاط الملك الصالح طلائع بن رُزّيك أكبر أعيان أهل الأدب ، مثل القاضى الجليس أبى المعالى عبد العزيز بن الحباب ، والموفق بن الخلال ، وابن قادوس ، والمهذب بن الزبير ، وغيرهم ، وقد وصفهم عمارة اليمنى بقوله [1] : وما فى هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، وما زِلْتُ أحذو على طرائقهم ، وأعرض خبرتى فى سوابقهم ، حتى أثبتونى فى جرائدهم • ويقول ابن تغرى بردى [2] : « إن الصالح جعل له مجلساً فى أكثر الليالى بحضرة أهل الأدب ، ونظم هو شعراً ودوّنه ، وكان الناس يُهرَعون إلى نقل شعره » وفى أحد مجالسه أنشد أحد جلسائه بيتين من الأوزان التى يسميها العراقيون • الزكالش ، ويسميها المصريون كان وكان ونصهما :

كنّى فتيلةْ قنديل ونا غريقْ فى دموعى (ونا أى وأنا)
النار بين ضلوعى أموتْ غريقْ وحريقْ (كنّى أى كأنى)

فتقدم الصالح إلى جلسائه ، أن يضعوا المعنى فى شعر عربى فصيح ، فقال الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب :

وله من الزفرات لفحُ صواعق ولـه من العَبَرات لُجّ بحارِ
كذُبالة القنديل قُدّر هُلْكها ما بين مـاء فى الزجاج ونار

وقال القاضى المهذب بن الزبير :

كأنى — وقد سالت سيولُ مدامعى فأذكت حريقاً فى الحشا والترائب —
زبالةُ قِنديل تعوم بمائها وتشتعلُ فيها النارُ من كل جانب

(١) النكت العصرية ص ٣٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٢ .

وقال الصالح نفسه :

وإذا تَشَبُّ النارُ بين أضالعي ... قابلتها من عَبرتي بسيول
فأنا الحريق بل الغريق أموت في ... هذا وذا ، كذُبالة القنديل [١]

وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجب ، وأعلام أفذاذ ، لهم قدم راسخة فى العلم والفضل ، من أمثال الملك المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين ، ومن أمثال القاضى الفاضل الوزير المشهور ، فلا غرو أن يُعنى أمثال هؤلاء بالصالونات والمجالس الأدبية ، وكان مجلس القاضى الفاضل يلتقى فيه عِليّة القوم ، كتاج الدين الكندى ، وفرخشاه ابن شاهنشاه ، وفى إحدى الجلسات أعجب فرخشاه بتاج الدين فقبض على يده وأمرَ أن يأخذه لبيته ليكون زينة صالونه [٢] .

وقد ظل نشاط الصالونات الأدبية واضحاً فى عهد المماليك ، وليس لى أن أتتبعه بعد ذلك لأعطى نماذج منه ، وحسبى أن أذكر أن الدكتور عبد الوهاب عزام جمع نخبة ونشرها من « مجالس السلطان الغورى » [٣] .

---

(١) على بن ظافر : بدائع البدائه ص ١٣٣ .
(٢) محمود دهان : المقصورة التاجية ص ١١
(٣) مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤١ .

٧ ــ البـــادية

تركزت ثقافة العرب فى العهد الجاهلى فى الأدب العربى من شعر ونثر وخطابة ؛ فكان الرجل يُمَدّ مثقفاً ما كان شاعراً جزلا ، أو ناثراً حكيما ، أو خطيباً مفوهاً ، وكانت عواطف الجماهير تتأثر بالأدب تأثراً عميقاً ، فهى تنقاد للحرب بقصيدة حماسية ، أو خطبة ملتهبة ، كما تجنح إلى السلم بأبيات للموادعة ، وعبارات للصفح والإخاء • وإعجابُ العرب فى العهد الجاهلى بلغتهم ، وتقديرهم لها ، استمر بل زاد بظهور الإسلام ؛ إذ كان الرسول نفسه عربياً متفنناً فى القول ، ثم كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية •

وكانت اللغة العربية حتى عصر صدر الإسلام فصيحة سليمة ، إلا أن اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة سبَّب وجود لحن قليل بينهم ، وكان ارتكاب ذلك اللحن عاراً لا يغتفر وزلة لا تمحى ؛ فلقد رُوِى أن رجلا لحن فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرسول لأصحابه : أرشدوا أخاكم فقد ضل •

اختلاط العرب بغير العرب وأثره على اللغة :

ومنذ عهد عمر زاد الاختلاط بيـن العرب والأعاجم ؛ إذ انتشر الإسلام واقتحم بلادَ الفرس وبلاد الروم ، وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين ، فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة ، ثم أصبحت عواصم الامبراطورية الإسلامية (المدينة فدمشق ثم بغداد) مدناً عامة يَهرَع الناس لها من كل فج ، مهما اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ، وحفلت مدن أخرى كالكوفة والبصرة بعدد كبير من الأجانب ، وبخاصة جماهير الايرانيين الذين كانوا أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الإسلام [١] ، وأقبل العرب على التزوج من الأجنبيات إقبالا ملحوظا ، وفى الأمكنة المحسة كان

---

(١) Wellhausen : Arab Kingdom and its Fall p. 71.

يجتمع فيها من اعتنقوا الإسلام من العرب وغيرهم فى موسم الحج . حيث يقضون بضعة أسابيع .

وكانت اللغة العربية هى لغة التفاهم بطبيعة الحال سواء فى البيوت والقرى ، أو فى المدن والعواصم ، أو فى موسم الحج . ولكن غير العرب لم يستطيعوا أن يسيطروا على القوانين المعقدة للغة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينطقوا بها معربة إعراباً صحيحاً : ففسد اللسان العربى وظهرت لغة يسميها الجاحظ لغة المولدين أو البلديين [١] . ولم يقف الخطأ عند غير العرب ، بل تعداهم إلى العرب أنفسهم ، الذين ظهر هذا اللحن بينهم وفشا .

شيوع اللحن واستهجانه :

وكان اللحن — حتى بعد انتشاره — يُنْظَر إليه على أنه شيء مستهجن ، يدعو إلى النفور والامتهان ؛ رُوِيَ أن كاتبا لأبى موسى الأشعرى كتب إلى عمر : « من أبو موسى ... » فكتب عمر إلى أبى موسى : عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطاً [٢] . ودخل أعرابى السوق مرة فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح [٣] . وهناك حكايات كثيرة من هذا اللون نمسك عن ذكرها تحاشيا للاستطراد [٤] . ولكن الموقف زاد خطورة عندما تعدى اللحن عامة الناس إلى خاصتهم ، فوقع فيه الوليد بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف وأبو حنيفة النعمان ، وبشر المريسى ، وشبيب بن شيبة ؛ وغيرهم من الخلفاء والعظماء [٥] . ثم كان اللحن أكثر خطراً وأدعى لاشمئزاز النفس عندما وقع فى القرآن

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٦٨ . (٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٤ .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ، ابن عبد البر : أدب المجالسة مخطوط ورقة ٥٥ .

(٤) انظر البيان والتبيين ٢ : ٥ ، ٦ وابن قتيبة عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ وابن عبد البر : أدب المجالسة ٥٥ والعقد الفريد ١ : ١٨ .

(٥) العقد الفريد ١ : ١٨ — ٢٠ ، ابن قتيبة ١ : ١٥٩ البيان ٢ : ٣ — ٥ .

فغيّر المعنى تغييراً يؤدى بصاحبه إلى الكفر لو كان مقصوداً ، كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة « هو الله الخالق البارئ المصوِّر » [1] إذ قرأها قارئ المصوَّر بفتح الواو ، وكالأعرابى الذى أقرأه رجل سورة براءة ولحن فى تعليمه الآيــة الكريمــة « إن الله برئ من المشركـين ورسولُه » [2] فقرأها له الرجل بكسر اللام فى رسوله فقال الأعرابى : إن يكن الله بريئاً من رسوله فأنا أبرأ منه أيضا [3] .

ويقول ابن خلدون [4] متحدثا عن تاريخ اللحن فى اللغة العربية ما يلى : واللغة ملكة فى ألسنة القوم ، يأخذها الآخر من الأول ، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الإسلام ، وفارق العربُ الحجازَ لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى اندفعت من المتعربين ، والسمعُ أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما أُلقِىَ إليها مما يغايرها .

فصحاء البدو يجلسون معلّمين :

وبينما كان اللحن يفشو فى الحضر حيث اختلط العرب بالأعاجم ، بقيت اللغة سليمة تماماً فى الصحراء التى لم تجذب إليها الأعاجم ولا من فسدت لغتهم ، وقد سبق إيراد قصة البدوى الذى جئ به ليكون حكما فاصلا بين سيبويه والكسائى فى الخلاف اللغوى الذى نجم بين الاثنين حول صحة النطق بجملة معينة ، وقد أغرى الأمينُ البدوىَّ أن ينصر الكسائى ، وقَبِل البدوى فكرة التحيز ، ولكنه قال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فإنه لا يسبق إلا للصواب [5] . وعلى هذا أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة ، وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس . ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الحضر ، واتخذوا التعليم مهنة لهم ، ومن هؤلاء أبو البيدا الرياحى [6] وأبو جاموس ثور بن يزيد الذى تعلم الفصاحة .

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٤ . (٢) سورة التوبة الآية الثالثة .
(٣) طبقات الأدباء ص ٨ . (٤) المقدمة ص ٤٠٣ .
(٥) ابن خلكان ١ : ٤٩٦ (٦) الفهرست ص ٦٦ .

منه عبد الله بن المقفع [١] ، وأبو العيثل عبد الله خليد [٢] وعبد الله بن عمرو ابن أبى صبح [٣] .

البادية تجذب الأمراء والعلماء :

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس الى البدو فى القرى والمدن ليتعلموا منهم ، نجد آخرين لا يكتفون بذلك وإنما يهجرون الحضر ويضربون فى البادية ليتعلموا اللغة فى منبعها الأصيل ، وليتحاشوا سماع لغة المولدين والبلديين ، وعلى هذا نجد البادية فى القرنين الأولين للهجرة تقوم بدور المدرسة فى الوقت الحاضر [٤] ويقول Hitti فى ذلك [٥] : إن صحراء سورية كانت مدرسة الأمراء الأمويين ، فإليها أوفد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ؛ وليتذوقوا فنون الشعر والأدب ، وقد أرسل معاوية إليها ابنه وولى عهده يزيد . ولما كان الوليد بن عبد الملك لم يرسل للبادية إيثاراً لراحته وهناءة عيشه فإنه لم يتقن اللغة وقواعدها ، وكان كثير الأخطاء فيها [٦] . ومن أجل هذا أثر عن أبيه أنه كان يقول : أضر بنا حبنا للوليد فلم نرسله للبادية [٧] . ولم تقتصر هذه السنة على الأمراء الأمويين فإن المعتصم بن هرون الرشيد أرسل أيضاً إلى البادية للغرض نفسه [٨] .

ولم تكن الصحراء مدرسة الأمراء فحسب وانما قصدها عدد كبير من العلماء الأعلام نذكر منهم :

ـ الخليل بن أحمد (٦٠ هـ) الذى سأله الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة [٩] .

ـ بشار بن برد (١٦٧ هـ) وقد قيل له مرة : « ليس لأحد من شعراء

---

(١) الفهرست ص ٦٧ . (٢) المصدر نفسه ص ٧٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ .
(٤) Encyclopaedia of Education 3; 1112.
(٥) History of the Arabs p. 253.
(٦) العقد الفريد ٢ : ١٨ . (٧) العقد الفريد ٢ : ١٩ .
(٨) العقد الفريد ١ : ٣٦٥ . (٩) ابن الانبارى ص ٨٣ .

العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب وشكّ فيه ، وأنه ليس فى شعرك ما يُشَكُّ فيه » قال : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُلِدت مهنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت ، إلى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ » [١] ؟

ـ الكسائى (١٨٢ هـ) خرج إلى البادية وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه [٢] .

ـ الشافعى (٢٠٤ هـ) وهو يقـول فى وصف حيـاته الأولى : « ... ثم إنى خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلمَ كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار ، وأيام العرب [٣] .

ـ الرياشى أبو الفضل العباس بن الفرج (٢٥٧ هـ) وكان يفخر بأنه : « أخذ اللغة من حَرَشَةِ الضباب ، وأَكَلَةِ اليرابيع ، وأخذهـا كثيرون غيرى من أهل السواد أَكَلَةِ الكواميخ والشواريز [٤] » .

وكان الذين يفدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة الناس ، إذ أن اللغة الفصحى كانت وحدها اللغة المستعملة فى هذه البقاع ، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم انضموا إلى الحلقات العلمية التى كان يعقدها كثير مـن مثقفى البدو وأفذاذهم ليرووا فيها أجود الشعر ويقرءوا سيرة العرب وتاريخ وقائعهم وحياة أبطالهم السابقين ، وكان من هؤلاء أبو ملك عمر بن كركرة ، وأبو ثروان العكلى ، وأبو هندام كلاب بن حمزة [٥] .

---

(١) الاغانى ٣ : ٢٦ .　　(٢) ابن الانبارى ٨٣ — ٨٤ .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ .
(٤) الفهرست ص ٨٦ .
(٥) الفهرست ٦٦ ، ٦٩ ، ١٢٢ بالترتيب .

٨ — المسجد

تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن المكان الرئيسى لنشر الثقافة الإسلامية ، وقد قامت حلقات الدراسة فى المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مرّ السنين والقرون ، وفى مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع . ولعل السبب فى جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أن الدراسات فى سنى الإسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال ، ثم إن المسلمين فى عصورهم الأولى توسعوا فى فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة ، ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء [1] .

اسباب التبكير بإنشاء المساجد :

والذى دعا المسلمين إلى التبكير بإنشاء المسجد هو إحساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم ، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا — فيما يبدو — أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئناس ولا استئذان وربما جارى المسلمون جيرانهم من اليهود والنصارى ، فقد كان لأولئك وهؤلاء بيع وكنائس يذكر فيها اسم الله ويتَعبد فيها ، بل لماذا لا تقول إن العرب المسلمين قلدوا العرب قبل الإسلام فقد كان لهؤلاء متعبَّدهم المقدس (البيت الحرام) الذى رفع قواعدَه إبراهيمُ وإسماعيل قبل الإسلام بزمن طويل ، والذى كان عند قيام الإسلام كعبة يحج لها العرب من كل أصقاع الجزيرة العربية ، ويتعبدون فيها [2] إذ جعله الله « سواء

---

(١) انظر مادة مسجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ٤٤٢ — ٤٤٣ .

للطائفين والقائمين والركع السجود » [١] • وعلى هذا فقد كان عبدة الأصنام يضعون فيه أصنامهم ، وكان الموحدون يؤدون فيه عباداتهم ، فلما جاء الإسلام عظمه المسلمون أيضاً وأجلّوه ، حتى قبل أن تزول عنه الأصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركنين الركن الأسود والركن اليمانى [٢] •

فلما أرغم عليه السلام على الهجرة وقف ونظر إلى مكة وقال : والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت [٣] •

أما وقد أبعد المسلمون عن مكة ، وحرّموا الالتقاء والعبادة فى البيت الحرام ، فليفكروا سريعاً فى أن يعتاضوا به مكاناً آخر ، وقد كان ، فإن الرسول وهو فى طريقه إلى المدينة مهاجراً أقام بقُباء بضعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا » [٤] ويروى البلاذرى [٥] إن هذا المسجد أسسه الذين هاجروا إلى المدينة قبل رسول الله • ثم إن الرسول لما دخل المدينة بنى مسجده بالمربد ، وعمل فيه بنفسه ، ليشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فى العمل [٦] • ويروى البلاذرى وابن هشام روايات أخرى تفيد أن الآية السابقة نزلت فى هذا المسجد لا فى مسجد قباء •

---

(١) سورة الحج الآية ٢٥ • (٢) ابن هشام ص ٢١٨ •

(٣) الروض الأنف للسهيلى ٢ : ٣ •

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٩ وانظر فى ذلك ابن هشام ٢ : ١١ ، الطبرى ١ : ٣ : ١٢٥٩ •

(٥) فتوح البلدان ص ١٧ •

(٦) ابن هشام ٢ : ١٢ — الطبرى ١ : ٣ : ١٢٥٩ — البلاذرى ٢٠ وفتوح البلدان ص ١٧ •

وكانت تعقد حلقات العلم فى مسجد قباء [١] كما كان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم [٢] .

وكثرت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون ، أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها ، فلقد رُوِىَ أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتبَ إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك [٣] .

وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة مطردة وبخاصة فى العاصمة ، فما إن جاء القرن الثالث حتى كانت بغداد غاصّة بالمساجد ، إذ يحكى اليعقوبى [٤] أنه عدّ فيها ٣٠٠٠٠ مسجد [٥] .

ولم يختلف الحال فى مصر اختلافا بينا عنه فى بغداد ، إلا أنه يبدو أن الجوامع فى مصر كانت بطيئة الانتشار ، وأول جوامع القاهرة هو جامع عمرو بن العاص الذى يحمل اسمه حتى الآن ، وقد بناه عقب فتح مصر . وحتى سنة ١٣٣ هـ لم يكن بالفسطاط جامع غير جامع عمرو ، وفى هذه السنة قدم عبد الله بن على يقود فيلقا من جيش العباسيين قضى به على مروان بن محمد الخليفة الأموى الذى هرب إلى مصر عقب انتصار العباسيين بخراسان والشام وقد عسكر عبد الله بن على بجيشه شمالى الفسطاط حيث أنشئت مساكن عديدة ، ومنشآت كثيرة ، من بينها جامع

---

(١) الاحياء ١ : ٥٢ . (٢) البخارى : باب الصلاة .
(٣) الخطط ٢ : ٢٤٦ — حسن المحاضرة ٢ : ١٤٩ .
(٤) البلدان ص ٢٥٠ .
(٥) لا يتهم القارىء اليعقوبى بالمبالغة ، اذ كانت المساجد منتشرة جدا بخلاف الجوامع ، حتى انه يقال أن كل بيت كانت تعد به حجرة للصلاة يطلق عليها المسجد .

العسكر . وفى سنة ٢٦٥ هـ أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطائع ، فانتقلت إليه صلاة الجمعة التى كانت تقام فى جامع العسكر منذ إنشائه [١] .

وفى سنة ٣٦٠ هـ بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر ، ولكنه خصص منذ سنة ٣٧٨ هـ للدراسات والأبحاث العلمية ، وظل منذ ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر جامعة من الجامعات الأولى فى العالم الإسلامى [٢] . وقد بدأ العزيز بالله يبنى جامعاً آخر ، ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكمله ابنه الحاكم ، ومن ثم أصبح يطلق عليه جامع الحاكم ، وقد بنى الحاكم أيضا جامع المقس وجامع راشدة ، وتوقف إنشاء الجوامع إلى أن جاء الأيوبيون فكان بمصر هذه الجوامع الست فقط [٣] . (الجوامع لصلاة الجمعة ، أما المساجد للصلاة فى غير الجمعة فكانت كثيرة) .

هذا من حيث الجوامع التى كانت تقام فيها صلاة الجمعة ، أما المساجد وهى التى كانت تستعمل لتأدية الصلوات الخمس فقد كانت — كالحال فى بغداد — كثيرة الانتشار ، فمثلا يتحدث ابن جبير [٤] عن مساجد الاسكندرية بقوله : « وهى أكثر بلاد الله مساجد ، حتى إن منهم من يقول إن مساجدها ١٢٫٠٠٠ وبالجملة فهى كثيرة جداً ؛ تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع » .

نماذج من المساجد التى ازدهر بها العلم :

وسنتحدث فيما يلى عن التعليم فى الجوامع فنختار ثلاثة منها [٥] لنعطى فكرة سريعة عن التعليم فيها ولنصف بإيجاز حلقات العلم التى تكونت بها :

---

(١) انظر تاريخ الجامع الطولونى لمحمد عكوش .

(٢) Lane-Poole : Cairo : 123 - 124.

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٤٤ — ٢٤٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٤٨ .

(٤) الرحلة ص ٤٢ .

(٥) لن نرتب هذه الجوامع تبعا لتاريخ انشائها ، وإنما سنرتبها ترتيبا يناسب الفكرة التى نبحث بقدر الامكان فى تأليف هذا الكتاب وهى الحديث من بغداد فدمشق فالقاهرة .

جامع المنصور :

اتخذ المنصور أهبته لبناء عاصمة جديدة للعالم الإسلامي ، وقد بدأ العمل سنة ١٤٥ هـ لتشييد عاصمة تزدان بقصر الذهب وجامع المنصور [١] ، هي مدينة بغداد وقد كلفه ذلك نقلاً عن ياقوت [٢] ثمانية عشر مليوناً من الدنانير ، وقد جُدِّد ذلك الجامع في عهد الرشيد ، كما زيد فيه وناله كثير من الإصلاح والتعمير بعد ذلك [٣] .

وقد كان ذلك المسجد قبلة أنظار الأساتذة والطلاب في ذلك العهد ، ومما يدلنا على أنه كان يحتل مكانة سامية في نفوس العلماء أن **الخطيب البغدادي لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات كان من بينها أن يتاح له أن يملي الحديث بجامع المنصور** [٤] . ويبدو أن الحنابلة كانت لهم السيطرة على هذا الجامع في منتصف القرن الخامس الهجري حتى أنهم اعتدوا سنة ٤٥١ على الخطيب البغدادي وآذوه وهو يدرس فيه [٥] . وكان الكسائي يجلس في مسجد المنصور ليقرأ في علوم اللغة ، وكان الفراء والأحمر وابن السعدان بعض تلاميذه [٦] ؛ كما كان أبو العتاهية يملي في ذلك المسجد من شعره ، حدث شيخ من أهل الكوفة أنه دخل ذلك المسجد فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفي على وَرَق الشباب ... وغصونه الخُضْر الرَّطاب

ذهب الشباب وبان عني ... غيرَ منتظَر الإياب

فلأبكينَّ على الشبا ... ب وطيب أيام التصابي

ولأبكينَّ من البلى ... ولأبكينَّ من الخضاب

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٢ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١ : ١٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٥ .

(٤)،(٥) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٦) معجم الأدباء ٤ : ٢٤٣ .

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه . فلما رأى الكوفى ذلك انضم إلى الحلقة وكتب الأبيات ، وسأل عن الشيخ فعرف أنه أبو العتاهية [١] .
وفى مسجد المنصور أملى أبو عمر الزاهد كتابه « الياقوت » ، وقد بدأ يحاضر فى موضوع ذلك الكتاب فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعاد قراءته فهذّبه وزاد عليه [٢] .

جامع دمشق :

كان مسجد دمشق كما يحكى ابن الفقيه [٣] يعد واحداً من عجائب الدنيا الأربع فى ذلك العهد ، ولنقتطف بعض النصوص التى أوحت إلى الناس أن يضعوا هذا الجامع فى ذلك الوضع :

أنْفَقَ الوليد بن عبد الملك على بناء هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين ، وحُمل للوليد حساب النفقات على ثمانية عشر بعيراً .

ظل العمل يجرى فى بناء هذا المسجد مدة ثمانية أعوام ، حتى بلغ ثمن البقل الذى أكله الصناع فى مدة أيام العمل ٦٠٠٠ دينار .

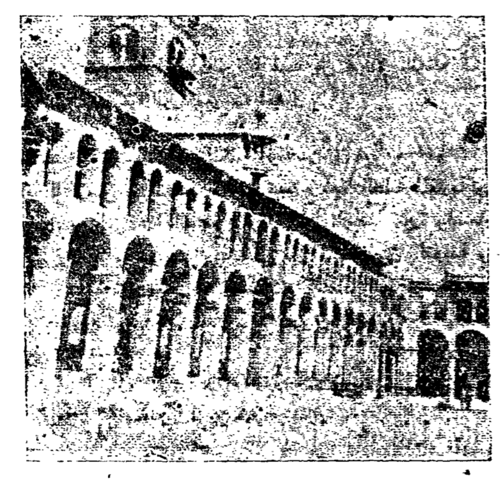
فيه ٦٠٠ سلسلة من الذهب للقناديل .

قالوا إن من عجائب مسجد دمشق أنه لو بقى الرجل فيه مائة سنة لرأى فى كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل [٤] .

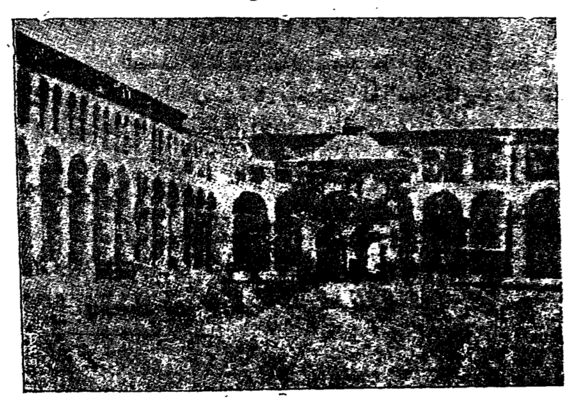
ولا يزال هذا البناء الشامخ يبعث الإعجاب فى النفس وينبىء عما كان له من جلال وعظمة فى تلك الأزمان الخالية ، وقد التقطت لسه بعض الصور إبان زيارتى لمدينة دمشق عام ١٩٥٠ أثبت فيما يلى بعضها :

---

(١) الأغانى ص ٣ : ١٤٣ . (٢) الفهرست ص ١١٢ .
(٣) كتاب البلدان ص ١٠٦ .
(٤) المرجع السابق ١٠٧ - ١٠٨ وانظر أيضاً معجم البلدان ٤ : ٧٦ — ٧٧ .



شكل (١) منظر للجامع الأموى بدمشق



شكل (٢) منظر آخر للجامع الأموى

وقد كان ذلك المسجد مركزاً مهما من مراكز الثقافة فى العــالم الإسلامى ، يحدثنا ابن جبير عنه فيقول [١] :

وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما به أن سارية من سواريه وهى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لهـا وقف معلوم يأخـذه المسـتند إليهـا للمذاكرة والتدريس ... وعن يمين الخارج من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه .

وفى الجانب الغربى بإزاء الجدار مقصورة برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون ...

وفى الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهى من جملة مرافق الطلبة .

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ وكــان الناس يجتمعون إليه فى بكرة كل يوم فيقرأ لهم ... وكان إذا قرأ الحديث فى جامع دمشق سمع صوته فى آخر الجامع [٢] .

جـامع عمرو :

بناه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ثم جدد وزيد عليه بعد ذلك عدة مرات [٣] ، وفى عهد مبكر جداً جلس فيه سليمان بن عتر التجيبى ، ليعظ الناس عن طريق ذكر القصص ، وكان قد جمع له القضاء والقصص ثم عزل

---

(١) الرحلة من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٢ بتقديم وتلخيص .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٥٥ .
(٣) المقريزى . الخطط ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٦ .

عن القضاء وأفرد للقصص ، وقد بدأ عمله سنة ٣٨ هـ ومنذ ذلك التاريخ ظل هذا المسجد مركزاً ثقافيا ومحكمة للقضاء ، وقد أدرك به محمد بن عبد الرحمن الحنفي قبل سنة ٢٤٩ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه [1] . وقد سجل لنا المقريزي [2] بعض التفاصيل عن زوايا ثمان كانت تدرس فيها شتى العلوم بهذا الجامع ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة عن ثلاث منها :

زاوية الإمام الشافعي : يقال إنه درس بها الشافعي فعرفت باسمه ، وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ولم يزل يتولى التدريس بها أعيانُ الفقهاء وجلّة العلماء .

الزاوية المَجْديّة : بصدر الجامع ، رتبها مجد الدين أبو الأشبال وزير الملك الأشرف ، وقرر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة عبد الوهاب البهنسى ووقف على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ويُعَدّ التدريس بها من المناصب الجليلة .

الزاوية الصاحبية : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها مدرسَيْن : أحدهما مالكى والآخر شافعى وجعل عليها وقفاً بظاهر القاهرة .

ولما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر بان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج فوجده فاضلا فى كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب فى كل ما يسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه بارعا فيه ، فسأله عن شعر الطرماح فإذا به يحفظه ، فسئل أن يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لإملائه [3] .

---

(١) المرجع نفسه ٣ : ٢٥٦ . (٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٣) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٤٣٢ .

العلوم التى كانت تدرس بالمساجد :

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الحلقات العلمية بالمساجد لم تكن مقصورة على الدراسات الدينية ، وإنما تعدتها الى سواها من معارف العصور الأولى ، ولا نزاع أن الدراسات الدينية كانت أهم ما يجذب الطلاب ويعنى به المدرسون ، ولكن مع هذا فإن النصوص التى أمامنا تدل على أن المسجد اتسع للعلوم الدينية ولسواها ، وسنشير فيما يلى إلى غير العلوم الدينية من المواد التى كانت تدرس بالمساجد :

اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصرى ، وكان يُعنى هو وأتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، فكان واصل يجلس لأتباعه فى مسجد البصرة ليدرس لهم مبادىء علم الكلام الذى كان حديث الظهور فى ذلك الحين [١] .

وكانت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها إلى المسجد ؛ وقد تحدثنا فيما سبق عن أبى عمر الزاهد وأبى العتاهية ، ونضيف إليها مجلس نفطويه فى مسجد الانباريين [٢] ، ومجلساً آخر فى جامع قرطبة كان لغوى شهير (لم يذكر المقّرى اسمه) يجلس فيه ليدرس قواعد اللغة العربية إلى جمهور كبير من التلاميذ [٣] . وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يلتقيان فى مسجد الكوفة فيتذاكران أشعار العرب وأيامهم ، فاختلفا مرة فى شىء ، فقال الكميت لحماد : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ فقال حماد : هذا والله هو اليقين . فغضب الكميت ، وما زال يناقشه ويسأله حتى أفحمه [٤] .

وفى مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملى من شعره ، وفى إحدى الجلسات كان يملى قصيدته الدالية :

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٢٥٢ .

(٢) الفهرست ١٢١ .

(٣) نفح الطيب ٢ : ٢٥٤ .

(٤) الأغانى ١٥ : ١١٣ — ١١٤ .

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود ....

إذ أقبل أبو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلّم ، فقطع مسلم الإملاء ، ورفعه فى المجلس ، وأقبل عليه يسـألـه أن ينشـده من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها فقبل . . . . [١] .

وكان **العروض** أيضاً يدرس بالمسجد ؛ روى أن أعرابياً دخل مسجد البصرة ، فانتهى إلى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار ، فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم أخذوا فى العروض ، فلما سمع الفعول والمفاعيل ظن أنهم يأتمرون به ، فخرج مسرعاً وهو يقول :

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى   حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لمـا سمعت كلاماً لسـت أعرفـه   كأنه زجل الغربـان والبـوم
ولّيت منفلتـا والله يعصـمنى   من التقحم فى تلك الجراثيم [٢]

ودَرس فى المساجد **الطب والميقات** ؛ يروى السـيوطى [٣] أن دروساً مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى ، وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعـة والقراءات **والطب والميقـات** . ويقـول عبد اللطيف البغدادى إن درساً فى الطب كان يلقى فى الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم [٤] .

---

(١) المرزبانى : الموشح ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٢) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٠ .
(٣) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ .
(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ٢٠٧ .

ثانيا — المـــدارس

مقـــــدمة :

قبل أن نتحدث عن المدارس يجدر بنا أن نناقش بضعة أسئلة وثيقة الصلة بها :

١ — لماذا انتقل التعليم من المساجد إلى المدارس ؟

رغب الناس فى الدراسات الإسلامية منذ ظهور الإسلام ، وكلما مرت السنون ازداد الناس إقبالا على حلقات العلم ، حتى حفل كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة ، فتحدث فى المسجد شيئا قليلا أو كثيرا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها ، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً ، ولهذا نجد أن الأزهر يترك للتدريس ولا يقام به إلا صلاة الجمعة ، غير أن هذا لم يكن حلا طبيعياً للمشكلة ، إذ أن مهمة المساجد الأولى هى أن يصلى فيها الناس ويتعبدوا ، ولا يجوز أن تعطل الصلاة فى المساجد مهما كانت الأسباب .

وشىء آخر ، هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف ، وأصبحت هناك مواد تستدعى دراستها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل ، كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال .

ثم — تبعاً لرأى Von Kremer — كان هناك جماعة شغلوا بالتعليم معظم وقتهم ، وحاولوا أن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ، لكنهم فشلوا فى الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من عمل شىء ليضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم [1] .

---

(1) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 283.

لكل هذه الأسباب وربما لسواها أيضا أُنشِئت المدارس ، وانتقل لها جانب كبير من التعليم •

٢ — ماذا كان الفرق بين المساجد والمدارس ؟

الحق أن التمييز بين الاثنين يكتنفه عند النظرة السريعة شىء غير قليل من الغموض ، ومرجع ذلك أننا نجد مسجداً يُعيَّن به مدرس [١] ، كما نجد بعض المدارس يُعيَّن بها مؤذنون [٢] ، أو تقام بها منابر للخطابة [٣] • ولكن النظرة الفاحصة تُرينا أن هناك خواص للمدرسة لا تختلف :

وأهم هذه الخواص هو الإيوان ، وهو الاسم الذى يرادف (قاعة المحاضرات) فى التعبير الحديث ، وما كانت المدرسة تخلو منه ، فهو أبرز مرافقها وأهمها ، ولا يوجد فى المسجد •

ومن خواص المدرسة أيضا المساكن التى تبنى فيها ليعيش بها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون إليها ، وقد حفلت أغلب مدارس المسلمين بهذه المساكن وبما يتبعها من المرافق كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهها ، ويقول ابن العجمى [٤] : لما ملك نور الدين مدينة حلب وحوّل مسجد السراجين إلى مدرسة بنى فيه مساكن يأوى إليها الفقهاء وبنى كذلك إيواناً •

ثم — بالإضافة إلى هذا — كان المدرس معيناً من قِبَل صاحبها ليعلّم بها بخلافِ المسجد الذى طالما جلس به مدرسون دون أن يعيّنوا تعيينهم فيه •

ومن جهة التلاميذ فقد كان عددهم محدوداً غالباً فى المدارس دون المساجد ، كما كان ينالهم دائماً نصيب من الأوقاف التى توقف على المدارس •

٣ — لماذا عُنيَت مدارس المسلمين بالعلوم الدينية أكثر من سواها ؟

هذه حقيقة يدركها الباحث بسهولة ، فقد كانت هذه العلوم الدينية

---

(١) الروضتين ١ : ١٨٩ . (٢) الخطط ٢ : ٣٧٤ ، ٤٠٠ .
(٣) ابن جبير ٢١٩ .
(٤) كنوز الذهب فى تاريخ حلب ٥٩ أ مخطوط بروما .

هى الشغل الشاغل لمدارس المسلمين ، وقد استنفدت هذه العلوم طاقة النشاط أو أكثرها فى هذه المدارس ، فلم تستفد بها العلوم الدنيوية التى كان للمسلمين فيها فضل كبير فى العهود التى سبقت نشأة المدارس ، وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تدرس العلوم الدينية وبخاصة الفقه على مذهب من المذاهب الأربعة الشهيرة وهى مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

وكان هـذا الاتجاه اسـتجابة لروح العصر الذى أنشئت فيـه هذه المدارس ؛ فإن العراق وسورية ومصر كانت قبل نشأة المدارس يحكمها البويهيون والفاطميون ، وكلا الأسرتين ذات مذهب شيعى ، بل إنهما بذلا وسعهما لنشر المذهب بين رعاياهما ؛ إما بطريق الدعاية ، أو بطريق القهر فى بعض الأحيان [١] .

وقام على أنقاض البويهيين والفاطميين أسرتان كبيرتان تتبعان مذهب أهل السنة وهما السلاجقة والأيوبيون ، وقـد أنشأت هاتان الأسرتـان المدارس لتقاوما بها ما غرسه الشيعة فى نفوس الناس من عقائد يراها أهل السنة زائفة باطلة ، ثم لينشروا بمساعدة هذه المدارس عقائد أهل السنة التى يرونها تطبيقاً للدين الصحيح .

ومن هنا يظهر أن اتجاه المدارس إلى خدمة العلوم الدينية كـان طبيعيا ، بل إنها ربما أنشئت لهذا الغرض على ما سيأتى .

وبعد أن هدأت حركة التشيع وتغلب عليها مذهب أهل السنة ، بدأنا نرى علم الطب تظهر العناية به من جديد ، وينال نصيبه من الرعاية فى المدارس ؛ فقد أمر المستنصر أن يعيَّن طبيب حاذق بمدرسة (المستنصرية) يثبت عنده عشرة طلاب من المسلمين يشتغلون عليه فى علم الطب ويُوصَل إلى الطبيب وطلابه ما يوصَل إلى الفقهاء والمحدِّثين من أجور [٢] .

---

(١) انظر الذهبى : دول الاسلام ١ : ١٧١ .

(٢) المدرسة المستنصرية لناجى معروف ص ٤٦ .

نشاط المدارس فى العالم الإسلامى

يعتبر فتح السلاجقة للعراق ، ودخولهم بغداد فى ٢٥ محرم سنة ٤٤٧ بَدْء انتصار أهل السنة على الشيعيين ، فقد توقفت منذ ذلك الحين سبل النشاط التى كان البويهيون يبذلونها لنشر التشيع بين الناس أو فرضه عليهم فرضاً ، ووجد السلاجقة أنه لا مناص من القيام بعمل مضاد ، ليحرروا عقول الناس مما علق بها مما يعدونه ضلالا ومروقاً ، ورأوا أن نشر العلم خير طريق لذلك ، فإذا أتيح للناس أن يتعلموا الدين الصحيح فهم لا شك سيعرفون الهدى من الضلال ، والخير من الشر ، ونشأت المدارس لهذا الغرض ، وكان ذلك على يد الوزير العظيم نظام الملك الذى وزر لألب أرسلان والملك شاه ، ونُسِبَت هذه المدارس إلى منشئها نظام الملك ، فعرفت باسم « المدارس النظامية » وكانت غاية فى الجلال والعظمة ، ثم كانت كثيرة العدد حفلت بواحدة منها كل مدينة بل كل قرية ، على ما سيأتى فى ترجمة ذلك الوزير •

ولم يتوقف إنشاء المدارس لنفس الغرض منذ ذلك الحين ، إذ سار على ذلك السلاجقة الذين جاءوا بعد عهد نظام الملك ، كما اقتفى أثرَهم الشاهاتُ والأتابك الذين أقاموا أمارات على أنقاض السلاجقة ، ولكن أحداً من هؤلاء وأولئك لا يمكن أن يقارَن بالبطل نور الدين زنكى الذى آلت إليه سورية ثم مصر بعد ذلك • فلقد كان نور الدين أول من بنى مدرسة فى دمشق [1] ثم كان عهده كله مملوءاً بالنشاط فى نواح متعددة ومنها إنشاء المدارس فى مدن مملكته وقراها •

ووضع الأيوبيون حداً للحكم الشيعى فى مصر ، وأعادوا مصر إلى المذهب السنى وإلى الاعتراف بخليفة بغداد ، ثم لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا إلى عقول الناس فأنشأوا المدارس لأول مرة فى فلسطين ومصر

---

(١) مقال الشيخ الطباخ بمجلة الجامعة الاسلامية السنة ١٧ العدد : ٢٢٤ ص ٤٠ •

وكانت كثيرة العدد بحيث تمكنت من إشاعة الثقافة فى نفوس الأهلين فى وقت قصير ، وبمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا فى إنشاء المدارس وفى رعاية العلم ، وفيما يلى ذكر لأهم المدارس التى أنشأها كل من نظام الملك ونور الدين والأيوبيين [1] .

(1) لم تتوقف حركة انشاء المدارس بسقوط الأيوبيين وقيام المماليك ، فان هؤلاء ساروا سيرة سابقيهم فى هذا الشأن - بل وجاوزوا الحد فى بعض الحالات . فأكثروا من انشاء المدارس فى مصر وسورية ، وسنكتفى هنا بذكر مدارس الأيوبيين مشيرين الى ان كثيرا من المراجع تحفل بمدارس المماليك ؛ واهم هذه المراجع هى خطط المقريزى - وحسن المحاضرة للسيوطى ؛ وابن دقماق ، والنعيمى ، ومجيد الدين .

مدارس نظـام الملك *

يقول أبو شامة [1] : ومدارس نظام الملك فى العالم مشهورة ، لم تخلُ بلد من شىء منها ، حتى جزيرة ابن عمر التى هى فى زاويـة من الأرض لا يؤتى لها ، بنيت فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهى التى تعرف الآن (زمن أبى شـامة) بمدرسـة رضى الدين . ويقول عمـاد الدين الأصفهانى [2] : ومتى وَجَدَ فى بلدة مَنْ تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفاً ، وجعل فيها دار كتب .

وفى ابن الأثير وابن الجوزى نصوص مشابهة وكلها تدل بوضوح على العدد الضخم من المدارس التى بناها نظام الملك وأمدها بالأساتذة والأموال والكتب . وكان السبكى المصدر الوحيد الذى لم يكتف بهذه العبارات العامة ، بل حدَّد بلاداً ذكر أن نظام الملك أنشأ فى كل منها مدرسة عظيمة وتلك البلاد هى : بغداد — بلخ — نيسابور — هرات — اصفهان — البصرة — مرو — آمل — الموصل .

---

* تحتل المدارس النظامية — وبخاصة نظامية بغداد — مكانة عظيمة فى نفوس المسلمين ، وقد لمست شغف كثير من الأساتذة والطلاب أن يحصلوا على معلومات وافية عنها ، ومن أجل ذلك حشدت فى هذا الكتاب كل ما وصلت له يدى من مادة تتصل بها ، وكنت على وشك أن أجمع هذه المادة فى مكان واحد وأن أتحدث عن نظامية بغداد مفصلا القول على أنها أنموذج لمدارس المسلمين فى العصور الوسطى ، ولكن حال دون ذلك فناء المدرسة وضياع معالمهـا مما يجعل تخطيطها مجرد ظن وتخمين ، ومن هنا اخترت المدرسـة النورية الكبرى مثالا ، أما المدارس النظامية فقد أوردت الحديث عنهـا فى مظانه المختلفة على حسب أبواب هذا الكتاب وفصوله ، فالحديث عن مدرسيها جاء فى باب المدرسين ، وعن أوقافها ورد عند الكلام عن الأوقاف ، وهكذا ، وهذه المعلومات فى مجموعها تعطى صورة واضحة عن هذه المدارس الشـهيرة .

(1) الروضتين ١ : ٢٥ . (2) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ .

ويختم السبكى حديثه بعبارة مشابهة لعبارات المؤرخين الآخرين حيث يقول : ويقال إن له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة [١] .

وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها ، وقد بدأ العمل فيها سنة ٤٥٧ هـ ، وكانت على شاطىء دجلة ، وكان بنَّاؤها أبا سعيد الصوفى ، وفى سنة ٤٥٩ هـ استتم بِناؤها ، وانتظمت أحوالها ، وسكنها من حملة الشريعة رجالها ، ودرس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازى (رحمه الله) فأحيا من العلم ما درس ، وكشف من الحق ما التبس ، وشرح الأصول وفرَّعها ، وأوضح الأدلة ونوعها [٢] .

مدارس نور الدين زنكى

سبق أن ذكرنا أن نور الدين أول من أنشأ مدرسة فى دمشق ، ونضيف أن مدارسه كانت كثيرة ، منتشرة فى مدن سورية وقراها [٣] . وقد سجلت النصوص بعضاً من هذه المدارس نذكرها فيما يلى :

فى دمشق : دار الحديث النورية ، انظر النعيمى : تاريخ المدارس ١ : ٩٩

الصلاحية	»	»	١ : ٣٣١
العمادية	»	»	١ : ٤٠٧
الكلاسة	»	»	١ : ٤٤٧
النورية الكبرى	»	»	١ : ٦٠٦

(وسنفرد دراسة مفصلة عن هذه المدرسة عقب الانتهاء من قائمة المدارس) .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧ .
(٢) تاريخ آل سلجوق ص ٣٣ .
(٣) انظر الروضتين ١ : ١٤ .

	النورية الصغرى	النعيمى : تاريخ المدارس : ١ : ٦٤٨		
فى حلب	: الحلوية	أعلام النبلاء ٢ : ٧١	والدر المنتخب ١١٥	
	العصرونية	« ٢ : ٧٥	« ١١٠	
	النورية	« ٢ : ٧٦	« ١١١	
	الشعيبية	« ٢ : ٧٦		

فى أمكنة أخرى : مدرستان بحماة : مفرج الكروب ص ١٦٥ مخطوط بكمبردج

مدرستان بحمص : « «

مدرسة ببعلبك : النعيمى ١ : ٤٠١

مدارس العهد الأيوبى

(أ) مدارس أنشأها السلاطين :

المدرسة	منشئها	مرجعها	
١ — فى مصر :			ابن دقماق ٤ : ٠٩٢
الناصرية بجوار الجامع العتيق	صلاح الدين	الخطط ٢ : ٣٦٣	» ٤ : ٠٩٥
القمحية	»	» ٢ : ٣٦٤	
السيوفية	»	» ٢ : ٣٦٥	حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧
الناصرية بالقرافة	»	» ٢ : ٤٠٠	
الملك العادل	العادل	» ٢ : ٣٦٥	» ٢ : ١٥٩
الكاملية	الكامل	» ٢ : ٣٧٥	» ٢ : ١٥٩
الصالحية	الصالح نجم الدين أيوب	» ٢ : ٣٧٤	
٢ — فى بيت المقدس :			
الصلاحية	صلاح الدين	الأنس الجليل ٢ : ٣٦٢	
الأفضلية	الأفضل بن صلاح الدين	» ٢ : ٠٩٧	
النحوية	المعظم عيسى	» ٢ : ٣٨٦	
٣ — فى دمشق :			
الصلاحية	صلاح الدين	النعيمى ٢ : ٠١٠	
العزيزية	العزيز بن صلاح الدين	» ١ : ٣٨٢	
الظاهرية البرانية	الظاهر بن صلاح الدين	» ١ : ٤٢٠	
العادلية الكبرى	العادل	» ١ : ٣٥٦	
المعظمية	المعظم عيسى	» ١ : ٥٧٩	ابن طولون ١٤٢
دار الحديث الأشرفية البرانية	موسى بن العادل	» ١ : ٠٤٣	
العزيزية	العزيز بن العادل	» ١ : ٥٤٩	

(ب) مدارس أنشأها الأمراء والعظماء من ذوى النفوذ (كلمة أمير فى العهد الأيوبى لم تكن مقصورة على أعضاء البيت المالك بل استعملت أيضاً لقباً للقادة وذوى المناصب العليا فى الدولة ، وللفرق بينهما سنطلق على أعضاء البيت المالك لقب « أمير أيوبى ») .

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع	
١ — في مصر				
القطبية	قطب الدين خسرو	أمير	الخطط ٢ : ٣١٥	
منازل العز	تقى الدين عمر	أمير أيوبى	» ٢ : ٣٦٤	ابن دقماق ٤ : ٩٣
مدرستان بالفيوم	»	»	»	
الفاضلية	القاضى الفاضل	وزير	» ٢ : ٣٦٦	ابن دقماق ٤ : ٩٤—٩٥
الأزكشية	سيف الدين آياز كوج	أمير	» ٢ : ٣٦٧	
السيفية	سيف الدين بن أيوب	أمير أيوبى	» ٢ : ٣٦٨	
العاشورية	عاشوراء بنت ساروخ	زوجة أمير	» ٢ : ٣٦٨	
القطبية	عصمة الدين بنت العادل	أميرة أيوبية	» ٢ : ٣٩١	
الشريفية	الشريف فخر الدين	أمير	» ٢ : ٣٧٤	
الصاحبية	عبد الله بن على	وزير	» ٢ : ٣٧١	
الفخرية	فخر الدين البارومى	استادار الكامل	» ٢ : ٣٠٧	
الصيرمية	جمال الدين بن صيرم	أمير	» ٢ : ٣٦٨	
الفائزية	شرف الدين هبة الله	وزير	» ٢ : ٣٦٥	ابن دقماق ٤ : ٩١
٢ — في بيت المقدس :				
الميمونية	ميمون بن عبد الله	أمير	الأنس الجليل ٢ : ٣١٩	
البدرية	بدر الدين بن أبى القاسم	»	» ٢ : ٣٩٨	
٣ — في دمشق :				
الصاحبية	ربيعة بنت نجم الدين	أميرة أيوبية	النعيمى ٢ : ٠٧٩	
الفروخشاهية	فروخشاه بن شاهنشاه	أمير أيوبى	» ١ : ٥٦١	
العذراوية	عذراء بنت نور الدولة	أميرة أيوبية	» ١ : ٣٧٣	
التقوية	تقى الدين بن شاهنشاه	أمير أيوبى	» ١ : ٢١٦	
الشامية البرانية	ست الشام بنت نجم الدين	أميرة أيوبية	» ١ : ٢٧٧	
الشامية الجوانية	» » »	» »	» ١ : ٣٠١	
المروانية	خاتون عزيزة	زوجة المعظم	» ١ : ٥٩٢	
البهنسية	مجد الدين البهنسى	وزير	» ١ : ٢١٥	القلائد الجوهرية ص١٠٢
الأتابكية	خاتون بنت عز الدين	زوجة الأشرف	» ١ : ١٢٩	القلائد ١٠٢
العزية البرانية	عز الدين الأعظمى	نائب الملك بصرخد	» ١ : ٥٥٠	

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع
المعزية الجوانية	عز الدين الاعظمي	نائب الملك في صرخد	النعيمي ١ : ٥٥٠
» الحنفية	» »	» »	» ١ : ٥٥٧

(جـ) مدارس انشاها افراد من العامة :

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع
١ — في مصر :			
ابن الأرسوف	عبد الله بن الأرسوف	تاجر	الخطط ٢ : ٣٦٤
المسرورية	مسرور الصمدى	خادم	» ٢ : ٣٧٨
الغزنوية	حسام الدين قنيماز	عتيق	» ٢ : ٣٩٠
ابن رشيق	حجاج تكرور		» ٢ : ٣٦٥
٢ — في دمشق :			
العصرونية	شرف الدين بن عصرون	قاضي القضاة	النعيمي ١ : ٣٩٨
الفلكية	فلك الدين سليمان	اخو الملك العادل لأمه	» ١ : ٤٢١
الاقبالية	جمال الدين اقبال	عتيق	» ١ : ١٥٨
المسرورية	شبل الدين كافور	خادم	» ١ : ٤٥٥
العمرية	أبو عمر المقدسي	قاضي القضاة	» ٢ : ١٠٠
دار الحديث العروية	شرف الدين بن عروة	فقيه	» ١ : ٠٨٢
الرواحية	زكى الدين بن رواحة	تاجر	» ١ : ٢٦٥
الصارمية	صارم الدين بن ازبك	عتيق	» ١ : ٣٢٦
الشبلية البرانية	شبل الدين كافور	خادم	» ١ : ٥٢٠ (*)
الركنية	ركن الدين منكورس	عتيق	» ١ : ٢٥٣
الدولعية	جمال الدين الدولعي	فقيه	» ١ : ٢٤٢
العمادية	زوجة شجاع الدين ابن الدماع	»	» ١ : ٢٢٦

مدارس طب

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع
الدخورية	مهذب الدين دخور	طبيب	النعيمي ٢ : ١٢٧
الدنيسرية	عماد الدين الدنيسري	»	» ٢ : ١٣٣

(*) مات شبل سنة ٦٢٣ هـ ، ولكن هذه المدرسة انشئت بعده سنة ٦٢٦ هـ ، تنفيذاً لوصيته ولذلك حملت اسمه .

ملاحظتان :

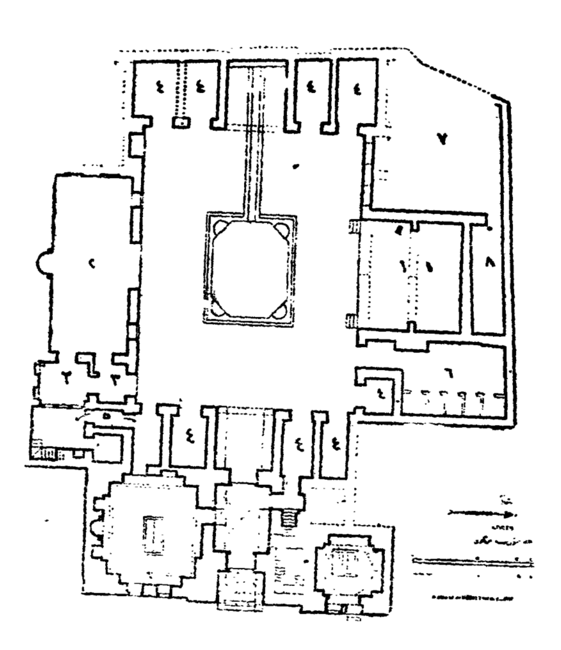
١ ـ تبدو مدارس الطب قليلة قلة ظاهرة ، ومرجع ذلك أن الطب كان لا يدرس فى مدارس خاصة إلا قليلا ، والغالب أن يدرس الطب فى المستشفيات ليمكن التطبيق العملى للنظريات العلمية الطبية التى يلقيها الأساتذة على الطلاب ، وعلى هذا كان بالمستشفى إيوان (قاعة محاضرات) ليستمع فيه الطلاب إلى الدرس ثم ينسابون بين المرضى ليروا الأمراض وليقترحوا العلاج بإشراف أساتذتهم ، ويروى ابن أبى أصيبعة [١] أن الطبيب أبا المجد بن أبى الحكم المتوفى سنة ... وخمسمائة (هكذا) كان يتردد إلى البيمارستان الكبير الذى أنشأه الملك العادل نور الدين محمود فى دمشق ، فيأتى ويجلس فى الإيوان الكبير ، ويحضر كتب الاشتغال ... وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ، ويقعدون بين يديه ، ثم تجرى مباحثات طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ومثل ذلك حصل فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة حيث كان يجلس رئيس الأطباء فى مكان معين ليحاضر فى الطب [٢] .

وقد انتشرت المستشفيات فى العالم الإسلامى انتشارا كبيرا فى هذه العصور [٣] ؛ وقد ترتب على ذلك نهضة ذات شأن فى الدراسات الطبية .

٢ ـ اخترت المدرسة النووية بدمشق لتكون نموذجا لمدارس المسلمين فى تلك العصور وقد زرتها فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ وقمت بدراستى عنها فيها ، وفيما يلى رسم تخطيطى للمدرسة أتبعه بالحديث عنها .

---

(١) عيون الأنباء ٢ : ١٥٥ .
(٢) المقريزى : الخطط ٦ : ٤٠ .
(٣) انظر ابن العبرى وابن جبير وخطط المقريزى .



مخطط للمدرسة النورية الكبرى

المدرسة النورية الكبرى

زار ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ المدرسة النورية الكبرى بعد افتتاحها بسنوات قليلة ، وقد وصفها وصفا يدل على مكانتها السامية فى تلك الأزمان ، ونحن نقتبس منه العبارة التالية : من أحسن مدارس الدنيا مظهراً مدرسة نور الدين رحمه الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر [1] .

وقد طافت الأحداث والسنون بهذا المعهد العظيم ، فغيرت منه وقللت من بهائه ، ولكنه لا يزال يحتفظ بطابع الجلال ، ولا يزال يوحى بأنه كان فى عهده قريبا إلى الكمال ، شاملا كل ما يحتاجه معهد علمى للدراسة العليا ، مزوداً بقسم داخلى مكتمل المرافق والالتزامات .

وقد ذكر أبو شامة [2] المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن شداد [3] المتوفى سنة ٦٨٤ هـ أن الذى أنشأ هذا المعهد هو نور الدين محمود زنكى ٥٦٣ هـ ولكن النعيمى (٩٢٧ هـ) الذى يعتمد فى أغلب ما كتب على ابن شداد ، ويقتبس منه أكثر مادته ، يختلف معه هنا ، فيقرر أن الذى أنشأ هذه المدرسة هو إسماعيل بن نور الدين [4] . ولم يذكر النعيمى سبباً واضحا حدا به إلى هذا الادعاء ، وكل ما يشير إليه هو أن جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته فى ضريحه بالمدرسة ، وإنما دُفِن فى مكان آخر ، ثم نقل فى عهد إسماعيل إلى مكانه الحالى بالمدرسة . وهذا لا يستدعى — فيما يبدو — أن تكون المدرسة قد أنشئت فى عهد إسماعيل ، إذ من اليسير أن تكون المدرسة قد تمت وافتتحت فى عهد نور الدين ، ولكن الضريح لم يكن قد أعِدّ بعد ، إذ أنه شىء يلحق بها وليس من مرافقها

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٤ . (٢) الروضتين ١ : ٢٢٩ .
(٣) الاعلاق الخطيرة ص ٤٤ مخطوط .
(٤) الدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٦٠٧ .

اللازمة لها ، ومن أجل هذا كان الضريح دائما آخر ما يشيد بالمدرسة ، فلما مات نور الدين فى هذه الأثناء دفن فى مكان مؤقت حتى أعِدّ الضريح ، ثم نقل له الجثمان • ومما يؤكد أن نور الدين هو الذى بنى هذه المدرسة ، تلك الكتابة التى نقشت على الحجر الضخم الذى يكوّن العتبة العليا للمدخل ، وهذه الكتابة قديمة تاريخها ٥٦٧ هـ أى كتبت فى حياة نور الدين الذى توفى بعد ذلك بسنتين ، وقد ورد فى هذه الكتابة أن نور الدين هو منشئها ، ويبدو أن النعيمى لم يرَ هذه الكتابة ، وسنورد نصها فيما بعد •

وتقع هذه المدرسة بخط الخواصين ، وهو الحى الذى يسميه أهل دمشق فى الوقت الحاضر « الخياطين » ، وهى فى الجنوب الغربى بالنسبة للجامع الأموى ، وتبعد عنه بما يقرب من نصف ميل •

وقد أسّست هذه المدرسة على مساحة مقدارها ١٥٠٠ متر مربع تقريباً ، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالى ١٥٠ متراً سلبها جيرانها من الجهة الغربية ، وقد هُدم البناء الأصلى وتجدد بناؤه ، ولم يبق من البناء القديم إلا الباب والبهو والقبة ومخطط الصحن [١] ولكن لوحظ فى البناء الحالى أن يكون إلى حد كبير على أساس البناء القديم •

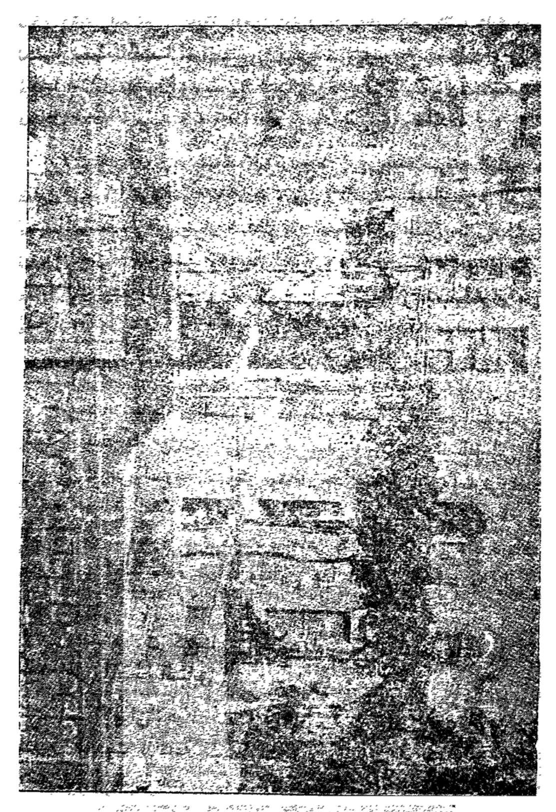
وتقوم مبانى المدرسة فى جوانب المساحة ، أما الوسط فصحن مربع تقريباً مساحته ٣٤٠ متراً ، نمت به بعض الأشجار ، ويقع فى وسطه بحيرة طولها ٧٫٨ من الأمتار وعرضها ٦٫٥ من الأمتار ، يمدّها بالماء مجرى صغير ينساب فيه الماء من حنفيات ونافورة فى الجانب المقابل للباب (شكل رقم ٣) وقد بنى هذا المجرى موضع قناة صغيرة كانت تجلب الماء لهذه البحيرة من نهر قنوات أحد أنهار دمشق السبعة [٢] •

وباب المدرسة الحالى هو بابها القديم — كما سبق — وهو باب

---

(١) اسعد طلس : ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٨ •

(٢) انظر خطط دمشق لصلاح الدين المنجد ص ٣٣ •



شكل رقم (٣) صحن المدرسة النورية الكبرى

ضخم دقيق الصنع ، عتبته العليا عبارة عن حجر كبير كتب عليه بطريق الحفر وبخط الثلث اسم منشىء المدرسة ، وتاريخ إنشائها ، والأوقاف عليها (شكل رقم ٤) ويفضي الباب إلى ممر مستطيل ، وفي منتصف الممر مدخل آخر لا باب له ، وهذا الممر يقود إلى صحن المدرسة .

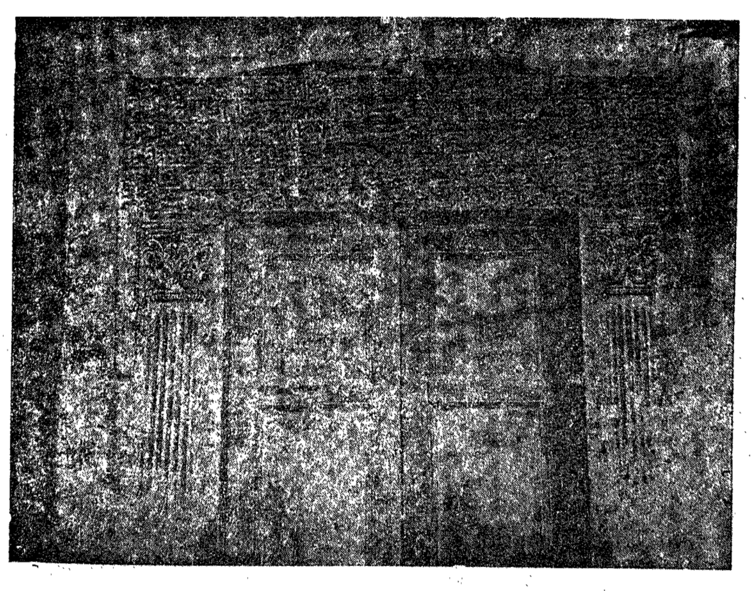
والسائر في الممر سالف الذكر يجد إلى يمينه ضريح الشيخ محمد دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وباب الضريح في الشارع الذي به باب المدرسة ، وعلى يسار الداخل يقع ضريح نور الدين منشىء المدرسة ، ولهذا الضريح قبة ضخمة عجيبة الصنع ، (شكل رقم ٥) وهي من طراز القبة الموجودة بالمارستان النوري ، وليس بدمشق قباب أخرى من ذلك الطراز .

مسكن المدرّس :

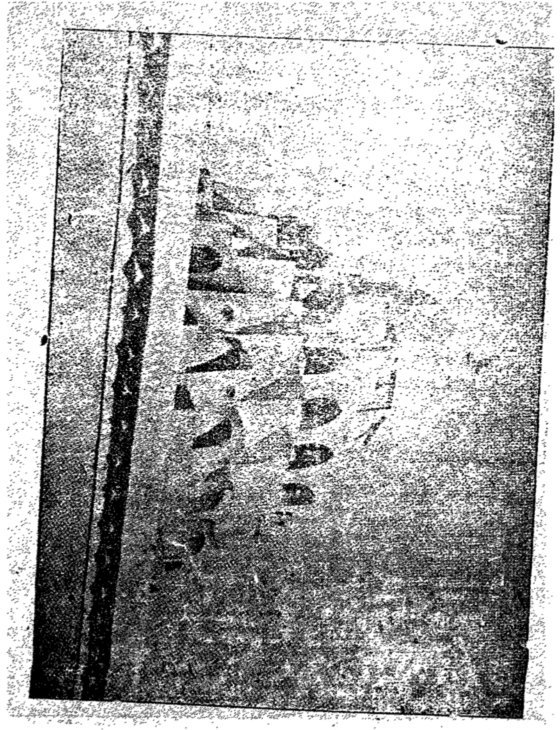
وبعد أن يتجاوز السائر في الممر محاذاة ضريح الشيخ دقيق العيد ، يجد باباً يؤدي إلى حجرة السلم ، ويقوده السلم إلى المسكن الخاص لمدرس المدرسة ، وكان يشغل هذا المكان أيان زيارتي للمدرسة الشيخ صالح العقاد . ولهذا السلم فرع آخر يبدأ من منتصفه ويتجه اتجاها آخر ، فيدور حول قاعدة ارتفاعها ٦ أمتار ، وهي قاعدة مئذنة أو منارة ليس ثمة مادة عنها ، وينتهي هذا الفرع بالصاعد به إلى سطح المدرسة .

وسنستمر في كلامنا عن هذه المدرسة ومرافقها متبعين الأرقام المثبتة على المخطط السابق :

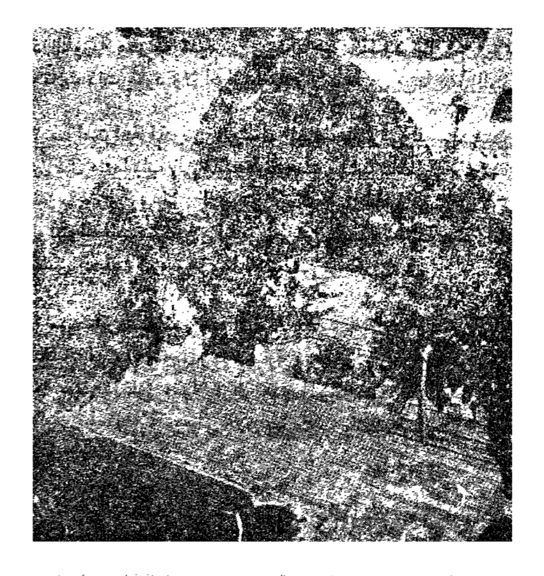
١ — الإيوان : هو أهم مكان في المدرسة على ما سبق ذكره ، لأنه يرادف التعبير الحديث (قاعة المحاضرات) ، وإيوان المدرسة النورية الكبرى يتسع لحلقة كبيرة للدرس ، فطوله ثمانية أمتار . وليس لهذا الإيوان باب ، وإنما هو مفتوح على امتداد طوله مع سلمين في نهايتي الامتداد يصعد عليهما التلاميذ ، إذ أن الإيوان يرتفع عن الصحن بمتر تقريباً (شكل رقم ٩) .



شكل رقم (٤) مدخل المدرسة النورية الكبرى وقد سجلت على عتبته العليا الأوقاف على المدرسة



شكل رقم (٥) منظر خارجى لقبة ضريح نور الدين



شكل رقم (٦) ايوان المدرسة النورية « قاعة المحاضرات »

٢ — **المسجد** : يقع الإيوان يمين الصحن بالنسبة للداخل ، ويقابله على اليسار المسجد ، والمسجد هو المكان التالى للإيوان فى الأهمية ، ولم يكن المسجد خاصاً بالطلاب ، وإنما كان مفتوحاً لمن أراد العبادة ، ومن أجل هذا وضع فى أقصى مكان من الإيوان حتى لا يتأثر المصلون والعابدون بما قد يثار فى الحلقة من ضجيج المناقشات والجدل ، ولمسجد النورية محراب قديم ، ويتصل هذا المسجد بالصحن بواسطة فتحات ثلاث ذات عقود ولا أبواب لها ، والأوسط من بينها أكبر الجميع .

٣ — **استراحة المدرس** : يتصل الجانب الشرقى للمسجد بحجرتين صغيرتين لكل منهما باب إلى المسجد ، وهناك باب داخلى يصل كلا من الحجرتين بالأخرى ، وهاتان الحجرتان أعدتا لاستراحة المدرس ، ولا تزالان حتى الوقت الحاضر تستعملان لنفس الغرض ، وذلك بخلاف مسكن المدرس الذى سبق الحديث عنه والذى أعد ليعيش فيه .

٤ — **مساكن الطلاب** : هذه المساكن مخصصة لطلاب القسم الداخلى ، وهى تنقسم إلى وحدات كل وحدة عبارة عن حجرتين إحداهما فوق الأخرى ويصلهما سلم داخلى ، ولا تزال هذه المساكن تستعمل لنفس الغرض الذى بنيت من أجله ، ويعيش الآن بها طلاب يلتحقون بمعاهد علمية مختلفة فى دمشق .

٥ — **مسكن خادم المدرسة** : يشمل هذا المسكن عدة حجرات ، كما يشمل المرافق الضرورية التى تلزم للمسكن كما يظهر فى الرسم ، وقد كان هذا المسكن مشغولا إبان زيارتى لهذه المدرسة بالحاج محمود جوهر .

٦ — **المراحيض** : ولا تزال حتى الوقت الحاضر تستعمل لنفس الغرض الذى بنيت من أجله .

٧ — هذه المساحة ليست تابعة للمدرسة الآن إذ اغتصبها الجيران منذ حوالى خمسين سنة كما يروى ذلك الرجل المسن الحاج محمود جوهر خادم المدرسة ، ويعتقد أن هذه المساحة كانت مطبخاً وقاعة للطعام .

٨ — اغتُصِبَ هذه المساحة أيضاً حوالى نفس التاريخ السابق ، ويُعتَقَد أنها كانت مخزناً للبقول ومواد الطعام المختلفة .

٩ — كانت هذه المساحة مخصصة لتكون مخزناً عاماً للمدرسة ، يحتفظ فيها بأدوات التنظيف والمصابيح الزائدة عن الحاجة والفرش وما شابه ذلك ، وقد اغتصبت هذه المساحة منذ حوالى أربعين عاماً كما يروى ذلك الحاج محمود جوهر الذى يضيف أن هذه المساحة نالها شىء من الإهمال ، فقام جيرانها ليقتطعوها من المدرسة ، ولكن المدرس تصدى لهم فى ذلك الحين ، وحاول منعهم ولكنه فشل ، غير أنه لم يفقد الأمل فى استرداد هذه المساحة فى وقت من الأوقات فترك بابى هذا المخزن مكانهما على الرغم من الحائط الذى شُيّد خلف البابين ، وقد فعل ذلك ليكون البابان دليلا على أن المساحة الواقعة خلفهما تابعة للمدرسة .

مدرسو النورية الكبرى :

كانت النورية الكبرى مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وعلى هذا خَصَّص للتدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الأحناف نذكر منهم :

بهاء الدين بن العقادة وقد درس بها إلى أن توفى سنة ٥٦٦ هـ .

برهان الدين مسعود وقد درس بها إلى أن توفى سنة ٥٩٩ هـ .

الشرف داود وقد عمل بها حتى سنة ٦٢٣ هـ ثم اعتزل العمل ليتولاه عالم مشهور بالدين والعلم وانتماء العلماء إليه وتلمذتهم عليه هو :

جمال الدين محمود بن أحمد الحصيرى ، وقد ظل يعمل بها إلى أن توفى سنة ٦٣٦ هـ .

صدر الدين إبراهيم بالنيابة عن قوام الدين محمد بن جمال الدين الحصيرى ، وقد ظل صدر الدين يعلّم فيها حتى شب قوام الدين وأصبحت

ثقافته تساعده على تأدية ذلك العمل فتولاه ، وظل يؤديه حتى توفى سنة ٦٦٥ هـ .

نظام الدين الحصيرى وقد تولى بعد أخيه قوام الدين وظل يعمل بها حتى توفى سنة ٦٩٨ هـ .

صدر الدين البصراوى وقد درّس بها حتى توفى سنة ٧٢٧ هـ .

عماد الدين بن الطرسوسى وقد درّس بها حتى توفى سنة ٧٤٨هـ (١) .

الأوقاف على النورية :

سُجلت هذه الأوقاف على الحجر الذى يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة ، وقد سبق إيراد صورة هذه الوثيقة الهامة (شكل ٤) والكتابة الموجودة عليها واضحة جداً ونصها كالآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه ، ووقفها . على أصحاب الإمام سراج الأمة أبى حنيفة رضى الله عنه ، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ، والدار المجاورة لهما ، والوراقة بعونية الحمى . وجنينة الوزير ، والنصف والربع من بستان الجورة بالأرزة ، والأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية ، والساحة الملاصقة من الشرق ، والتسعة الحقول بداريا ، على ما نُصّ وشُرط فى كتب الوقف رغبة فى الأجر والثواب وتقدمة بين يديه يوم الحساب فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ، وذلك فى مدة آخرها شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة (٢) .

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ٤٤ ، ٤٥ (مخطوط) النعيمى : الدارس ج ١ ص ٦١٨ — ٦١٩ .

(٢) معنى الفقرة الاخيرة هو ان هذه الأوقاف تسلم الى المدرسة فى خلال مدة آخرها الشهر المذكور .

الباب الثاني

المكتبات

المكتبات والتعليم

ربما يسأل سائل : لماذا نعنى بالمكتبات ونحن نتحدث عن تاريخ التربية ؟ وما علاقة هذه بتلك ؟

وللاجابة عن هذا السؤال نوضح أن المكتبات كانت طريقة القدماء فى نشر العلم ؛ ولما كان يتعذر على غير الأغنياء اقتناء الكتب نظراً لأنها كانت مخطوطات غالية الثمن ، لجأ من أحب تعليم الناس إلى إنشاء مكتبة يجمع فيها الكتب ويفتح أبوابها للناس ، كما فعل البطالسة فى مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون فى بيت الحكمة [١] .

ثم كانت الكتب نواة الجامعات الإسلامية المبكرة ، كبيت الحكمة فى بغداد ودار الحكمة فى القاهرة ، وقد كان ذلك داعياً إلى اختلاف المؤرخين فى طبيعة هذه المؤسسات ؛ وما إذا كانت تعد مدارس أو مكتبات ، ثم أصبحت هذه نماذج لهذا النوع من المنشآت سواء شيدتها الدولة أو أسسها الأفراد ، وعلى هذا أصبحت المكتبات فى العالم الاسلامى فى تلك العصور تقوم بمهمة المعاهد العلمية فى العصر الحديث بالاضافة الى ما تؤديه دور الكتب فى الوقت الحاضر من خدمات .

وسيجىء الحديث فيما بعد عن المؤسسات التى شيدتها الدولة لهذه المهمة ، وفيما يلى نماذج قليلة لمكتبات أنشأها الأفراد وكانت بدور العلم الحديثة أشبه :

حدث ياقوت [٢] قال : كان بكَرْكَر من نواحى القفص (ضاحية قريبة من بغداد) ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم ، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل

---

(١) جيورجى زيدان : التمدن الاسلامى ٣ :
(٢) معجم الأدباء ٥ : ٤٦٧ .

بلد ، فيقيمون فيها ، ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتبُ مبذولة فى ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى .

فهذه مكتبة فيها مساكن لطلاب العلم ، وفيها طعام لهم ونفقة ، أليست إذاً بالمدارس أشبه ؟ إنها لا ينقصها إلا المعلم لتكون مدرسة بها مكتبة ، بل إن المعلم أيضا وُجِدَ فى بعض المكتبات ، ولكنها ظلت تعد مكتبة لسبب من الأسباب كأن يكون المعلم لا ينتظم جلوسه للطلاب لأنه لا يتخذ التدريس وظيفته الأولى ، أو تكون المؤسسة غنية بالكتب فى موضوعات متعددة فتستهوى الكتبُ الناسَ أكثر مما يستهويهم الاستماع للمدرس وهكذا . ومن هذا النوع دار العلم التى أنشأها بالموصل أبو القاسم جعفر ابن محمد بن حمدان الموصلى ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، واذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسرا أعطاه وَرَقاً ووَرِقاً ، وكانت تفتح فى كل يوم ، ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ، ويجتمع اليه الناس ، ويملى عليهم من شعره وشعر غيره (1) ...

وفى كلام المقدسى عن مدينة « رام هرمز » يتحدث عن دارَىْ كتب مهمتَيْنِ فيقول (2) : وفى « رام هرمز » دار كتب وفى « البصرة » مثلها والداران جميعا اتخذهما ابن سوار ، وفيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءةَ والنسخَ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتبا ، وبها أبداً شيخ يُدرِّس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة .

وكانت خزانة سابور بن أردشير المتوفى سنة ٤١٦ هـ ملتقى للباحثين والقراء ، وكثيراً ما كان يجتمع فيها جلة من العلماء الذين يتباحثون ويتناظرون ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى الذى أحبها وآثر الاقامة بها حين كان ببغداد ، وسيأتى مزيد من القول عن هذه المكتبة (3) .

---

(1) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٤٢٠ .

(2) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤١٣ .

(3) Margolioth's Introduction to Rasa' il Abi al Ala.

ويتضح من هذا جلياً أن المكتبات كانت وثيقة الصلة بالتربية الإسلامية ، وأنه لا مناص أن يتحدث عنها الباحث فى تاريخ هذه التربية ، وقد كان من الممكن أن تندمج فى الفصل الأول كمكان من أمكنة التعليم ، غير أنه لما كانت للمكتبات أهمية خاصة ، وتفصيلات مفيدة جميلة ، كان من الأوفق أن يكون الحديث عنها فى باب مستقل .

القيمة الأدبية للكتاب

يكنّ العرب للكتب كل تقدير وإجلال ، ويكثر أن يتحدث العربى عن الكتاب فيخدع القارىء حتى تظنّ أن العربى يتحدث عن صديق عظم ودّه وزاد إخلاصه ، أو حبيب طال بعده وكثر الشوق اليه ، أو رائد يقود المتكلم لطريق المستقيم ، ويأخذ بيده إلى الغاية الرشيدة :

ارسل بعض الخلفاء فى طلب بعض العلماء ليسامره ، فلما جاء الخادم اليه وجده جالسا وحواليه كتب ، وهو يطالع فيها • فقال له : ان امير المؤمنين يستدعيك • فقال العالم : قل له عندى قوم من الحكماء أحادثهم، فإذا فرغت منهم حضرت • فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك ، غضب الخليفة وقال له : ويحك ، من هؤلاء الذين كانوا عنده ؟ فقال الخادم : والله يا امير المؤمنين ما كان عنده أحد • قال الخليفة : ويكذب أيضا ؟ فأحضره الساعة كيف كان • فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء ما نملّ حديثهم أمينون مأمونون غيباً ومشهداً
إذا ما خلونا كان خير حديثهم معيناً على نفى الهموم مؤيّداً
يفيدونا من علمهم علم ما مضى وعقلاً وتأديباً ورأيا وسوددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة ولا نتّقى منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت : أموات فلست بكاذب وإن قلت أحياء فلست مفنّدا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب ولم ينكر عليه تأخره [1] •

الجاحظ والكتاب :

ومن الحق أن نذكر أن الفضل فى تقدير الكتب يرجع الى الجاحظ ؛ فإنه الذى وجّه الناس الى الكتاب وقيمته ، والنشر وفائدته ، وكان الاتجاه

---

(١) ابن طباطبا ص ١٠ ومحاضرة الأبرار ٢ ب مخطوط .

العامُ قبله ينحاز للشعر ودواوين الشعراء ، فلما جاء الجاحظ وتسنم ذروة المجد ، وجَّه انظار الناس الى الكتابة والكتب مبينا ما فيها من علم ، وما تحوى من معرفة ، ومن عباراته فى ذلك قوله : لا تضرُّ به حداثةُ سنِّه ، ولا قربُ ميلاده ، ورخَصُ ثمنه ، يجمع بين السِّيَرِ العجيبة والعلوم الغريبة ، ويضمُّ آثار العقول الصحيحة ، والتجارب الحكيمة ، وأخبار القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غِبًّا ، وإن شئت لزمك لزوم الظل ، وكان منك مثل بعضك (١) .

والكتاب صامت ما أسكتَّه ، وبليغٌ ما استنطقته ، مسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يُحْوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه ، وهو جليس لا يُطريك ، وصديق لا يغريك ، ورفيق لا يملّك ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب (٢) .

ومما حُكِيَ عن الجاحظ أيضا أنه قال : دخلت على محمد بن إسحاق أمير بغداد ، فى أيام ولايته ، وهو جالس فى الديوان ، والناس مثول بين يديه ، كأن على رؤوسهم الطير ، ثم دخلت إليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس فى خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر ، فما رأيته أهيب منه فى تلك الحال (٣) .

وقد استجاب الناس لنداء الجاحظ وفكرته ، فأقبلوا على الكتب وقدَّروها حق قدرها ، فهذا محمد بن عبد الملك الزيات يعتكف عن الجماهير فترة من الزمن وينوى الجاحظ أن يزوره فى منزله ، ويفكر فى شىء يهديه اليه ، فلم يرقه شىء مثلما راقه كتاب سيبويه ، ويتسلم ابن الزيات الهدية قائلا للجاحظ : والله ما أُهدِىَ لى شىءٌ أحبُّ إلىَّ منه (٤) .

ولكن الكتب التى أبرز الجاحظ قيمتها وأعلى قدرها لم تبرُّ به ،

(١) المحاسن والأضداد ص ٢ . (٢) الحيوان ١ : ٥٠ — ٥١ .
(٣) ابن طباطبا ص ١٠ — ١١ . (٤) معجم الأدباء ٦ : ٨٥ — ٨٦ .

بل قست عليه ، وكان بها حتفه ؛ فقد روى أن موته كان بوقوع مجلدات عليه ، وكان من عادته أن يَصُفَّها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته [١] .

ولكن الجاحظ مات بعد أن نجح نجاحاً تاما فيما قصد إليه ، وبعد أن ذاعت بين الناس أفكاره ، وعمقت مبادئه . ويروى محيى الدين العربى [٢] . عن أحد العلماء أنه قال: **مـا رأيت بستانا يُحمَل فى رُدْن ، وروضة تُنقل (فى) حجر ، ينطِقُ عن الموتى ويُتَرْجِم عن الأحياء مثل الكتاب ، فمن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ؟ ولا ينطق إلا بما تهوى ؟ أكتَمُ للسِّر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة . ولا أعلم جاراً أبرَّ ، ولا خليلا أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلّما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية وعنايـة وأقل إملالا وإبراماً ، ولا أترك لشـغب ، ولا أزهـد فى جدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب** [٣] .

الكتاب معلم أو خداع :

وكان الوزراء الذين وضعوا أيديهم على السلطة فى فترات كثيرة من التاريخ الاسلامى يدركون ما للكتب من قدرة على تثقيف العقول وتكوين الأخلاق والبطولة ، ومن أجل هذا كانوا لا يقدّمونها الى الخلفاء الضعفاء حتى لا يُحيُوا نفوسَهم ويكوّنوا شخصياتهم . رُوى أن المكتفى طلب من وزيره مرة كتبا يقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى نوّابه بتحصيل ذلك ، وعَرْضِه عليه قبل حمله الى الخليفة . فحصّلوا شيئا من كتب التاريخ وفيها شىء مما جرى فى الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيّل فى استخراج الأموال ... فلما رأى الوزير هذه الكتب قال لنوابه : والله إنكم أشد الناس عداوة لى ، فقد حصّلتم لـه ما يعرّفه مصارعَ الوزراء ، ويعلّمه الطريق الى استخراج الأموال ،

---

(١) ابو الفداء ٢ : ٤٧ .

(٢) ابن العربى : المسامرات ٢ ب مخطوط .

(٣) رويت هذه القطعة فى المحاسن والأضداد ص ٣ منسوبة للجاحظ .

ويعرّفه خراب البلاد من عمارتها . ردّوها وحصلوا له كتبا فيها حكايات تُلهيه وأشعارٌ تُطرّبه [١] .

ولنختم هذا القسم بقول المتنبى الشاعر العربى الشهير :

أعز مكان فى الدنى سرج سابح   وخير جليس فى الزمان كتاب [٢]

وقول عبد الله بن أحمد بن الخشاب :

وذى أوجه لكنه غير بائح   بسر ، وذو الوجهين للسرّ مظهر
تناجيك بالأسرار أسرارَ وجهه   فتفهمها مادمت بالعين تنظر [٣]

كتب تغمر الأسواق :

وبمناسبة الحديث عن الكتب التى طلبها الوزير للخليفة لتلهيه من جانب ، ولا تقدّم له ثقافة من جانب آخر ، أذكر أن هناك كتبا تغمر الأسواق ، وهى لا تحمل فكرا ، بل لا تحمل لهوا ، وأُحب أن أذكر حقيقة علمية هى أن التأليف صناعة وموهبة ، وهما لا يتوافران للكثيرين من الذين يتجهون للتأليف ، والعجيب أن الانسان لا يشتغل بالتجارة وهو لا يجيدها ، ولا بالهندسة وهو لا يَعْرفها ، ولكن الكثيرين يشتغلون بالتأليف وهم غير موهوبين فيه ، كأنما يتحتم أن يكون كل الناس مؤلفين .

ولا يطعن هذا فى معارف هؤلاء ، فالإنسان قد يعرف شيئا ، أو قد يعرف الكثير مما قرأه أو سمعه ، ولكن المعرفة وحدها لا تسمح بالتأليف ، فالتأليف كما قلنا صناعة وموهبة ، يحتاج لقدرة عالية فى التخطيط ، والاطلاع ، والنقد ، والمقارنة ، والأداء . . . كما يحتاج الى قدرة لمعرفة ما يحتاج له الناس ، وقليل أولئك الذين تتوافر فيهم هذه القدرات .

وقد قابلت فى حياتى أناسا لا يجيدون كتابة خطاب ، ولكنهم يطمعون فى كتابة رسالة للدكتوراه .... عجباً .

---

(١) ابن طباطبا ص ١١ .
(٢) ديوان المتنبى شرح العكبرى ١ : ١٢٣ .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٨٧ .

القيمة الأدبية للمكتبات

انتهينا آنفاً من الحديث عن تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها ، وقد ترتب على ذلك التقدير وهذا الإعجاب اهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم على تكوينها ، وليس هذا فحسب ، وإنما بخليق المكتبات ما يخلوه من قبل للكتب من حب وحرص وتقدير ، والأدب العربي حافل بصورٍ تدل على هذا الاتجاه الرائع المثير :

هجم الجنود الخراسانية على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه ، وفرّ ابن العميد إلى دار الإمارة ، تاركاً لهم بيته وما فيه ، فلما جاء الليل وانصرف الجنود الخراسانية ، عاد ابن العميد إلى داره ، فوجد أن اصطبلاته وخزائنه جميعا قد نُهِبَت ، حتى أنه لم يجد فى منزله ما يجلس عليه ، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء ، فأنفذ اليه أبو حمزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم ، وكلّ نوع من أنواع الحِكَم والآداب بها يُحمل على مائة وِقْرٍ وزيادة ، فلما رأى ابنُ العميد ابنَ مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد . فسُرِّىَ عن ابن العميد وقال لخازنه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، فإن سائر الخزائن يوجد عنها عوض ، ولكن هذه الخزانة هى التى لا عوض لها [(١)] .

وفضّل الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبته العامرة على أن يتولى أعظم المناصب فى بلاط نوح بن منصور السامانى ، فقد أرسل له هذا يستدعيه الى حضرته ، ويرغبه فى خدمته ، ويبذل له البذول السنية ، فكانت مكتبته الغنية من جملة ما اعتذر به فلا هو استطاع الذهاب بدونها ، ولا كان من اليسير حملها معه ، فآثر أن يبقى بجانبها [(٢)] .

واهتم بنو عمار الذين كانوا يقطنون طرابلس الشام اهتماما كبيرا

---

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٣١٥ .

بمكتباتهم ، وحشدوا فيها مجموعات ثمينة من الكتب فى الفنون المختلفة ، وحرصوا على أن يزوّدوها بكل نادر وكل جديد ، ومن أجل ذلك وظفا أخصائيين تجارا ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية [١] .

وحكى ابن صورة الكتبى القصة الآتية : التمس ابن القاضى الفاضل منى أن أطلب له نسخة من الحماسة ليقرأها ، فأعلمت أباه القاضى الفاضل ، فاستحضر من الخادم الحماسات فأحضر له خمسا وثلاثين نسخة ، فأخذ ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان ، حتى أتى على الجميع ، ثم قال : ليس فيها مـا يصلح للصـبيان . وأمرنى أن أشترى له نسخة غيرها [٢] .

وإذا سرنا الى الأندلس وجدنا نشاطا يثير العجب فى تكوين المكتبات وحبها وتقديرها ، فإن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث فى شراء الكتب الى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل اليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وعندما سمع بكتاب الأغانى أرسل لصنفه أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه فى العراق ، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى (سنة ٣٧٥) فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم [٣] .

ولم يقف حب المكتبات وتقديرهـا والحرص عليها عند العلمـاء والباحثين ، وإنما تعداهم الى سواهم من عامة الناس ، وأصبح وجود مكتبة بالمنزل من تمام زينته وتأثيثه ، حتى ولو لم يكن صاحب المنزل مؤهلا للاطلاع والاستفادة من ذخائرها ، فهى على كل حال تضفى على المنزل

---

(١) Islamic Culture 1929, p. 231. وانظر كرد على : خطط الشام ٦ : ١٩١ .

(٢) الخطط ٢ : ٣٦٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر : جـ ٤ ص ١٤٦ ، والمقرى ١ : ١٨٢ .

جمالا وعلى صاحبه كمالا وجلالا . روى المقرى [١] عن الحضرمى أحد علماء الأندلس أنه قال : أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مـدة أترقب فيه وقوع كتاب ،لى بطلبه اعتناء ، الى أن وقع ، وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة علىّ إلى أن بلغ فوق حده ؛ فقلت للمنادى : أرنى مَنْ يزيد فى هذا الكتاب حتى بلّغه إلى أكثر مما يساوى ! فأرانى شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بمـا أزيد فيه [٢] .

---

(١) نفح الطيب ١ : ٢١٨ .

(٢) لهذه القصة نظير وقع فى العصر الحديث فان ثريا امريكيا بنى منزلا فخما فى حى من اعظم احياء نيويورك ، واختار له ارقى اثاث ، ثم ارسل خطابا لمدير محل كبير لبيع الكتب بلندن يطلب منه ارسال مجموعة من الكتب ، وقد جاء فى الخطاب تفاصيل دقيقة فيما يختص بنوع التجليد وحجم الكتب ، والمساحة التى يراد شغلها بها . أما عن موضوعات الكتب وعناوينها فقد تركت لاختيار محل بيع الكتب ، اذ كان المقصـود بالكتب الزينة والمظهر دون أن يراد منها الثقافة والعلم .
(Islamic Culture 1938 Vol 12 p. 165).

ابنية المكتبات ونظمها

يقول O'ga Pinto في مقال لـه عن المكتبات الإسـلامية [١] : إن المسلمين اهتموا اهتماما عظيما بأبنية المكتبات العامة ، التى كانت تُعدّ لاستقبال الجماهير ، وقد شُيِّد بناء خاص على طراز معين لمكتبات شيراز وقرطبة والقاهرة وما ماثلها ، وكان البناء مزوّداً بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع ، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة ، وانتظمت بعضُ المكتبات كذلك حجراتٍ للموسيقى يلجأ اليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً ومريحاً ، وقد فرشت أرضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون الى الجلوس على الأرض متقاطعة أرجلهم للقراءة والكتابة ...

وكان للنوافذ والأبواب ستائر جميلة ، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد فى الشتاء الى داخل الحجرات . ويقول المقريزى [٢] إن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوّام وخدام وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها .

وكان البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيما جدا ؛ إذ كانت عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم أربعين خزانة ، تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨٫٠٠٠ كتاب [٣] .

ويعطينا المقدسى [٤] وصفاً دقيقاً لمكتبة عضد الدولة فى شيراز وفيما يلى من كلامه ما يتصل بأبنية المكتبات ونظمها :

---

(١) Islamic Culture 1829, 111 p. 227.

(٢) الخطط ١ : ٤٥٨ . (٣) انظر المقريزى ١ : ٤٠٨ .

(٤) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ .

والمكتبة (أزج) طويل في صفة كبيرة فيها خزائن من كل وجه ، وقد ألصقت الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة عــلى الرفوف ، لكل نوع بيوت •

وقد اتضح من عجز هذا الاقتباس أن الكتب في هذه المكتبة كانت موزعة في الحجرات على حسب موضوعاتها ، وهو نظــام اتبع في جميع المكتبات الاسلامية تقريبا ؛ فابن سينا الذى انتفع بمكتبة السامانيين في عهد نوح بن منصور كتب يصف هذه المكتبة بقوله : دخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض ؛ في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد [١] •

ولم يعرف المسلمون في القرون الوسطى الطريقة الحديثة في وضع الكتب على الأرفف بل كانوا يضعونها مستلقية الواحد فوق الآخر [٢] ، وعلى هذا نُصح من يقوم بترتيب الكتب ألا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها [٣] •

---

(١) ابن ابى اصيبعة ٢ : ٤ • •

(٢) لم تعرف أوروبا في ذلك العصر الطريقة الحديثة ايضاً ، بل كانوا يفعلون مثل ما فعل المسلمون ، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك الطريقة انحدرت للعصور الوسطى من العصور السابقة لها • والتى كانت كتبهــا عبارة عن أوراق البردى أو لفائف منها او مما ماثلها • وقضت طبيعة هذه الاوراق وتلك اللفائف أن توضع في الأرفف بعضها فوق بعض •

See the Technique and Approach of Muslim Scholarship by Fr Rosenthal. A nalecta Orientalia 24, 1924.

وكان يعتقد ايضاً ان وضــع الكتب بعضها فــوق بعض يحميها من الاتربة ومن ترافــة الكتب التى استطاع المسلمون على اى حال لن يجدوا لهــا دواء (انظر معجم الادباء لياقوت ٦ : ٣٥٩) •

(٣) ابن جماعة • تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧٢) •

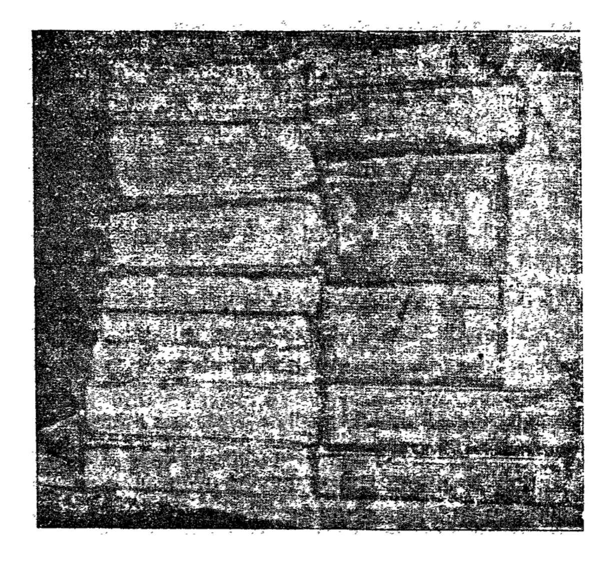
وترتب على تنظيم الكتب بهذه الطريقة شيء آخر هو أن عنوان الكتاب واسم مؤلفه لم يكتبا عـلى ظهر الكتـاب (كعب الكتـاب) كما هو متبع فى العهد الحاضر ، بل كان المعروف أن يكتب عنوان الكتاب واسم مؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤوس الأحرف تجاه بدء الكتاب فإذا وُضعت الكتب بعضها فوق بعض جعل الجانب الذى عليه الكتابة فى الجهة الخارجية للرف ليواجه الشخص الذى يبحث عن كتاب معيَّن فيسهل عيه فى هذا الحال أن يعثر على الكتاب الذى يريده [١] ؛ أما الكتب الثمينة أو الكتب غير المجلدة فقد كان كـل منهـا يحفظ غالباً فى صندوق صغير حجمه حجم الكتاب ، وهذا الصندوق مصنوع من الورق المقوى فى الغالب ، ويكتب العنوان واسم المؤلف فى هذه الحال على جانب الصندوق بدلاً من أطراف الورق . وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة كبيرة منحدرة من تلك العصور ، كُتِبَ العنوان واسم المؤلف على أطراف أوراقها أو على جوانب صناديقها ، وقد تفضل موظفو دار الكتب فأتاحوا لى فرصة وضع بعض منها على الطريقة التى كانت تتبع من قبل لتصويرها (انظر شكل ٧) .

وكانت الرفوف مفتوحة ، والكتب فى متناول الجميع ، وكل شخص يستطيع أن يحصل بنفسه على الكتاب الذى يريد ما تيسر له ذلك ، فإذا ضل الطريق اليه استعان بأحد المناولين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد ، وكانت هناك على أية حال رفوف مغلقة لأنها كانت تحوى المخطوطات الثمينة والكتب النادرة ، والحصول على مخطوط أو كتاب منها يلزم أن يحصل الطالب على إذن بذلك من المشرفين على أمور المكتبة [٢] .

---

(١) ابن جماعة : ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) Islamic Culture III, 1929 p. 229.



شكل رقم (٧) نظام ترتيب الكتب فى المكتبات الاسلامية المبكرة

الفهارس

لم تخلُ مكتبة ذات شأن ، سواء كانت عامة أو خاصة ، من فهرس يُرجع اليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية ، فهي تشمل الكتب التي بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها . وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب ، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التي يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه ، وبالاضافة الى عنوان الكتاب ورقمه كانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التي فُقِدت بعض أوراقها أو لم توجد جميع أجزائها [١] .

ولنجل الآن جولة سريعة في مكتبات العالم الاسلامي لعرض ما عثرنا عليه من ذكر لهذه الفهارس التي عرفها المسلمون ونظموها منذ ذلك العهد المبكر ، ومن الواضح أن الفهارس ترتبط ارتباطا تاماً بالمكتبات الكبيرة ومن أجل هذا فسيشمل حديثنا عن الفهارس إيضاحاً لنقطة مهمة هي غنى المكتبات وما حوته من ذخائر .

وأول ما نسوق من ذلك هو قول ابن سينا إنه اطلع على فهارس مكتبة السامانيين في بخارى ، واختار بضعة كتب طلب أن يطلع عليها ، فأحضرت إليه في الحال ، ويحكى ابن سينا أنه رأى من الكتب ما لم يقع اسمه قط الى كثير من الناس . وما كان رآه من قبل ، ولا رآه أيضا من بعد [٢] .

ويقول المقدسي [٣] وهو يواصل وصفه لمكتبة عضد الدولة في شيراز : لكلّ نوع من الكتب فهارس فيها عناوين الكتب .

---

(١) Islamic Culture III 1929 p. 229.

(٢) Barthold Turkestan Down to the Mongol Invasion pp. 9 - 10.
وانظر ايضاً ابن أبى أصيبعة ٢ : ٤ .

(٣) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤٤٩ .

ويسجل أبو الحسن البيهقى أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب ابن عباد أن تلك الفهارس كانت تقع فى عشرة مجلدات [١] .

وقد كانت الفهارس معروفة فى العراق منذ عهد خزانة الحكمة ؛ حدث الحسن بن سهل قال : قـال لى المأمون يـوماً : أى كتب العجم أشرف ؟ فذكرت كثيراً منها ثم قلت : جاويذان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين . فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم يرَ لهذا الكتاب ذكرا . فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟ [٢] .

وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس شامل دقيق رآه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو يقول عنه : ولقد نظرت فى ثبت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية ، فإذا به يحتـوى على نحو سـتة آلاف مجلد [٣] .

ولما فرغ المستنصر بالله من بناء مدرسته نقل اليها من الربعـات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حَمَلَه مائة وستون حمالاً ، وجُعِلت فى خزانة الكتب ، وتقدَّم المستنصر الى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها [٤] ، وإلى ولده العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة فى داره أيضا ، فحضر واعتبرها ، ورتبها أحسن ترتيب ، مفصِّلا لفنونها ليسهل تناولُها ولا يتعب مُتَناوِلُها [٥] .

---

(١) ياقوت : معجم الادباء ٢ : ٣١٥ .

(٢) محمد كرد على : رسائل البلغاء ٤٧٩ — ٤٨٠ .

(٣) صيد الخاطر ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٤) اثبات الكتب هو كتابة عناوينها فى ثبت أو سجل ، واعتبارها هو فحصها للتأكد من صحة عددها ومن سلامة أوراقها ، أو لاثبات حالها ، ومثل الاعتبار لفظ (الجـرد) وهو لفظ مولد يكثر استعماله فى الوقت الحـاضر .

(٥) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٥٤ .

وأما فى مصر فيبدو أنه لم يكن هناك فى بادىء الأمر فهرس عـام لمكتبة الفاطميين العظيمة التى كانت تشغل أربعين حجرة ، بل كان يكتفى بقائمة خاصة لكل حجرة ، وتشمل القائمة عناوين الكتب الموجودة بالحجرة وأرقامها وتلصق قائمة لكل حجرة على بابها (١) ، ولكن الوزير أبا القاسم الجرجانى وجد أن مكتبة كهذه لابد لها من فهرس عام ، فأصدر فى سنة ٤٢٥ هـ أمره بذلك ، وعين لهذه المهمة القاضى أبا عبد الله القضاعى وأبا خلف الوراق (٢) .

وفى أسبانيا كان لمكتبة الحكم فهارس غاية فى الدقة والنظام ، وهى تدل على أن المكتبة كانت تزخر بمجموعـة عظيمة من الكتب فقـد روى المقرى (٣) أن الفهرست الخاص بدواوين الشعراء وحدها كان يقع فى أربعة وأربعين جزءاً .

---

(١) الخطط ١ : ٤٠٩ .

(٢) القفطى : أخبار الحكماء ص ٤٤٠ .

(٣) نفح الطيب ١ : ١٨٦ وانظر كذلك :

Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 514.

استعارة الكتب

تُستَحَبُّ إعارة الكتب ممن لا ضرر عليه فى ذلك لمن لا ضرر منه بها ، واعارتها للطلبة والمشيخة آكَد ، لما فيه من نشر العلم بصفة خاصة وإفادة الناس بصفة عامة ، حتى عُدَّ ذلك من صفات العلماء المحمودة ، وكان الحافظ ابن الخاضبة محبوبا الى الناس كلهم فاضلا حسن الذكر .. لا يأتيه مستعير" كتاباً إلا أعطاه له أو دلَّه عليه (١) .

وقد وجدت فى عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار أو عدم رده (٢) ، وكان ذلك سبباً فى أن كره بعض الأدباء والعلماء إعارة كتبهم خوفا عليها . قال رجل لأبى العتاهية : أعرنى كتابك . فقال : إنى أكره ذلك . فقال الرجل : أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره ؟ فأعاره الكتاب (٣) . وطلب الشافعى من محمد بن الحسن كتباً فمنعها فكتب له الشافعى :

ياذا الذى لم ترَ عَيْـ ـنُ من رآه مثله
العلم يأبى أهلُه أن يمنعوه أهلَه (٤)

وقد كان تيسير الاستعارة داعيا لأن يستغنى بها بعض العلماء ، فلم يجدوا من الضرورى أن يشتروا الكتب ويبذلوا المال ثمنا لها ، ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطى الذى يقول : إذا أردت كتابا استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتى (٥) .

ولم تكن الاستعارة على أية حال مطلقة تماما ، بل وُضعت عليها

---

(١) ابن جماعة ص ١٦٧ وهامش ص ١٦٨ .
(٢) انظر المقريزى ٢ : ٣٦٦ .
(٣) ابن جماعة ١٦٧ — ١٦٨ .
(٤) ابن جماعة ص ١٦٨ .
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة : ٤ : ٣٠٩ .

قيود لتنظيم العمل وسيره ، ومن ذلك أنه كان من نظام مكتبة القاهرة أنها تُعير كتبها للطلبة الساكنين فى القاهرة فقط [١] .

وكان يكثر أن يُطلَب الى المستعير أن يدفع ضمانا أو ما يطلق عليه الآن (تأمين) ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان ، فلقد مدَح ياقوت الرومى المشرفين على المكتبات ببلدة (مَرْو) إذ سمحوا له أن يستعير مائتى مجلد دون أن يدفع ضمانا [٢] .

وكثيرا ما كان يُحدَّد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت ؛ فإن ابن خلدون سجَّل فى الوثيقة التى أهدى بها كتابه العبر الى مكتبة جامع القيروان : أنه لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية إلا إذا كان المستعير شخصا موثوقا به وأمينا ، على أن يدفع ضمانا هاما ، وأن يردَّ الكتاب فى مدة لا تتجاوز شهرين [٣] .

ومستعير الكتاب ينبغى أن يحافظ عليه تمام المحافظة ، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ، ولا يُحَشِّى ولا يكتب شيئا فى بياض فواتحه أو خواتمه أو هوامشه إلا إذا علم رضا صاحبه ، ولا يعيره لغيره ، ولا يدفعه ضمانا لشيء . وعلى المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة ، بل يرده إذا قضى حاجته أو انتهت المدة التى أذِن له بها . ولا يحبسه إذا طلبه المالك ، وليتبع على العموم قول الشاعر :

أيها المستعير منى كتابا ارض لى منه ما لنفسك ترضى

كل هذا ينطبق على الكتاب المستعار من شخص أو من مكتبة خاصة ، ولكن فى حالة الكتاب المستعار من مكتبة عامة لا بأس بإصلاحه ممن هو أهل لذلك .

---

(١) دائرة معارف وجدى ٨ : ٦٤ وهذا يذكرنا بالنظام الانكليزى المعمول به فى اغلب المكتبات البريطانية ان لم يكن كلها ، والذى لا يسمح باخراج الكتاب المستعار من الجزر البريطانية .

(٢) معجم البلدان : جـ ٦ ص ٣٧ .

(٣) The Encyclopaedia of Islam II, p. 1047.

وينبغى للمستعير أن يشكر للمعير عونه ويجزيه خيراً [١] .

ومن أروع صور الإعارات التى عرفتها مصر ما يرويه الجبرتى عن منزل الحاج أحمد بن محمد الشرايبى (١١٧١ هـ = ١٧٥٧ م) الذى كان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجدٍ وعز ، وكانت أسرته فى غاية الغنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرايبى لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيد أنها وقفية ؛ ولا يدخلونها فى موارثيهم مع أنهم كانوا يشترونها بأغلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفوف المفتوحة ، ولكل من دخل الى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء من الكتب بالإعارة ، ولو لم يكن معروفا لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فإن رده أعاده إلى مكانه ، وإن استبقاه أو باعه لا يسأل عنه ، وفى بعض الأحيان كان يباع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أى تأفف [٢] .

وقبل أن نختتم هذا الموضوع يجدر بنا أن نذكر أنه وجد بالعالم الاسلامى مكتبات للاطلاع الداخلى فقط دون اعارة خارجية كما هو متبع الآن فى المتحف البريطانى ، وممن فعل ذلك فى البلاد الاسلامية القاضى ابن حيان النيسابورى الذى وقف كتبه على أهل العلم على شرط ألا يعار كتاب منها إعارة خارجية مهما كانت الظروف [٣] . وقد اشترط هذا الشرط نفسه فيما يختص بمكتبة المدرسة المحمودية التى أنشأها جمال الدين محمود بن على الذى نص فى كتاب الوقفية على أنه لا يجوز إخراج أى كتاب خارج بناء المدرسة [٤] .

---

(١) ابن جماعة ١٦٨ — ١٦٩ بتصرف .

(٢) الجبرتى : جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) Islamic Culture III, 1929. p. 234.

(٤) المقريزى الخطط ٢ : ٣٩٥ .

موظفو المكتبة

يختلف موظفو المكتبة بطبيعة الحال باختلاف المكتبة ، وما اذا كانت صغيرة أو كبيرة ،خاصة أو عامة ، وهذا الاختلاف يشمل أنواع الوظائف وعدد الموظفين . ومع هذا فهناك وظائف قلّ أن خلت منها مكتبة ذات شأن فى العالم الاسلامى ، ويدور الحديث فى هذا القسم عن الموظفين الذين شغلوا هذه الوظائف وهم :

١ ــ الخازن (أمين المكتبة) .

٢ ــ المترجمون . ٣ ــ النساخ .

٤ ــ المجلدون . ٥ ــ المناولون [١] .

وسنتكلم كلمة عن كل من هؤلاء لنصف العمل الذى كان يمارسه :

١ ــ الخازن (أمين المكتبة) :

كان الخازن يشرف على الناحية العلمية والناحية الادارية بالمكتبة ؛ فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة ، ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها ، وييسّر للقراء عملهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وعليه المحافظة على الكتب من الضياع ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها

(١) كانت هناك ايضاً وظيفة المشرف الا أنها كانت قليلة الانتشار ، فلم توجد الا فى المكتبات العظيمة . ووظيفة المشرف وظيفة عامة ، لا تستلزم من شاغلها أن يمضى بالمكتبة وقتا طويلا كما كان يفعل الخازن ، بل كان يكفى أن يتردد المشرف من يوم الى آخر لوقت قصير ، ومن اجل هذا لم يكن مرتبه أعلى من مرتب الخازن ، وكان من الممكن أن ينتقل المشرف فيصبح خازناً كابن القوطى الذى كان مشرفاً على خزانة المدرسة المستنصرية ثم عُين خازنا لهـا . ولمـا لم تكن وظيفة المشرف موجودة بكل مكتبة او باغلب المكتبات ، ولما كانت غير دقيقة الاختصاصات فقد اكتفيت بهذا الموجز منها .

للحبك ، والضن بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج اليها ، وأن يقدم فى الإعارة الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء [١] .

وكان الغالب أن يكون للمكتبة خازن واحد يقوم بهذه المهمة ، ولكن بعض المكتبات كانت ضخمة أو كثيرة الرواد فثقل العبء على خازن واحد ، ومن أجل هذا كان يعين اثنان أو يعين للخازن مساعد أو أكثر ليتعاونوا جميعا فى خدمة القراء ، وتيسير الأطلاع لهم ، ومن هذه المكتبات مكتبة سابور بن أردشير فقد ذكر ابن العماد [٢] أن سابور بعد أن نقل اليها الكتب الكثيرة ،رد النظر فى أمرها الى الحسين بن شيبه [٣] ، وأبى عبد الله الضبى القاضى ، وبعد وفاة سابور آلت مراعاة الدار الى المرتضى أبى القاسم نقيب الطالبيين ، فضم هذا الى خازنها المعروف بأبى منصور خازنا آخر يعرف بأبى عبد الله بن حمد [٤] . وكذلك أقيم لمكتبة الفاطميين قوام يرعون شئونها [٥] .

ثقافة الخازن : يعتبر أمناء المكتبات فى أرقى دول العالم فى العصر الحديث موئلا للطلاب بل وللعلماء ، فكثيرا ما يمدونهم بمراجع مهمة فى موضوع يعنيهم ، ثم إن الأمناء بحكم عملهم يتلقون الكتب الحديثة ويلقون عليها النظرات الأولى ، وهم بذلك يستطيعون أن يوجهوا أنظار المهتمين بموضوع ما بما يجد حول هذا الموضوع من دراسات وأبحاث ، ومن أجل هذا يختار أمناء المكتبات من بين المثقفين ثقافة ممتازة ، ومنهم من هو حاصل على درجات علمية عليا .

ويبدو أن المسلمين فى العصور الوسطى اتجهوا هذا الاتجاه ، وأدركوا أن وظيفة الخازن ليست عملا اداريا فحسب ، وانما هى عمل علمى قبل

---

(١) السبكى : مفيد النعم ١٥٩ .
(٢) شذرات الذهب ١ : ١٠٤ .
(٣) صحف فى الشذرات الى السنية والتصحيح من المنتظم ٧ : ١٧٢ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٥٩ .
(٥) المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٨ .

كل شيء ، وعلى هذا فقد اختير لهذه الوظيفة جماعة من أساطين العلماء ومشاهير الأدباء ، وفيما يلي سرد سريع لأسماء بعضهم مع لمحة موجزة عن كل منهم :

كان سهل بن هارون وسعيد بن هارون وسلم خزنة لبيت الحكمة الذى أنشأه الرشيد ، ويقول ابن النديم عنهم : كان سلم حكيما فصيحا شاعرا ... وكان أبو عثمان الجاحظ يجله ، ويصف براعته وفصاحته ، ويحكى عنه فى كتبه ، ولسهل بن هارون عدة من الكتب ، أما سعيد فقد كان بليغا فصيحا مترسلا ، وله من الكتب كتاب الحكمة ومنافعها ، وله رسائل مجموعة ، ولسلم نقول من الفارسى إلى العربى [١] .

وكان على بن يحيى المنجم (٢٧٥ هـ) هو الذى أعد مكتبة الفتح ابن خاقان وأشرف عليها وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخص أيضا بمن جاء بعده من الخلفاء الى أيام المعتمد ، وكان راوية للأشعار والأخبار ، شاعراً محسنا ، وله صنعة ، مقدما عند الخلفاء [٢] ، وقد ترجم له ياقوت ترجمة طويلة [٣] وهو يقول فيها : ان عليا كان مشتهراً بالأدب ، مائلا الى أهله ، معتنيا بأمورهم ، وكان منزله ملتقى لهم ، وكان يوصل كثيرا منهم إلى الخلفاء والأمراء [٤] .

أما مكتبة الفاطميين فقد تولاها عالم من خيرة علماء زمانه ، ذلك هو على بن محمد الشابشتى (٣٩٠ هـ) ويقول عنه ابن خلكان [٥] : كان أديبا فاضلا تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدى صاحب مصر ، فولاه أمر خزانة كتبه ، وجعله يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤
(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٥ .
(٣) معجم الأدباء ٥ : ٤٥٩ — ٤٧٧ .
(٤) ٥ : ٤٦٠ .
(٥) الوفيات ١ : ٤٨١ .

المجاورة لطيف المعاشرة ، وله مصنفات حسنة ، منها كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء وغيرها .

وسبق لنا أن ذكرنا أن المؤرخ الشهير والعالم الكبير ابن مسكويه كان خازناً لمكتبة ابن العميد [1] .

وحظيت خزانة سابور بن أردشير الوزير البويهي (٤١٦ هـ) بشرف تولى الاشراف عليها مجموعة من جلة العلماء والأدباء من أهمهم :

القاضي أبو عبد الله الضبي [2] .

أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري (٤٠٥ هـ) وكان معاصراً لأبي العلاء المعري وصديقا له ، وكان عالما ، أديبا ، قارئا القرآن ، عارفا بالقراءات ، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن ، وأجودهم إنشاداً للشعر [3] .

وتولى الاشراف على مكتبة المدرسة النظامية جمهرة من علماء العصر ونوابغه منهم :

أبو يوسف الاسفرائيني وكان شاعراً أديباً وهو القائل يرثي منصور ابن مزيد :

أيا شجرات النيل من يضمن القِرى   إذا لم يكن جارَ الغداة ابنُ مزيد

إذا غاب منصور فلا النور ساطع   ولا الصبح بسام ولا النجم مهتدي [4]

ولما توفي الاسفرائيني سنة ٤٩٨هـ أخذ مكانه محمد بن أحمد الأبيوردي، وهو أيضا شاعر وعالم وأديب [5] . ومن أشهر خزنة النظامية أبو الحسن يحيى بن الخطيب التبريزي ويقول عنه ياقوت [6] إنه كان أحد الأئمة في

(١) تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤ .
(٢) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤ .
(٣) تاريخ بغداد ١١ : ٥٨ .
(٤) معجم الأدباء ٦ : ٢٤٣ .
(٥) معجم الأدباء ١ : ٢٤١ — ٢٤٣ .
(٦) معجم الأدباء ٧ : ٢٨١ — ٢٨٧ .

النحو واللغة والأدب ، حجة صدوقا ثبتا ، رحل الى أبى العلاء المعرى فأخذ عنه ، وعن كثيرين غيره • وولى تدريس الأدب بالنظامية وخزائن الكتب بها ، وانتهت اليه الرياسة فى اللغـة والأدب ، وسـار ذكره فى الأقطار ورحل الناس إليه •

أما خزنة مكتبة المدرسـة المستنصرية فهم سلسلة من الأفاضـل والثقات منهم :

الشمسى على بن الكتبى وهو أول خازن للمستنصرية وقد منحـه الخليفة خلعة يوم افتتاحها [١] •

ابن السباعى المؤرخ المشهور صاحب الجامع المختصر [٢] •

ابن القوطى مؤلف الحوادث الجامعة ، وكتبا كثيرة أخرى ، وقد كان قبل تعيينه خازنا لهذه المكتبة ، خازنا لمكتبة نصـير الدين الطوسى الخـاصة [٣] •

٢ ــ المترجمون :

من المسلم به أنه فيما عدا الدراسات الدينية واللغوية ، كانت النهضة العلمية التى احتضنها المسلمون ورعوها تعتمد جل الاعتماد على الدراسات التى قام بها غير العرب من الشعوب ، ومن أجل هذا كان المترجمون حلقة الاتصال بين العرب وهـذه العلوم ، وبمساعدة هـؤلاء المترجمين وعن طريقهم نقلت علوم المصريين واليونان والسريان والفرس والهنود إلى اللغة العربية ، ويستطيع الباحث أن يقرأ عن هؤلاء المترجمين ونتاجهم فى الفهرست لابن النديم وفى الباب التاسع مـن طبقات الأطبـاء لابن أبى

---

(١) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ٢٥٦ .

(٢) انظر مقدمة الجامع المختصر ص ١ .

(٣) انظر ترجمته فى أول الحوادث الجامعة .

أصيبعة ، ولكننا هنا سنتحدث حديثا قصيراً عن نماذج لطائفة واحدة من المترجمين تشمل هؤلاء الذين كانوا يقومون بعملهم فى المكتبات ، فهم الذين يدخلون فى المحيط الذى نتكلم عنه •

ونسجل هنا أن المترجمين وجدوا مكانهم فى أول مكتبة عرفت فى العالم الإسلامى ؛ فقد ذكر كرد على [١] أن خالد بن يزيد (٨٥ هـ) كان أول من عُرِفت له مكتبة ، ويقول عنه ابن النديم [٢] أنه عُنى بإخراج كتب القدماء ، وكان أول من تُرجِمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، وفى مكان آخر يقول عنه [٣] إنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مصر وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والمصرى الى العربى ، وهو أول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة ، ويعين ابن النديم [٤] مترجما اسمه اصطفن القديم ويقول انه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة •

ولكن الترجمة وصلت قمتها فى بيت الحكمة ، ومن مشاهير المترجمين فيها أبو سهل الفضل بن نوبخت • ويقول ابن النديم عنه [٥] إنه كان فى خزانة الحكمة لهرون الرشيد ، وله نقل من الفارسى الى العربى ، وقد قلّد الرشيدُ يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين أخذها المسلمون ، ووضعه أمينا على الترجمة [٦] •

وكان المأمون الخليفة عالماً مثقفاً ، فأولى النهضة العلمية عنايته الكاملة ، واتجه الى أن يحصل على عدد ضخم من كتب القدماء ، فوفق بطرق شتى الى الحصول على مجموعات نادرة ، وضعها فى خزانة الحكمة ، وعيّن خيرة المثقفين ونخبة ممتازة من المترجمين لينقلوها الى اللسان

---

(١) خطط الشام ٦ : ١٨٩ • (٢) الفهرست ٢٩٧ •
(٣) الفهرست ٣٣٨ • (٤) ابن النديم ٣٤٠ •
(٥) الفهرست ٣٨٢ • (٦) ابن أبى اصيبعة ١ : ١٧٥ •

العربى ، وليضيفوا لهـا ما يعن لهم من شروح وتعليقـات • ومن أشهر المترجمين بالخزانة فى ذلك العهد سلّم ، والحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وحنين ابن اسحق ، وعمر بن الفرخان ، واسحق بن حنين [١] •

واشتهرت بعض المكتبات الخاصة بالحرص على النقل والترجمة ، ومن هذه مكتبة بنى شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتئون ينقلون لهم ويلازمون العمل فى مكتبتهم ومنهم حبيش بن الحسن وثابت بن قرة [٢] •

وتوقف نشاط الترجمة تقريبا بعد الواثق ، ولم يعد من السهل أن يجد الباحث ذكرا للمترجمين فى المكتبات العامة أو الخاصة • ولعل السبب فى ذلك أن النشاط الكبير الذى حظيت به الترجمة من قبل قد نقل الى اللغة العربية أمهات الكتب فى الفنون المختلفة ، أو أن المسلمين بعد أن اطلعوا على ما ترجم فى بيت الحكمة وما عاصرها من مكتبات استطاعوا أن ينتجوا بلغتهم ثقافة وعلماً وفلسفة كانت مجالا لنشاطهم العلمى فى العهود التـالية •

٣ ـ النسـاخ : *

من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا فى العصور الوسطى ضرورة أن يكون بالمكتبة قسم للطبع والنشر • ولم تكن وسائل الطبع الحديثة قد

---

(١) انظر الفهرست ١٧٤ ، ٣٣٩ ، ٤١٥ والقفطى ٢٤٢ وابن ابى اصيبعة ١ : ١٨٧ •

(٢) القفطى ٣٠ — ٣١ ، ابن ابى اصيبعة ١ : ١٨٧ ، ابن النديم ٢٤٠ •

* ١ — يرى ابن خلدون (المقدمة ص ٢٩٦) أن الوراقة تشمل النسخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية • ويصرح ابن النديم (الفهرست ١٦٩) أن الوراقة تشمل بيع الكتب ايضا ، فهو يقول دكاكين الوراقين ، وآثر السمعانى تحديد معنى الوراقة فجعله كتابة المصاحف وكتب الحديث وغيرها فقط (الأنساب ظهر الورقة رقم ٥٧٩) فالوراقة عنده هى

=

وجدت بَعْدُ بطبيعة الحال . فعينوا بالمكتبات نُساخا عرفوا بالدقة وجودة الخط ، وكانت الكتب الحديثة يؤتى بها لهؤلاء النساخ لينقلوا صورة منها تزود بها المكتبة ، فاذا ضن مؤلف الكتاب أو مالكه باعارته بضعة أيام للنساخ خوفا عليه ، فانه من الممكن أن ينتقل النساخ اليه ليقوموا بعملية الكتابة تحت إشرافه ، والحق أن هؤلاء النساخ أدوا واجبهم خير أداء ، وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير أو تقصير .

وكان على الناسخ أن يلحظ الدقة والاتقان فى عمله ، بحيث لا تدعوه الرغبة فى سرعة الإنجاز أن يحذف فى أثناء الكتابة شيئا أو أن يسهو عنه ، وعليه أن يتتبع تعليمات مستأجره بملاحظة عدد الأوراق ، ونظام الكتابة ، وعدد الأسطر فى كل صفحة ، ولون الحبر وغير ذلك ، ثم ألا يكتب الكتب غير النافعة وإن أغراه الراغبون فيها بالمال الوفير [١] .

وقلما خلت مكتبة ذات شأن ، خاصة أو عامة ، من ناسخ أو نساخ يعملون بها . وفيما يلى أمثلة موجزة لبعض النساخ :

كان فى بيت الحكمة عدد من النساخ فقد ذكر ابن النديم [٢] فى ترجمة علان الشعوبى ما نصه : « علان الشعوبى أصله من الفرس ،

=

النسخ وهى بهذا المعنى ستكون موضوع الحديث فى هذا الفصل .

٢ — كان نسخ المخطوطات هو الطريق العادى للحصول على نسخة من كتاب ما ، وكان الشخص ينسخ الكتاب بنفسه او يستأجر من ينسخه له ، كما كان هناك نسّاخ ينسخون الكتب ثم يعرضونها للبيع ، وكان يحدث أن تقدم الكتب هدايا ولكن هذا لم يكن كثيراً بين الأفراد وانما كثر أن يهدى العلماء كتبهم أو مجموعات منها للمساجد والمدارس .

(١) السبكى : معيد النعم ١٨٦ — ١٨٧ بتصرف .

(٢) ص ١٥٣ — ١٥٤ .

وكان راوية ، عارفا بالأنساب والمثالب والمناظرات ، منقطعا الى البرامكة ، وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون •

وكان فى مكتبة الواقدى (٢٠٨ هـ) غلامان مملوكان له يكتبان طيلة الليل والنهار ، وقد اشتهر محمد بن سعد بكتابته للواقدى ، حتى أصبح من أبرز مميزات ابن سعد أن يقال عنه : كاتب الواقدى [١] •

وكان لحنين بن اسحق الطبيب المسيحى الشهير نسّاخ ذكر منهم ياقوت محمد بن الحسن بن دينار قائلا انه كان وراقا يورق لحنين بن اسحق المتطبب فى منقولاته لعلوم الأوائل [٢] • وذكر ابن أبى أصيبعة [٣] أنه كان لحنين كاتب يعرف بالأزرق ، وأضاف عنه ابن أبى أصيبعة قوله : وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينيوس وغيره بخطه •

وكان للجاحظ فى مكتبته الخاصة وراق اسمه عبد الوهاب بن عيسى [٤] وكان أحمد بن أحمد (ابن أخى الإمام الشافعى) وراقاً لابن عبدوس الجهشيارى ، وكان جماعة من أعيان العلماء يفتخرون بالنقل من خطه لشدة إتقانه وضبطه [٥] •

وكان على بن هلال المعروف بابن البواب (٤١٣ هـ) خطاطا شهيراً ، وقد سمت به همته وكفايته فردّ اليه بهاء الدولة بن عضد الدولة أمر مكتبته ، ولكن ذلك لم يكن يعفيه من أن يعود ناسخا فى المكتبة اذا احتاج النسخ فى مناسبة ما الى براعته وفنه وجودة خطه ، ومن ذلك أنه عثر فى هذه المكتبة على تسعة وعشرين جزءا من القرآن الكريم كتبها الخطاط العظيم أبو على بن مقلة ، وجعل كلّ جزء فى مجلد مستقل ، فكلّف بهاء

---

(١) الفهرست ١٤٤ • (٢) معجم الادباء لياقوت ٦ : ٤٨٢ •
(٣) ١ : ١٨٧ •
(٤) تاريخ بغداد ١١ : ٢٨ السمعانى : الانساب وجه الورقة رقم ٥٨٠ •
(٥) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٨١ •

الدولة ابنَ البواب أن يكتب الجزء الناقص ، وقد استطاع ابن البواب أن يختار كاغداً وقلما وحبرا تشبه من جميع الوجوه تلك التى استعملها ابن مقلة ، ثم قلّد ابنُ البواب خطَّ ابن مقلة تقليداً دقيقا رقيقا ، بحيث لم يستطع بهاء الدولة أن يتعرف على الجزء الذى كتبه ابن البـواب من بين الأجـزاء الثلاثين (١) .

وقد وجّه الخليفة الراضى مرة إلى خازن كتبه يطلب ديوان نهشل ابن جزى فلم يجده ، فساء المسئولىَ أن تخلو المكتبة من مثل هذا النتاج ، وأشار على الخليفة أن يزود مكتبته بالكتب المفيدة حتى تتناسب مع جلالة علمه ، وعلو نعمته ، وأضاف بأن ما كان سماعا أو لا يمكن الحصول عليه ينسخه الوراقون الذين تجرى عليهم الأرزاق ويجلّده مجلدو الخزانة (٢) .

وكان من النساخ فى مكتبة المدرسة المستنصرية عالمان فاضلان ، أحدهما صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر الذى يحدثنا عن حياته فيقول : وردت بغداد صبيا ، وأتيت فقيها بالمستنصرية شافعيا فى أيام المستنصر واشتغلت بالمحاضرات ، والآداب ، والعربية ، وتجويد الخط ، فبلغت فيه الغاية ، ثم اشتغلت بضرب العود فكانت براعتى فيه أعظم من الخط ، لكنى اشتهرت بالخط ولم أُعرف بغيره فى ذلك الوقت ، ثم إن الخلافة وصلت الى المستعصم فعمَّر خزانة كتب ، وأمر أن يختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره ولم يكن فى ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكى الدين ، وكنت دونه فى الشهرة ، فرتبنا فى ذلك (٣) .

فإذا سرنا الى الشام ومصر والأندلس وجدنا نشاطا عظيما يقوم به هؤلاء النساخ ، ينفعون به العلم ويمدون المكتبات بالنافع والجديد .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ٤٤٦ — ٤٤٧ .
(٢) أخبار الراضى بالله والمتقى بالله ص ٤٠ .
(٣) الكتبى : فوات الوفيات ٢ : ١٨ .

فقد كان للصاحب أمين الدولة أبى الحسن بن غزال (من وزراء الشام وأطبائها توفى سنة ٦٤٨) همة عالية فى جمع الكتب وتحصيلها ، وكان النساخ أبدا يكتبون له ، حتى إنه أراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلدا ، ففرقه على عشرة نساخ كل واحد منهم ثمانى مجلدات فكتبوه فى نحو سنتين [١] .

وقد اجتمع عدة من النساخ بمكتبة المؤرخ الشهير أبى الفدا صاحب حماة [٢] .

وكان نشاط النساخ فى مصر بالغا الغاية ، فقد عين فى دار الحكمة عدد منهم ليزودوا خزانة الكتب بما عسى ألا يكون موجودا فيها ، ويشير المقريزى فى أكثر من موضع الى النساخ بهذه المكتبة [٣] وكان فى دار يعقوب بن كلس قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب [٤] . أما أفرائيم بن الزفان فقد كانت له همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها ... وكان أبدا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم ، ومن جملتهم محمد بن سعيد ابن هشام المعروف بابن ملساقة [٥] ويروى ابن جماعة [٦] عن عبد اللطيف البغدادى أن القاضى الفاضل كان له عدد من النساخ لا يفترون يكتبون له ، وكان فى خدمة موفق الدين بن المطران ثلاثة نساخ يكتبون أبدا ، ولهم منه الجامكية والجراية ، وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوبا [٧] .

ولنعبر الآن البحر الأبيض المتوسط الى الأندلس لنشاهد النساخ فى هذه البقاع ، فقد ذكر ابن خلدون [٨] أن الحكم جمع بداره الحذاق فى

---

(١) ابن ابى اصيبعة ٢ : ٢٣٦ .
(٢) Islamic Culture IX 1935 p. 135.
(٣) ابن ابى اصيبعة ٢ : ١٠٥ . (٤) ابن خلكان ٢ : ٤٩٧ .
(٥) ابن ابى اصيبعة ٢ : ١٧٨ . (٦) تذكرة السامع ١٦٦ بالهامش .
(٧) الخطط ١ : ٤٠٩ ، ٤٥٩ . (٨) العبر ٤ : ١٤٦ .

صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والإجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، وكان القاضى أبو المطرف قاضى الجماعة بقرطبة (٤٠٢هـ) جمّاعة للكتب ، وله ستة من الوراقين ينسخون له دائما ، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبا معلوما ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه وإلا انسخه منه وردّه عليه (١) .

ونختتم القول عن النساخ بعبارة تدعو الى الدهشة والإعجاب ؛ فلقد روى أنه كان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخاً ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهاراً بحيث لا ينتطع النسخ ، ولا يقل الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخا فى أية ساعة من ساعات النهار والليل (٢) .

٤ — المجلدون : *

ليست هناك حاجة — فيما أعتقد — لأن نتحدث عن المجلدين حديثا طويلا ونتبعهم من بلاد ما وراء النهر ونسير مخترقين خراسان والعراق والشام ومصر وشمالى افريقية إلى الأندلس ، والذى دعا إلى هذا الميل أن الحديث عن القسم السابق الخاص بالنساخ يمكن أن يعتبر فى الوقت نفسه حديثا عن المجلدين ؛ إذ أن كلمتى الناسخ والمجلد كانتا متلازمتين

(١) الصلة لابن بشكوال ١ : ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) Islamic Culture IX 1935 p. 135. See also. III : 1929, p. 231.
والاقتباس من تاريخ ابن الفرات مخطوطة بفيينا الورقة رقم ٣٦ .

* هناك فرق بطبيعة الحال بين تغليف الكتب وتجليدها ، فالتغليف هو وضع غلاف للكتاب سواء استعمل الجلد فى الغلاف او لم يستعمل ، اما التجليد فهو التغليف بالجلد ، ولكن المسلمين دابوا على ان يستعملوا كلمة « مجلّد » لترادف كلمة Binded الانجليزية ولعل السبب فى ذلك انهم لم يعرفوا فى عصورهم الأولى تغليف الكتب الا بالجلد .

تقريبا فى كل ما بين أيدينا من مصادر فكلما وردت كلمة الناسخ وردت معها كلمة المجلد [1] .

وللأستاذين Adolf Grohmann and Thomas Arnold دراسة رائعة عن ذلك الموضوع ظهرت فى كتاب The Islamic Book (الكتاب عند المسلمين) ومنه نقتبس العبارة الآتية :

ونال تجليد الكتب عناية خاصة من أهل العراق والأندلس ، وكانت مالقة بالأندلس أكثر المدن براعة وإتقاناً فى صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليدا نفيسا على وجه الخصوص ، وقد بذل الهواة من جماعى الكتب كما بذل الأمراء المسلمون جهدا رائعا كانت نتيجته تكوين المكتبات العامرة ، والتشجيع المتواصل لتنسيقها ، وإبداع تجليد كتبها ، مما أسهم بنصيب ملحوظ فى هذا التطور الذى لا نظير له فى فن تجليد الكتب فى العصور الوسطى [2] .

ومن هذا الكتاب ومن الكتاب الذى أخرجه F. Sarre وعنوانه Islamic Bookbinding (تجليد الكتب عند المسلمين) نقدم الرسوم الخمسة الآتية [3] فهى ناطقة بروعة فن التجليد إذا قيس بهذه العصور المبكرة ، وهى لا تزال محتفظة بجمالها على الرغم مما أصابها من ضرر خلال السنين العديدة فى تاريخها الطويل .

---

(١) أنظر الفهرست ص ١٤ — المقدسى ٤٣ و ٤٤ و ١٠٠ والصولى : اخبار الراضى ص ٤٠ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ١٤٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٩ و ٤٥٩ ، المقرى ١ : ١٨٢ ، ابن جماعة ١٦٦ بالهامش .

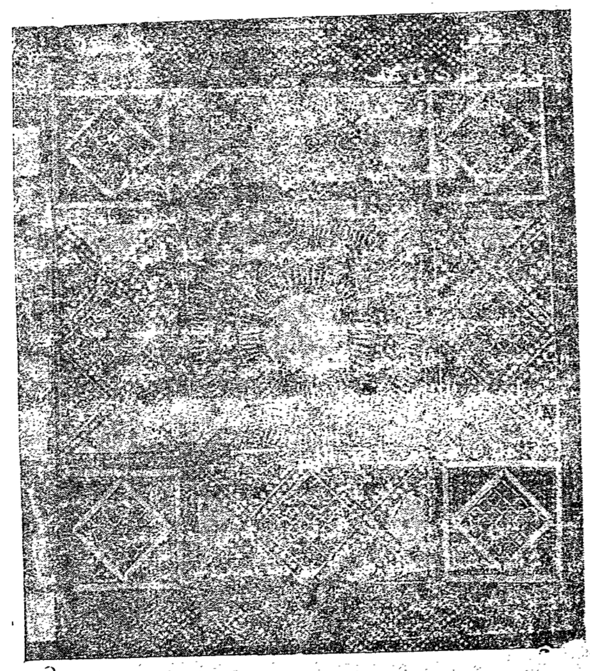
(٢) صفحة ٣١ — ٣٢ .

(٣) انظر شكل ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .

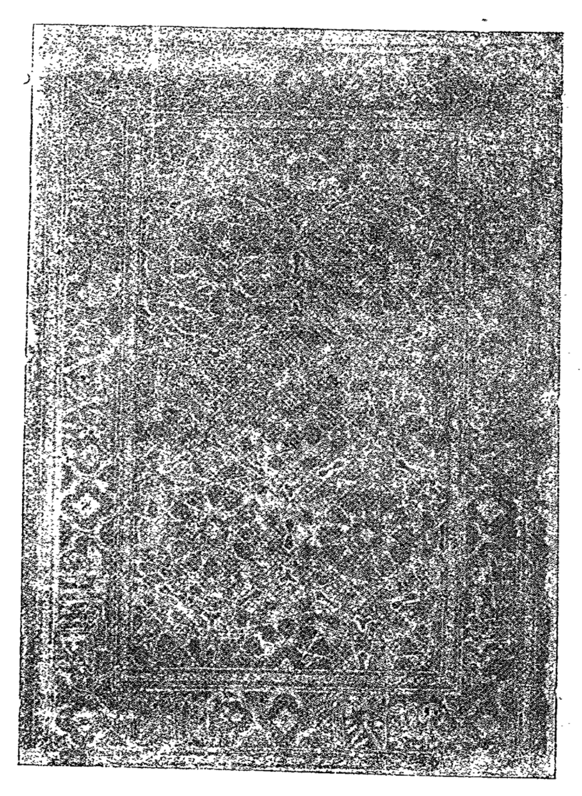
وقد بدأ التجليد عند المسلمين بسيطا ، ولكنه تطور بسرعة عجيبة حتى أصبح فناً فيه دقة وفيه جمال ، ويحدثنا ابن النديم [١] أن الكتب كانت تجلد بجلد مدبوغ فى (النورة) وهو شديد الجفاف ، الى أن ظهر دبغ الكوفة وفيه لين ، فاستعمل فى التجليد وكان بدء تطوره ، وبعد ابن النديم استمر تطور فن التجليد وتقدمه ، ثم ظهر التذهيب والزخرفة والتزويق ، فوصل التجليد عند المسلمين إلى القمة ، وأصبح آية فى الإبداع والجمال [٢] ، وقد رأيت فى المكتبة الحيدرية بالنجف مصاحف جُلّدت أجود تجليد وذُهّبت وزخرفت بيد فنانة صناع .

(١) Islamic Culture IX 1935, p. 138.

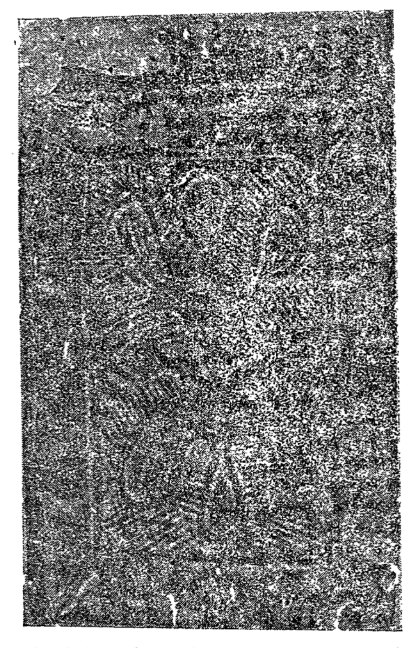
(٢) الفهرست ص ٣٢ .



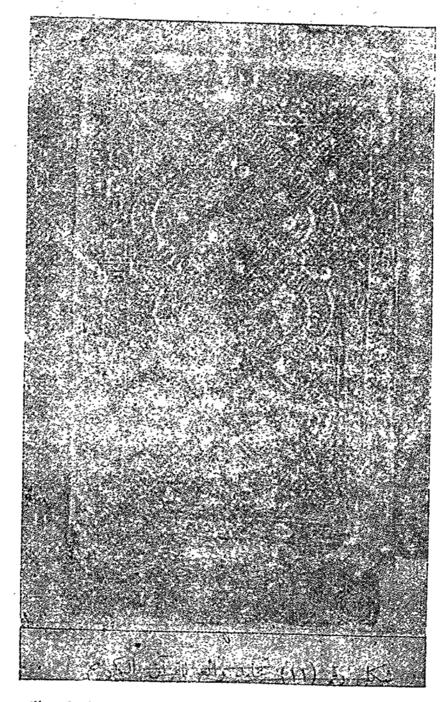
شكل رقم (٨) التجليد المصرى فى عهد مبكر



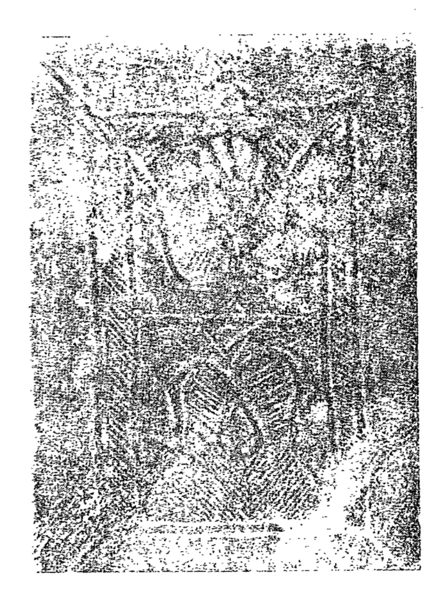
شكل رقم (٩) تجليد رائع للقرآن الكريم محلى ببعض الآيات القرآنية



شكل (١٠) نموذج آخر من التجليد الرائع للقرآن الكريم



شكل (١١) نموذج ثالث من التجليد الرائع للقرآن الكريم



شكل ١٢١ نموذج رابع من التجليد [illegible] القرآن الكريم

ويقول العلامة الهندى آية الله : وقد سيطر الذوق الجميل على الذين كانوا يقومون بهذه الصناعة فى العالم الإسلامى ، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو ذلك الذى كان يقوم به الصناع المصريون المهرة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ثم تطور فن التجليد عند المسلمين حتى أصبح التذهيب والترويق شائعين ، وأصبح مجلّد الكتب فى العالم الاسلامى معروفا بإتقانه وسيطرته على هذا الفن الجميل (١) .

٥ ــ المناولون :

يكثر الحديث عن المناولين فى النصوص العربية كلما تعرض الكتّاب الكلام عن موظفى المكتبات ، ووظيفة المناول هى إرشاد القراء الى موضع الكتب فى الرفوف إذا لم يعرفوا طريقها ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حيث يقرءون ، ومن هنا سُمّى من يؤدى ذلك العمل مناولا . وبهذا التحديد لوظيفة المناول يتضح أن عمله لا يسمو الى عمل الخازن ولكنه لا يهبط الى مستوى الفراشين وعمال النظافة ، فوظيفته ترتفع لاتصالها بالكتب ومعرفة أمكنتها ، ولكنها تقف عند هذا الحد دون أن تتجاوز ذلك إلى حيث يقرءون ، ومن هنا سُمّى من يؤدى ذلك العمل مناولا . وبهذا ليستطيع أن يعرف موضوع الكتاب ، وأن يضعه فى المكان المناسب له .

والعمل الذى يؤديه المناول يجعله قريبا من الخدم ؛ لأنه يسعى بين يدى القراء ، ملبيا لرغباتهم ، مستجيبا لمطالبهم . ومن هنا عبّر عنه أحيانا بالخادم ، واقترن هذا التعبير بكلمة الفراش أو الفراشين (٢) فقيل : الخادم الفراش . للتمييز بينه ــ كعامل يعمل حلقة اتصال بين الكتب والقراء ــ وبين الفراش الذى يقوم بتنظيف الكتب وأثاث المكتبة .

هذا وكلمة المناول أدق فى هذا المقام وقد ورد ذكرها كثيرا فى

---

(١) Islamic Culture XII 1938, p. 168.

(٢) الخطط ١ : ٤٥٨ .

المراجع العربية فقد ذكر ابن الفوطى [١] أنه عند نقل الكتب الى خزانة المدرسة المستنصرية كلّف من « حصرها واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصّلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » كما تحدث ابن حجر [٢] عن بعض المناولين فى المدرسة المستنصرية على ما سيأتى إيراده .

وعلى كل حال فالوظيفة كانت موجودة ومحددة العمل بالشكل الذى هى عليه الآن فى المكتبات الراقية فى العالم ، وإن اختلف التعبير الذى يطلق على من يشغل هذه الوظيفة .

وقد وُجِدَ المناولون فى المكتبات العامة والخاصة ، فقد ذكر أبو العلاء المعرى أن جارية كانت تقوم بهذا العمل ، وهو يقول على لسانها : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، على زمان أبى منصور محمد بن الخازن ، وكنت أخرج الكتب الى النساخ [٣] .

ووجد بالمدرسة المستنصرية عدد من المناولين نذكر منهم :

الجمال بن ابراهيم بن حذيفة ، وهو أول مناول فيها وقد خُلِعَ عليه يوم افتتاح المدرسة [٤] .

عبد الرحيم بن محمد بن سعيد الحدادى . . . وكان مناولا بخزانة الكتب المستنصرية كأبيه ، وله بها معرفة تامة [٥] .

ويذكر المقريزى [٦] أنه عُيِّن بدار الحكمة فى القاهرة قُوّام (خزنة) ومناولون وفراشون .

---

(١) الحوادث الجامعة ٥٤ .
(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠ .
(٣) رسالة الغفران ٧٣ .
(٤) الحوادث الجامعة ٥٦ .
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠ .
(٦) الخطط ١ : ٤٥٨ .

وعن المناولين بالمكتبات الخاصة يذكر ابن خلكان [١] القصة الآتية :

رأى أبو سعيد العقيلى للصولى بيتا مملوءا كتبا ، جلودها مختلفة الألوان ، وكان يقول هذا كله سماعى ، وإذا احتاج لمعاودة شيء منها قال : يا غلام هات الكتاب الفلانى . وكان الصولى عالما فاضلا ، ولكن العقيلى أخذ عليه عدم اعتماده على نفسه ، ودوام اعتماده على الكتب ، التى أصبحت كأنها هى — لا صاحبها — العالمة الفاضلة ، وقد عبَّر العقيلى عن فكرته هذه بمقطوعة قصيرة هجا فيها الصولى هجواً خفيفاً وهى التى تهمنا لأنها تشير الى المناولين وهى :

إنما الصـــولى شيخ   أعلم النـــاس خزانه
كلما جئنـــا إليـــه   نبتغى منـــه إبـــانه
قال : يا غلمان هاتوا   رزمة العـــلم فلانه

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٧٢٧ .

حالة المكتبة المالية

كثيراً ما كانت الأوقاف هى المصدر الذى ينفق منه عـلى المكتبـات وما يلزمها [١] ، ويشمل ذلك ترميم البناء ، ومدّ المكتبة بالكتب الجديدة ودفع مرتبات الموظفين ، وغير ذلك ، وكان المشرف على المكتبة يحصل ريع الوقف وينفقه على مصارفه السابقة ، فلم تكن هناك إذاً مرتبات ثابتة بل كان المرتب يتبع فى ارتفاعه وانخفاضه ما يستطيع المشرف أن يحصل عليه من إيراد الوقف .

ولكن النصوص على أية حال أوردت إلينا صورا ثابتة للمرتبات تتناسب مع ما يبذله الموظفون من جهد ، وفيما يلى أمثلة لذلك :

كان المأمون يعطى حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مِثْلا بمثل [٢] .

وكان بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن يَرْزُقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة [٣] .

ووجه الواثق عناية كبيرة للمترجمين الذين نقلوا الذخائر الأجنبية للسان العربى ، وكان ابن ماسويه يده اليمنى فى ذلك ، فأغدق عليه الواثق نعما متوالية ، وخيرا وفيرا ، وفى إحدى المرات أعطاه دراهم تساوى ٣٠٠,٠٠٠ روبية [٤] .

وكان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ فى كل شهر ٢,٠٠٠ دينار [٥] .

---

(١) انظر الخطط ١ : ٤٥٩ وشذرات الذهب ٢ : ١٠٤ .

(٢) ابن أبى اصيبعة ١ : ١٨٧ . (٣) المصدر نفسه ١٨٧ .

(٤) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 269.

(٥) ابن أبى اصيبعة ١ : ٢٠٦ .

ويورد لنا المقريزى [١] قائمة بالنفقات السنوية لمكتبة دار الحكمة مفصلة تفصيلا واضحاً ولكنها أقل سعة وسخاء وفيما يلى نصها :

ورق الناسخ (ربما كان ذلك يشمل مرتبه أيضا)	٩٠ دينارا من العين المغربى
مرتب الخازن	٤٨ » » »
مرتب الفراش	١٥ » » »
لتجليد الكتب (ربما شمل أجرة المجلد)	١٢ » » »
ورق وحبر وأقلام للمطالعين .	١٢ » » »
ثمن الحصر العبدانى	١٠ دنانير من العين المغربى
ثمن الماء	١٠ » » »
ثمن لبود للفرش فى الشتاء	٥ » » »
ثمن طنافس فى الشتاء	٤ » » »
مرمة الستارة	١ دينار » »

وكانت المرتبات لموظفى المدرسة المستنصرية محددة على الوضع التالى : لخازن الكتب فى كل يوم عشرة أرطال خبزا ، وأربعة لحما ، وفى كل شهر عشرة دنانير ، وللمشرف فى كل يوم خمسة أرطال خبزا ، ورطلان لحما ؛ وفى كل شهر ثلاثة دنانير ، وللمناول فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف" طبيخا وفى كل شهر ديناران [٢] .

(١) الخطط ١ : ٤٥٩ .

(٢) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة فى العراق ص ١٦٥ .

أنواع المكتبات *

هناك أنواع ثلاثة من المكتبات يلزم أن يستقل كل منهـا بحديث خاص ، وترتب هذه الأنواع الثلاثة فى الحديث عنها تبعا لما تسهم به فى خدمة التعليم ، وعلى هذا فلا تهمنا المكتبة التى يملكهاأمير أو وزير ، بقدر ما تهمنا مكتبة أخرى فتحت أبوابها للناس ليتعلموا فيهـا وليجدوا بين جدرانها الثقافة والمعرفة ؛ إذ أن أهم ما يعنينا هنا هو مقدار ما قدمته هذه المنشآت للباحثين والطلاب من تثقيف وتعليم . وإذن فسيجرى الحديث عن المكتبات وفقا للترتيب الآتى :

(أ) مكتبات عامة .

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة .

(جـ) مكتبات خاصة .

---

* ا : — شملت الدراسة السابقة اشارات كثيرة لعدد من المكتبات الهامة التى ظهرت فى العالم الاسلامى ، ونحن الآن بصـدد اعطاء نماذج لمكتبات المسلمين ، وسنحاول الا نعيد القول عن المكتبات التى سبق الحديث عنها لندخر الجهـد والفـراغ لغيرها ، غير أن هذا لا يعفى من اعادة الكلام عن بعض المكتبات ذات الأهمية البارزة ليمكن ان نعطى عنها تفاصيل أوسع ومعلومات أوفى .

٢ — نحاول فى هذه الدراسة ان نطوف طوفة سريعة فى العـالم الاسلامى مبتدئين من بلاد ما وراء النهر فخراسان والعراق والشام ومصر والأندلس ، ومن الحق علينا أن نطرى الكتاب الذى ألفه الأستاذ كوركيس عواد بعنوان خزائن الكتب القديمة فى العراق (مطبعة المعارف — بغداد ١٩٤٨) والذى كان عوناً كبيراً فيما يختص بمكتبات العراق ، وان كان من الطبيعى اننا رجعنا الى المراجع الأصلية فى كل ما دون بهذا الباب .

(أ) — المكتبات العامة

أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون فى متناول الدارسين فيها ، والوافدين اليها ، كما أنشئت أحيانا لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة ، ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت هذه فى الظهور والانتشار .

وقد كانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جدا ، بحيث كان من الصعب أن تجد مسجدا أو مدرسة دون أن تزود بمجموعة من الكتب يرجع اليها الطلاب والباحثون .

وفيما يلى بعض التفاصيل لبعض هذه المكتبات :

١ — **بيت الحكمة** : يرجع تأسيس بيت الحكمة إلى الخليفة هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم [١] فى كلامه عن أبى سهل الفضل بن نوبخت أنه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وذكر فى ترجمة علان الشعوبى أنه كان منقطعا الى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة [٢] .

غير أن نشاط بيت الحكمة وصل الى ذروته فى عهد المأمون الذى كان واسع الثقافة ، حر الفكر ، وله شغف بالعلوم والآداب ، ومن أجل هذا أولى بيت الحكمة عناية خاصة كان من نتائجها تطور الثقافة عند المسلمين ، ودخول العلوم الأجنبية إليهم واحتضانهم لهذه العلوم ، مما أدى الى حفظ ذلك التراث ونقله إلى الأجيال التالية ، وكان على وشك أن يضيع .

وقد ضم بيت الحكمة كتبا وضعت فى الأصل بلغات مختلفة ، ومن أهمها الكتب اليونانية فالفارسية والهندية والقبطية والآرامية ومن أجل

---

(١) الفهرست ص ٣٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٥٤ .

هذا كان المترجمون كثيرين ، ينقل بعضهم من اللغة اليونانية ، وينقل آخرون من الفارسية ، وينقل فريق ثالث من الهندية ، وهكذا .

وقد وجهت العناية فى بدء العهد ببيت الحكمة الى الكتب الفارسية والهندية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن يحيى بن خالد كان فى هذه الأثناء يشرف على شئون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى بن خالد فارسى الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل الى اللغة العربية ألوانا من ثقافة الفرس ، فجلب الى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعين لترجمتها أشخاصا لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبى سهل الفضل بن نوبخت وعلان الشعوبى ، ويقول ابن النديم [1] عن ابن نوبخت : « له نقول من الفارسى إلى العربى ، ومعوّله فى علمه على كتب الفرس » وكان للفرس صلة بالهنود ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها ، ومن أجل هذا نجد يحيى ابن خالد يرسل فى طلب بعض علماء الهنود المتفوقين ، ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم الى اللغة العربية : وبواسطة هؤلاء العلماء الذين استدعاهم يحيى نقلت فنون من الثروة العلمية من الهندية الى العربية [2] .

ثم جاءت الثروة الضخمة فى أخريات عهد الرشيد وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليونانى الذى اقتبس الكثير من الحضارة المصرية القديمة ، وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك التراث:

ذكر ابن أبى أصيبعة [3] أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون .

---

(١) الفهرست ص ٣٨٢ .

(٢) Khuda Bukhsh : Islamic Libraries, 1942, The Ninteenth Century L 11, p. 128.

(٣) عيون الأنباء ١ : ١٧٥ .

وهناك مجموعة ثانية من الكتب اليونانية جلبت من قبرص يحدثنا عنها ابن نباتة المصرى [١] فيقول : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد . فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوى الرأى عنده واستشارهم فى حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانا واحداً فإنه قال : الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فأرسلها اليه واغتبط بهـا المأمون .

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية الى خزانة بيت الحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا ممـا وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه كان ممن أرسلوا إلى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حنين بن اسحق وكان فتىَّ السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه مـن كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التى وردت الى بيت الحكمة ، **وقد صنفت هذه الكتب بحسب موضوعاتها واختير لها المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه ، بالإضافة إلى سيطرتهم**

---

(١) سرح العيون ١٦٦ .

على اللغتين اليونانية والعربية • ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق ، وابنه اسحق ، ومحمد بن موسى الخوارزمي وسعيد بن هارون ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرخان

وبيت الحكمة كان أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الاسلامى ، بل إنه كان أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ، ولجأ اليها الطلاب ، فكان بذلك أول مركز علمى يحقق للطلاب زادا علميا وفيرا ، ويخرج لهم من جهد القائمين عليه ثقافة مختلفة الاتجـاه تشمل علـوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها •

وكان عهد المأمون هو أزهى عصور بيت الحكمة ، ولم يجد هذا المعهد بعد المأمون من يمنحه عناية المأمون ورعايته ، وكان أول ما قلل من شأنه أن يتولى المعتصم الخلافة بعد المأمون والمعتصم قليل المعرفة بالثقافة ، لا يجد فيها لذة ولا يتذوق لها حلاوة ، فلم يرع بيت الحكمة كما كـان يجب ، وإنما اتجه إلى جلب المماليك وتدريبهم والسرور ببطولتهم ، ثم هجر بسببهم بغداد الى سامرا فأصيب بيت الحكمة بصدمة أخرى نتيجة انتقال الخلفاء من بغداد وعدم رعايتهم لما فى العاصمة الأولى من منشآت ، ثم تراحمت الأحداث على بغداد وما فيها من مؤسسات ، وكثرت الحروب والفتن ، وكلها تنتقص من هذا المعهد ، وتقلل من شأنه ، وتخفت من صيته •

وليس معنى هذا أن بيت الحكمة قد اختفى أو اندثر ، فلقد ظل يغالب الأحداث ، ويجاهد فى سبيل البقاء ، ولكنه بقاء المكلوم الهزيل ، وفيما يلى نصوص ثلاثة عن حياته بعد المأمون :

ذكر ابن أبى أصيبعة (١) أن يوحنا بن ماسويه تقلد ترجمة الكتب اليونانية فى بيت الحكمة ، وخدم هارون والأمين والمأمون وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل •

---

(١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ .

وذكر ابن النديم [١] أنه (فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى) نقل نموذجا لكل من الخط الحميرى والحبشى من هذه الخزانة •

وذكر القلقشندى [٢] أن هذه الخزانة ظلت حتى دهم التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصمَ آخر خلفاء العباسيين ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهبت ، وذهبت معالمها ، وأعفت آثارها •

٢ ـ المكتبة الحيدرية بالنجف : لا تزال هـذه المكتبة موجودة حتى الوقت الحاضر ، وسميت الحيدرية نسبة الى حيدر وهو اسم الامام على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، أو قل إنه الاسم الذى يهتف به الملايين من الشيعة فى المناسبات الدينية الشيعية المختلفة ، وقد زرتُ العراق سنة ١٩٥٠ وأمضيت بضعة أيام فى كربلاء والنجف وغيرها من مراكز الشيعة ، وكان ذلك فى أثناء الاحتفالات السنوية التى يقيمها الشيعة فى شهر المحرم ، وقد رأيت الملايين من البشر يتدفقون إلى هذه المراكز من الهند والباكستان وإيران والعراق وغيرها ، وكانت كلمة حيدر تتصاعد بقوة وإخلاص من ملايين الهاتفين والأتباع •

والمكتبة الحيدرية هى خزانة المشهد الشريف الذى به قبر أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب ، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد ، وإن كان التاريخ الدقيق لإنشائها ليس معروفاً • وتبعية هذه المكتبة لهـذا المشهد كانت السـبب فى أن كثيراً من الوزراء والأمراء وأعيان الشـيعة اهتموا بها اهتماما كبيراً ، وأهدوا اليها كل غال وعزيز ، ومن أشهر هؤلاء عضد الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، ثم كانت هذه التبعية سبباً فى بقاء هذه المكتبة حتى العهد الحاضر إجلالا لصاحب الضريح وتقديراً لاسمه الكريم •

وقد زرت هـذه المكتبة مرتين فى عـامين مختلفين ، وفيمـا يلى أنقل بعض الملحوظـات التى دونتها فى أثناء هـاتين الزيـارتين :

---

(١) الفهرست ص ٨ ، ٢٩ .
(٢) صبح الأعشى ١ : ٤٦٦ .

تشغل المكتبة حجرة كبيرة من الحجرات التى تحيط بالضريح الشريف وليست المكتبة مفتوحة للجمهور فى الوقت الحاضر ، كما لم تعد ذات أهمية للراغبين فى الدرس والقراءة ، ويسمح للدخـول فيها بإذن خـاص من المشرف على الضريح ، ويدخلها عادة المؤرخون وهواة الاطلاع على الذخائر الفنية القديمة .

وليس للمكتبة فهارس فى الوقت الحاضر ، والكتب موضوعة على أرففها من غير ترتيب ، وهى تحوى مجموعة من الكتب الفارسية والعربية لا نظير لها ، ولا تقدر بمال ، وأكثرها بخط المؤلفين ، أو على الأقل يحوى خطوطهم ، أما المصاحف التى بها فهى تحف بديعة ، وهى بين مجموعة الكتب أكثر نفاسة ، وأعظم روعة ، فلقد كُتبت بخط جميل ، وجُلّدت أفخم تجليد ، وزينت وزخرفت أعظم زينة وأجمل زخرفة ، وكثير منها كتبه مشاهير الخطاطين كياقوت المستعصمى ، وأحمد التبريزى . أمـا المصحف الذى تنسب كتابته الى الامام على فلا يوجد الآن فى المكتبة وإنما يوجد فى الضريح نفســـه .

وبجانب المصاحف توجد كتب كثيرة ذات قيمة أدبية عظيمة منها نسخة من الرسائل الشيرازية لأبى على الفارسى ، وقد صححها المؤلف نفسه ، ومنها الجزء الأول من معجم الأدبـاء لياقوت ، والتقريب لأبى حيـان الأندلسى ، وكلٌ منهما بخط مؤلفه، والمعتبر من الحكمة لهبة الدين بن على كتب سنة ٥٣٨هـ ، إلى جانب قصيدة « البردة » المنسوبة للإمام على ، والى جانب عدد ضخم من كتب الشيعة وبخاصة التى تبحث عن الإمامة والوصاية .

٣ ـــ **مكتبة ابن سوار بالبصرة** : أسس هذه المكتبة أبو على بن سوار الكاتب ، وهو من رجال عضد الدولة ، وهذه المكتبة تهمنا هنا جداً فقد كان التدريس فيها عنصراً هاماً بجوار الكتب : حدث المقدسى [1] فى كلامه عن رام هرمز : . . . وبهـا دار كتب كالتى بالبصرة ، والداران كلاهمـا

---

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤١٣ .

اتخذهما ابن سوار ، وفيهمـا اجراء عـلى من قصدهمـا ولزم القراءة والنسخ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر ، وأعمر ، وأكثر كتبا ، وفى هـذه أبدا شيخ يُدرِّس عليه الكلام على مذهب المعتزلة • وفى المقامة الثانية من مقامات الحريرى وهى المسماة المقامة الحلوانية ذكر" لهذه المكتبة ، قال الحريرى على لسان الحارث بن همام البصرى : فلما أبْتُ من غربتى إلى منبت شعبتى حضرت دار كتبها التى هى منتدى المتأدبين ، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين ، فدخل رجل ذو لحية كثة ، وهيئة رثة ، فسلم على الجلاس ، وجلس فى أخريات الناس ، ثم أخذ يبدى ما فى وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه [١] •

٤ ــ **خزانة سابور (دار العلم)** : أنشأ هذه الخزانة أبو نصر سابور ابن أردشير المتوفى سنة ٤١٦ هـ وكان تأسيسها سنة ٣٨٣ هـ ، ويحكى ابن العماد [٢] أنه فى هذه السنة ابتاع سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة داراً بالكرخ بين السورين ، وعمرها ، وسماها دار العلم ، ووقفها ، ونقل إليها كتبا كثيرة • ويذكر ياقوت [٣] أن عدد الكتب كان عشرة آلاف وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بنى مقلة ، ويضيف Margoliouth أن معظم الكتب المودعة بهذه المكتبة كانت بخطوط مؤلفيها أو عليها خطوطهم أو خطوط الأفذاذ البارزين من الرجال ، وقد أمدَّ سابور هذه المكتبة بوقف يُنْفَقُ منه عليها [٤] •

وكانت خزانة سابور مركزا ثقافيا ممتازا يلتقى فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس ، وطالما عقدت فيها المناظرات والمناقشات ، وكان أبو العلاء المعرى الفيلسوف العظيم يتردد عليها دون انقطاع عندما كـان فى بغداد ، إذ كانت مكانه المختار [٥] •

---

(١) شرح مقامات الحريرى ص ١٥ •
(٢) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤ •
(٣) معجم البلدان ٢ : ٣٤٢ •
(٤) حياة أبى العلاء المعرى فى مطلع رسائله •
(٥) انظر رسائل أبى العلاء المعرى ص ٣٤ •

وكان كثير من العلماء يوقفون نسخا مما يملكون أو مما يؤلفون على دار العلم ، وقد فعل ذلك أحمد بن على بن خيران الكاتب المصرى فقد أرسل جزأين من شعره ورسائله ليستشير فى تخليدهما بدار العلم ، وأبدى استعداده أن ينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتُضى واستُجيد [١] . وكذلك فعل جبريل بن بختيشوع ، فإنه لما أتم مؤلفه الذى سماه الكافى وقف منه نسخة على دار العلم ببغداد [٢] .

٥ — **خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدى** : الزيدى هذا هو أبو الحسن على بن أحمد المتوفى ببغداد سنة ٥٧٥ هـ . وكان شريف النسب ، معروفا بالزهد ، أما قصة بناء الجامع وإنشاء المكتبة فقد اقتطفها الأستاذ كوركيس عواد من مرآة الزمان لسبط بن الجوزى [٣] ، ومن مجلة الحضارة [٤] ، ولم يتح لى الاطلاع على هذين المرجعين ، فلأنقل عن الأستاذ عواد ما اقتبسه ، قال : كان عضد الدين محمد وزيرا للخليفة المستضىء بأمر الله ، ثم عزل عن الوزارة مرة ، ثم أعيد إليها ، فكتب الى الخليفة المذكور رقعة يقول فيها : إنى كنت قد نذرت إن عدت الى الوزارة بعثت الى الشريف الزيدى بألف دينار . فأرسل الخليفة إليه يقول : وأنا أيضا أحمل اليه ألف دينار . فحملت الدنانير الألفان اليه ، فلم يتصرف فيها بل اشترى دارا بدرب دينار الصغير ، وبناها مسجدا ، واشترى بالباقى كتبا ووقفها فى المسجد لينتفع الناس بها ... ثم وقف الزيدى كتبه قبل موته على الناس كافة وجعلها فى هذا المسجد وشَرَكَه رفيقُه صبيح بن عبد الله فى وقف كتبه أيضا وكانت كثيرة انتفع الناس بها [٥] .

وتلقت هذه الخزانة منحتين أخريين من الكتب :

إحداهما كانت من عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقى وشهرته

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٢ .
(٢) ابن ابى أصيبعة ١ : ١٤٦ .
(٣) ٨ : ٢٢٧ . (٤) العدد ٢٣ ص ٨ .
(٥) خزائن الكتب القديمة فى العراق ١٥٤ — ١٥٥ .

أبو الخطاب العليمي ، وكان تاجرا دمشقيا زار بغداد مرة واتصل بالزيدى فعاهده أن يوقف كتبه على خزانته ببغداد ، فلما توفى عمر أرسل أخـوه الكتب الى بغداد ، فوصلت بعد وفاة الزيدى ، فتسلمها صبيح صديق الزيدى الذى كان مشرفا على الخزانة ووضعها فيها [1] .

ثانيتهما من ياقوت الحموى : يقول ابن خلكان [2] وكان ياقوت قد وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار ببغداد وسلمها الى الشيخ عز الدين أبى الحسن على بن الأثير صاحب التاريخ الكبير فحملها الى هناك [3] .

٦ ــ دار الحكمة بالقــاهرة : افتتحت دار الحكمة التى أنشــأها الحاكم بأمر الله الفاطمى بالقاهرة يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وقد كانت الاستعدادات تتخذ قبل ذلك بحزم ونشاط ، تمهيدا لافتتاح هذا المعهد العظيم ، الذى أريد به أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة ، الذى أنشأه هارون الرشيد ببغداد ، وسما به الى الذروة ابنه المأمون .

وقد شملت الاستعدادات إعداد البناء ، وتنظيمه ، ثم فرشت هذه الدار ، وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، ثــم حملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ، وحصل فيها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم يُرَ مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وجُعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الأقلام والورق والمحابر ، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء ، وأجرى

---

(١) موارد ١٥٥ — ١٥٦ بتصرف .

(٢) الوفيات ٢ : ٣١٨ .

(٣) انظر كذلك ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ١٢٢ .

على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية ، وأبيح دخولها لسائر الناس فوفدوا اليها على اختلاف طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم [١] .

والى جانب هذا فقد أباح « الحاكم » المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضى الجدال الى الخصام [٢] .

وقد ظلت دار الحكمة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجرى ، ثم اكتشف الملك الأفضل أن جماعة يستنسدون عقول الناس يأوون اليها ويتخذون منها مكانا للدعاية لمذهبهم ، فأمر بإغلاق دار الحكمة فى الحال ، والقبض على زعيم هذه الجماعة واسمه بركات ، ولكن هذا اختفى فلم يستطيع الملك الأفضل أن يقبض عليه ، ولما توفى الملك الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى برعاية دار الحكمة وفتحها على الأوضاع الشرعية [٣] ، وقد ظلت دار الحكمة تؤدى عملها حتى استبد صلاح الدين بالأمور ، وضعف أمر العاضد ، فهدم صلاح الدين دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة للشافعية [٤] .

٧ ـ **مكتبات المدارس** : قلما خلت مدرسة من المدارس التى انتشرت فى العراق وخراسان وسوريا ومصر من مكتبة تتبعها ، مزودة بمجموعة من الكتب ضخمة أو صغيرة تبعا لمكانة المدرسة وللأوقاف عليها .

وقبل المدارس كانت هناك مجموعات من الكتب فى المساجد ، فلما أنشأ نظام الملك مدارسه زود كلا منها بمكتبة قيمة ، وكانت نظامية بغداد

---

(١) الخطط للمقريزى ١ : ٤٥٨ — ٤٥٩ ، ٢ : ٣٤٢ بتقديم وتأخير .
(٢) التمدن الاسلامى ٣ : ٢١٠ .
(٣) الخطط ١ : ٤٥٩ .
(٤) ابن خلدون ، العبر ٤ : ٧٩ .

أولى مدارس نظام الملك وأشهرها ، فنالت مكتبتها عناية خاصة ، حتى أصبحت أعظم مكتبات المدارس المعاصرة لها .

وقد حوت مكتبة المدرسة النظامية ببغداد كل نفيس ومفيد من الكتب والمخطوطات ، فقد ورد أن عبد السلام القزوينى أهدى الى نظام الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها ، منها غريب الحديث لابراهيم الحزمى بخط أبى عمر بن حيوية فى عشرة مجلدات ، فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد [١] .

وقد ظلت هذه المدرسة موضع عناية الخلفاء والكبراء ، يحكى ابن الأثير أن الخليفة الناصر لدين الله أمر فى سنة ٥٨٩ بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل اليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها [٢] .

وفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى وقف محب الدين بن انجار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب للنظامية وكانت هذه الكتب تساوى ألف دينار [٣] .

وكانت للمدرسة المستنصرية مكتبة غنية منظمة نقل اليها فى يوم افتتاحها من الربعات [٤] الشريفة ، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ، ما حمله مائة وستون حمالا [٥] وقد ذكر ابن عنبة [٦] أن عدد هذه الكتب كان ثمانين ألف مجلد . وكان بين محتويات خزانة المدرسة المستنصرية نسخة من كتاب (الياسة) وهو يحوى القواعد والعقوبات التى قررها جنكيزخان وجعلها شريعة لقومه [٧] كما كانت

---

(١) انظر السبكى : طبقات الشافعية ٢ : ٢٣٠ .
(٢) ابن الأثير ١٢ : ٦٧ حوادث سنة ٥٨٩ .
(٣) فوات الوفيات ٢ : ٢٦٤ .
(٤) الربعات جمع ربعة : صندوق فيه اجزاء المصحف — مولد .
(٥) الحوادث الجامعة . (٦) عمدة الطالب ص ١٩٥ .
(٧) الخطط ٢ : ٢٢٠ .

تحوى نسخة من كتاب تاريخ بغداد تقع فى أربعة عشر جزءا وكـانت مكتوبة بخط المؤلف (١) .

ولما أنشأ نور الدين زنكى المدارس بدمشق وقف بها كتبا كثيرة على طلاب العلم (٢) . كما وقف مجموعة من الكتب الطبية على البيمارستان الكبير ، إذ كانت البيمارستانات ولا تزال مدارس لتعليم الطب (٣) .

وكان قطب الدين النيشابورى فقيه عصره ونسيج وحده ، فسُر نور الدين به وشرع فى إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، ليدرس بهـا قطب الدين ، ولكن الأجل أدرك الشيخ قبل تمامها ، وقـد وقف قطب الدين كتبه على طلبة العلم ، ونقلت بعد تمام هذه المدرسة اليها ، ويقول النعيمى : فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته (٤) .

ولما أسس القاضى الفاضل مدرسته بالقاهرة سنة ٥٨٠ هـ وقف عليها جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم ، يقال أنها مائة ألف مجلد (٥) .

ولما أنشأ الصاحب صفى الدين عبد الله بن على مدرسته التى سميت المدرسة الصاحبية ، وقف بها خزانة كتب عامرة (٦) .

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة

لم تكن هذه المكتبات عامة لأن دخولها لم يكن مسموحا به لجميع طبقات الناس ، ولم تكن خاصة لأن أصحابها لم ينشئوها لتكون لهم هم ، إذ كـان ينقصـهم الميل للإطلاع أو الوقت الذى يمضـونه فى القراءة والدرس ؛ انها مكتبات أنشأها الخلفاء والملوك تقربا للعلم ، وتظاهرا على أنهم من أهله ، وجعلوا دخولها مباحا لطبقة خاصة من الناس يحددها

---

(١) كشف الظنون ١ : ١٧١ . (٢) النعيمى ١ : ٦٠٨ .
(٣) ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٥٥ .
(٤) الدارس ١ : ٣٠٠ . (٥) الخطط ٢ : ٣٦٦ .
(٦) الخطط ٢ : ٣٧١ .

المقدسى بقوله : لا يدخلها إلا وجيه [١] • وكان دخول هذه المكتبات يحتاج إلى إذن خاص ؛ يحكى Nicholson [٢] أن ابن سينا الفيلسوف المشهور سُمِحَ له أن يدخلَ مكتبة السامانيين ، ولكن بعد أن حصل على إذن بذلك •

وليس غريبا أن تكون هذه المكتبات غنية عظيمة ؛ لأنها كانت مملوكة للخلفاء والسلاطين ، وهؤلاء فى أيديهم المال ، ولهم السلطان والنفوذ والعظمة ، مما استلزم أن تكون لهم مكتبات لا تُضارع ، ومجموعات من الكتب قليلة الوجود ، وفيما يلى نماذج قليلة لهذه المكتبات :

١ — مكتبة الناصر لدين الله : شخصية الناصر القوية وحكمه الطويل المديد (حكم من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢) أتاحا للناصر أن يعيد مجد الخلافة ، ويسترد لها كثيرا من رونقها وبهائها وتقاليدها • وكان مما التفت له الناصر وأولاه عنايته أن رعى الناحية العلمية ، واستدعى هذا أن يكون له مكتبة ضخمة •

ومن الممكن أن يتخيل الإنسان ضخامة هذه المكتبة إذا لاحظنا أن جزءا منها قد قُسِّم ثلاثة أقسام فكوَّن ثلاث مكتبات كبيرة ذكر القفطى [٣] فى ترجمة أبى الرشيد مبشر بن أحمد الحاسب أنه (أى مبشر بن أحمد) تميز فى أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، وقرب منه ، واعتُمد فى اختيار الكتب التى وقفها الناصر بالرباط الخاتونى السلجوقى ، وبالمدرسة النظامية ، وبدار المسناة ، فإنه أدخله الى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها •

وقد سبقَ لنا أن ذكرنا أنَ ابن الأثير تحدثَ عن نصيب المدرسة

---

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤٤٩ •
(٢) *Literary History of the Arabs : pp. 265-266.*
(٣) اخبار الحكماء ص ٢٦٩ •

النظامية من هذه المجموعة بقوله : إن الناصر نقل اليها من الكتب النفيسة ألوفا لا يوجد مثلها [١] .

٢ — مكتبة المستعصم بالله : المستعصم بالله هو آخر الخلفاء العباسيين (تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ) وقتله المغول عقب سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقد كانت له مكتبة عظيمة ، تحدثت عنها المراجع المختلفة حديثا ينبىء عما كان لها من عظمة وجلال .

يقول ابن الفوطى [٢] إن الخليفة أمر فى سنة ٦٤١ بعمل خزانة للكتب فى داره ، وكتب على جهاتها أشعار" منها ما نظمه صفى الدين عبد الله بن جميل متقدم شعراء الديوان :

أنشا الخليفة للعلوم خزانة سارت بسيرة فضله أخبار ُها
أهدى مناقبه لها مستعصم" بالله ، من لألائـــه أنوار ُها

وقد سبق ذكر الخطاطين الشهيرين الشيخ زكى الدين وصفى الدين عبد المؤمن بن فاخر اللذين اختيرا للنسخ بمكتبة المستعصم [٣] .

ويذكر ابن طباطبا [٤] أن الخليفة المستعصم استجد فى آخر أيامه خزانة كتب ، ونقل اليها نفائس الكتب ، وسلم مفاتيحها الى عبد المؤمن ابن فاخر ، فصار عبد المؤمن يجلس بباب الخانة ينسخ له ما يريد ، وإذا خطر للخليفة الجلوس فى خزانة الكتب جاء اليها ، وعدل عن الخزانة الأولى التى كانت مسلمة الى الشيخ صدر الدين على بن النيار .

ويؤخذ من كلام ابن طباطبا أن الخليفة كان كثير التردد والجلوس فى

---

(١) الكامل فى التاريخ ١٢ : ٦٧ .
(٢) الحوادث الجامعة ص ١٨٤ .
(٣) فوات الوفيات ٢ : ١٨ .
(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٦٥ .

خزانة الكتب هذه أو تلك ، وقد أورد حكايات كثيرة تحمل هذا المعنى [١] ولكنه أضاف الى ذلك قوله « إن جلوسه بخزانة الكتب كان جلوسا ليس فيه كبير فائدة » [٢] ولكن ابن طباطبا كان حيا فى هذه الفترة وكان موالیا للتتار ، وضلعه معهم ، يدعو لهم باليسر وعلو الشأن ، ثم ينحى باللائمة على الخليفة وصحبه ، ويصفهم بالضعف ، وقلة الخبرة ، فيما عدا الوزير ابن العلقمى الذى رضى عنه هولاكو بعد الفتح وسلم له مقاليد الأمور [٣] . والذى يدرك هذا الموقف لابن طباطبا يتردد كثيرا فى قبول حكمه على الخليفة ، وأن جلوسه بخزانة الكتب كان جلوسا ليس فيه كبير فائدة .

٣ ــ مكتبة الخلفاء الفاطميين : يذكر ابن الأثير [٤] أن المهدى حمل معه وهو ذاهب من سلمية الى سلجماسة ، جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه ، ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس ؛ ولكن أبا القاسم بن المهدى استطاع أن يستعيد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ .

ومن المحتمل بل من المتوقع أن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت ضمن المتاع الذى أحضره المعز لدين الله معه من شمالى افريقية الى القــاهرة عندما تم له فتح مصر ، فإذا كان هذا صحيحا فإن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت النواة لمكتبة الفاطميين الكبرى التى أنشئوها بالقاهرة .

ولم يكن الفاطميون عسكريين قنعوا بفتح مصر وتسلطهم على أمورها ، بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد ، ويريدون أن تكون لهم السيادة على العالم الاسلامى كله ، ومن أجل هذا أنشئوا من المؤسسات ما يضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة ، وكانت المكتبة دعامة من هذه الدعائم .

---

(١) انظر الفخرى ٢٩٤ — ٢٩٦ .
(٢) انظر الفخرى ص ٢٩٥ .
(٣) انظر الصفحات الأخيرة من الفخرى .
(٤) الكامل فى التاريخ ٨ : ٢٩ .

وقد اتجه الفاطميون اتجاها غريبا فى تكوين مكتبتهم ؛ فقد كانوا يحرصون على أن يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة مـن بعض الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذى يوجد به هذا الكتاب أو ذاك ، فإذا جمعوا مئات النسخ من كتاب ما ثم ظهر لهم أنه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم ، أظهروا استعدادهم لأن يدفعوا فيها ثمنا باهظا مهما بولغ فيه ليصلوا بذلك الى هدفهم ، وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فانهم كانوا حريصين على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمـة أو التى كتبها مشاهير الخطاطين ، وهذا يفسر لنا لماذا كان بهذه المكتبة عشرات أو مئات النسخ من المصاحف أو من كتاب معين ، وعلى هذا فاننا نقرأ أن هذه المكتبة كان بها :

٢٤٠٠ مصحف فى ربعات (سبق تفسير كلمة ربعات) بخطوط منسوبة ، زائدة الحسن ، محلاة بذهب وفضة وغيرهما .

١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخط المؤلف .

١٠٠ نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد .

نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط مؤلفه الخليل ابن أحمد [١] . أما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو أنه وصل الى رقم خيالى ، ويروى أبو شامة [٢] أنه سمع أن هذه المكتبة كان بها ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ كتاب ، وقد ذكر المقريزى عدة روايات ولكنه يميل الى أن العدد كـان ١ر٦٠٠ر٠٠٠ كتاب [٣] .

ويذكر المقريزى أيضاً [٤] أن هذه الكتب كانت فى موضوعات متعددة فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ

---

(١) الخطط ١ : ٤٠٨ ، الروضتين ١ : ٢٠٠ ، وقد ذكر أبو شامة فى الروضتين ان الخزانة حوت من تاريخ الطبرى ١٢٢٠ نسخة .

(٢) الروضتين ١ : ٢٠٠ .　　(٣) الخطط ١ : ٤٠٩ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

وسير الملوك ، والتنجيم والروحانيات ، والكيميـاء • ويتفق أبو شــامة والمقريزى [1] على أن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا ، وأنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر •

وقد ظلت هذه المكتبة محتفظة برونقها وجلالها حتى اشتعلت الحرب الداخلية فى عهد المستنصر ، وفى هذه الأثناء قام الأتراك الغوغاء بالسلب والنهب فى العاصمة ، واعتدوا على دار الخليفة فهدموا ما بها من نماذج الفن الرائع ، ثم عرجوا على المكتبة فاعتدوا على هذا التراث الجليل من العلم والمعرفة ، ومن المؤلم حقا أن تستعمل المخطوطــات الثمينــة والكتب النادرة لتشعل سجائر هؤلاء البرابرة ، وأن يقوم عبيدهم وإماؤهم بأن يتخذوا من جلودها نعالا يلبسونها فى أرجلهم ، وقد أُلْقِىَ عدد كبير من الكتب فى النيل ، وحرق عدد وافر منها ، وحمل بعضها الى سائر الأقطار ، وبقى منها ما سفت عليه الرياحُ التراب فصار تلالا تعرف بتلال الدراســة بجــوار الأزهر • وقــد حــرص البرابرة الأتــراك أن يقضوا على هذه الكتب لاعتقادهم أن فيها كلام المشارقة الذى يخـالف مذهبهم [2] •

ويعلم الله أنه ما كان لهم علم بكلام المشارقة ، ولا بكلام المغاربة ، ولا بأى لون من ألوان العلوم ، وانما هو الجهل والهمجية دَفَعَا هؤلاء الغوغاء أن يرتكبوا هذه الجريمة ، وأن يطعنوا المدنية الاسلاميّة فى أشرف مقوماتها •

وعندما تسلم بدر الجمالى مقاليد مصر جدَّ فى أن يجمع من كتب هذه المكتبة ما سلم من الحرق والغرق ، فاستعاد ما استطاع أن يستعيد من الأقطار ، واسترد ما كان منها فى حوزة بعض الناس ، وبهذا استطاع

(١) الروضتين ١ : ٢٠٠ والخطط ١ : ٤٠٩ •
(٢) الخطط ١ : ٤٠٩ وانظر كذلك :
Stanley Lane - Poole : History of Egypt p. 149.

أن يعيد للمكتبة شيئا من مكانتها ، وقد ظلت هذه المجموعة بالقصر الفاطمى الى أن سقطت الدولة الفاطمية وخلفتها الدولة الأيوبية وحينئذ تقدم صلاح الدين البطل الاسلامى العظيم فقضى على هذه المكتبة ؛ أفنى منها ما تعارض مع مذهب أهل السنة ، وأهدى جملة كبيرة منها الى القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهانى ، وكلف ابن صورة دلال الكتب أن يبيع الباقى ، فاستغرق ذلك منه عدة أعوام [1] وطالما ذكرنا وذكر المؤرخون صلاح الدين بالخير والتقدير والإجلال ، ولكن المنصف لا يستطيع هنا إلا أن يلومه متسائلا : لماذا وقف صلاح الدين من الكتب هذا الموقف المتشدد ؟ ولماذا لم يتركها للباحثين عبر الأجيال ؟

وقبل أن ينتهى الكلام عن المكتبات التى بين الخاصة والعامة تحسن الإشارة إلى حقيقة هامة وهى أن هذا النوع من المكتبات كثيرا ما حول الى مكتبات عامة كما حصل فى مكتبة الناصر وفى مكتبة الفاطميين التى نقل جزء كبير منها الى مكتبة دار العلم على ما سبق تفصيله .

(جـ) مكتبات خاصة

هذه المكتبات أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص ، وهذا النوع من المكتبات كان كثيرا جدا وواسع الانتشار ، اذ كان من الصعب أن نجد عالما أو أديبا دون أن يكوّن له مكتبة يرجع اليها فى دراسته واطلاعه ، وسنختار هنا عددا قليلا من مكتبات هذا النوع ، وسيكون اختيارنا للمكتبات التى كان لها دور تعليمى أو آلت الى أن تكون عامة مفتوحة الأبواب للدارسين والباحثين :

١ ـ مكتبة الفتح بن خاقان : الفتح بن خاقان هو وزير المتوكل العباسى وقد قتل معه فى سامرا سنة ٢٤٧ هـ ، وقد كان الفتح عالما واسع الاطلاع مولعا بالقراءة ، حتى قيل انه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا

---

(١) الروضتين ١ : ٢٦٧ الخطط ١ : ٤٠٩ .

أراد أن يقوم الى المتوضأ أخرج كتابا فلا يزال يطالعه فى ممره وعوده ، فإذا وصل الى الحضرة الخليفية أعاده حيث كان [١] .

ومن الطبيعى أن توجد مكتبة ضخمة لرجل كهذا توفر له المال والرغبة فى الاطلاع ، وقد عهد بجمعها الى رجل من خيرة رجال العصر علما وأدبا ، ذلك هو على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، يقول ابن النديم [٢] ان المنجم اتصل بالفتح بن خاقان ، وعمل له خزانة حكمة ، نقل اليها من مكتبته ومما استكتبه الفتح ، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط .

أما الكتب التى استكتبها الفتح فقد كانت كثيرة ، كتبها له نوابغ الرجال فى ذلك الوقت ، وفى مقدمتهم الجاحظ الذى استجاب لرغبة الفتح ، فألف له كتابى « التاج فى أخلاق الملوك » و « مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة » كما ألف له محمد بن الحارث التغلبى ومحمد بن حبيب كتبا أخرى ضاعت أصولها فلم تصل الى أيدينا ، وقد حق لابن النديم أن يصف هذه الخزانة بأنها لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسنا [٣] .

٢ — **مكتبة حنين بن اسحق** (٢٦٤ هـ) : كان حنين بن اسحق أبرز الأطباء والمترجمين فى عهد المأمون ، وكان أعلم زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية الى حد لم يصل اليه أحد من النقلة الذين كانوا فى زمانه ، مع براعته أيضا فى اللغة العربية ، ومداومة الاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين فيها [٤] .

ويضيف القفطى [٥] قوله : وكان حنين فصيحاً لَسِناً بارعاً شاعراً وكان شيخه فى العربية الخليل بن أحمد . وقد نقل حنين كتبا كثيرة الى اللغة العربية وكان جل اهتمامه بكتب الحكمة والطب . ولهذا تتميز مكتبته الضخمة بثروة وافرة فى كتب الطب ، وبعدد غزير من الكتب المكتوبة باللغات

---

(١) ابن طباطبا . الفخرى ص ٣ . (٢) الفهرست ص ٢٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ . (٤) ابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٦ .
(٥) أخبار الحكماء ص ١٧٤ .

الأربع التى كان يجيدها ، وكان حنين من هواة الكتب ، وقد حكى عن نفسه أنه سافر الى بلاد كثيرة ، ووصل الى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب [١] وقد عدد ابن النديم [٢] جملة كبيرة جدا من الكتب ذكر أنها من مؤلفات حنين ، وهذه الكتب وحدها تكون مكتبة عظيمة ، فما بالك اذا أضيفت لها المراجع التى اعتمد عليها حنين فى إخراج هذه الكتب .

٣ — مكتبة ابن الخشاب (٥٦٧ هـ) : عبد الله بن أحمد الخشاب البغدادى كان من أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب ، وله المؤلفات الغزيرة ، والكتب المفيدة ، والفكر الجيدة ، واذا كتب كتابا بخطه يشترى بالمئين ، ويتنافس عليه المتنافسون [٣] .

وكان الخشاب ثقة فى الحديث صدوقا نبيلا حجة ، الا أنه لم يكن فى دينه كذلك ، جمع كتبا كثيرة جدا ولكنه لم يكن يتحرى الطريق المستقيم فى جمعها ، فقد امتلك حب الكتب عليه نفسه ، وشغف بها وبجمعها ، ثم كان فى الوقت نفسه بخيلا لا يحب أن يدفع الكثير من المال ثمنا لها وعلى هذا تنكب سواء السبيل ، فكان يحتال لجمعها ، فاذا استعار من أحد كتابا وطالبه به قال : دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه ، واذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : انه مقطوع لينصرف الناس عنه ، فيأخذه بثمن بخس . وفى خاتمة حياته وقف كتبه على أهل العلم [٤] .

٤ — مكتبة الموفق بن المطران (٥٨٧ هـ) : كان موفق الدين بن المطران الدمشقى حاد الذهن ، فصيح اللسان ، كثير الاشتغال ، وله تصانيف تدل على فضله ونبله فى صناعة الطب ، خدم بطبه الملك الناصر صلاح الدين ،

(١) ابن أبى أصيبعة ١٨٧ . (٢) ص ٤١٠ ابن النديم .
(٣) هامش معجم الأدباء لياقوت طبعة فريد رفاعى ١٢ : ٤٩ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٨٦ — ٢٨٧ .

وحظى فى أيامه ، وكان رفيع المنزلة عنده ، عظيم الجاه [١] ، وكانت لـه همة عالية فى تحصيل الكتب حتى انه مات وفى خزانته من الكتب الطبية غيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد بالإضافة إلى ما استنسخه ، وكانت له عناية بالغة فى استنساخ الكتب وتحريرها وكـان فى خدمته ثلاثـة نسـاخ يكتبون له أبدا ولهم منه الجامكية والجراية ... وكتب ابن المطران أيضا بخطه كتبا كثيرة ، وقد رأى ابن أبى أصيبعة عدة منها ، ويقول انها كانت فى نهاية حسن الخط والصحة والاعراب ، وكان ابن المطران كثير المطالعة للكتب لا يفتر من ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك .. وكان كريم النفس طالما وهب لتلاميذه الكتب تشجيعا لهم ، وكان عنده ألوف من المجلدات الصغيرة فكان أبدا لا يفارق فى كمه مجلدا يطالعه على باب دار السلطان أو أين توجه [٢] .

٥ — مكتبة جمال الدين القفطى : وهو الوزير القاضى جمال الدين أبو الحسن ولد بمصر وأقام بحلب ، وكان يجيد علوم اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول ، والمنطق والنجوم ، والهندسة، والتاريخ، توفى سنة ٦٤٦ هـ وقد جمع من الكتب مالا يوصف ، وقصد بها من الآفاق طمعا فى سخائه وكرمه ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، فأوقف عليها نفسه ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها ، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوى خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب [٣] .

٦ — مكتبة المبشر بن فاتك (توفى فى نهاية القرن الخامس) : هو الأمير أبو الوفا المبشر بن فاتك ، من أعيان أمراء مصر ، وأفاضل علمائها ، أجاد علوم الهيئة ، والعلوم الرياضية والحكمية ، واشتغل أيضا بصناعة

---

(١) ابن ابى اصيبعة ٢ : ١٧٥ .
(٢) ابن ابى اصيبعة ٢ : ١٧٨ — ١٧٩ .
(٣) الكتبى : فوات الوفيات ٢ : ٩٧ خطط الشام ٦ : ١٩٢ .

الطب ، ولازم لذلك على بن رضوان ، وكان المبشر كثير الكتابة ، ويقول ابن أبى أصيبعة انه وجد بخطه كتبا كثيرة من تصانيف المتقدمين . وكان المبشر ابن فاتك قد اقتنى كتبا كثيرة جدا ، وبعضها يوجد وقد تغيرت ألوان أوراقه بسبب غرق أصابه [١] . ويحدث الشيخ سديد الدين المنطقى عن سبب هذا الغرق فيقول : كان الأمير بن فاتك محبا لتحصيل العلوم ، وكانت لـه خزانة كتب ، فكان فى أكثر أوقاته يجلس فيها ولا يفارقها ، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة ، وكانت له زوجة فاضلة ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفى نهضت هى وجواريها الى خزائن كتبه وفى قلبها من الكتب لوعة ، لأنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه ، وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار هى وجواريها ، ثم اخرجت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها فهذا هو سبب تغير ألوان ورقها [٢] .

٧ — **مكتبة أفرائيم الزفان** (حوالى سنة ٥٠٠ هـ) من أطباء مصر المشهورين ، خدم الخلفاء ونال منهم أحسن العطايا ، قرأ صناعة الطب على أبى الحسن على بن رضوان فكان من أجلّ تلامذته ، وكانت لـه همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها . ونقل ابن أبى أصيبعة [٣] عن أبيه أن رجلا من العراق كان قد أتى الى الديار المصرية ليشترى كتبا ويتوجه بها ، وأنـه اجتمع مع أفرائيم واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرائيم من الكتب التى عنده عشرة آلاف مجلد ، وكان ذلك فى أيام ولاية الأفضل ابن أمير الجيوش ، فلما سمع ذلك أراد أن تبقى تلك الكتب فى الديار المصرية ولا تنتقل الى موضع آخر ، فبعث الى أفرائيم من عنده بجملة المال الذى كان قد اتفق عليه بين افرائيم والعراقى ، ونقلت الكتب الى خزانة الأفضل وكتبت عليها ألقابه وقد رأى ابن أبى أصيبعة كتبا كثيرة مـن

---

(١) ابن ابى اصيبعة ٢ : ٩٨ — ٩٩ .

(٢) ابن ابى اصيبعة ٢ : ٩٩ . (٣) المصدر نفسه ٢ : ١٠٥ .

هذه المجموعة وقد كتب عليها اسم افرائيم وألقاب الأفضل . وخلّف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد [١] .

٨ — مكتبة عماد الدين الأصفهاني : يروى أبو شامة عن عماد الدين الأصفهاني أنه قال : كان لبيع الكتب فى القصر إثر سقوط الفاطميين كل أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان ، وقد كانت فى القصر مرتّبة البيوت ، مقسّمة الرفوف ، مفهرسة ، فأراد دلالو الكتب أن يشتروها بثمن بخس ، فخدعوا بهاء الدين قراقوش متولى القصر المشرف على المبيع وأشاروا عليه بإخراج الكتب من الرفوف للتهوية والنفض فاستجاب ، وتسبب عن ذلك أن اختلطت واضطربت فأصبحت تجد كتب الطب مع كتب التفسير ، كما توزعت أجزاء المؤلف الواحد فلا تكاد تعثر عليها جميعا ؛ وقد تسبب عن هذا أن أصبحت تسام بالدون وتباع بالهون ؛ والدلالون يجمعونها ويرتبونها فى الخارج ؛ ويواصل عماد الدين كلامه قائلا : فلما رأيت الأمر حضرت الى القصر ؛ واشتريت كما اشتروا ؛ فلما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم على بها وأبرأ ذمتى من ثمنها ؛ ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما اخترت من كتبها ؛ ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر فى بعضها ويبسط يدى لقبضها وكنت طلبت كتبا عينتها فقال : وهل فى هذه شيء منها ؟ فقلت : كلها . فوهبها لى . فأخرجتها من عنده بحمّال [٢] .

وهكذا تكونت مكتبة عظيمة لعماد الدين الأصفهانى من هذه الهبات السخية بالاضافة الى ما كان عنده من كتب ووثائق .

---

(١) ابن ابى اصيبعة ٢ : ١٠٥ .
(٢) الروضتين ١ : ٢٦٨ .

الباب الثالث

المدرسون



مقدمــــات :

١ — من الملاحظ أنه لم يكن هناك فى العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم ؛ إذ كان الجميع يعملون بأجر أو تطوعا لتثقيف الناس وتعليمهم ، إمَّا عن طريق حلقات تعليمية ، أو بتأليف الكتب ونشرها ، وعلى هذا فستشمل دراستنا فى هذا الباب المثقفين جميعا دون أن نَقْتَصِرَ حديثنا على أولئك الذين اتخذوا التدريس مهنة وصناعة ، والذى حدا بنا الى هذا هو اعتقادنا أن الجاحظ مثلا كان معلم جيله والأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له ، فقد روى عنه أنه قال : ذُكِرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظــرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى [١] ومــا الجاحظ إلا مثال لكثيرين غيره ممن كانوا معلمين وإن لم يتحلَّق حولهم الطلاب .

٢ — عُنِى المسلمون بتلقى العلم عن المدرسين عناية ملحوظة ، وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقى الطالب العلم عن الكتب وحدها ، وكان بعضهم يقول : من أعظم البلية تشييخ الصــحيفة أى أن يتعلم النــاس مــن الصحف [٢] وورد فى كتاب الشكوى [٣] « من لا شيخ له فلا دين له ، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان » وروى عن مصعب بن الزبير أنه قال : إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ، ويحفظــون أحســن مــا يكتبون ، ويكتبون أحسن ما يسمعون ، فاذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال ، فإنك حينئذ لا تسمع إلا مختارا ولؤلؤا منثورا [٤] . وروى عن الامام الشافعى قوله : من تفقّه من بطون الكتب ضيع الأحكام [٥] وجاء فى

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٥٣ .

(٢) ابن جماعة ص ٨٧ .

(٣) كتاب لم يعرف مؤلفه نشر فى :

Journal Asiatique 1940, pp. 284-285.

(٤) محيى الدين بن العربى : محاضرات الابرار ص ٣ .

(٥) تذكرة السامع ص ٨٧ .

رسائل إخوان الصفا [1] ما يلى : ليس فى وسع أى إنسان معرفة العلوم وحده، ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ فى تعلمه وتخلقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه .

ولا يكتفى ابن جماعة بأن ينصح الطالب بتلقى العلم عن مدرس ، بل يزيد على ذلك بأن ينصح الطالب أن يختار مدرسا يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرةُ بحثٍ وطول اجتماع ، لا ممن أخذ من بطون الأوراق . ولم يُعْرف بصحبة المشايخ الحُذَّاق [2] .

٣ — من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا أن العلم وحده لا يكفى ليكون سلاح المعلّم ، وعرفوا أن لابدّ من أن يضاف الى العلم فنّ التربية ، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل ، والنزول الى مستواه ، والاتصال العاطفى به ، ليكون ذلك جسرا يوصل خلاله العلم الى عقل التلميذ . قال ابن عبدون [3] : والتعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودُرْبَة ولطف ؛ فانه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم . وقد عقد ابن خلدون [4] فصلا شرح فيه هذه النظرية وجعل عنوانه « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » وهو يقول فيه : « مما يدلّ على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأنَ الصنائع كلها ، فدلّ على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحدا عند جميعهم ... وملازمةُ المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحةٍ ملكة التصرف فى العلم وتعليمه ...

ثم إنه من أهم ما يلزم فى المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم » .

---

(١) جـ ٤ ص ١٨ .

(٢) تذكرة السامع ص ٨٧ .

(٣) رسالة ابن عبدون ص ٢١٥ نشرت فى المجلة الاسيوية سنة ١٩٣٤ .

(٤) المقدمة ٣٠٢ — ٣٠٩ بتصرف .

٤ — تحدث المسلمون أيضا عن علاقة البيت بالمدرسة ، واهمية الدور الذى يلعبه البيت ليترتب على ذلك نجاح الطالب ، وقد ورد فى كتاب الارشاد والتعليم حديث طويل عن ذلك الموضوع ومنه نقتبس الفقرة التالية : والطفل صورة عائلته ، فكل ما فيها من خير أو شر ،وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء ، ومن ربّى ماله ولم يربّ ولده فقد ضيع الولد والثروة [1] ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب فى المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعا الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة . والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو ، والمحبة الخالصة ، حكمنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الإلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان [2] .

وقد عبر الزرنوجى [3] أدق تعبير وأوجزه عن العلاقة التى يجب أن تقوم بين البيت والمدرسة بقوله : يحتاج فى التعليم إلى جدّ الثلاثة : المتعلم والأستاذ والأب .

٥ — التربية الاسلامية التى عُنى بها المسلمون ليست هى فقط العلم والتعلم وإنما هى التربية بمعناها الحديث ، أى أنها تشمل كذلك رياضة الجسم ورياضة النفس ، وكل ذلك قد احتوته هذه الدراسة .

---

(١) كتاب الارشاد والتعليم ٥٤١ — ٥٤٢ .
(٢) كتاب الارشاد والتعليم ٥٤٢ — ٥٤٣ .
(٣) تعليم المتعلم ص ١٥ .

العلاقة بين الحكومات والمدرسين

جاء الرسول بالدين الحنيف فبدأ يدعو قومه اليه ، ويعلّم من استجاب منهم مبادىء الدين الجديد ، وقد كان الرسول زعيما سياسيا ورائدا دينيا فى نفس الوقت ، ولهذا باشر الأمرين جميعا بكفاءة ونجاح ، ولما صعدت روحه للرفيق الأعلى قام الخلفاء الراشدون مقامه الواحد بعد الآخر ، وكانت لهم القدرة على تحمل هذه التبعات الجسام ؛ فكان الواحد منهم يدبر أمور الدولة ، ويرسل الجيوش ، ثم فى الوقت نفسه يفتى الناس ويعلمهم أمور الدين .

وفى هذه الأثناء اتسعت رقعة الدولة وسار الدين الجديد من بلد الى بلد ، ومن مملكة الى أخرى ، وبدأ أناس فى هذه البقاع النائية يعتنقون الاسلام ويستجيبون لداعى الله ، ومن ثم أصبح غير متيسر على الرسول وحده أو على خليفته بالعاصمة أن يعلم الناس أمور الدين وأن يهديهم بهدْى القرآن لبعد الشقة وطول المسافة ، فتحولت مسئولية هذا العمل الى العلماء ، وقد بدأ الرسول نفسه هذه السُنّة ؛ فإنه حين عودته من مكة بعد فتحها ترك فيها مُعاذا ليعلم المسلمين الجدد قواعد الدين الجديد .

ولما انتشرت الفتوحات فى عهد عمر أرسل أفرادا من علماء الصحابة الى المدن المختلفة للقيام بنفس المهمة ، وكان من هؤلاء عبد الله بن مسعود الذى ذهب الى الكوفة ، وأبو موسى الأشعرى الذى قصد البصرة .

ثم أصبح الفقهاء من المسلمين يصحبون الجيش الاسلامى أنَّى يسير ، فكان جيش المسلمين كما يصفه Professor Gibb [(1)] « ليس مجرد معسكر حربى ، وإنما كان مع ذلك مركزا تنبعث منه الدعوة للدين الجديد » .

ومنذ قامت الدولة الأموية أصبح كثير من الخلفاء حكاما سياسيين

---

(1) Muhammadanism pp. 4-5.—

ولم تكن لهم ثقافة دينية واسعة تجعلهم أكفاء للإفتاء وتعليم الناس ، ومن هنا انتقلت الى العلماء هذه المسئولية حتى فى العاصمة وحملوا هم عبء التعليم والإرشاد .

إلا أن هؤلاء المعلمين لم يكونوا معينين من قبل الدولة للقيام بهذا العمل ، وإنما كانوا يؤدونه طلبا للثواب من الله كما كان الرسول يفعل من قبل ، وكان كثير منهم يسعون من تلقاء أنفسهم هنا وهناك حيث يجلسون لتثقيف الناس وتعليمهم ؛ واتخذ هؤلاء من المسجد مكانهم المختار فكانوا يجلسون فيه ويلتف حولهم الناس فيأخذون من علمهم ويستفيدون من ثقافتهم .

وكانت المساجد بدورها مفتوحة ، يقصدها من يأنس فى نفسه الكفاءة لتعليم الناس ، ولم يكن على المدرس بطبيعة الحال أن يعلم موضوعا بذاته ، بل كان يعظ الناس بما يعرف ويفتيهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وقد ظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات فى ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل فى دائرة سلطانها ؛ فما دام المعلم غير معين منها ، وما دام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجرا ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء .

وقد بدأ تدخل الحكومات فى التعليم عندما اقترح القائمون بالأمر موضوعا معينا ليدرس ، أو عندما شيدت الحكومات معاهد تعليمية فعينت لها المدرسين ونظمت لهم الأجور ، وبهذا أو ذاك بدأ تدخل الحكومات فى التعليم .

وكانت القصص أول موضوع اقترحته حكومة إسلامية واحتضنته [1] ، ويحكى المقريزى فى ذلك أن عليا صلى بالناس مرة فقنت ودعا على قوم من

---

(١) الخطط ٢ : ٢٥٣ .

أهل حربه ، فلما بلغ ذلك معاوية أمر قَصَّاصا ليجلس للناس بعد صلاة الفجر وبين صلاتى المغرب والعشاء ليدعو له ولأهل الشام بواسطة القصص ، وكان معاوية يقصد بذلك أن يستثير شعور السوريين ، ويحرك عواطفهم ، ويزكى حماستهم ضد أولئك الذين تهاونوا فى الدفاع عن عثمان ، والذين هجموا عليه وقتلوه • ثم أولئك الذين لم يجدّوا فى القبض على قَتَلَتِه ، والمطالبة بثأره •

وبدأ القصص بمصر منذ سنة ٣٨ هـ وكان توبة الحضرمى وأبو اسماعيل ابن نعيم وأبو رجب بن عاصم بين من عينوا قصاصا بجامع عمرو ، وكان مرتب الأخير عشرة دنانير فى الشهر [١] •

ذلك كان مطلع تدخل الحكومات فى شئون التعليم ، ثم سار التدخل قدماً ، وأصبح أبرز وأوضح عندما ظهرت المؤسسات التعليمية التى شيدتها الدولة :

فعندما شيد العباسيون بيت الحكمة فى بغداد وعينوا له جلة العلماء للترجمة والنسخ والإشراف ورتبوا لهم المرتبات والأجور السخية ، عند ذلك أصبح للخلفاء كامل الحق فى السيطرة على بيت الحكمة وتوجيه أموره على حسب ما يريدون •

واتضح تدخل الدولة اتضاحا سافرا فى المؤسسات التعليمية التى أنشأها الفاطميون فى القاهرة ؛ إذ عينوا اتجاها دينيا خاصا ليكون موضوع الدراسة ، ورتبوا خيرة رجالهم للاشراف على هذا التوجيه ، ولبث الدعوة لمذهب السلطة الحاكمة ، وسنورد فيما بعد الوثيقة التى عيّن بها داعى الدعاة فى عهد الحاكم والتى يتضح منها كيف أن الدولة رسمت له عمله ، وأوضحت له المنهاج الذى يسير عليه •

وأنشأ نظام الملك عدة مدارس فى العالم الاسلامى سميت باسمه ،

---

(١) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٣ — ٢٥٤ .

ورتب فيها المدرسين والعلماء بأجور سخية منتظمة ، ورسم لهم أن يكافحوا المذهب الشيعى الذى كان منتشرا فى عهد البويهيين ، وأن يدرسوا مذهب أهل السنة ، ثم كان من تدخل الحكومة أن تبْعِد عن هذه المدارس كل مدرس يعطف على الشيعة أو يعتنق مذهبهم [١] .

وهكذا فعل نور الدين فى الشام ، وصلاح الدين فى مصر فكل منهما أنشأ المدارس وحدد لكل منها المذهب الفقهى الذى تسير الدراسة عليه ، وعيّن لها أحد شيوخ هذا المذهب ليدرس بها . واقتدى بهذين السلطانين كثير من أقاربهما وأتباعهما وعلماء عصرهما على ما مر ذكره .

ولما أنشأ الخليفة المستنصر العباسى (توفى سنة ٦٤٠ هـ) المدرسة المستنصرية جعل فيها أربعة أمكنة (إيوانات) منفصلة لتعْقد فيها حلقات على المذاهب الأربعة ، وعين لكل إيوان شيخا من شيوخ المذهب ليدرس فيه فقه ذلك المذهب ، وعين لكل شيخ من هؤلاء الشيوخ خمسة وسبعين طالبا ، ورتب الرواتب للمدرسين والطلاب [٢] .

وعندنا لحسن الحظ وثائق هامة فى هذا المجال ، وهى سجلات تعيين بعض المدرسين فى وظائفهم ، وهذه الوثائق تحدد عمل المدرسين ، وتقر سلطان الحكومات . وفيما يلى موجز لاثنتين منها :

الوثيقة الأولى : سجل فاطمى بتولية داعى الدعاة الذى كان يشرف على الحركة العلمية ، ويصدر التعليمات الى الفقهاء والمعلمين . وهذا موجز له :

الحمد لله الذى اختار الاسلام فأظهره وعظمه ، واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه ، يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته ، وخصه بلطائف حكمته ، وأقامه دليلا على مناهج هدايته ، وداعيا الى سبيل رحمته ، ويسأله

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت : ٥ : ٤١٥ .

(٢) ابن العبرى ص ٢٤٥ ،

Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 287

الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ، وأودع بواطنه لوصيه سيد الأوصياء ، على بن أبى طالب أمير المؤمنين .. صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان ، وأعلام الإيمان ، وخلفاء الرحمن .

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله من شرف الحكمة وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وشيوع ظلها على أشياعه وخلصائه ، وما يزال نظره مصروفا الى نَوْطها (ربطها) بناشىء فى حجرها ، مغتذٍ بدَرِّها ، سارٍ فى نورها ، فتقلَّدْ ما قلدك أمير المؤمنين .. وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدَّ العقد على كل منقاد ظاهر ، ولا تلق الوديعة إلا لحفَّاظ الودائع ، ولا تُلقِ الحَبَّ إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخَّ لغرسك أجل المغارس ، واتل مجالس الحِكَم التى تخرج إليك على المؤمنين والمؤمنات فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد بالمعزِّيَّة بالقاهرة ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله أو لا تستقل أفهامُهم بتقبُّله ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجِزَى والأخماس والقُرُبات ، وما يجرى هذا المجرى واحمله الى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بوصوله اليه وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستتب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة من تثق بديانته (١) .

الوثيقة الثانية : فرمان أصدره السلطان سنجر السلجوقى الى محمد ابن يحيى النيشابورى يفوِّض اليه التدريس بنظامية نيشابور ، ولهذا الفرمان مقدمة طويلة يتحدث فيها السلطان سنجر عن الوزير العظيم نظام الملك ، ومنشآته العلمية وأفضاله على العلم والمتعلمين ، ثم يشيد بالمدرسة النظامية ومابذله مدرسوها السابقون من جهد فى خدمتها ، ثم يستمر قائلا : ولما كان عصرنا متجملاً بفضل محمد بن يحيى وعلمه وعفته متع الله المسلمين بطول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ — ٤٣٩ .

بقائه ، وكان قائدا للعلماء من المذهبين الشافعى والحنفى ، وموضع ثناء الجميع ، فقد أسندنا اليه منصب التدريس الذى هو أشرف المناصب فى المدرسة النظامية بنيشابور التى هى أشرف مدارس العالم ، وأعز بقاع طلبة العلم ، وجعلنا المدرسة والأوقاف وكل ما ينضاف اليوما وينتسب فى عُهْدة علمه وعفته وديانته [1] .

* * *

وينبغى أن يكون واضحا أن تدخل الحكومات كان خاصا بالمدرسين الذين عينتهم وحددت عملهم ودفعت لهم أجورهم ، ولم يمس هذا التدخل آلاف المدرسين الذين ظلوا يجلسون فى المساجد ، ويفد اليهم الناس ، فيتعلمون منهم ويغترفون من علمهم وثقافتهم .

* * *

وعلى هذا فما نراه الآن من خضوع موظفى الدولة لسياسة الحكام فى العالم المتخلف الذى يُسَمَّى العالم الثالث ، هذا الخضوع لجور الظالمين من هؤلاء الحكام ليس إلا امتدادا لنقصّاص الذين عيّنتهم القوى الطاغية ابتداء من عهد الدولة الأموية ، فأصبحوا أبواقـا للحكومات نظير مـا يتقاضون من مرتبات .

وهذه كارثة ، فالمرتبات ليست من « جيوب » الحكام ، وانما هى من عرق الشعب الكادح ، فيجب أن تتجه جهود الموظفين لخدمة الصالح العام ، لا لخدمة الديكتاتور الذى اغتصب السلطة بوسيلة أو بأخرى .

---

(١) يادجار : مجلة فارسية عدد يناير وفبراير سنة ١٩٤٥ ص ٤١ — ٤٣ .

المستوى الاجتماعى للمدرسين

يُعتبر الجاحظ من المصادر المهمة عند الحديث عن المستوى الاجتماعى للمدرسين ، ويسارع إلى الذهن بوجه خاص ما رواه أنَّ مِنْ أمثال العامة قولهم : « أحمق من معلم كتاب » وما رواه عن بعض الحكماء أنه قال : « لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء » ويَرْوى كذلك أنه سمع قول بعضهم « الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين » [١] .

والمثل الأول خاص بمعلمى الكتاتيب أما المثلان الأخيران فمطلقان ، ومنهما فهم بعض الكتاب أن الجاحظ يضع المعلمين جميعا فى هذا المستوى الاجتماعى المهين . وهذا خطأ ، لأن الجاحظ نفسه سجل رأيه عن المعلمين بتفصيل واضح فى كتابيه رسالة المعلمين [٢] ، وفى البيان والتبين ، وهاك موجزا لهذا الرأى ، قال فى رسالة المعلمين :

لو استقصيتُ عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحسّاب والخطاطين ، لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار ، وكثير من المؤدبين والمعلمين أصبحوا فى عداد الرواة والقضاة ، والحكماء والولاة ، ومن الدهاة والحماة ، ومن القادة والذادة ، ومن الرؤساء والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة ، ومن الفرسان وأصحاب الطعان [٣] ... فلا تَلْزم الأكابر ذنب الأصاغر ، ولا تحكم على المجتهدين بتفريط المقصرين [٤] .

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين [٥] : والمعلمون عندى على ضربين ؛ منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ،

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢) مخطوط بعضه بالمتحف البريطانى وبعضه بالموصل (انظر مصادر الكتاب) .
(٣) رسالة المعلمين ورقة رقم ١٠ ا و ب .
(٤) المرجع السابق ٤ ب . (٥) جـ ١ : ١٤٠ — ١٤١ .

فإلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن الكسائى وقطرب وأتباعهما يقال لهما حمقى ، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم .

فإن ذهبوا الى معلمى كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة فما هم فى ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تظن الظنون بمعلمى الكتاتيب جميعا وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم .. وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمَين [1] .

ذلك هو رأى الجاحظ فى المعلمين وهو ينفى ما يشاع من أن الجاحظ كان يحط من أقدارهم ويقلل من مكانتهم ؛ ثم إن رأى الجاحظ يحتم أن ينظر الباحث فى هذا الموضوع الى أن المعلمين طوائف لا طائفة واحدة ، وهو ما ندين به مع شىء يسير من الخلاف مع الجاحظ ، فهو يجعل المعلمين ضربين ولكنى أميل الى أن أقسمهم ثلاث طوائف ، سواء أكان الحديث عن مستواهم الاجتماعى أم عن مركزهم المالى وهذه الطوائف الثلاث هى :

١ — معلمو الكتاتيب .

٢ — المؤدبون .

٣ — المعلمون بالمساجد والمدارس .

ولكل طائفة من هذه ظروفها الخاصة التى تتميز بها عن الطائفتين الأخريين وهذا ما سيتضح مما يلى :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ : ١٤٠ — ١٤١ .

١ — معلمو الكتاتيب :

ينبغى أن نعترف أنه كان بين هذه الطائفة جماعة احترفوا هذه المهنة بثقافة ضحلة أو بدون ثقافة ، وبأخلاق دعت أحيانا لا إلى احترامهم بل الى امتهانهم والتقليل من شأنهم ، وهؤلاء جلبوا السمعة الرديئة الى الطائفة كلها ، وأحيانا الى المعلمين جميعا ، أما كيف استحق هؤلاء ذلك الوضع فهذا ما تعبِّر عنه الأقاصيص الآتية حقيقةً كانت أو موضوعة :

كان صبى يقرأ القرآن على معلم ، فلما وصل الصبى الى قوله تعالى « وإن عليك اللعنة » [١] أخذ يكرر هذه الجملة موجها الخطاب إلى معلمه ، فاغتاظ المعلم وقال له : إن عليك اللعنة وعلى والديك ، فقال الصبى : لم يكن فى لوحى وعلى والديك وإنما عليك فقط فهل تريدنى أن أقول عليك وعلى والديك [٢] ؟ .

وكان معلم كتاب يقرأ « غلبت الروم فى أدنى الأرض [٣] » ولكنه قرأها غلبت الترك ... فرده بعض السامعين الى الصواب ، فقال المعلم : لا يهم ، التـرك والروم أعداؤنـا [٤] .

وسمع معلم يلقن صبياً : وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه [٥] ، يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً [٦] وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً [٧] . فقيل له : ما هذا ؟ فقال : إن أباه يـدخل مشاهرة شهر فى شهر ، وأنا أدخله من سورة الى سورة لئلا يحصل على شىء كما لا أحصل أنا منه على شىء [٨] .

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٥ .
(٢) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .
(٣) سورة الروم الآية ٢ .
(٤) الأبشيهى : المستطرف ٢ : ٢١٥ .
(٥) سورة لقمان الآية رقم ١٦ (٦) سورة يوسف الآية رقم ٥ .
(٧) سورة الطارق الآيتان ١٦ — ١٧ .
(٨) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .

وروى أن تلاميذ مكتب ما رغبوا فى أن يحصلوا على إجازة فى يوم معين ، فاتفقوا على أن يوهموا معلمهم أنه مريض ، فلما حضر أخذ كل منهم يبدى أسفه لمرضه ، وينصحه أن ينال قسطا من الراحة فإن التعب بادٍ عليه ، ووقع المعلم فى الفخ الذى نصبوه له ، وأعلن أنه يحس بالتعب ومنح التلاميذ إجازة [١] .

ويحدثنا ابن حوقل [٢] حديثا طويلا عن المعلمين فى صقلية وفى مدينة بلرم على وجه الخصوص ، وهو يعيب عليهم كثرتهم الباهظة ، ويرجع سبب الكثرة الى أن هؤلاء كانوا يفرون الى هذه المهنة من الجهاد والغزو ، إذ كان قد سبق الرسم بإعفاء المعلمين « ففزع الى التعليم بُلْهُهم وحسّنه لديهم جهلهم فراراً من الجهاد وشرفه والغزو وعزه » فكان منهم فى بلرم وحدها ٣٠٠ مدرس وكان الغالب عليهم الصراع والخُبَاط والجهل ، ثم كان من أعظم البلية أن جميع أهل صقلية يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ، وفقهاؤهم ، وعدلهم وأرباب فتاواهم ، وهؤلاء المعلمون كانوا بين غبىٍ عمٍ ، وناقص زرى المنظر والمخبر ، ومع جهل هؤلاء وحمقهم فإنه لا أخلاق لهم . ومن أرث ما رآه ابن حوقل وأغثه خمسة معلمون فى مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسين ، يرأسهم شيخ يعرف بالمطاط ، من أقدر الناس على شهادة زور .

وعلى ذكر المطاط الذى كان مقداماً فى شهادة الزور نوضح أن قبول شهادة معلمى الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة ، وهناك تعليلان لذلك :

الأول : أن هذا المعلم يأخذ على تعليم القرآن أجراً وهذا يسقط المروءة والعدالة ، يروى الدينورى [٣] أن رجلا جاء ليشهد عند سوّار فقال له : ما صناعتك ؟ قال : أنا مؤدب . قال : فإنا لا نجيز شهادتك . قال :

---

(١) ابن الجوزى . اخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠٩ .
(٢) كتاب صورة الأرض موجز ١٢٦ — ١٣٠ .
(٣) عيون الأخبار ١ : ٦٩ .

ولم ؟ قال : لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجراً • قال : وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً • قال : إنى أكرهت على القضاء • قال : يا هذا ، القضاء أكرهتَ عليه ، فهل أكرهتَ على أخذ الرزق ؟ قال القاضى : هلم شهادتك • فأجازها •

الثانى : إن بعض المعلمين أرادوا أن ينتهزوا فرصة كونهم حملة القرآن ، وأن شهادة الحق تُتوقع منهم ، فاحترفوا الشهادة ، وأخذوا على تأديتها أجراً ، ولهذا يحذر ابن عبدون من قبول شهادة هؤلاء على الإطلاق ، وبخاصة إذا كثر ترددهم فى الشهادات • ويوصى ابن عبدون أن يتحرى القاضى فى هؤلاء الخير ويسمع عنهم حسن الثناء حتى يقبل شهادتهم [١] •

والذى لا شك فيه أن بعض معلمى الكتاتيب قد انحطوا إلى منزلة مهينة ، ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن هذه القصص التى أوردناها مبالغ فيها ، بل إن بعضها مصنوع ، وتبدو الصناعة ظاهرة فيه أحيانا ، إلا أن المعتقد أن هناك أساسا اعتمد عليه القصاصون فيما وضعوا من قصص ، إذ كان هناك عدد من معلمى الكتاتيب احترفوا هذه المهنة وكل ثقافتهم أنهم حفظوا القرآن ، وليس لهم معرفة بعلوم القرآن ولا بسواها ، ويلوم ابن عبدون هؤلاء مؤكداً أن حفظ القرآن وحده لا يؤهل أحداً لأن يكون مدرسا [٢] •

وقد أساء هؤلاء إلى سمعة معلمى الكتاتيب جميعا ، حتى أصبحت عبارة « معلم صبيان » مثلا يُضرَب للضعة والامتهان • روى ياقوت [٣]

---

(١) رسالة ابن عبدون نشرت فى The Journal Asiatique سنة ١٩٣٤ عدد رقم ٢٢٤ ص ٢١٥ — ٢١٦ •

(٢) المرجع السابق ص ٢١٥ •

(٣) معجم الادباء ٥ : ٣٩٧ •

ان الصاحب بن عباد بلغه أن أبا حيان التوحيدى عاب رسائله ورغب عن نسخها ، فتوعده الصاحب وهدده ، فقال أبو حيان « يتوعدنى ... كأنى طعنت فى القرآن ، أو رميت الكعبة بخرق الحيض ، أو عقرت ناقة صالح ، أو سلحت فى بئر زمزم ، أو قلت : مات النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان الصاحب بن عباد معلم صبيان » فانظر إلى أى حد كان ينظر الى معلم الصبيان حتى يقرن بمن طعن فى القرآن أو عقر ناقة صالح ...

ولكن الباحث اليقظ العادل لا يدع عقله فى مهب الريح ، ولا يتأثر بكل ما يلقى له ، بل ينظر بعمق فى كل ما حوله ويصدر حكمه ، وأعتقد انه أقرب الى الصواب أن تقرر أن المستوى الاجتماعى لبعض مدرسى الكتاتيب كان وضيعا لسبب أو لآخر ، وأن بين مدرسى الكتاتيب عددا وفيرا كانوا فى مستوى يدعو الى التقدير والاحترام ، وأنه الى هذه الطائفة انتسب كثير من العلماء والفقهاء والخطاطين والأدباء ، وأن من هذه الطائفة أفرادا شقوا طريقهم حتى وصلوا الى مكانة مرموقة ومركز رفيع فأصبح منهم القضاة ، ورجال السياسة ، والقواد ، وقد مر ذكر بعضهم فى رواية الجاحظ .

وقبل أن نختم هذا البحث نورد آراء بعض المستشرقين فى هذا الموضوع : يتفق Lammens و Goldziher تقريبا فى ذلك الموضوع فيذكران السبب فى أن معلمى الكتاتيب نظر إليهم شذرا لأن معظمهم كانوا من الموالى ، كما كان أغلب معلمى القراءة والكتابة فى العهد الأول من غير المسلمين ، وكان العرب المسلمون يعتدون بدمهم العربى ، وبدينهم الاسلامى ، ويحتقرون من عدا ذلك . فليس بعيدا أن تكون فكرة احتقار معلمى الكتاتيب نشأت من ذلك العهد (١) .

---

(١) انظر :

—Encyclopaedia of Religions & Ethics Vol. V. p. 202, Mu'awiya 361.

ويقول Adam Mez [1] : ولعلّ كثيرا مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية ، لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة .

أما الخليفة المأمون — وبه نختتم هذا البحث — فيعلّل لما أثر عن بعض المعلمين من بلادة وتخلف بالعبارة الآتية : المعلم يجلو عقولنا بأدبه ، ويصدأ عقله بجهلنا ، ويوقّرنا برزانته ، وتستحفه بطيشنا ، ويشحن أذهاننا بفوائده ، ويكل ذهنه بعيّنا ، فنأخذ منه محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا ، فإذا برعنا في الاستفادة برع في البلادة ، فنحن الدهر ننزع من آدابه المكتسبة ، ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية ، فهو طول عمره يكسبنا عقلا ويكسب منا جهلا [2] .

٢ — المؤدبون :

يذكر الأصفهانى [3] أن إسماعيل بن على رغب إلى عبد الله بن المقفع أن يجلس مع ابنه كل أسبوع يوما ، فقال : أتريد أن أثبت في ديوان النوكى (الحمقى) ؟

وقال سعيد بن مسلم : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بى وقال : ما تصنع هنا ؟ فقلت ركبنى دين . فقال : هل رأيت أحدا ؟ فقلت : ابن شبرمة وعرفته حالى ، فقال : أنا أكلم الأمين ليضمك الى أولاده فيكون لك نفع ، فقال ابن المقفع : أف لذلك أيجعلك مؤدبا في آخر عمرك ؟ أين منزلك ؟ فعرفته ، فأتانى في اليوم التالى وأعطانى ... فرجعت إلى البصرة .

وهذا الذي يرويه الأصفهانى يفهم منه أن تعليم الصبيان لم يكن مرغوبا فيه حتى ولو كان هؤلاء من أولاد الملوك ، وهذه الدعوى لا ترتقى

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ١ : ٣٠٧ من الترجمة العربية للاستاذ محمد عبد الهادى ابو ريده .

(٢) ابن الجوزى : اخبار الحمقى والمغفلين ١٠٧ — ١٠٨ .

(٣) محاضرات الادباء ١ : ٢٩ .

بطبيعة الحال الى تأديب أولاد الملوك اذا كبروا ، فإن تأديب ولاة العهود اذا تجاوزا سن الصبا كان عملا كبيرا مرموقا يتولاه خيرة رجال العصر علما وأدبا وخلقا .

ثم اذا ناقشنا الأصفهانى فى هاتين القصتين وضح لنا أنهما الى الصنعة أقرب منهما الى الواقع ، فان ابن المقفع تبعا لما ذكره بروكلمان [1] كان فعلا مؤدبا لأولاد إسماعيل بن على ، والذى حدا بنا الى قبول رواية بروكلمان وترجيحها على رواية الأصفهانى أن الأخير لم يتحر الدقة فيما يظهر فى كتابته فى ذلك الموضوع ، وقد اتضح ذلك فى القصة الثانية التى تذكر أن ابن المقفع كان يعيش حينما كان للأمين أولاد مع أن ابن المقفع قُتِل سنة ١٤٥ هـ فى عهد المنصور وولد الأمين سنة ١٧١ هـ ولا يمكن أن يقال أن المراد بالأمين المذكور هنا شخص آخر وإلا لوجب أن يكنّى ويذكر نسبه ، أما إطلاقه هكذا فلا يمكن أن يقصد به غير الأمين الخليفة .

وفيما عدا ما ذكره الأصفهانى فإن كل الدلائل والنصوص تفيد أن تأديب أولاد الخاصة صبيانا أو كبارا كان عملا عظيما ، يكتسب من يقوم به الجلال ويحوطه بإهاب من العظمة ، إذ كان من يتولى ذلك يُعدُّ للملك قائدًا وللخلافة راعيا ، ولقد مرَّ رأى الجاحظ فى المؤدب وتقديره لعمله . صحيح أن بعض العلماء كالخليل بن أحمد رفضوا أن يكونوا مؤدبين ، ولكن ما كان ذلك استقلالا للعمل ، أو تهاونا به ، وانما كان بدافع الزهد والورع ، ورغبةً فى البعد عن المغانم والصيت . وكان يرتفع قدر المؤدب ارتفاعا كبيرا حتى ينظر اليه على أنه أحد أفراد الأسرة التى يؤدب فردا أو أكثر من بنيها ، بل كان ينتسب أحيانا الى هذه الأسرة ويأخذ اسمها ، فأبو محمد يحيى بن المغيرة قيل له اليزيدى لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدى يؤدب ولده فنسب اليه ، وقد عبَّر الكسائى مؤدب الأمين عن هذا المعنى فى بيت من الشعر كان مطلع مقطوعة أرسلها الى الرشيد وهذا البيت هو :

---

(1) Brockelman J. 1. ،5. S. I 233.

قل للخليفة : ما تقول لمـن   أمسى إليك بحرمة يدلى [1] ؟

وقد اهتم الخلفاء والعظماء بمـؤدبى أولادهم اهتماما عظيمـا ، وارتفعوا بمستواهم الاجتماعى الى درجة تناسب مكانهم من الأمراء وولاة العهود ، فقد كان على بن الحسن الأحمر (١٩٤ هـ) حينما اختير لتأديب الأمين بعيش فى حجرة واحدة فى حى متواضع من أحياء بغداد فسرعان ما نقله الرشيد الى مستوى اجتماعى رفيع يصفه محمد بن الجهم بقوله : كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصرا من قصور الملوك ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك [2] .

وفيما يلى قائمة بأسماء بعض المؤدبين الذين أشرفوا على تربية أبناء الخلفاء والعظماء ، ولا تحتاج هذه الأسماء الى تعليق فهى أسماء لامعة فى التاريخ الاسلامى والأدب العربى . وستذكر هذه الأسماء القارىء بالمركز الأدبى السامى الذى نعم به هؤلاء المؤدبون وبالأدوار السياسية التى لعبها كثير منهم :

المؤدب	التلميذ	المرجع
الضحاك بن مزاحم	اولاد عبد الملك بن مروان	Brockelman SL. 235.
عامر الشعبى	» » ـ » »	
محمد بن مسلم الزهرى	ابن هشام بن عبد الملك	تذكرة السامع والمتكلم ص١٧
عبد الصمد بن عبد الأعلى	الوليد بن يزيد	الأغانى ٦ : ١٢٤ Brockel GI,190 SI,332
يزيد بن مسلحق السلمى .	» » »	
الجعد بن أدهم	مروان بن محمد	ضحى الاسلام ٢ : ٥٤
المفضل الضبى	المهدى	طبقات الأدباء ص ٦٧
شرقى بن القطامى	»	عصر المأمون ١ : ١٧٤ Brockel GI,151 SI,233
عبد الله بن المقفع	اولاد اسماعيل بن على	

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٦٩ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ١١٠ .

المؤدب	التلميذ	المرجع
يحيى بن خالد البرمكي	الرشيد	ابن خلكان ٢ : ٢٦١
الكسائي	»	طبقات الادباء ٨٧ ، ٩١
ابو عياض	المأمون وأولاد ابراهيم بن المهدى	الاغانى ٥ : ١٢٧
الكسائي	الأمين	ابن خلكان ١ : ٤٦٩
الأحمر	»	معجم الأدباء ٥ : ١١
اليزيدى	ابن يزيد بن منصور	طبقات الأدباء ص ١٠٤
»	المأمون	» » » »
محمد بن الحسن	»	» » » »
الفراء	العباس بن المأمون	طبقات الأدباء ص ١٣٠
قطرب	ابن أبى دلف «القاسم بن على»	Brockel GI,102 SI,131
الحسين بن قطرب	» » »	الفهرست ص ٧٨
ابن السكيت	أبناء الخليفة المتوكل	الفهرست ١٠٨
» »	أبناء طاهر بن الحسين	ابن خلكان ٢ : ٤٥٩
أبو العميثل «عبد الله بن خليد»	ابن عبد الله بن طاهر	الفهرست ص ٧٢
ثعلب	ابن المعتز	ابن الأنبارى ص ٢٠١
»	طاهر بن محمد بن طاهر	» » » »
المبرد	عبد الله بن المعتز	فتوح البلدان ص ١٢
الكندى	المعتضد	
الزجاج	اولاد المعتضد وابن عبد الله ابن المعتز	Brockel GI,100 SI, 170, 507.
الزجاج	ابن سليمان بن وهب	ابن خلكان ١ : ١٦
الصولى	الراضى بالله	الفهرست ص ٢١٥
كافور	أولاد الاخشيد	ابن خلكان ١ : ٦١٤
على بن منصور الحلبى	أولاد الحسين بن جوهر	ياقوت « طبعة مرجليوث » ١٥ : ٨٣ — ٨٨
على بن جعفر	حفيد بدر الجمالى	نفس المرجع ١٢ : ٢٧٦
أبو سعيد البندهى	أولاد صلاح الدين	خطط الشام ٦ : ١٩٢

٣ ـ المعلمون بالمساجد والمدارس :

حظيت هذه الطائفة من المعلمين بكثير من الإجلال والتقدير ، ولا يكاد الانسان يجد ما يقلل من شأنهم أو يضع من أقدارهم إلا هذه الحملة التى شنّها ابن شهيد والتى هاجم فيها المعلمين والعلماء ، ولكن ابن شهيد يعلل لهجومه هذا بأن هؤلاء كانوا لا يعاملون الأدباء معاملة طيبة اذا ضمّتهم مجالس الأمراء والعظماء [1] • فما كتبه ابن شهيد إذن لم يكن عن عقيدة وإنما كان ليثأر لنفسه وللأدباء والشعراء من هؤلاء المعلمين الذين لا يُعيرون الشعر وقائليه أى اهتمام فى مجالس العظماء وأولى الأمر ، وبهذا تسقط قيمة ما كتبه ابن شهيد لأن الدافع له كان شخصيا وكان للرغبة فى الانتقام ، ومثل هذا يُضيع قيمة ما كتب ولا يجعله يرقى دليلا على أى شىء •

وما قيمة ما ذكره ابن شهيد إذا قيس بالنصوص الكثيرة التى حفلت بها كتب الأدب والتاريخ والتى تنبىء ــ بما لا يدع مجالا للتردد ــ أن هذه الطائفة من المعلمين كانت موضع التقدير والاحترام والتعظيم والاجلال ، وفيما يلى أمثلة مقتبسة من هذه المصادر ــ تمثل بتدرجها الفترة التى نُعْنَى بدراستها •

نُصح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها : واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السرج المتألقة والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدك لها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء [2] •

وقيل لأحد أكابر الخلفاء : قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب ، فهل بقيت لك لذة أو بُغية لم تنلها ؟ فقال : نعم ، بقيت لذة واحدة هى أعلى من جميع ما نلته ، وأعظم من كل ما باشرته ، بل لم تقرب منها ــ فضلا

---

(١) الذخيرة ١ : ١١٨ وانظر أيضا النثر الفنى لزكى مبارك ٢ : ٢٩ــ٥٠ •

(٢) مخطوط مجموعة رسائل بجامعة اسطنبول ورقة ٣٧ ب •

عن أن تساويها — لذة من لذات الدنيا ولا مرتبة من مراتب الخلافة العليا . وهي أن أجلس مجلسا كمجلس المشايخ ، فأملي وأشرح وأفيد (١) .

وكان أبو الأسود الدؤلي يقول : ليس شيء أعز من العلم ؛ الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك (٢) .

وكثيرا ما كان العلم نجاة لأصحابه من الردى ؛ فقد ذكروا أن الحجاج كان يضرب أعناق أسرى ، فلما قدّموا إليه رجلا ليضرب عنقه قال الرجل للحجاج : والله إن كنا قد أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو . فقال الحجاج : أفٍ لهذه الجيَف ، أما كان فيها أحد يحسن مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل (٣) .

وقدموا رجلا من الخوارج لعبد الملك بن مروان لتُضْرَب عنقه ، وقبيل التنفيذ دخل على عبد الملك ابن صغير له يبكي لأن المعلم قد ضربه ، فأخذ عبد الملك يهدىء الولد ويكفكف دمعه ، فقال الخارجي : دع الولد يبكي ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لبصره ، وأذهب لصوته ، وأحرى الا تأبى عليه عينه إذا حفزته طاعة الله فاستدْعى عَبْرَتَها . فقال له عبد الملك : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال الخارجي : ما ينبغي للمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء . فأمر بتخلية سبيله (٤) .

وكان عبد الملكَ بن مروان قد تقدم ليخطب للوليد ابنِه وولىّ عهده ، ابنة سعيد بن المسيب (توفي قبيل نهاية القرن الهجري الأول) ولكن هذا رفض أن يزوج ابنته من الوليد وزوّجها من شخص آخر فقير جدا ،

---

(١) معجم ابن حجر مخطوط ٨ ب وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣١ .

(٢) تذكرة السامع ص ١٠ .

(٣) العقد الفريد ١ : ١٤٠ — البيان والتبيين ١ : ١٤٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ — الكامل للمبرد ٥٧٣ .

ويحدثنا ابن خلكان (1) كيف زوج سعيد ابنته فيقول :: كان أبو وداعة يجالس سعيدا فتخلف أياما، فلما عاد قال له سعيد :: أين كنت ؟؟ فقال :: إن زوجتي قد توفيت .. فقال :: هلا أخبرتنا فشهدناها ؟؟ ثم سأله :: هل أحدثت أخرى ؟؟ فقال :: ومن لي بذلك وأنا فقير معسر ؟؟ فقال سعيد :: إن فعلت تقبل ؟؟ قال :: نعم .. فزوجه سعيد ابنته من يومه وكانت غاية في الجمال والخلق .. وهكذا كان علم أبي وداعة أرجح من مكانة الأمير ..

ولما مات الحسن البصري ((١١٠ هـ)) تبع أهل البصرة كلهم جنازته، فلم يبق بالمسجد من يصلي العصر، ولم تترك صلاة منذ كان الإسلام إلا يومها (2) ..

ويحضر بعض أولاد الخليفة المهدي عند شريك القاضي ((١٧٧ هـ)) وهو يلقي الدروس على طلابه، فاستند ابن المهدي إلى الحائط وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك .. ثم عاد وسأل فعاد شريك إلى إهماله .. فقال ابن الخليفة :: تستخف بأولاد الخلفاء ؟؟ قال :: لا، ولكن العلم أزين عند الله من أن يضيعوه (3) ..

ويقول الإمام الشافعي :: حدثني الحد البالغ عمي من التسعين أن ألحق بالإمام مالك بالمدينة لأتعلم الفقه، وكنت في مكة في هذا الوقت، فأخذت كتابا من والي مكة إلى والي المدينة ليصحبني إلى مالك بن أنس، فلما قدمت المدينة أبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما قرأه قال :: يا فتى، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس .. فلست أرى الذل حتى أقف على بابه .. فقلت :: أصلح الله الأمير، إن رأى أن يوجه إليه ليحضر .. قال هيهات، ليت أني إذا ركبت إليه أنا ومن معي من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .....

---

(1) وفيات الأعيان ١ :: ٣٦٩١ — ٣٦٩٣ ..
(2) ابن خلكان ١ :: ١٧٧ ..
(3) تذكرة السامع ٨٨ — ٨٩ ..

وذهب الوالي مع الشافعي الى دار الإمام مالك واستأذن في الدخول ،، فسأل عن حاجته فشرحها ،، فقال مالك : يا سبحان الله !!! صار العلم يؤخذ بالوسائل .. ومنع الشافعي أن يلحق به ،، وعاد الوالي (1) ..

ومر الرشيد مرة بحلقة محمد بن الحسن فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن ،، فخرج الآذن ونادى محمد بن الحسن ،، فتعجب هذه الحلقة الرشيد فلما عاد سأله أصحابه عما كان فقال : سألني الرشيد : ما لك لم تقم مع الناس ؟ فقلت : كرهت أن أخرج عن طبقة العلماء إلى طبقة الخدمة .. فسُرّ بإجابتي (2) ..

ويحكى (3) أن أبا معاوية العالم الأعمى كان يتغدى مرة مع الرشيد فلما انتهى الغداء وأراد العالم أن يغسل يديه على عادة المسلمين ،، تقدم له شخص ما الطست والإبريق وصب عليه ،، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر ذلك الذي أولاه هذه المنقبة وصب عليه الماء ،، ولكنه اكتشف أن الذي فعل ذلك هو الرشيد نفسه على كثرة خدمه .. فقال العالم : يا أمير المؤمنين ،، إني أعتقد أنك فعلت هذا تكريما للعلم .. فأجابه الرشيد : هو كذلك ..

وكان أحمد بن أبي دؤاد سيد دولة المعتصم ،، وكان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه ،، وكان يتوسط بين الأفشين التركي وأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي من مخالفة وكراهية ،، فبلغه مرة أن الأفشين احتال حتى شُهِد على أبي دلف بجريمة قتل ،، فأحضروه ليقتله ،، فأسرع أحمد بن أبي دؤاد الى الأفشين وقال له : إني رسول أمير المؤمنين إليك .. وقد أمرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثا ،، ثم التفت الى من معه وقال : اشهدوا أني بلغت الرسالة والقاسم

---

(1) معجم الأدباء ٦١ : ٢٣٦٩ — ٢٣٧٠ ..

(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢ : ١٧٢ — ١٧٣ ..

(3) Haroun el Rashid p. 112

حى معاف ، ثم خرج الى المعتصم وقال : قد أديت عنك رسالة لم تقلها وقص القصة ، فصوب المعتصم رأيه [١] .

وكان المعتضد يطوف يوماً فى البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قرة إذ جذبها دفعة واحدة وخلاها . فقال ثابت : ما بدا يا أمير المؤمنين ؟ فقال المعتضد : كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى عليه [٢] .

وقد وقع بين القاضى أبى حامد أحمد بن محمد الاسفرائينى وبين الخليفة جفوة فكتب إليه الشيخ أبو حامد : اعلم أنك لست بقادر على عزلى عن ولايتى التى ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب الى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك [٣] .

وذكر قطب الدين الشافعى بسوء عند نور الدين ، فقال : لو صحت هذه السيئة فإن فيه حسنة تكفرها وهى العلم [٤] .

ولما مات على بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقى سنة ٥٧١ هـ حضر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب جنازته بالميدان والصلاة عليه [٥] .

وكان الملك الأفضل ينزل من قصره فى قلعة دمشق يتأبط كتابه ويأتى دار أستاذه الكندى فى درب العجمى ، وربما تأخر الدرس الذى يتقدم درسه فينتظر الى أن تأتى نوبته [٦] .

هذه الأمثلة القليلة نماذج لتراث ضخم يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم السامية وهى وسواها تدل بوضوح على المنزلة الرفيعة التى كان ينزلها من نفوس الناس هؤلاء العلماء والمدرسون .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٣١ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣١٠ .
(٣) السبكى : طبقات الشافعية ٣ : ٢١ .
(٤) مفرج الكروب لابن واصل ص ١٢٥ مخطوط .
(٥) معجم الأدباء ٥ : ١٣٩ — ١٤٠ .
(٦) دهمان : المقصورة التاجية ص ١١ .

حالة المدرسين المالية

هناك نقطتان مهمتان يجدر أن تنالا ما تستحقان من إيضاح قبل تفصيل القول فى حالة المدرسين المالية :

(أ) كان القرآن الكريم هو مادة الدراسة فى جميع الحلقات التعليمية التى كانت تعقد فى صدر الاسلام ، فكان الرسول (ص) يجلس الى أتباعه ليقرئهم القرآن ، ويشرح لهم ما قد يغمض عليهم منه ويستنبط أحكام الدين من آياته ، وكان الرسول بطبيعة الحال يؤدى هذا العمل ابتغاء وجه الله ، واتجه الصحابة بعده هذا الاتجاه فأقرأوا القرآن وفسروه للناس دون أن يأخذوا أو يقبلوا لذلك أجرا غير الثواب من الله ، قال عبد الله بن شفيق كان أصحاب رسول الله (ص) يكرهون بيع المصحف ويرونه عظيماً ، وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن شيئاً [١]

وانتقل هذا الميل الى العصور التالية ، واعتنقه كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وضُمّ إلى القرآن حديث الرسول ، فذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهم الى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجرا على تعليم القرآن والحديث [٢] وكان أبو العباس الأصمّ وهو من كبار علماء خراسان ومحدثيهم لا يأخذ على التحديث أجرا ، وانما كان يورّق ويأكل من كسب يده [٣] .

ثم تطورت المسألة مرة أخرى فأصبحت الدراسات الدينية ، كلها لها حكم القرآن والحديث ، وكما كان على الشخص أن يقرىء الناس ما حفظه من القرآن ويروى لهم ما سمعه من أحاديث الرسول ، كذلك أصبح عليه أن يعلّم الناس ما وعاه من ثقافة ومعرفة دون أجر فى الجميع اكتفاء

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٣١ .
(٢) السمرقندى : مقدمة بستان العارفين .
(٣) متز ١ : ٣٠٦ نقلا عن المنتظم لابن الجوزى مخطوط .

بالثواب من الله . وقد رفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذى رتبه له عمر بن عبد العزيز حينما أرسله ليعلم الناس بالبادية وأثر عن الحارث أنه قال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً (١) .

وفى ضوء هذا الاتجاه سار أغلب المدرسين المسلمين ، وتقص لنا المراجع العربية جملة كبيرة من الأقاصيص التى تنبىء عن أنهم حتى الفقراء منهم كانوا يجلسون لتعليم الناس بدون مقابل ، كما فعل ذلك كمال الدين أبو البركات الأنبارى الفقيه النحوى الذى كان بابه مفتوحا لطالبى العلم يعلمهم لوجه الله تعالى (٢) .

ووجد من معلمى الأطفال من عمل هذا أيضا فقد روى ابن قتيبة (٣) أن الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث (وهما من معلمى الأطفال) كانا يعلمان ولا يأخذان أجراً .

وكان كثير من العلماء يقومون برحلات طويلة لجمع الأحاديث وتعلم العلم ، وكانوا يبذلون فى هذه الرحلات مبالغ كبيرة ثم يعودون ليرووا هذه الأحاديث للناس وليعلموهم ما حصلوا عليه من علم دون جزاء ، فلقد روى أن أبا بكر الجوزنى محدث نيشابور قال : أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم وما كسبت به درهماً (٤) .

وكان جلوس العلماء للتدريس دون أجر مادى دليلا على إخلاصهم لعلمهم وتفانيهم فيه ، إذ لم يكن هناك دافع لهم سوى خدمة العلم والرغبة فى الثواب ، ومن أجل هذا اجتمع علماء ما وراء النهر وأقاموا « مأتم العلم » لما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وقالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٧ .

(٢) الروضتين ٢ : ٢٧ . (٣) المعارف ص ١٨٥ .

(٤) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٩ .

به ، واذا صار عليه أجر ، تدانى اليه الأخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سببا لمهانته وضعفه (١) •

ولكن نظام الملك لم يكن أول من رتب المرتبات للمدرسين ، فانها وجدت قبله ولكن على نطاق محدود ، فلما جاء نظام الملك رتبها على نطاق واسع شامل • ولنا الآن أن نتساءل : كيف بدأ دفع المرتبات الى علماء المسلمين مع ما سبق أن أوردناه من اتجاه العلماء لتعليم القرآن والحديث وعلوم الدين خدمة للعلم من جهة وللحصول على الثواب من الله من جهة أخرى ؟

يبدو لى أن الإجابة تنحصر فى الحقيقتين الآتيتين :

١ — أريدَ ببعض المسلمين منذ عهد مبكر أن يجلسوا بالمساجد ليدرسوا لمستمعيهم شيئا لم يكن المقصود به خدمة العلم ولا وجه الله ، ومن ثم لم يكن هناك دافع لأن يقوم المدرس بهذا العمل إلا إذا عين له أجر مادى يحثه على القيام بهذه المهمة ، ومن هذا تدريس القصص السياسى فى عهد معاوية كما سبق أن أشرنا من قبل ، اذ من الواضح أن ذلك كان للدعاية لفريق معين وللتأثير على الناس بوجهة نظر خاصة •

٢ — استعان المسلمون بأفراد كثيرين من غير المسلمين ليخدموا النهضة العلمية وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة ، ومن هؤلاء يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن إسحق وغيرهم وكانوا يمنحون أجورا سخية على القيام بهذا العمل •

وهكذا بدأت فكرة إعطاء مرتبات لمن يخدمون العلم ويسهمون فى رفع المستوى الثقافى ، ثم تطور الزمن فأوشك النسيان أن يسدل ستاره على هاتين الحقيقتين ليصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئا عاديا أيا كان الموضوع الذى يدرسونه ، أو أيا كان الدين الذى يعتنقونه ، وهكذا بدأت ثم انتشرت

---

(١) كشف الظنون ١ : ١٥ .

المرتبات فى العالم الإسلامى ، غير أن كثيرا من العلماء والزهاد ظلوا على الاقتداء بالرسول وصحبه فى تعليم العلم خدمة للعلم وابتغاء مرضاة الله

(ب) يعتقد ابن خلدون أن الخضوع والتملق من أسباب الحصول على الجاه المحصل للسعادة والكسب ، وأن أكثر أهل الثروة والسعادة مدينون لهذا التملق ، ولهذا نجد الكثيرين ممن يتخلقون بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة [١] • ويروى كذلك أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب لأن ما يقومون به ليس من الأعمال الضرورية التى تشتد الحاجة إليها ولذلك لا يأجرهم الحاكم كما يأجر سواهم من أهل الشوكة وأهل الصنائع [٢] ثم يصل ابن خلدون الى النتيجة التى يريد أن يقررها فيقول : إنه لما كان القضاة والمدرسون والأئمة والمؤذنون لا يميلون الى الخضوع والتملق ، ثم إنهم لا يقدمون للمجتمع شيئا ضروريا يحتاج اليه عامة الخلق ، ويضطر له الناس ، فلذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب • ويضيف ابن خلدون أنه وقع بيده أوراق من حسابات المأمون وفيها ما يثبت ما ذهب اليه من أن أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين كانت قليلة [٣] •

ونحب أن نتساءل : ما العمل الضرورى الذى يعنيه ابن خلدون ؟ وما المقياس الذى يزن به الأعمال ؟ هل يقيسها ماديا ؟ وإذا كان كذلك فلماذا كان العمال الزراعيون يعيشون فى مستوى مهين جدا مع أنهم كانوا يقومون بأهم الأعمال وأكثرها ضرورة إذ ينتجون للدولة الحاصلات ويربون لحاجاتها الماشية والأنعام ؟

واذا وافقنا ابن خلدون على أن الامام والمؤذن لا يؤديان عملا ضروريا على اعتبار أن الصلاة يمكن أن تؤدى بدونهما ، فإننا لا نستطيع أن نوافقه على أن عمل القاضى والمدرس يمكن أن يستغنى عنه فطالما شغل الخلفاء

---

(١) المقدمة ص ٢٧٥ • (٢) المقدمة ص ٢٧٦ •

(٣) المصدر السابق ٢٧٦ — ٢٧٧ •

أنفسهم بالنظر فى المظالم عقب رفعها اليهم دون تأخر مما يدل على أهميتها ، والنظر فى المظالم عمل من أعمال القضاء فالذى يخيل لى أن ابن خلدون أخطأه التوفيق حينما جمع أعمال المؤذنين وأئمة المساجد جنبا الى جنب مع عمل القضاة والمدرسين • وهناك حقيقة واضحة هى أن معظم الخلفاء والحكام فى العالم الاسلامى كانوا يعضدون نفوذهم بسلطتين هما سلطة العلماء والجند ، ومن أجل هذا كانوا يغدقون على هؤلاء وأولئك بسخاء ليطول لهم السلطان •

ثم أن ابن خلدون يريد أن يقرر حكما عاما لأن مرتبات القضاة والمدرسين كانت ضعيفة فى عهد المأمون تبعا لما رآه ابن خلدون • ولا أوافق ابن خلدون : أولا : على تقرير حكم عام لوجود مثال عليه بل لابد لتقرير حكم عام أن توجد أمثلة كثيرة لعهود مختلفة ، ثانيا : ما هى هذه الأوراق التى وقعت فى يد ابن خلدون عن حسابات المأمون ؟ الواقع أن ابن خلدون لم يعطنا عنها تفاصيل ذات بال فى حين أن عندنا حقائق ثابتة عن مرتبات القضاة فى عهد المأمون وعن أجور الذين أسهموا فى النهضة العلمية أبان خلافته وهذه وتلك تتعارض مع ما ذكره ابن خلدون : يروى الكندى أن أجر الفضل بن غانم الذى ولى قضاء مصر سنة ١٩٨ ه (فى عهد المأمون) كان مائة وثمانية وستين دينارا فى الشهر [١] وأن مرتب عيسى بن المنكدر الذى ولى نفس المنصب سنة ٢١٢ كان سبعة دنانير كل يوم ، وقد سبق أن أوردنا أن المأمون كان يعطى حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى اللسان العربى مثلا بمثل • كل هذا يحدونا الى أن نخالف ابن خلدون فيما ذهب اليه فى هذا الأمر •

والآن نستطيع أن نتحدث عن الحالة المالية للمدرسين طائفة طائفة على النهج الذى اتبع فى الحديث عن مستواهم الاجتماعى •

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٠٦ •

١ — معلمو الكتاتيب :

أكثر النصوص التي بين أيدينا عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المدرسين تميل إلى أنها كانت شحيحة في الكثير الغالب ، ولعل المستوى الاجتماعي المتدهور الذي أشيع عن هذا الفريق بالحق أو بالباطل كان ذا أثر فعال فيما يتصل بحالتهم المالية ، ثم إن هؤلاء يعلمون القرآن ومبادىء الدين ومن أجل هذا فقد كان متوقعا منهم أن يتبعوا سنة الأولين في عدم الحصول على أجر ، أو على الأقل أن يكونوا زهادا يرضون بالقليل وليست لهم أطماع مالية .

وكانت نتيجة هذه الأفكار أن انحدر المستوى المالي لهذه الطائفة . وظل أغلبهم يعانون كثيراً من الحرمان حتى العهد الحاضر ، وعندنا أمثلة متعددة لتأكيد هذه الحقيقة .

لقد سبق أن تحدثنا عن الحجاج وهل كان معلم كتاب أو لم يكن ؟ وهل حقيقة اسمه كليب أو أن هذا من أكاذيب الشعراء ، وروينا البيتين اللذين يزعم البعض أنهما قيلا فيه وهما :

أينسى كليب زمان الهـزال ... وتعليمـه سـورة الكـوثر
رغيف لـه فـلك دائـر ... وآخر كالقمـر الأزهر [١]

ونحن الآن لا يهمنا أن يكون كليب هو الحجاج أو سواه فالبيتان على أية حال قيلا في معلم كتاب وتحدثا عن حالته المالية . ومنهما يتضح أن معلم الكتاب هزيل في هذه الناحية ، وأنه يتلقى الرغفان المختلفة الأشكال والأحجام أجرا له على العمل الذي يؤديه [٢] .

ومما يدل على تدهور الحالة المالية لهذه الطائفة أن ابن السكيت كان

(١) سرح العيون ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(٢) انظر كذلك المنتخب من كنايات الأدباء للجرجاني ص ١١٨ .

يعلم مع أبيه صبيان العامة بمدينة السلام ففشل فى أن يحصل من ذلك على رزق مناسب فأقلع عن تعليم الصبيان ، وجعل يتعلم النحو رجاء أن يكون مؤدبا أو عالما ، فيضمن له هذا أجرا سخيا [١] .

وينعى ابن حوقل على معلمى الكتاتيب فى صقلية رضاهم بشظف العيش وقلة الدخل ، إذ ما كان يتجاوز إيراد الواحد منهم عشرة دنانير فى العام بل ربما لا يصل إيراده الى هذا الحد [٢] .

وحاضِرُ الكتّاب فيما يعتقده الكثيرون صورة من الماضى فى منهاجه ومظاهره المختلفة ، والسبب فى أنه لم يلحقه تطور ولا رقىٌّ ، أن معلمى الكتاتيب يتوارثون ذلك العمل الواحد عن الآخر • فيقلد اللاحق السابق فى كل ما عرفه عنه وأخذه منه ، ولم تتدخل النهضات الاصلاحية فى رفع مستوى الكتاتيب ، بل تركت هذه على حالها البدائية ، وأنشأت المدارس والمعاهد ، ومن ثَمَّ بقيت الكتاتيب على ما كانت عليه ، دون تغيير ، أو بتغيير طفيف •

ونستطيع إذن مما وصل الينا من نصوص ثم بما انحدر من الماضى الى الحاضر أن نعطى فكرة عامة عن الحالة المالية لمعلمى الكتاتيب :

لم تكن الأجور التى يدفعها الصبيان الى معلمى الكتاتيب محددة . بل كانت متروكة لحالة الطفل نفسه وطاقة أهلـه المالية ، ونستطيع عـلى العموم أن نقسم الأجور قسمين : قسم يتعلق بالزمن وقسم يتعلق بتحصيل الطفل نفسه • أما القسم الأول فكان يقوم به جميع الأطفال تقريباً وهو عبارة عن مبلغ قليل من المال يدفع أسبوعيا أو شهريا ورغيف من الخبز يدفع كل أسبوع •

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤٦١ .
(٢) كتاب صورة الأرض ١ : ١٢٧ .

وقد روى الجاحظ للرّقاشيّ فى معلم :

مختلفُ الخبز خفيف الرغيفِ   منتثر الزاد لئيمُ الرَّصيفِ

وأنشد لأبى الشمقمق :

خبــز المعلم والبقــال متفقٌ   اللونُ مختلفٌ والطعم والصور

ومع الرغيف هناك مبلغ قليل من المال يدفع فى مناسـبات الأعيـاد والمواسم [١] وفى بعض الأحوال كان يُدفع مقدار من القمح والذرة بدل دفع النقود الأسبوعية أو الشهرية .

أما القسم الثانى فكان يـدفعه الطفل الذى يصـل فى حفظـه الى تمام سورة من سـور معينـة فى القرآن : فإذا سـار الطفل فى حفظه الى تمام سورة (تبارك) كـان عليه عندئذ أن يقـدم للمعلم شيئا يُعدُّ لونا من تكريمه وشكره ، فإذا سار الطفل شوطا آخر فى حفظ القرآن حتى أتم سورة (الفتح) فعل مثل ما فعل عند الانتهاء من حفظ سورة تبارك ، وهكذا مع بعض سور معروفة عند المعلمين ، ويدخل فى القسم الثانى ما يدفعه الطفل عند ما يختم حفظ القرآن الكريم ، وفى هذه المرة يَظْهَرُ الجود والسخاء ويكرّم معلم الكُتّاب أجمل تكريم ، وقد يشمل العطاء شيئا من الأكسية والمال وغيرهما على حسب حالة أهل الطفل .

وقد سبق أن قررنا أن المستوى الاجتماعى لمعلمى الكتاتيب ربما كان ذا أثر فى إضعاف مستواهم المالى ، ونحب أن نقرر هنا أن العكس ربما كان صحيحا أيضا .

٢ — المؤدبون :

نَعِمَ المؤدبون بالغنى والرخاء اللذين استمتعت بهما طائفة العظماء الذين اتصل بهم المؤدبون ، وتعيينُ شخص ما مؤدبا كان يعتبر فاتحة خير عليه وعلى ذويه ، اذ كانت هذه الوظيفة تضمن لشاغلها غنى سريعا شاملا ،

---

(١) القابسى : الفضلة ٧٣ ب مخطوط .

وتضمن له كذلك تسوية لأية مشكلات مالية يعانيها أو ديون يرزح تحتها : فلقد روى أن هشام بن عبد الملك — مع أنه كان شحيحا — أدى عن الزهرى سبعة آلاف دينار عندما اختير لتأديب ولده [1] .

وقد سبق لنا أن أشرنا إشارة سريعة الى قصة هامة رواها ياقوت ، وهى تبين بوضوح الى أى مدى كان الخلفاء والعظماء يُعْنَوْن برفع المستوى المالى لمؤدبى أولادهم ، وهاهى تلك القصة كاملة .

دخل على بن الحسن الأحمر (١٩٤ هـ) الى دار الرشيد ليعلم الأمين ، وفُرِشَ له المجلس بفراش حسن ، وكان الخلفاء اذا أدخلوا مؤدبا الى أولادهم فجلس فى أول يوم ، أمروا بعد قيامه بحمل كل ما فى المجلس الى منزله مع ما يوصل به (من الدواب) ، فلما أراد الأحمر الانصراف الى منزله دُعِيَ من يحمل له ذلك ، فقال الأحمر : والله ما يسع بيتى هذا ، فمالى إلا غرفة لا يدخلها غيرى . فأمر الرشيد بشراء دار له وجارية ، وحُمِلَ على دابة ، ووُهب له غلام ، وأقيم له جارٍ (مرتب) ولمن عنده ... قال محمد بن الجهم : كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصرا من قصور الملوك ، ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك [2]

ولم يكن الأحمر فقط هو الذى استمتع بهذا العيش الرغد بسبب اشتغاله بتأديب أولاد العظماء ، بل كان جميع المؤدبين ينعمون تقريبا بنفس النتيجة ، يحكى ابن خلكان [3] أن الكسائى رُتّب له مرتب سخى منتظم وبجانب ذلك فقد أُعطى له — فى أول عهده بمهمته — عشرة آلاف درهم ، وجارية حسناء بجميع ما تحتاجه ، وخادم وبرذون بجميع آلاته .

وفى إحدى المناسبات منح الخليفة المتوكل ابن السكيت مؤدب ولده مبلغ خمسين ألف دينار بالاضافة الى مرتبة المنتظم ، وكثيرا ما حصل

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم صفحة ١٧ بالهامش .
(٢) معجم الأدباء ٥ : ١١٠ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٤٧٠ .

المؤدبون بالاضافة الى المال على مساكن ، وأطعمة منتظمة ، وغيرها من الهدايا والمنح [1] .

ونستطيع من النصوص المتعددة أن نقرر أن متوسط مرتب المؤدب كان ألف درهم فى الشهر ، فقد كان هذا هو المرتب الشهرى لابن السكيت لتأديبه ابناً لمحمد بن عبد الله بن طاهر [2] كما كان عبد الله يدفع مبلغا مماثلا لثعلب كفاء تعليم ولده [3] واذا كانت العملة المستعملة هى الذهب فإن المرتب كان حوالى سبعين دينارا ، وهى على وجه التقريب تعادل الألف درهم فقد كان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه فى الشهر سبعون ديناراً .

٣ — المدرسون بالمدارس :

عند الحديث عن الحالة المالية لا نستطيع أن نذكر كلمة المساجد التى ذكرناها فى كلامنا عن هذا القسم فى الحالة الأدبية ؛ لأن معلمى المساجد كانوا فى الكثير الغالب لا يرجون غير الثواب من الله ، كما أن هذا القسم سيشمل غير المعلمين ممن خدموا الثقافة ولم يجلسوا مجلس المعلمين ، وقد سبق التعليل لذلك .

ومن الممكن أن نقرر دون تردد أن هذا الصنف من العلماء والباحثين قد عاشوا فى بحبوحة من العيش ، ونعموا بمستوى مالى مرموق ؛ إذ أضفى عليهم الخلفاء والسلاطين والعظماء كثيرا من عنايتهم ؛ وامدوهم بهبات متجددة ، وأفضال لا تنقطع ؛ فقد حكى عن المأمون أن منحه لحنين بن اسحق كانت متصلة ، وهباته إليه لم تتوقف [4] .

ولما نزل المتسمعى أرض مصر استقبله ابن عبد الحكم استقبالا كريما ، فأحسن إليه وأكرم مثواه ، وبلغ الغاية فى بره ، وأعطاه من ماله

---

(١) انظر ياقوت : معجم الادباء ص ١٤٤ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤٦١ .　(٣) معجم الأدباء ٢ : ١٤٤ .

(٤) Khuda Bukhsh. Islamic Civilization p. 277.

ألف دينار ، ولخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينـــار ، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار [١] .

وكان الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان [٢] فى مطلع حياته ، فكانت حالته المالية رقيقة هزيلة ، ولكن هذه الحالة سرعان مـــا تغيرت عندمـــا عُرِف عن الجاحظ علمه وفضله ، فأصبح نتاج الجاحظ الفكرى يدُرُّ عليه من الثروة ما تدره الضياع الفسيحة أو التجارة العريضة الناجحة ، ويروى أن الجاحظ دخل البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة ، فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبين إلى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل الى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمســـة آلاف دينار ، فانصرفت عن البصرة وكأن لى فيها ضيعة لا تحتـــاج الى تجديد ولا تسميد [٣] .

ولما كمل جامع ابن طولون صلى فيه القاضى بكار إماماً ، وأملى فيه الحديثَ الربيعُ بن سليمان تلميذ الامام الشافعى ، فدفع اليه أحمد ابن طولون فى ذلك اليوم كيسا فيه ألف دينار [٤] .

وارتفعت ثقافة بعض العلماء وتنوعت ، فسجلت أسماؤهم مـــع الفقهاء ومع العلماء ومع الندماء ، وكان البعض يأخذ رزقا فى هذه الطوائف كلها كالزجّاج (٣١٠ هـ) فقد كان له رزق فى الندماء ، وفى الفقهاء ، وفى العلماء ، ومبلغ ذلك ٣٠٠ دينار فى الشهر [٥] .

وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين دينارا فى كل شهر حينما قدم بغداد فقيرا [٦] .

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧ بالهامش .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .
(٣) معجم الأدباء ٦ : ٧٥ — ٧٦ (٤) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٧ .
(٥) الفهرست ص ٩٠ .
(٦) متز : الحضارة الاسلامية ١ : ٣٠٩ نقلا عن :
Westenfield AGGW, 37, Nr. 92.

وعندما أنشئت المدارس وعين المدرسون بها ، كان هؤلاء يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة أو من إيراد الأوقاف التى كانت عادة تُعَيَّنُ لِيُنْفَق من ريعها على هذه المنشآت ، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس وريع الوقف ، ولكنها كانت على العموم أميل الى الجود والسخاء .

أما عن المدرسين فى ظل الفاطميين فقد سجل لنا المقريزى [١] والقلقشندى [٢] معلومات عظيمة الفائدة لا عن مرتب المدرسين فحسب ، ولكن عن المرتبات المهمة فى الدولة بما فى ذلك داعى الدعاة وهو الشخص الأول فى طائفة المدرسين فى العهد الفاطمى ، وسنقتبس فيما يلى بعضا من هذا السجل ليحدد لنا مركز المعلم المالى بين مراكز الآخرين من كبار موظفى الدولة :

الوزراء	٥٠٠ دينارا شهريا
ابن الوزير	من ٢٠٠ دينار الى ٣٠٠ شهريا
كاتب الدست الشريف	١٥٠ دينارا شهريا
صاحب الباب	١٢٠ » »
قاضى القضاة داعى الدعاة الأستاذون المحنكون صاحب بيت المال حامل الرسالة صاحب الدفتر	١٠٠ دينار شهريا

(١) الخطط ١ : ٤٠١ — ٤٠٢ .
(٢) صبح الأعشى ٣ : ٥٢٥ — ٥٢٦ .

صاحب السيف صاحب الرمح رئيس ديوان النظر	٧٠ دينارا شهريا
الطبيب الخاص رئيس ديوان التحقيق	٥٠ دينارا شهريا
رئيس ديوان المجلس	٤٠ دينارا شهريا
الواعظ بالمسجد شاعر الخليفة	من ١٠ دنانير إلى ٢٠ دينارا شهريا

لكل من الأطباء الآخرين الذين كانوا يقيمون فى القصر ١٠ دنانير .

ومنذ العهد الأيوبى لم يعد هناك مستوى منتظم لمرتبات المدرسين ، بل أصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثرا واضحا بظروف متعددة ، كمقدار الوقف على المدرسة ، وكمكانة المدرس وسمعته ، ثم تأثرت المرتبات بشكل خاص بالأخلاق التى اضطرب مستواها فى هذه الفترة ، فإذا كان ولى الأمر كريما أو عفيفا أغدق على المدرسين ، وإذا كان شحيحا أو شرها قل المرتب الذى يمنحه للمدرسين مهما كان ريع الوقف أو شرط الواقف ، وأياً ما كان مركز المدرس العلمى ، وقد سجل لنا السيوطى أمثلة واضحة لهذا الاتجاه وفيما يلى أحدها :

بنى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار الامام الشافعى وعين للتدريس والنظر بها الشيخ نجم الدين الخبوشانى ، وشرط له أو لمن يشغل هذا المنصب من بعده الأجر التالى :

أربعين دينارا فى كل شهر عن التدريس .

عشرة دنانير لأجل النظر فى أوقاف المدرسة .

ستين رطلا مصريا من الخبز فى كل يوم .

راويتين من ماء النيل فى كل يوم .

قال السيوطى : وقد استمرت المدرسة بيد الخبوشانى الى أن مات سنة ٥٨٧ هـ فوليها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد الجوينى فى حياة الواقف ، فلما مات الواقف عزل عنها واستقرت عليها أيدى بنى السلطان واحدا بعد واحد . . . وكذلك تداولتها أيدى من جاء بعد الأيوبيين من سلاطين ، واضطربت المعاليم تبعا لذلك، فمرة تخلو المدرسة من المدرسين ويكتفى فيها بالمعيدين ، ومرة يعين فيها مدرس بنصف المعلوم ، وأخرى يعين بها مدرس بربع المعلوم ، فلما تولاها برهان الدين الخضر السنجارى قرر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف دون خصم [1] .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة أخرى أسماها المدرسة السيوفية ، وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى ، ورتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا [2] .

وهناك نوع آخر من المدرسين ينبغى ألا ينسى فى مجال الحديث عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المعلمين ، ذلك النوع هو المدرسون الذين كانوا يعلمون الثقافة العالية ويتقاضون أجرهم من الطلاب ، فكأن مؤسساتهم كانت بمثابة مدارس خاصة أنشأها هؤلاء المعلمون ، وقد نعم هؤلاء المدرسون بمستوى مالى لائق ، إذ كان الطلاب يبذلون أقصى ما يطيقون ليحصلوا على العلم ، حدث الزجاج قال : كنت أخرج الزجاج فاشتهيت النحو ، فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجانا ، فقال لى : أى شىء صناعتك ؟ قلت أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم

---

(١) انظر حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٥ .

ونصف ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما ، وأشرط لك أن أعطيك أياه أبدا الى أن يفرق الموت بيننا ، سواء استغنيت عن التعلم أو احتجت اليه . قال فلزمته وكنت أخدمه فى أموره مع ذلك ، وأعطيه الدرهم فينصحنى فى العلم حتى استقللت ، فجاءه كتاب بعض بنى مازمة من الصراة يلتمسون معلما نحويا لأولادهم . فقلت له : أسمنى لهم . فأسمانى ، فخرجت فكنت أعلمهم وأُنْفِذُ اليه فى كل شهر ثلاثين درهما وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه ، ومضت مدة على ذلك ، فطلب منه عبيد الله ابن سليمان مؤدبا لابنه القاسم ، فقال له : لا أعرف لك الا رجلا زجاجا بالصراة مع بنى مازمة ، فكتب اليهم عبيد الله فاستنزلهم عنى فنزلوا له ، فأحضرنى وأسلم القاسم إلىّ ، فكان ذلك سبب غنائى وكنت أعطى المبرد ذلك الدرهم فى كل يوم الى أن مات ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتى [١] .

وكان محمد بن على بن اسمأعيل المعروف بمبرمان قيما بالنحو ، وكان لا يقرىء كتاب سيبويه الا بمائة دينار [٢] ، كما كان الشيخ شمس الدين السيوطى عالما بالعربية ، ماهرا فيها ، حسن التعليم لها ، وكان يقرىء كل بيت من ألفية ابن مالك بدرهم [٣] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٤٧ — ٤٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ٣٧ .

مدرسو المدارس النظامية

كانت المدارس النظامية معاهد عالية لنشر الثقافة الرفيعة ، ولهذا كان مدرسوها دائما من خيرة علماء العصر وأساتذة الجيل ، وقد استطعت أن أجمع عدة أسماء ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس ، وأصحاب هذه الأسماء لهم شهرة عظيمة وصيت ممتاز بين علماء المسلمين ، وهم خير دليل على المستوى العلمي للمدارس النظامية ، بالإضافة الى أن هذه الأسماء ستفيدنا فائدة عظيمة ، لأنها ستساعدنا على تحديد تاريخ تقريبي لاختفاء المدارس النظامية ، وبخاصة نظامية بغداد أولى هذه المعاهد وجودا وأعظمها شهرة • وفيما يلى هؤلاء المدرسون مرتبين بحسب تاريخ الوفاة :

اسم المدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع
ابو اسحق الشيرازى	٤٧٥	بغداد	ابن خلكان ١ : ٦
ابو نصر الصباغ	٤٧٧	»	تاريخ آل سلجوق ص ٧٥
إمام الحرمين ابو المعالى يوسف الجوينى	٤٧٨	نيسابور	ابن خلكان ١ : ٤٧
ابو القاسم العلوى الدبوسى	٤٨٢	بغداد	ابن الأثير ١٠ : ٣٧
ابو بكر محمد بن ثابت الخوجندى	٤٨٣	أصفهان	ابن الأثير ١٠ : ٢٥١
محمد بن ثابت الشافعى	٤٨٣	»	سعيد نفيس ص ٢
ابو بكر الشاشى	٤٨٥	هراة	تاريخ الوفاة ذكر تبعا للسبكى فى طبقات الشافعية ٣ : ٧٦ — ٨٠ ولابن العماد فى شذرات الذهب ٣ : ٣٧٥ ولكن Brockelmann I : 390. يتبع ابن الأثير فى جعل عام وفاته هو ٥٠٧ .
محمد بن على بن حامد	٤٩٥	هراة	ابن قاضى شهبه ١٦٥ أ مخطوط
ابو عبد الله الطبرى	٤٩٥	بغداد	ابن الأثير ١٠ : ١٢٢
عبد الرحمن بن مأمون	٤٩٨	»	ابن الأثير ١٠ : ٩٦
ابو محمد عبد الوهاب الشيرازى	٥٠٠	»	ابن الأثير ١٠ : ١٢٣

اسم المدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع
أبو زكريا يحيى الخطيب التبريزى	٥٠٢	»	معجم الأدباء ٧ : ٢٨٧
الكيا الهرسى	٥٠٤	بغداد	كشف الظنون ١ : ٤٥
أبو حامد الغزالى	٥٠٥	بغدادونيشابور	مقدمة كتاب الاحياء
على بن محمد بن على الفصيحى	٥١٦	بغداد	معجم الأدباء ٥ : ٤١٥
أبو الفتح بن برهان	٥١٨	»	طبقات الشافعية ٤ : ٤٢
أبو سعيد البزار	٥٢٠	»	طبقات الشافعية ٤ : ٢٢٣
احمد الغزالى	٥٢٠	»	ابن خلكان ١ : ٣٩
احمد الميهنى	٥٢٧	مرو	طبقات الشافعية ٤ : ٢٠٣
معين الدين سعيد بن الرزاز	٥٢٨	بغداد	الروضتين ١ : ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ : ١٢٢
موهوببن‌احمدالجواليقى‌البغدادى	٥٣٩	»	معجم الأدباء ٧ : ١٩٨
محمد بن يحيى	٥٤٨	نيشابور	يادجار « صحيفة فارسية »
أبو سعيد أحمد بن أبى بكر	٥٥١	أصفهان	ابن الأثير ١١ : ٣٥
شرف الدين يوسف الدمشقى	٥٥٧	بغداد	» ١١ : ١٧٤
الشيخ أبو النجيب	٥٦٣	»	» ١١ : ١٠٠
يوسف الدمشقى	٥٦٣	خورستان	» ١١ : ٢١٩
رضى الدين القزوينى	٥٧٥	بغداد	ابن جبير ٢١٩
أبو البركات الانبارى	٥٧٧	»	ابن خلكان ١ : ٣٩٤—٣٩٥
أبو الخير اسماعيل القزوينى	٥٨١	»	ابن الأثير ١١ : ٢٤٤
أبو طالب المبارك بن المبارك	٥٨٥	»	معجم الأدباء ٦ : ٢٣٠
محيى الدين أبو حامد	٥٨٦	الموصل	الدكتور داود جلبى : مخطوطات الموصل ص ١٠
مجدالدين أبوعلى يحيى‌بن‌الربيع	٦٠٦	بغداد	ابن الأثير ١١ : ٢٤٤
يحيى بن القاسم	٦١٦	»	معجم الأدباء ٧ : ٢٨٩
بهاء الدين بن شداد	٦٣٢	»	Hitti p. 411
نجم الدين البادرائى	٦٥٥	»	النعيمى ١ : ٢٠٥
أبو المناقب الزنجانى	٦٥٦	»	طبقات الشافعية ٥ : ١٥٤
شمس الدين الكيشى	٦٦٥	»	العزاوى ١ : ٢٦٣
تاج الدين الفاروقى	٦٧٢	»	» ١ : ٢٧٥
مجد الدين بن جعفر	٦٨٢	»	» ١ : ٣١٨

اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع
شرف الدين الشهرستاني	٦٦١	معيد ببغداد	تاريخ علماء بغداد ص ٣٧
محمد بن العتيقي	أوائل ٨٠٠	بغداد	العزاوي ٢ : ٢٢٦
عبد الله بن بكتاش	أواخر ٨٠٠	»	» ٢ : ٢٢٩
الفيروز ابادى	٨١٧	معيد مع ابن بكتاش ببغداد	نفس المرجع

ملحوظـــــات :

١ — من الطبيعى أن نظام الملك كان يعين مدرسا لأية مدرسة من مدارسه يتم بناؤها ، وكثيرا ما كانت المدرسة تبنى من أجل مدرس ، وفى هذه الحالة كان تعيين المدرس يسبق بناء المدرسة ، غير أن شيئا غير عادى حدث عند افتتاح المدرسة النظامية ببغداد فلزمت الإشارة إليه .

حدث ابن الأثير [1] قال : وفى ذى القعدة من سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرغت عمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وتقرر التدريس بهـــا للشيخ أبى اسحق الشيرازى ، فلمـــا اجتمع الناس لحضـــور الدرس ، وانتظروا مجيئه ، تأخر ، فطلب فلم يوجد ، وكان سبب تأخره أنه لقيه شخص فقال له : كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فتغيرت نيته عن التدريس بها ، فلما ارتفع النهار ويئس الناس من حضوره أشار الشيخ أبو منصور ابن يوسف بأبى نصر بن الصباغ صاحب كتاب الشامل ، وقال : لا يجوز أن ينفصل هذا الجمع الا عن مدرس ، فجلس أبو نصر ، ولما علم نظام الملك الخبر لم يزل يرفق بالشيخ أبى اسحق ويزيل شكوكه حتى درس بالمدرسة وكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوما .

٢ — فى حدود الجهد الذى بذلته والمراجع التى أتيح لى الاطلاع عليها نستنبط من القائمة السابقة أن المدرسة النظامية ببغداد كانت أطول عمرا من

(١) الكامل فى التاريخ ١٠ : ٣٨ .

سواها فقد ظل ذكرها يرد فى المراجع فى حين اختفى ذكر نظامية خراسان والموصل ونيشابور واصفهان ومرو وغيرها من المدارس النظامية التى ورد ذكرها فى القرنين الخامس والسادس ، وهذا يوحى بأنه — فيما عدا نظامية بغداد — اختفت هذه المعاهد العليا تدريجيا فى خلال القرن السادس ، وكان سبب اختفائها كثرة الحروب والفتن التى اجتاحت هذه البلاد عقب انحلال أسرة السلاجقة ، ولكن نظامية بغداد كانت فى العاصمة ، وكانت أغنى وأعظم ، فكسبت بعض القوة ، وقاومت الأحداث حتى مطلع القرن التاسع ، ويبدو أنها أيضا اختفت حوالى ذلك التاريخ ، اذ لم يوجد أى ذكر لها بعد الفيروز ابادى الذى توفى فى أوائل ذلك القرن ، وعندنا عوامل أخرى تدعم هذه الفكرة ، ففى هذا التاريخ انشغل التركمان الذين دخلوا بغداد سنة ٨١٣ بحروب طاحنة مع المصريين فى سوريا ، ومع الفرس ، ومع الأتراك فى الأناضول ، وكانت هذه الحروب معارك تهديم وتخريب ، اكتسحت كثيرا من آثار بغداد ومنشآتها ، ومن المعتقد أن المدرسة النظامية كانت احدى هذه المنشآت التى أتت عليها هذه الحروب كما أحدثت هذه الحروب أزمة مالية كان من جرائها أن اغتصب الحكام والولاة أوقافها ، ثم تهدمت فأصبحت خربة واستولى عليها أحد الولاة وضمها الى أملاكه الخاصة [1] وهكذا كانت النهاية التعسة لهذا المعهد العظيم .

٣ — وامتدت التعاسة الى موقع هذا المعهد ، فإن الباحثين لا يتفقون على موضع معين يرون أن النظامية كانت تشغله ، إذ أن مكان المدرسة كما سبق استولى عليه السالبون والناهبون وضموه الى ممتلكاتهم الخاصة ، وليس فيما رأيت من مراجع ما يعطى فكرة نهائية عن ذلك المكان ، ومن أجل هذا حاولت إبان زياراتى لبغداد سنة ١٩٥٠ أن أحدد ولو بوجه التقريب موقع هذه المدرسة واستعنت فى ذلك بالدكتور مصطفى جواد كما استعنت بغيره من علماء العراق الأفاضل واستهدينا كذلك بالمادة

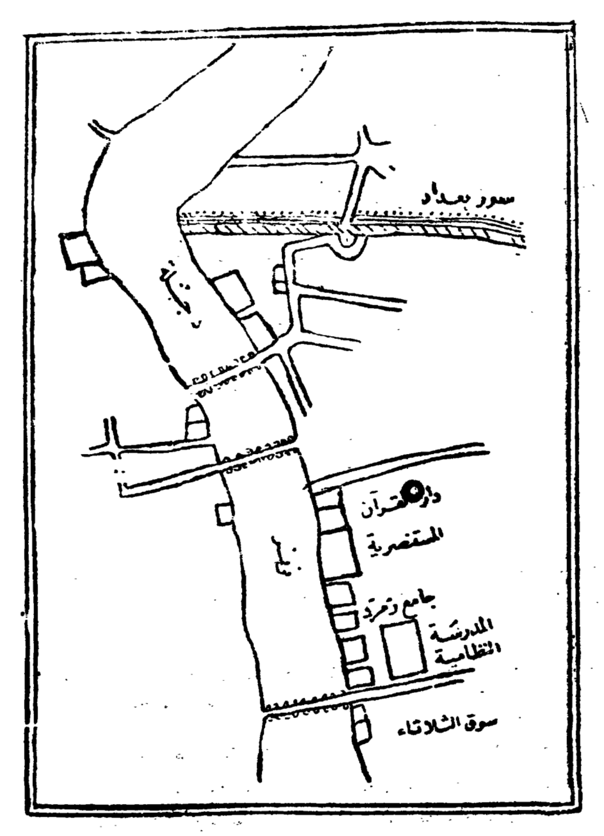
---

(١) انظر مقالا للأستاذ مصطفى جواد بمجلة المعلم الجديد سنة ١٩٤٢ ص ١١٥ .

الطفيفة التى كتبت عن موقع هذا المعهد [١] وقد زرت ومعى الدكتور مصطفى جواد البقعة التى يُظَن أن المدرسة النظامية كانت مشيدة فيها ، واختبرنا بعض الآثار والأبنية القليلة التى لا تزال قائمة ، وكانت نتيجة هذه الأبحاث أن اعتقدنا أن سوق الخفافين يشغل المكان الذى كانت تشغله المدرسة النظامية ببغداد كما يظهر فى الرسم التالى الذى يبدو أنه أقرب ما يكون الى تصوير المنطقة فى القرن السابع الهجرى [٢] .

(١) انظر ابن الأثير ١٠ ص ٧١ ، ٧٣ وانظر كذلك طبقات الشافعية ٣ : ٩٠ .

(٢) انظر مقال الدكتور مصطفى جواد السابق .



خريطة تقريبية لبغداد فى القرن السابع الهجرى ويظهر بها موقع المدرسة النظامية

المعيدون

حددت المراجع العربية مكانة المعيد وعمله ، فهو دون الشيخ وأعظم درجة من الطلبة ، وهو الذى يعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ الخطبة على الطلبة ، (الخطبة هى المحاضرة فى الاصطلاح الحديث) كأنه مُعين الشيخ على نشر العلم [1] • وذكر السبكى [2] أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة ، ولكن عليه قدرا زائدا على السماع ، هو إيضاح ما لم يتضح للطلبة أو لبعضهم ، وعملُ ما يقتضيه لفظ « الإعادة » بعد انتهاء الشيخ من الدرس . فعمل المعيد إذاً يبدأ عندما ينتهى عمل المدرس ، ويشمل عمل المعيد شرح النقاط الصعبة من الدرس ، أو مساعدة محدودى الذكاء من الطلاب لفهم ما صعب عليهم فهمه فى الجولة الأولى •

ومن المعتقد أن هذه الوظيفة قد ظهرت فى القرن الخامس الهجرى والذى دعا الى مثل هذا الاعتقاد أنه لم يرد لها ذكر فيما أعلم قبل ذلك التاريخ ، ثم — وهو الأكثر دعما لهذه الفكرة — أن وظيفة المعيد ارتبطت غالبا بالمدارس وهذه المدارس بدأ ظهورها فى النصف الثانى من القرن الخامس . أما لماذا ارتبطت وظيفة المعيد بالمدارس فإن السبب فى ذلك أن المدرسة جمعت طلابا تتفاوت مقدرتهم العلمية فاحتيج الى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من مسايرة المتفوقين ؛ أما فى المساجد فكان الطالب إذا أحس تخلفه العلمى عن طلاب حلقة ما ، رغب عنها الى سواها من الحلقات ، التى يناسبه مستواها •

وبجانب هذا كان هناك طلاب نابغــون برزوا فى الحلقات ، وزاد ارتباطهم بمدرسيهم ، ففضــلوا أن يعملوا مســاعدين لهم أو معيدين لدروسهم عن أن يستقلوا عنهم ويكوّنوا لأنفسهم حلقات خاصة • حدث

---

(١) تذكرة السامع ١٥٠ بالهامش .

(٢) معيد النعم ومبيد النقم ١٥٤ — ١٥٥ .

ابن خلكان (١) قال : صحب أبو اسحق الشيرازى أبا الطيب الطبرى كثيرا ، وانتفع به ، وناب عنه فى مجلسه ، ورتبه معيدا فى حلقته ثم صار إمـام وقته ببغداد •

وقد كثر ورود ذكر المعيدين متصلين بالمدارس النظـامية ؛ حكى أبو شامة (٢) أن أبا الفتح بن أبى الحسن الأشترى الفقيه كان يشتغل معيدا بالنظامية ، كما حكى ابن الأثير (٣) أن أبا الحسن على بن على بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٢ كان أيضا يشتغل معيدا بالنظامية •

ومنذ العهد الأيوبى أصبح منصب المعيد منصبا مرموقا ، وقلَّ أن خلت منه مدرسة من المدارس التى أنشئت فى ذلك العهد ، فقد عيّن صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية الى جانب الخبوشانى مدرسها وناظر وقفها (٤) ، وفى المدرسة الصلاحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب كان يشتغل أربعة من المدرسين وقـد عيِّن لكل منهم معيـدان يساعدانه (٥) •

ومن المعروف أن المستوى العلمى للمدارس كان مختلفا ، ومن أجل هذا كان من الممكن أن يختار معيد فى مدرسة ليكون مدرسا فى مدرسة أخرى لأن المدرسة الأولى أرقى من الثانية فى مستواها الثقافى فلا تقل وظيفة المعيد فيها عن وظيفة المدرس فى المدرسة الأخرى ، بل ربما شغل شخص واحد الوظيفتين معا فى وقت واحد • ويتقبل المدرس فى مدرسة ما أن يظل معيدا فى مدرسة أخرى إذا كانت الإعادة مع أستاذ ذى علم واسع ، وخبرة كبيرة ، يرجى من العمل تحت إشرافه مزيد من المعرفة والاستفادة •

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٥ . (٢) الروضتين ١ : ١٣ .
(٣) الكامل ١٢ : ١٦١ .
(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ١ : ١٥٧ ، تخطيط ١ : ٤٠٠ .
(٥) الخطط ٢ : ٣٧٤ .

وقد روى اسيوطى [١] أن النصير بن الطباخ كان إماماً متبحراً فى الفروع ••• درس بالقطبية وأعاد بالصالحية عند ابن عبد السلام •

وكان من الممكن أيضا أن يقوم المعيدون بالتدريس فى مدرسة ما دون أن يكون معهم مدرس ، وهم فى هذه الحالة يقومون بعمل المدرس واختصاصه دون أن يكون لهم أجره ؛ يحكى السيوطى [٢] أن المدرسة الصلاحية خلت من مدرس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعيدين ، ثم عين فيها مدرس بعد ذلك [٣] •

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق ٢ : ١١٧ .
(٣) انظر ايضا خطط المقريزى ٢ : ٤٠٠ .

اخلاق المدرسين وواجباتهم *

عقد القلقشندى فى صبح الأعشى [1] فصلا طويلا للكلام عن صنعة الكلام ، ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،ولم يستعمل القلقشندى لفظ المدرس فى ذلك الفصل مما قد يوحى بأنه غير مقصود ، ولكن النظرة الفاحصة تنبىء بأن المدرس مقصود فى هذا الفصل دون تردد ، والسبب فى ذلك أن القلقشندى استعمل لفظ الخطيب والخطابة ، كما استعمل عبارة صانع الكلام ، وقد مر بنا فى حديثنا عن المعيدين أن كلمة الخطبة كانت تطلق على ما نسميه الآن المحاضرة ، فالخطيب إذاً يشمل المحاضر ، ثم أن عبارة صانع الكلام تشمل المدرس دون عناء .

فإذا كنا سنعد ذلك الحديث المفيد شاملا المدرس فإن الأوصاف التى أوردها القلقشندى له ، قريبة جداً من الشروط التى تتطلبها الآن معاهد التربية فى الاختبارات المهنيـة التى يُجْرُونهـا لراغبى الالتحاق بهـا ليُعِدّوا أنفسهم لوظيفة التدريس :

يشترط القلقشندى فيه من الصفات الجسمية : حسن القَدّ ، ووضوح الجبين ، وسعة الجبهة ، وانحسار الشعر فيها .

ويشترط له من الصفات العقلية : فطنة العقل ، وثقافة الذهن ، وحدة الفهم .

ويشترط من الصفات الخلقية : العدل ، والعفة ، وسعة البال .

ويضـع القلقشندى لـه دستورا قويمـا لإعداد الفكرة وإلقائها كمـا يلى :

---

* من أهم المراجع التى اهتمت بآداب العالم والمتعلم هو منية المريد فى آداب المفيد والمستفيد لعلى بن احمد العاملى فقد تحدث حديثاً مفصلا عن آداب العالم والمتعلم فى نفسهما ثم فى درسهما .

(١) ج ٢ من صفحة ١٨٣ الى صفحة ٣٢٨ .

إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك ، ونق له كرائم اللفظ فاجعلها على ذكر منك ليقرب تناولها ، ولا تتقدم الكلام تقدما ، واستعمل جزل الألفاظ ، وسهلها ، وفصيحها ، وسلسل أفكارك ، وتجنب كل ما يكسب الكلام تعمية .

وفى كتاب منهاج المتعلم [١] ذكر لكثير من هذه الصفات والإرشادات مع نسبتها نسبة صريحة للمدرسين .

وبالإضافة الى هذه المراجع السابقة نجد كثيرا من المؤلفين المسلمين مثل الزرنوجى وابن جماعة والغزالى والعبدرى وغيرهم يهتمون اهتماما كبيرا بأخلاق المدرسين وواجباتهم ، ومن مؤلفات هؤلاء جميعا يمكن كتابة نبذة موجزة عن أهم ما يجب أن يتصف به المدرسون :

ينصح ابن المقفع [٢] من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة ، والرأى ، واللفظ ، فيكون تعليمه للناس بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه .. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم . قال الله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » [٣] ، وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ، ويجرى فى القول مجرى السفهاء ، وليذكر المتعلم أن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر [٤] .

ثم على المعلم أن يشفق على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه ، وألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، ثم ينبهه أن الغرض من طلب العلم ، الثقافة والقرب من

---

(١) ٩ ب مخطوط مجهول المؤلف بحلب .
(٢) الأدب الصغير ص ١٤ من رسائل البلغاء الذى جمعه كرد على .
(٣) سورة البقرة [illegible]
(٤) الغزالى ، الاحياء ١ : ٤٨ — ٤٩ .

الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، وأن يهتم بأخلاق التلاميذ اهتمامه بعقولهم ، وأن يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح بالزجر إلا عند الضرورة [١] .

وعليه أن يختار للمبتدىء المسائل البسيطة كثيرة الوقوع ، لأن ذلك أقرب الى الفهم والضبط [٢] ، وقد قال الرسول : من حدّث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم [٣] ، وعلى المتكفل ببعض العلوم الا يقبّح علوم الآخرين فى نفس المتعلم [٤] ، وعلى المعلم الا يتردد فى أن يقول : لا أدرى ، إذا كان لا يدرى [٥]

وعلى المدرس أن يربى فى التلميذ ملكة الاجتهاد والنظر ، لا مجرد التلقيد والتسليم حتى ينشأ مستقلا ، لا نسخةً من معلمه [٦] .

وينصح ابن جماعة [٧] المدرس الا يدرس وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه أو اضطرابه أو قلقه ، وينصحه كـذلك ألا يطيل الدرس تطويلا يُملّ ولايقصّره تقصيرا يُخِلّ ، ويراعى فى ذلك مصلحة الحاضرين ، ثم عليه ألا يجاوز صوته مجلسَه ، وألا يَقصُر عن إسماع الحاضرين .

وعليه الا يكون فى مجلسه مكان مميز لآحاد الناس بل كل من سبق لموضع فهو أولى به ، هذا مع استثناء ما تدعو اليه الضرورة العلمية من جلوس العلماء والمعيدين فى أمكنة خاصة [٨] .

---

(١) الغزالى ، الاحياء ١ : ٤٦ — ٤٧ .
(٢) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ٢٢ .
(٣) الغزالى : الجام العوام عن علم الكلام ص ٣٢ .
(٤) الغزالى ، الاحياء ١ : ٤٧ .
(٥) الغزالى رسالة الأدب فى الدين ص ٤٣ من الجواهر الغوالى .
(٦) كتاب الارشاد والتعليم لبعض رجال الصوفية ص ٩٠ .
(٧) تذكرة السامع والمتكلم صفحات ٣٢ ، ٣٨ ، ٣٩ .
(٨) العبدرى : المدخل ١ : ١٩٩ .

وقد ذكر الغزالى فى رسالة « الأدب فى الدين » آدابا خاصة لمعلم الصبيان ، إذ أن الصبيان لم يكوّنوا فى هذه السن اســتقلالهم ، فهم ينظرون إلى مدرسهم على أنه نموذج صالح يقلدونه ؛ فعليه أن يدرك ذلك ، فاعين التلاميذ اليه ناظرة وآذانهم اليه مصغية ، فما استحسن فهو عندهم الحسن وما استقبح فهو عندهم القبيح [١] .

وأخيرا يجب على المدرس أن ينظر الى تلاميذه نظرة مساواة وإنصاف وعدل ، وألا يميز بحال من الأحوال بين أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء [٢] .

---

(١) الأدب فى الدين ص ٤٢ من الجواهر الغوالى .
(٢) العبدرى : المدخل ٢ : ١٥٨ .

الإجازات العلمية

لم تَعْرِف الشهادات الدراسية فى العهد الأول للإسلام ، وكان الطالب يسعى لطلب العلم ما أتيح لـه الفراغ والمال والموهبة ، ويكتفى بالقليل من العلم أو يجمع منه الكثير على حسب ظروفه الخاصة ، فإذا كان يقصد أن يكون مدرسا فانه أيضا يُترك له أن يقرر — وقتما يرى ذلك ممكنا — أنه أصبح ذا كفاءة تؤهله لأن يجلس فى مجلس الشيوخ ؛ غير أن مجلس الشيوخ هذا لم يكن يسيرا ، ولهذا كان الطالب يتردد طويلا قبل أن ينقل نفسه من مجلس التعلّم الى مجلس التعليم ، وكان مجلس التعليم يُرْهَب بسبب الأسئلة الكثيرة التى يمطرها الطلاب على المدرسين ، وبخاصة على أولئك الذين هم حديثو العهد بهذه المنزلة ، فإذا استطاع المدرس الجديد أن يَثْبُت أمام النقاش والأسئلة التى كانت تصل أحيانا درجة التحدى ، واذا وُفّق فى الإجابة عنها وإقناع الذين تحلّقوا حوله ، فإنه حينئذ يستطيع أن يستمر فى عمله ويواصل التدريس ، ولا حرج عليه بعد ذلك أن يزِلّ أو يهفو ، ما دام قد اجتاز العاصفة الشديدة التى كانت تهب ضد المدرسين فى أول عهدهم بهذا العمل ، أما إذا عجز فى جلساته الأولى عن إقناع التلاميذ والإجابة عن أسئلتهم فإن عليه حينئذ أن يعود الى حيث كان ، طالبا يتلقى العلم فى مجالس الشيوخ : رُوِىَ أن أبا حنيفة كان يلتحق بحلقة حماد بن أبى سليمان ، ثم أحس أن فى مقدوره أن يستقل عنه ، ويكوّن لنفسه حلقه يعلّم فيها ففعل ، ولكن طالبا سأله سؤالا لم يستطع أن يجيب عنه ففض حلقته وعاد إلى حلقة أستاذه [١] .

ورُوِى أن أبا يوسف مرض مرضا شديدا فعاده أستاذه الإمام أبو حنيفة النعمان وقال له : لقد كنتُ أُؤَمّلك بعدى للمسلمين ... فلما برىء أبو يوسف أعجب بنفسه بسبب شهادة شيخه له ، فعقد مجلسا للأمالى ،

(١) السيوطى : تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة ص ١٥ .

فلما عرف أبو حنيفة ذلك أدرك أن أبا يوسف تعجل ، فأرسل أبو حنيفة له رجلا يسأله عن خمس مسائل :

الأولى : قصّار جحد الثوب ثم جاء به مقصورا ، هل يستحق الأجر أم لا ؟ فأجاب أبو يوسف : يستحق الأجر . فقال له الرجل : أخطأت . فقال : لا يستحق . فقال : أخطأت . ثم قال له الرجل : إن كانت القصارة قبل الجحود استحق وإلا فلا .

الثانية : هل الدخول فى الصلاة بالفرض أم بالسنة ؟

الثالثة : طير سقط فى قِدْر على النار به لحم ومرق ، هل يؤكل أم لا ؟

الرابعة : مسلم له زوجة ذمية ماتت وهى حامل منه ففى أى المقابر تدفن ؟

الخامسة : أمُّ ولَدٍ تزوجت بغير إذن مولاها فمات المولى ، هل تجب العدة من المولى ؟

وكان أبو يوسف يجيب الرجل فى كل منها بالإيجاب مرة وبالنفى أخرى ، وكانت الإجابة خطأ على كلا الوجهين على نحو ما ذكر فى المسألة الأولى . فأدرك أبو يوسف تقصيره ، وعاد الى أبى حنيفة ، فقال له هذا : تزبّبْتَ قبل أن تحصرم ، من ظن أنه يستغنى على التعلم فليَبْكِ على نفسه [1] (يقصد : تعجّلتَ وسبقتَ الزمن) .

أما واصل بن عطاء فكان فى أول أمره يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف ، وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وقالت الجماعة بإيمانهم ، خرج واصل عن الفريقين ، وقال بمنزلة بين المنزلتين واعتزل مجلس الحسن البصرى ، وتحلق حوله الناس ، فاستطاع أن يبرهن لهم على كفاءته وجدارته بمجلسه الجديد ، فظل يجلس مجلس الشيوخ منذ ذلك الحين [2] .

---

(١) محمد زاهد الكوثرى : أبو يوسف القاضى ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ٢ : ٢٥٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٢٤ .

وسار الحال على ذلك ، غير أنه كان للحديث وروايته عناية خاصة عند المسلمين ، فلم يُكْتَفَ فيه بما اكتُفِيَ به مع سواه من العلوم ، وكان نظام العنعنة ضروريا ومتبعا فى رواية الحديث ، ولم يكن المدرس يجرؤ على روايته جراءته على تدريس أية مادة أخرى ، وللدقة فى ذلك كان المحدثون منذ عهد مبكر يعطون طلابهم والذين يأخذون عنهم ، شهادة بما رووا لهم من أحاديث ويجيزون لهم روايتها عنهم .

ثم انتقل هذا من الحديث الى سواه من العلوم ، فإذا ثابر الطالب على الاستماع لأمالى الشيخ فى الأدب أو التاريخ أو غيرهما ، أو لشرح يقوم به المدرس لكتاب ما ، وتأكد المدرس من استفادة الطالب ، كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب يقول فيها مثلاً « أتم فلان قراءة هذا الكتاب . . . وأجزت له تدريسه . . . » والكتاب نفسه يعيِّن اتجاه ثقافة الطالب إن فقها أو أدبا أو تاريخا أو غيرها ، ثم يعيِّن الى حد كبير درجة هذه الثقافة ، إذ تتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل تفاوتا يجعل من اليسير أن تتعرف درجة الثقافة من معرفة عنوان الكتاب أو عناوين الكتب التى قرأها الطالب ونال عليها شهادات أساتذته . وعلى هذا كان يمكن أن يحصل الطالب على إجازة فى موضوع فى حين يظل طالبا بالنسبة لموضوع آخر .

وقد بذل الشيخ العلامة أغا بزرك أحد علماء النجف جهدا كبيرا فى جمع وتسجيل وترتيب نصوص أكثر الشهادات التى صدرت من أو الى مشاهير العلماء ، فهو إذاً مرجع هام فى الموضوع ، وقد أتيح لى أن أجلس معه إبّان زياراتى للنجف حيث دارت فى مجلسه أفانين من العلم والمعرفة ، وقد سألته عن أقدم شهادة معروفة ، فتفضل وأطلعنى على مخطوط كتبه بيده وهو الجزء الرابع من « الذريعة الى تصانيف الشيعة » وفيه أن أقدم شهادة معروفة هى الصادرة سنة ٣٠٤ هـ وقد منحها محمد بن عبد الله بن جعفر الحميرى الى أبى عامر سعيد بن عمرو ، أما الكتاب الذى مُنِحت الشهادة عليه فهو « قرب الإسناد » ونص الشهادة هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

أطلقت لك يا أبا عامر سعيد بن عمرو أن تروى هذا الكتاب عنى ، عن أبى ، عن بكر الأزدى وسعدان بن مسلم ... وكتب محمد بن عبد الله ابن جعفر الحميرى بخطه فى صفر سنة ٣٠٤ هـ .

وفى دار الكتب المصرية توجد نسخة خطية لمقامات الحريرى وقد سُجِّل على هذه النسخة إحدى وعشرون إجازة كتب أولاها مؤلف المقامات نفسه ونصها كالآتى :

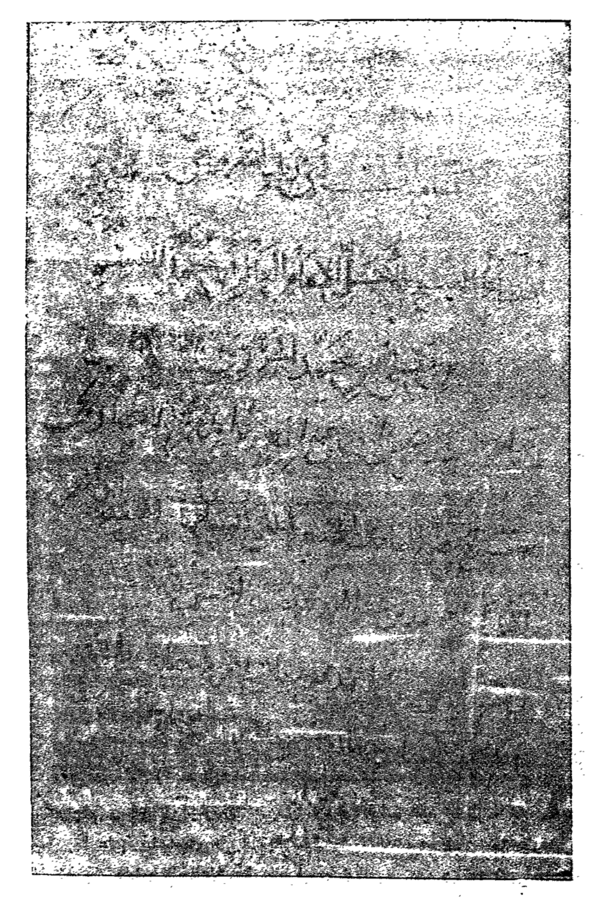
سمع عنى المقامات الخمسين التى أنشأتها الشيخ أبو المعمر المبارك أحمد بن عبد العزيز الأنصارى أحسن الله توفيقه ، وكتب القاسم بن على ابن محمد بمدينة السلام فى شعبان سنة أربع وخمسمائة ،وقد أجزت له رواية جميع مالى من مسموع . (انظر الشكل رقم ١٣) .

وهناك إجازتان أخريان نقلت صورتهما هنا (الشكل رقم ١٤) لإيضاح حقيقة هامة ، هى أن أكثر الاجازات الصادرة عن غير المؤلف كان يذكر فيها الشيوخ الذين يتسلسلون من المؤلف حتى المجيز ، فيقول المجيز : أجزتك بحق سماعى من ... بحق سماعه من ... وهكذا حتى المؤلف .

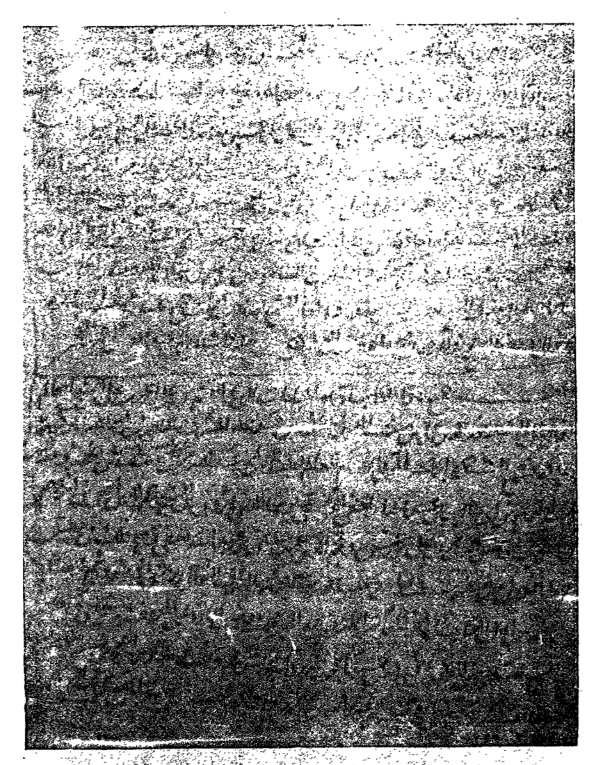
ومن الحق أن نوضح أن لفظ (سماع) هو اللفظ الاصطلاحى الذى أُطلِق على الشهادات التى وردت لها بعض النماذج والتى تُمنَح بعد أن يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا من ذاك ويُمنَح (سماعاً) يبيح المدرس فيه للطالب أن يروى عنه ما رواه له .

أما لفظ (الإجازة) فى الاصطلاح فيدل على إذن يُمنح بدون تعليم ، يمنحه شيخ الى آخر يجيز فيه الأول للثانى رواية أحاديث معينة رواها الأول أو تدريس كتاب ألفه .

وإذا كان السماع جائزا عند الجميع فإن الإجازة دون تعليم موضع



شكل رقم (١٣) اجازة علمية على مقامات الحريرى بخط المؤلف



شكل رقم (١٤) اجازتان علميتان اولاهما بخط عبد اللطيف بن محمد يجيز بها عليّ النصيرى ، والثانية بخط عليّ النصيرى يجيز بها ستة من تلاميذه ، وهاتان الاجازتان تظهران فى مخطوط يحتوى مقامات الحريرى .

خلاف بين العلماء ، فقد روى بعضهم أن الشافعى لا يجيز الرواية عن طريق الإجازة بدون سماع العلم مباشرة من المدرس ، ولكن أبا العباس الوليد ابن بكر تصدى فى كتابه (الوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة [١]) للرد على ذلك ونسب السهو لمن نقل هذه الدعوى عن الشافعى [٢] .

والإجازة من هذا النوع تدل على المستوى العلمى لمن منحت له ، كما يدل عليه السماع ؛ إذ أن الشيوخ ما كانوا يمنحون الاجازة من هـذا النوع إلا لمن كان ذا معرفة تهيىء له أن يجيد تدريس الكتاب المجاز به ، أو رواية الأحاديث المأذون له فى روايتها • ويشترط لصحة الاجازة أن يكون الفرع معارَضاً بالأصـل حتى كأنه هـو ، وأن يكـون المجيز عالما بما يجيز به ، ثقة فى دينه وروايته ، معروفا بالعلم، وأن يكون المستجيز من أهل العلم ، متسما بسمته حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله [٣] .

وللإجازة ضروب :

١ — أن يقول الراوى للطالب : خذ هذا الجزء فإنه من حديثى ، وأنا عالم بما فيه من العلم فحدّث به عنى ، أو استنسخه وقابله وحدث بـه عنى ، ويسمى هذا الضرب مناولة وهو أعلى مراتب الإجازة [٤] .

٢ — أن يكتب الراوى : الى فلان بن فلان : إنى قد أجزت لك مـا سمعه منى فلان أو ما تضمنه الجزء الفلانى وهو شبيه بالمناولة عند ثبوت الخط [٥] .

٣ — أن يقول الراوى : إنى قد أجزت لك بجميع ما صح عندك ويصح

---

(١) مخطوط ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد .
(٢) انظر ظهر الورقة رقم ٤١ ووجه الورقة رقم ٤٢ .
(٣) المرجع السابق رقم ٣٠ ب ، ٣١ أ .
(٤) المرجع السابق ٢٢ ، ٢٣ ملخص .
(٥) المرجع السابق ٢٤ أ .

من حديثى ٠٠٠ وهذا أخفض مرتبة من الذى كتبت أجازته بشىء مسمى [١] .

وأقدم إجازة معروفة — تبعا لرأى الشيخ أغـا بزرك — هى التى أعطاها سنة ٣١٢ هـ محمد بن الأشعث الى هرون بن موسى العكبرى ليروى الثانى عن الأول أشياء عددها الأول فى كتابه [٢] .

وكثيرا ما كان الشيخ يعطى شهادة هى فى الواقع سماع وإجازة ؛ فإذا جلس طالب أمام شيخ ، وأخذ عنه أحد مؤلفاته فيغلب حينئذ أن يكتب الشيخ يجيز للطالب أن يروى عنه ما سمعه منه وما لم يسمعه من مؤلفات أخرى . فقد كتب السخاوى يجيز أحد تلاميذه أن يروى عنه كتابه (الضوء اللامع) وغيره من الكتب فكان فيما قال :

الحمد لله ، كتاب الضوء اللامع قرأه علىّ كاتبه عبد العزيز بن عمر ابن محمد بن فهد الهاشمى المستغنى بشريف أوصافه عن تكرير التعريف به وبأسلافه ، زاده الله تعالى فضلا وأفضالا ، وأعاذه من المكروه حالا ومآلا ، ورحم أصوله ، وضم شمله بفروعه ، وبلغه فيهم مأموله ، وأجزت له روايته عنى مع سائر مروياتى ومؤلفاتى قاله وكتبه مؤلفه [٣] .

ولبعض العلوم كالطب خطورة عظيمة إذ قد ترهق أرواح النـاس بسبب جهل من يشتغل به ، ولذلك نجد أنه منذ عهد مبكر اشترط على من يرغب فى الاشتغال بهذه المهنة أن يجتاز امتحانا وينال شهادة مكتوبة تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لعلاجها . حكى ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة قال : فى سنة ٣١٩ اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على رجل

---

(١) المرجع السابق ٢٤ ب ، ٢٥ أ .

(٢) أغابزرك : رسالة مشيخة العكبرى مخطوط . والاجازة غير الشهادة التى سبق الكلام عنها .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ١٢ : ١٦٨ .

من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر المقتدر ابراهيم بن محمد بمنع سائر المتطببين التصرف إلا من امتحنه والدى سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فصاروا الى والدى فامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه [١] .

---

(١) ابن ابى اصيبعة : طبقات الأطباء ١ : ٢٢٢ .

العقوبــــــات

عقد ابن خلدون فصلا عن الشدة على المتعلمين وأنها مضرة بهم ، أكد فيه أن إرهاق الجسد فى التعليم يضر بالمتعلم سيما فى أصاغر الولد ، لأن من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين ذهب نشاط نفسه . ودعاه ذلك الى الكسل ، وحمله على الكذب ، والتظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وربما صارت له هذه عادة وخلقا فتفسد معانى الإنسانية عنده وتكسل نفسه عن اكتساب الفضائل خوف القهر والشدة ، فإذا رفع القهر عنه يوما بعد عن الفضائل وربما سلك طريق الرذيلة [١] .

وقد كان رأى ابن خلدون فى ترك الشدة والقهر فى معاهد العلم رأياً معترفا به ، غير أن المسلمين فرقوا بين الشدة وبين الضرب الخفيف الذى يلجأ له المعلم عند الضرورة فحرموا الأول وأباحوا الثانى ، وقد نقل ابن خلدون عن ابن سحنون أنه قال فى كتابه الذى ألفه ، فى حكم المعلمين والمتعلمين ما نصه : لا ينبغى لمعلم الصبيان أن يزيد فى ضربهم اذا دعت الحاجة اليه عن ثلاثة أسواط شيئا [٢] .

ولعل مما شجع على جعل العقوبة البدنية سلاحا فى يد المعلم أن أهل الأطفال وذويهم كانوا كثيرا ما يلجئون للمعلمين يطلبون منهم تأديب أولادهم على أخطاء ارتكبوها فى الخارج ، فكانت مهمة المعلم بذلك ليست محصورة فى تعليم الأطفال وإنما تشمل تقويم سلوكهم ومعاقبتهم إذا وقع منهم ما يشين هذا السلوك . كتب شريح القاضى يشكو ولده إلى معلمه :

تَرَكَ الصلاة لأكلب يلهـو بهـا طلب الهراش مع الغواة الرجس
فإذا خلـوت فخصه بملامـــة أوعظه موعظة الأديب الأكيس

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ .
(٢) المقدمة ص ٣٩٩ .

وإذا هممت بضربه فبدرة وإذا ضربت بها ثلاثا فاحبس [١]

وعلى هذا وُجدت العقوبات فى الكتاتيب وأصبحت (عصا المعلم) شيئا لا يخلو منها كتّاب قط ، وشاعت عنها عبارة (عصا المعلم من الجنة) ومن أجل هذا كان مدرس الطفل يستطيع أن يضربه أكثر مما يستطيع أقرب الناس اليه ، وكانت الأم تقبل أن يضرب المعلّم ابنها ولكنها ربما تدخلت إن ضربه أبوه ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة . ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك .

وانتشرت بذلك العقوبات البدنية فى كتاتيب الأطفال ، حدث إسحاق الموصلى قال : أُسْلِمْ أبى ابرهيم الى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا ، ولا يزال يُضرب ويحبس لا ينجح ذلك فيه ، فهرب الى الموصل . وهناك تعلم الغناء [٢] .

وقد شاهد الشاعر الخليع أبو نواس عقوبة تنزل بأحد الصبيان بمكتب حفص ، وقد صور أبو نواس لنا هذه الحادثة فى المقطوعة التالية :

إننى أبصرت شخصاً قد بدا منه صدود
جالساً فوق مصلى وحواليه عبيد
فرمى بالطرف نحوى وهو بالطرف يصيد
ذاك فى مكتب حفص إن حفصا لسعيد
قال حفص : اجلدوه إنه عندى بليد
لم يزل مذ كان فى الدرس عن الدرس يحيد

(١) كمال الدين عمر : الدرارى فى الذرارى ص ٣٨ ، الحيوان للجاحظ ٢ : ٨٤ — ٨٥ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ١ : ٣٦٣ ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ٢ : ١٦٧ .

(٢) الأغانى ٥ : ١٥٧ طبعة دار الكتب .

كُشِفتْ عنه خزوز وعن الخز برود
ثمّ هالوه بسير ليّنٍ ما فيه عود [1]

وكان المعلمين يلجئون الى عقوبة الضرب والحبس حتى مع الأمراء ، وقد ورد فى وصية الرشيد الى الأحمر مؤدب الأمين قوله : ... وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة [2]

قال الأحمر : فكنت كثيرا ما أشدد عليه فى التأديب ، وأمنعه الساعات التى يتفرغ فيها للهو واللعب [3] .

وضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمينَ بعود فخدش ذراعه ، ثم جلس الأمين مع الرشيد الى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه ، فرآه الرشيد فسأله ، فقال : ضربنى أبو مريم . فبعث الرشيد الى أبى مريم وسأله . : ما بال محمد يشكوك ؟ فقال : غلبنى خبثا وعرامة . قال الرشيد : اقتله فلأن يموت خير من أن يموق [4] . (الموق : الحمق فى غباوة) .

وكان أبو محمد اليزيدى يؤدب المأمون فأتى يوما المكان الذى يقابله فيه ، ثم وجه اليه بعض غلمانه ليبلغه بقدومه ليحضر فتأخر فى الحضور ، فوجه اليه ثانيا فتأخر أيضا ، فلما جاء أمر بحمله وضربه تسع ضربات [5] .

وقد وضع ابن مسكويه نظاما لتاديب الصبيان وإنزال العقوبة بهم إذا أخطئوا فهو يقول : فالذنب الأول الذى يرتكبه الصبى يعفى عنه ، والثانى يُعاتب عليه عتابا غير مباشر ، كأن يقال أمامه : إنّ فعل كذا وكذا قبيح ، والثالث يعاتب عتابا مباشرا ، فإن عاد الى ذلك ضُرِب ضربا خفيفا ،

---

(١) ديوان ابى نواس ص ٤١٨ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٦ .
(٣) البيهقى : المحاسن والمساوىء ص ٦١٧ .
(٤) الإصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ٣٠ .
(٥) البيهقى : المحاسن والمساوىء ص ٦١٧ .

فإذا استعمل المدرس هذه الطرق ولم ينته الصبى فعليه أن يتركه مدة ، ثم يعود اليه بنفس الطـرق ، ويروى ابن مسكويه قـول المـاوردى « إذا استعصى على المدرس قيادة الطفل ودام منه نفور قلبه مع سياسته ومعاناة رياضته تركه ترك راحة ، ثم عاوده بعد الاستراحة » [١] .

وقبل ختام هذا الموضوع ينبغى أن تتضح ثلاث حقائق هامة :

١ ـ أبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم ولم يبلغوا مبلغ الشباب : فلا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة ولا ضرب الطلاب الذين تقدمت أعمارهم [٢] .

٢ ـ يستطيع المعلم أن يلجأ للعقوبة البدنية عند الضرورة القصوى ، ويجب ألا يكْثِر استعمالها ، واذا استعملها فيجب ألا يكون متشفيا قاسيا ، بل يكون مسيطراً على نفسه ، وليس الغضب مسيطرا عليه [٣] .

٣ ـ يكون الضرب بالدِّرَّة ،على أن تكون رطبة مأمونة ، ولا يضرب على الرأس ، ولا على الوجه ، بل يضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لا يُخشى منها مرض ولا غائلة [٤] .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .

(٢) الأهوانى : انظر النضلة لأحوال المتعلمين للقابسى ص ١٣٣ وانظر كذلك رسالة ابن عبدون نشرت فى : Journal Asiatique 1934 p. 214.

(٣) انظر رسـالة الادب فى الدين للغـزالى ص ٤٣ من الجـواهر الغوالى .

(٤) العبدرى : المدخل ٢ : ٣١٧ ونهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٠٤ ومعالم القربة فى طلب الحسبة ص ١٧١ .

الجوائز والمكافآت

هناك رابطة تعوّد المسلمون أن يلحظوها بين موضوع هذا القسم وموضوع القسم السابق ؛ فكلاهما يتصل بسلوك التلميذ وتحصيله ، فإذا أساء التلميذ سلوكه أو أهمل واجباته عوقب ، واذا سما سلوكه أو ظهر تفوقه أجيز وكوفئ ، ومن أجل هذه الرابطة جاء الحديث عن الجوائز والمكافآت عقب الحديث عن العقوبات .

وقد مرّ عن العقوبات أنها كانت متنوعة ، منها الأدبى كالعتاب والتوبيخ ، ومنها المادى كالضرب والسجن ، وكذلك كانت صنوف التقدير منها المدح والتشجيع ، ومنها المكافآت المالية ، وكان من هذه ما يستحقه الطالب نظير تفوق فى مسابقة وتسمى جائزة ، ومنها ما يستحقه نظير تفوق بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وإن كان أغلب الكتاب يتحررون من ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيضعون كلا منهما فى موضع الآخر فى كثير من الأحايين .

قال ابن مسكويه [1]: ويمدح الصبى بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرّم عليه . وقال الغزالى [2] : ويمدح الصبى المتأدب ، ومهما ظهر منه من خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرّم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس .

وقد استجاب الناس لهذا الاتجاه فكرموا أدبيا وكافئوا ماديا كل من برّز من التلاميذ وأظهر تفوقا ونبوغا ، وكان من مظاهر التكريم الأدبى أن يحمل الصبى على حصان أو بعير ، وقد ارتدى أزهى ملابسه ، ويحيط به إخوانه وأقرانه ويسير ذلك الموكب فى الشوارع الهامة بالمدينة ، ويطل

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .

(٢) احياء علوم الدين ٣ : ٥٨ .

الناس من النوافذ والشرفات لتحية الموكب وتكريم الصبى النابه ، وكثيرا ما يلقون على الصبى وموكبه البندق والجوز وأمثالهما من الأشياء ، ويروى أبو الفرج الأصفهانى [١] أن على بن جبلة لما نشأ أسلم فى الكتاب فحذق بعض ما يحذقه الصبيان فحمل على دابة ونثر عليه اللوز [٢] .

وأما عن المكافآت والجوائز المالية فقد كانت منتشرة جدا ، وكثيرا ما كان مؤسسو المدارس يجعلون لها حصيلة خاصة فى أوقـافهم عـلى المدارس ، فقد جاء فى كتاب وقف الملك الأشرف على مدرسته بدمشق ما يلى : « ويجعل لكل من المشتغلين ثمانية دراهم ، ومن زاد اشتغاله زاده ، ومن نقص نقصه . ويجعل لكل من السامعين أربعة أو ثلاثة ، ومن ترجح منهم زاده ، ومن كان فيه نباهة جاز إلحاقه بالثمانية ، ومن حفظ منهم كتابا من كتب الحديث فللشيخ أن يخصه بجائزة [٣] .

ويذكر المقريزى [٤] أن الخليفة الظاهر أمر الدعاة أن يحفّظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وكان الملك المعظم يحفظ المفصل للزمخشرى ، وقد جعل لمن يحفظه مائة دينار ، ولمن يحفظ الجامع الكبير مائتى دينار ، ولمن يحفظ الإيضاح ثلاثين دينارا سوى الخِلَع [٥] .

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ١٠١ .

(٢) اخبرنى الدكتور سارجنت المدرس بجامعة لندن ان هذا التقليد لايزال معمولا به فى حضرموت .

(٣) كتاب وقف الملك الاشرف مخطوط ملك الأستاذ صـــلاح الدين المنجد بدمشق .

(٤) الخطط : ١ : ٣٥٥ .

(٥) النعيمى . الدارس ١ : ٥٨٤ .

ملابس المدرسين

كانت ملابس الرسول صلى الله عليه وسلم هى الملابس التى يحتذيها الخلفاء والفقهاء والولاة حتى قيام الدولة الأموية ، وكانت ملابسه عليه السلام سهلة يسيرة تتكون فى الغالب من إزار وسراويل وقميص وعباءة وعمامة وخفين ؛ وكان اللون الأبيض أحب الألوان للرسول (١) .

فلما قامت الدولة الأموية بدأ خلفاؤها والعظماء فيها يقلدون لباس الدول التى خضعت للإسلام وبخاصة دولة الروم ، إذ كانت عاصمتهم « دمشق » قد قامت فى قلب دولة الروم ، يضاف الى هذا مسيرة التطور الذى طرأ على الدولة الإسلامية آنذاك بسبب الاستقرار واتساع الفتوحات كل ذلك حدا بالأمويين أن يغيروا حياتهم ويتطوروا فى مساكنهم وطعامهم ولباسهم ، وقد حذا حذو الخلفاء علماء الدولة وفقهاؤها ، غير أن تطور الأمويين لم يكن عميقا كل العمق ، اذ اهتموا بالمحافظة على عروبتهم على أية حال .

فلما قامت الدولة العباسية علـى أكتاف الفرس قفزت الى بـلاط الخلفاء كل النظم الفارسية أو أغلبها ، وظهر الزى الفارسى فى قصور الخلفاء وقصور العظماء ، وكان المنصـور أول من خرج على العمـامة التقليدية واختار للرأس زيا فارسيا فقلده فى ذلك أتباعه (٢) .

وظهرت السراويل الفارسية الواسـعة ، والقميص ، وكانت مـع القفطان والجبة أو العباءة مغطاة بالطيلسان تكوّن زى الطبقة الممتازة فى الدولة . وقد جمع الشاعر أبو قابوس الحيرى هذه الأنواع فى مقطوعته التالية التى بعث بهـا الى جعفر بن يحيى يستجديه مجموعة كاملة مـن الملابس يلبسها فى العيد ، قال أبو قابوس :

---

(١) إنظر صحيح البخارى ٨ : ٤٩٦ — ٥٠٤ .
(٢) Hitti : History of the Arabs p. 294.

فلا بدَّ لى مـن جبة مـن جبابكم ومن طيلسان مـن جياد الطيالس
ومن ثوب قوهى وثـوب غـلالة ولا بأس لو أتبعتَ ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة كفتك ، فلم تحتج إلى لبس سادس (١)

وكان العلماء ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون بعض مناصب الدولة ، يلبسون هذا الزى الذى ارتضاه الخليفة وارتداه ، وظل العلماء كذلك حتى عهد الرشيد ، ثم اتخذوا لهم زيا خاصا بهم ، قال ابن خلكان (٢) : كان أبو يوسف أول من غير لبس العلماء الى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان ، وكان ملبس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلبسه . وكان ما اقترحه أبو يوسف لتمييز هذه الطائفة هو عمامة سوداء وطيلسان او طيلس (٣) .

ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الزى ضروريا للمدرسين والفقهاء ، حتى أن الصاحب بن عباد لما أراد أن يحدث وهو وزير دخل فخلع لباس الوزراء ولبس لباس العلماء قبل أن يجلس إلى سامعيه (٤) .

وكان العلماء يرخون طرف العمامة بين الكتفين قدر شبر أو أطول قليلا ، كما كانوا يستعملون الطيلسان المربع ويضعونه فوق العمامة ويُسدل على الأكتاف (٥) .

وأوجد الفاطميون خزانة الكسوة التى كان يخرج منها أكسية لجميع الأمراء وكبار الدولة وقد تنوعت هنا الأكسيات بتنوع طبقات الناس ، وكانت كسوة رجال التعليم مذهبة ، تتكون من ست قطع أهمها القلنسوة

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤٥٠ .
(٣) انظر المخصص لابن سيده ٤ : ٧٨ ، وابن خلكان ٢ : ٤٥٠ ، والأغانى ٥ : ١٠٩ ، ٦ : ٥٩ ، والمقدسى : احسن التقاسيم ص ٣٢٨ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٣١٢ .
(٥) فى اللبس ، مخطوطة مجهولة المؤلف ٤٩ ب ، ٥٣ أ ، ب .

والطيلسان [١] ، وأصبحت الخضرة شعار الفاطميين بدل السواد الذى كان رمز العباسيين ، ومن هنا لبس رجـال العلم فى هـذا العهد عمامـة خضراء [٢] .

ويذكر القلقشندى تفاصيل مفيدة عن زى القضاة والعلماء منذ عهد الأيوبيين فيقول إنهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية . ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقا (جبة) متسع الأكمام طويلها مفتوحا من الأمام سابلا على قدميه ، أو يلبس بدل الدلق فرجية مفرَّجة (مفتوحة) من أعلاها الى أسفلها مزرَّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ما غلب فيه الحرير ، ولباسهم أبيض اللون ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم [٣] .

أما ملابس العلماء والمدرسين فى الأندلس فقد اختلفت عن تلك التى كانت متبعة فى الشرق فى شىء هام هو العمامة ، والسبب فى هذا الاختلاف هو كما يقول المقرى [٤] أن مسلمى الأندلس قلدوا جيرانهم من الفرنجة فى الملابس وأدوات الحرب . ويوضح سيد أمير على [٥] نقلا عن كاتب أندلسى معاصر أن العلماء والمدرسين فى بلنسية وغيرها من المقاطعات والمدن الشرقية تركوا لبس العمامة واستعملوا بدلها نوعا آخر من غطاء الرأس هو بالقبعة أشبه (Cap) كما أن بعضهم تركوا لبس العمامة ولم يتخذوا لها بديلا بل كانوا يظهرون أمام الناس ويحضرون مجلس السلطان ورءوسهم عارية ، ويؤكد ابن سعيد الكاتب الأندلسى المعاصر لابن هود أن ابن هود لم يلبس قط عمامة ولم يلبسها كذلك ابن الأحمر ،

(١) الخطط ١ : ٤٠٩ — ٤١٣ و ٢ : ٢٧٠ .
(٢) العينى : عقد الجمان ١٢ : ١٩٢ مخطوط .
(٣) صبح الأعشى ٤ : ٤١ — ٤٢ .
(٤) نفح الطيب ١ : ١٠٥ .
(٥) A Short History of the Saracens p. 571.

أما فى المقاطعات والمدن الغربية كقرطبة وأشبيلية فإن القضاة والفقهاء كانوا يلبسون عمائم ولكنها أصغر كثيرا من تلك التى كانت مستعملة فى الشرق .

وكما تأثر المسلمون فى الأندلس بمجاوريهم من الفرنجة فتركوا العمامة أو جعلوها صغيرة فإن العكس صحيح الى حد كبير ؛ إذ أن زىّ العلماء والمدرسين المسلمين قد وجد طريقه الى أعظم جامعات أوروبا ، وهو حتى العهد الحاضر الزى الرسمى للطلاب والمدرسين بعد أن دخل عليه شىء من التحوير ليلائم أمزجة القوم وظروفهم هناك ، وليس الـ «Gown» والـ «Hood» والـ «Cap» إلا أمثلة محرفة قليلا للجبة والطيلسان والعمامة ، فالـ «Gown» قريب الشبه بالجبة ؛ فضفاض مفتوح من الأمام يلبس فوق الملابس والـ «Hood» قريب الشبه بالطيلسان يحيط طرفاء بالرقبة وينحدر الى الخلف وبه بعض الألوان الزاهية أما الـ «Cap» فهى طربوش تحلل من الشال غير أنه أسود اللون ويرف فيه الزر ، كالحال مع الطربوش سواء بسواء .

ولو أن بعض طلاب الأزهر أو شيوخه وحّدوا زيّهم فلبسوا جميعا الجبب واختاروا لها اللون الأسود لخلتهم فوجا من طلاب جامعة كمبردج وهم يغادرون قاعة محاضرات أو يدخلونها .

وكان جمال الزى وأناقته وتهذيب الشعر من المستحسنات ، فقد كان الرسول يلبس جبة رومية ضيقة الكمين ، وكان يحرص على النظافة ، فقد روى عنه أنه رأى رجلا عليه ثياب وسخة ، فقال : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ ورأى رجلا شعثا قد تفرق شعره فقال : أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره ؟ وإذا كان هذا فى الرجل العادىّ فهو للمدرس أولى ، لأنه قدوة ، ولأن أنظار التلاميذ تتجه له وترنو إليه ؛ فيجب أن تقع على شىء مستحسن محمود .

وقد اشتهر بعض العلماء بالأناقة فقد كان الامام مالك يلبس الرقيق ، ويجلس على الوطيء ، ويأكل الرقاق ، فلما كتب له يحيى بن يزيد بذلك فى صيغة العتاب أجابه مالك قائلا : وصل كتابك فوقع منى موقع النصيحة ، وأما ما ذكرت فنحن نفعل ، علم الله ذلك ، ونتلو قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق [1] » •

(١) كتاب التعليم والارشاد لبعض رجال الصوفية ص ٤٢٩ — الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف •

نقابة المعلمين

تدل النصوص الصريحة التى سجلتها المصادر العربية على أن المسلمين فى العصور الوسطى عرفوا النقابات ، وأن هذه النقابات شملت عندهم كثيرا من المنظمات ؛ فياقوت الحموى [1] يتحدث عن المرتضى أبى القاسم نقيب الطالبيين الذى أسندت إليه مراعاة دار العلم التى أنشأها سابور بن أردشير ، ويتحدث المقريزى [2] عن الزى الذى كان يصنع بخزانة الكسوات فى العهد الفاطمى ليرتديه نقيب الأشراف .

ويذكر عبد الرحمن بن الجوزى [3] أن العميد أبا نصر جمع وجوه الناس سنة ٤٦٢ ليقرأ بحضورهم وقفية نظام الملك على مدارسه ، وكان من الوجوه الذين حضروا النقيبان والأشراف وقاضى القضاة .

وهكذا وجدت النقابات وانتشرت حتى أصبح للكناسين نقابة ترعى شئونهم وتدافع عن حقوقهم . ونريد الآن أن نصل الى المعلمين فهم الذين يهموننا هنا ، وأن نتساءل . هل كان لهم نقابة ؟ الاجابة عندى بالإيجاب فما كانت طائفة المعلمين بأقل من هذه الطوائف وبخاصة أن المعلمين كانوا يكوّنون طبقة العلماء والفضلاء ، وكان لهؤلاء من النفوذ فى الدولة مكان كبير ، فلا بد أن منظمة قامت تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم ، على أن هذا الاستنباط ليس هو كلّ ما عندنا من مادة عن ذلك الموضوع ، بل إن عندنا نصوصا قوية لا تتحدث فقط عن نقابة المعلمين ونقباء المعلمين وإنما تتحدث عن نفوذ هؤلاء النقباء ، ذلك النفوذ الذى كان أحيانا يرجح نفوذ الخلفاء ، وفيما يلى طائفة من هذه النصوص :

حكى ياقوت [4] قال : وقع للخطيب البغدادى جزء من سماع الخليفة

---

(١) الخطط ١ : ٤١١ .
(٢) المنتظم ٨ : ٢٥٦ .
(٣) معجم الأدباء ٦ : ٣٥٩ .
(٤) معجم الادباء ١ : ٢٤٦ — ٢٤٧ .

القائم بأمر الله ، فحمل الخطيب البغدادى الجزء ومضى إلى باب حجرة الخليفة ، وسأل أن يؤذن له فى قراءة الجزء . فقال الخليفة : هذا رجل كبير فى الحديث ، فليس له الى السماع منى حاجة ، ولعل له حاجة أراد أن يتوصل إليها بذلك ، فسلوه ما حاجته . فسئل فقال : حاجتى أن يؤذن لى أن أملى بجامع المنصور ، فتقدم الخليفة الى نقيب النقباء بأن يأذن له .

ومن هذا يتضح أنه كان هناك نقباء ونقيب نقباء وأنه ما كان للخليفة أن يتخطى أو يتطاول على هذه الجماعة فيأذن لأحد بالتدريس دون استشارة ذوى الشأن فيها ، فإذا تخطى ذلك فإن أمر النقيب يرجح ويكون أجدر بالتنفيذ ؛ روى المقريزى [١] أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر فى خطابة جامع راشدة بإذن قاضى القضاة (هو هنا نقيب النقباء [٢]) ، فتوصل ابن عصفورة الى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله أن يخطب بنفس المسجد ، ثم استقر الرأى على أن تترك الخطابة لأبى طالب ترجيحا لقرار النقيب ، على أن يخلفه ابن عصفورة .

ويتحدث المقريزى [٣] أيضا عن داعى الدعاة فى العهد الفاطمى فيقول : إنه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره ، وهو عالم بجميع مذاهب أهل البيت ، يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا .

ويروى أبو شامة ما يفيد أن جماعة المدرسين هم الذين كانوا يختارون النقيب وأن السلطان ما كان يتدخل الا اذا وقع خلاف بين الأعضاء ، على أن تدخله كان للتوفيق والإصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ ، قال أبو شامة [٤] : قال مقلد الدولعى : لما مات الحافظ المرادى ،

---

(١) الخطط ٢ : ٢٨٢ .

(٢) كثيرا ما تولى قاضى القضاة منصب داعى الدعاة ، وداعى الدعاة هو نقيب النقباء ، أما النقباء فهم الخيرة من المعلمين كما سيرد فى النص التالى .

(٣) الخطط ١ : ٣٩١ .　　(٤) الروضتين ١ : ١٣ .

وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ، فمِنّا من مال الى المذهب وأردنا أن نستدعى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، ومنا من مال الى علم النظر والحوار وأراد أن يستدعى القطب النيسابورى ، فوقعت فتنة بين الفقهاء بسبب ذلك فسمع نور الدين بهـا ، فاستدعى جمـاعة الفقهاء ، وخرج لهم مجد الدين ابن الداية نائبا عنه وقال لهم : ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع ، وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق ، وقـد قال المـولى نُرْضِى الطائفتين ونسـتدعى الشيخين ، فاستُدعيا وولى شرف الدين المدرسة التى سميت باسمه وولى قطب الدين مدرسة النفرى •

تلك هى أهم النصوص التى تتحدث عن نقابة المعلمين ، وهى تعطى فكرة عن أن هذه المنظمة وُجِدَت عند المسلمين فى ذلك العهد المبكر ، وإن كنا نعترف بأنها بطبيعة الحال لم تكن من النضج والنظام فى الدرجة الفائقة ، ولكن يكفى أن يتضح أنه بين ظلام القرون الوسطى كـان للمعلمين نقابة لها هذا السلطان وذلك النفوذ ، وقد أطراها وأعجب بها Earst Dies فى مقاله القيم بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان مسجد :

الباب الرابع

التلاميذ

الإسلام والتعليم

برهن الطالب المسلم — كما سيبدو من هذا الباب — على حماسة منقطعة النظير فى طلب العلم ، وكان فى هذا حديد العزم ، قوى الإرادة ، فذلل العقبات التى قامت فى سبيله ، وتغلب على الصعوبات التى اعترضته ، ولم يكن الطريق إلى طلب العلم ممهدا ، ولا كانت الحياة ميسرة سهلة ، ولكن الطالب المسلم لم يكترث بالشوك ، ولم يبال بالمخاطر ، والقى بنفسه ليصل الى هدفه دون تردد أو فتور •

ما الدافع القوى الذى كان يدفعه ؟ وما هذه القوة الجبارة التى كانت تعمل عملها من وراء ستار فتحيل الصعب سهلا والعسير يسيرا ؟

إنها فيما يبدو لى آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول عليه السلام ، ثم الأمثال والأقوال التى تنسب الى حكماء المسلمين وقادتهم •

لقد سمع الطالب المسلم هذه وتلك تطرى العلم وتحث على طلبه ، فوطد العزم على أن ينفر ليتفقه فى الدين لينذر قومه إذا رجع اليهم ، وليرفع الله درجته مع الذين أوتوا العلم ، وكانت الآيات والأحاديث تتردد على لسان الطالب وتغمر قلبه ، فتتغلب على ما قد يعتوره من تردد ، أو يطوف به من خور ، وتجدد عزمه ، وتزكى همته •

من أجل هذا كان لا بد أن يُفْتَتَحَ هذا الباب بطائفة من هـذه الآيات والأحاديث والأمثال ، تلك التى أعتقد أنها لعبت دورا هاما فى حياة التعليم فى العالم الإسلامى :

من آيات القرآن الكريم :

— يَرْفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات (١) .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٢) .

— فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم (٣) .

— وقل : رب زدنى علما (٤) .

— فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٥) .

من أحاديث الرسول :

— غدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة (٦) .

— من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين (٧) .

— العلماء ورثة الأنبياء .

— أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد .

— يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .

— أفضل الناس المؤمن العالم .

— لموت قبيلة أيسر من موت عالم .

— اطلبوا العلم ولو بالصين (٨) .

— لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم .

— الناس عالم ومتعلم والباقى همج (٩) .

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١ . (٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٢ . (٤) سورة طه الآية ١١٤ .

(٥) سورة النحل الآية ٤٢ .

(٦) اساس الاقتباس ظهر الورقة رقم ١١ مخطوط .

(٧) البخارى ١ : ٢٨ . (٨) الغزالى : الاحياء ١ : ٥ .

(٩) الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ٢٦ .

من آثار الحكماء :

قال على بن أبى طالب لكُمَيل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، المال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق (١) .

وقال أيضا : كل يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم ، وليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك (٢) .

وقال الأحنف : كلُّ عزٍّ لم يُؤَيَّدْ بعلم فإلى ذلٍّ يصير (٣) .

وقال الزبير بن أبى بكر : كتب لى أبى بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا .

وقال ابن عبد الحكم : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما أنت فيه .

وقال بعض العلماء : ليت شعرى ، أى شىء أدْرَكَ مَنْ فاته العلم ، وأى شىء أضاع من أدرك العلم .

وقيل لبعض الحكماء : أى شىء تقتنى ؟ قال : الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم .

وقال ابن المقفع : العلم زين لصاحبه فى الرخاء ومنجاة له فى الشدة (٥) .

وسئل عبد الله بن المبارك : لو أن الله أوحى إليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ فقال : أقوم وأطلب العلم (٦) .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٥ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٢٠ .
(٢) ابن الحاج : الالف با للالبا ١٩ أ مخطوط .
(٣) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ١٦ .
(٤) الغزالى الأحياء ١ : ٦ — ٧ .
(٥) الأدب الصغير ص ٢٢ من رسائل البلغاء .
(٦) منهاج المتعلم ٥ أ مخطوط .

رياضة الأطفال
فى نظر بعض الفلاسفة المسلمين

إن تربية الأطفال فى الإسلام لا تقف عند تعليمهم ، وإنما تمتد إلى تربية خلقهم ، وبعث الصفاء فى نفوسهم ، وتنظيم العادات الطيبة فيهم ، وترسم الطريق لتكوين الإنسان الناجح الصالح ، الذى ينفع دينه ووطنه ونفسه ، وفيما يلى مختارات من أقوال مشاهير المربين عن سياسة تربية الأطفال ورياضتهم :

الغـزالى :

الطريق فى رياضة الأطفال من أهم الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ســانجة خالية من كـل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكلُّ معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأُهْمِل شقى وهلك ، وكان الوِزْر فى رَقَبَة القيم عليه وولىّ أمره ، وعلى الولى أن يصون الصبى عن الآثام بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء الســوء ، ولا يعوِّده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأســباب الرفاهية ، فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر .

وينبغى أن يتذكر الولى أن تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم ، وإنما تشمل ألوانا أخرى لا تقل أهمية عن التعليم ؛ فيجب أن يراقبه الولى من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ... وينبغى أن يحسن مراقبته ، وأن يقوى فيه خلق الحياء عند ظهوره فيه ؛ وأن يعلمه الطريق المستقيم فى تنــاول الطعام والمشاركة فيه ؛ فعليه أن يأكل مما يليه ، وألا يبادر الى الطعام قبل غيره ، وألا يحدق النظر اليه ، ولا الى مــن يأكل ، وألا يسرع فى

الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وألا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ويقبح عنده كثرة الأكل ، ويحبب اليه الإيثار بالطعام ، وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن أحيانا .

ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وكذلك الصبيان الذين ساءت أخلاقهم .

ويرسل الى المكتب مبكراً ، فيتعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار ، وأحوالهم ، لينغرس فى نفسه حب الصالحين ، ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذور الفساد .ثم إذا ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا سيما اذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه ، ولا يكثر أهله عليه قول العتاب فى كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة .

ولا يوبخه الأب إلا أحيانا ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح .

ويمنع عن النوم نهارا فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يعود التنعم ، حتى يصبر على الخشونة فى المفرش والمطعم والملبس .

ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل .

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده أو بشىء مما يملكه هو كالملابس وأدوات الكتابة ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ، ويمنع من ان يأخذ من الصبيان شيئا .

وإن كان غنيا يعلّم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ ، وإن الأخذ لوم وخسة ، وإن كان فقيرا يعلم القناعة وأن الطمع والأخذ مهانة وذلة ·

ويعود الا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل بل يعلّم كيفية الجلوس ، ويُمنـع كثرة الكلام ، ويُمنَـع اليمينَ صادقا كان أو كاذبا لغير ضرورة ، ويعلّم حسن الاستماع وبخاصة اذا تكلم من هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه ذلك ، وإذا ضربه المعلم فعليه ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر دأبَ الرجال الشجعان ·

وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإنْ مَنْعَ الصبى عن اللعب وإرهـاقه بالعلم يميت قلبه ، ويبطل ذكـاءه ، وينغص عليه العيش [1] ·

ابن سـينا :

يجب أن تكون العناية مصروفة الى مراعاة أخلاق الصبى ، وذلك بأن يحفظ كيلا يَعْرِض له غضب شديد أو خوف شديد أو غم أو سهر ، وذلك بأن يُتأمّل كل وقت ، ما الذى يشتهيه ويحنّ إليه فيقرَّب اليه ، ومـا الذى يكرهه فينحى عن وجهه ، لا استجابة لأمره ولكن تيسيرا للحياة ، وفى ذلك منفعتان : إحداهما لنفسه والثانية لبدنه : إذ ينشأ من طفولته حسن الأخلاق تبعا لحسن مزاجه ، فالأخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج ، والأخلاق الردية تابعة لسوء المزاج ، وحسن الأخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعا ·

---

(١) احياء علوم الدين ٣ : ٥٧ — ٥٩ ·

وإذا انتبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ، ثم يُطعَم شيئا يسيرا ثم يطلق له اللعب وقتا أطول ثم يتغدى ... وإذا بلغ ست سنوات فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم ، ويدرج أيضا في ذلك ، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة ، وبتقدم السن ينتقص من استجمامهم ويزاد في أعمالهم [1] .

ابن مسكويه :

من ربَّى ما له ولم يرَبِّ ولده فقد أضاع المال والولد [2] .

ابن الجوزى :

وهب الله للطفل غرائز معتدلة تحقق مصلحته ، فشهوة الطعام غريزة لتضمن له الحياة ، والغضب غريزة لدفع ضرٍّ عنه ، ولكن الغريزة قد تفسد ؛ فاذا زادت شهوة الطعام صارت شَرَهاً ، وإذا زادت غريزة الغضب أصبح حمقا وطغيانا ، والطفل يمكن أن تفسد غرائزه بمعاشرة من فسدت غرائزهم ، وتقويمه في الصغَر أيسر ، فإذا شبَّ على الانحراف كان تقويمه صعبا [3] .

من كتاب منهاج المتعلم :

وعلى الأب أن يؤدب ابنه ويسلمه إلى معلم يواصل تأديبه ، فإن لم يفعل ظهر الانحراف في جميع أعضائه وبخاصة في لسانه [4] .

الطفل بين الوراثة والاكتساب :

ولم يغفل العلماء المسلمون أهمية الوراثة والميول الفطرية في قدرة الطفل على التحصيل ، ولكنهم كانوا حريصين على تأكيد أهمية الاكتساب في تغذية الملكات الفطرية ، وإظهارها وتنميتها وتقويتها .

---

(١) القانون حـ ١ ص ٧٩ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص ١٠
(٣) الطب الروحاني ص ٤٣ و ٤٥ .
(٤) مخطوط مجهول المؤلف ظهر الورقة رقم ٩ .

تكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين

يستطيع الإنسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم فى العالم الإسلامى كانت مكفولة للغنى والفقير على حد سواء ، وأن الفقر لم يقف عائقا أمام الراغب فى العلم أو الساعى لارتشاف المعرفة .

لقد بدأ التعليم الإسلامى فى المسجد ، ولا نزاع أن المسجد كان مفتوحا للناس جميعا ، وكانت حلقاته معدة لاستقبال الطلاب لتعليمهم بالمجان دون قيد أو شرط ، وكان من نظام حلقة الدراسة أن يترك بها مكان ليجلس فيه أولئك الذين يحبون أن ينضموا حديثا للحلقة للاستماع والاستفادة .

وكان على المدرس — على ما سبق ذكره — ألا يكون فى مجلسه مكان مميز لآحاد الناس ، بل أن يكون الجميع عنده سواء ، ومن سبق من الطلاب الى موضع من المكان المخصص لهم جلس فيه [1] ، وليست المسألة مسألة الجلوس فحسب ، وإنما كان على المدرس أن يعامل الفقير معاملة الغنى ، فقد ورد فى الحديث الشريف ما يحتم أن يكون المتعلمون أمام المعلم على حد واحد لا فرق بين غنى وفقير [2] .

وروى ياقوت [3] أن محمد بن أحمد بن كيسان (٢٩٩ هـ) كانت له حلقة كبيرة بالمسجد ، وكان يجتمع على باب ذلك المسجد نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والكتاب والأشراف والأعيان الذين قصدوه ، وكان إقباله على صاحب الرقعة الممزقة ، والعباءة الخلق ، والطمر البالى ، كإقباله على صاحب القصب ، والوشى ، والديباج ، والركب والحاشية الغاشية .

---

(١) انظر العبدرى : المدخل ١ : ١٩٩ .
(٢) محاضرات الأدباء ١ : ٢٠ .
(٣) معجم الأدباء ٦ : ٢٨٢ .

وإذا كان هذا موقف المدرسين فإنه كان على الطلاب أن يقفوا موقفا مماثلا . وأن يدركوا أنهم أمام المعلم وفى حلقات العلم سواسية ، لا فرق بين غنى وفقير ، وشريف وسوقة ، بل الفضل للمهذب المجدّ أيا كان عنصره أو نصيبه من الثراء ، وقد سبق أن أوردنا [1] حكاية بعض أولاد الخليفة المهدى الذى كان يحضر مجلس شريك ، ثم استند الى الحائط وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك ، ثم عاد يسأل ولكن شريكا ظل يهمله ، فقال الأمير : تستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : لا ، ولكن العلم أجل عند أهله من أن يضيعوه . وذكرنا كذلك [2] عن عالم بنى أيوب فاضلهم المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين أنه كان ينزل من قصره فى قلعة دمشق ، يتأبط كتابه كالطلبة ، فيأتى دار أستاذه الكندى فى درب العجمى فى جيرون ، وربما تأخر الدرسُ الذى يتقدم درسه فينتظر الى أن تأتى نوبتـــــه .

العناية بالطلاب الموهوبين :

وكانت تُوَجّهُ عنايةٌ خاصة للطلاب الموهوبين الذين تبدو عليهم مخايل الذكاء والفطنة ، وكان يُعدُّ من الظلم أن يحرم طالب نابغ من تلقى العلم لأى سبب من الأسباب ، قال الإمام الغزالى [3] أنه ليس الظلم فى إعطاء العلم لغير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق . وكانت عناية المدرسين بتلاميذهم الفقراء تصل بهم الى حد الإنفاق عليهم من مالهم الخاص ، حكى الامام أبو يوسف قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثُّ الحال ، فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بنى لا تمدَّ رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوى وأنت تحتاج الى المعاش ، فقصّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة أبى ، فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه ، وسأل عنى فعدت الى مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه قال لى : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل

(١، ٢) عند الكلام عن المستوى الاجتماعى للمدرسين .

(٣) الاحياء ١ : ٤٧ .

بالمعاش وطاعة والدى . فجلست فلما انصرف الناس دفع إلىّ صُرّة وقال : استمتع بها ، فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الحلقة واذا فرغت هذه فأعلمنى ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلىّ مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى حتى استغنيت وتمولت [1] .

ولم يكن المدرسون فقط هم الذين اتجهوا برعايتهم للطلاب الفقراء بل حظى هؤلاء بنصيب موفور من أوقاف الأغنياء على الطلاب ، وكان لهذا كله أثر بيّن فى حالة التعليم فى العالم الاسلامى إذ ظهرت من بين المسلمين جمهرة ضخمة من العلماء الأفذاذ الذين ينتمون الى طبقة الكادحين الفقراء من الشعب . ومن هؤلاء :

ــ ابو تمام الطائى الشاعر الذائع الصيت الذى كان سقاء متواضعا فى جامع عمرو بن العاص [2] .

ــ الجاحظ الذى كان يبيع الخبز والسمك بسيحان ، ثم مهدت لــه الحياة الاسلامية أن يتلقى ثقافته العالية حتى أصبح فى القمة بين العلماء ، وأصبح معلم الجيل والأجيال التالية [3] .

ــ الإمام الشافعى وقد كان يتيما فى حجر أمه وكانت أمه فقيرة لا تستطيع أن تمده حتى بالورق والأقلام ، ولكنه التحق بالمسجد وسمع من العلماء ، ثم انضم الى الإمام مالك الذى أضفى عليه من رعايته ودبر أمره ، وبهذا استطاع أن يشق طريقه حتى أصبح أحد الأئمة الأربعــة الأعلام فى الفقه الإسلامى وصاحب المذهب المشهور [4] .

ولما أنشئت المدارس فى العالم الاسلامى كانت فرصة الفقير لتلقى العلم أوضح وأدقّ وأشملَ ؛ فلقد أدرك منشئو المدارس الاسلامية أن كثيرا من النابهين فى العلم والمعرفة ينبعون من أسر فقيرة ، مضيق عليها فى

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤٥١ ، وحكى أن والد ابى يوسف مات وابو يوسف طفل صغير ، وأن امه هى التى أنكرت عليه حضور مجلس ابى حنيفة .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٧٢ .	(٣) معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ .

(٤) المرجع السابق ٦ : ٥٦ — ٨٠ .

الرزق ، وأن مظاهر الغنى والترف تشغل الطلاب الأغنياء فى الغالب عن العلم والفراغ له والتعمق فيه ، ولا يشغل الطالبَ الفقيرَ شيء إذا كُفل له رزق يسير وحياة لا يشوبها العوز ، بل ان مثل هذا الطالب ربما حثه الفقر على أن يكمّل بالعلم ما بدا فيه من نقص ، ويعوض ما فقده من الجاه والحسب • ومن أجل هذا عُنىَ منشئو المدارس عناية كبيرة بتيسير الحياة للفقراء من الطلاب حتى يتيحوا لهم الفرصة كاملة لتلقى العلم فى هدوء بال ، واطمئنان نفس ، وكان نظام الملك فاتحة هؤلاء ، فأعلن أن التعليم بمدارسه حق للجميع ، وأنه يُعطَى للناس جميعا دون مقابل ، ثم زاد على المجانية الشاملة أن عيَّن مرتبا منتظما للطلاب المعوزين [1] ؛ ففى نظامية بغداد مثلا كان الذين يتغذّون بالمعارف ٦٠٠٠ تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان وللطالب الفقير فوق ذلك معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك [2] .

ومن الطلاب الذين انتفعوا بهذا الامتياز الرائع الإمام أبو حامد الغزالى وأخوه أحمد ، فلقد ورد فى ترجمة الامام الغزالى أن أباه مات وتركه وترك أخاه فى رعاية صديق له متصوف وأوصاه أن يتولى الاشراف على تعليمهما ، ففعل الصوفى حتى نفد المال الذى خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفى القيام بنفقتهما فقال لهما : اعلما أنى أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر ليس لى مال فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ الى مدرسة لطلب العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما مع تحصيل العلم ، ففعلا ذلك ، وكان ذلك هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما [3] .

وسار نور الدين سيرة نظام الملك فبنى كثيرا من المدارس فى دمشق وأوقف عليها الوقوف السخية التى تضمن للطلاب والمدرسين حياة هنيئة وعيشا كريما • ويمدح ابن جبير هذا الاتجاه فى البلاد المشرقية كلها وبخاصة

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧ .

(٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٩٨ .

(٣) ترجمة حياة الغزالى فى اول الجزء الأول من الاحياء .

دمشق ، ويهتف بالطلاب المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقى العلم . استمع إليه يقول : « تكثر الأوقاف على طلاب العلم فى البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق ، فمن شاء الفلاح من نشء مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ، وهناك سيجد الأمور المعينات كثيرة ، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة [١] .

فإذا وصلنا الى مصر وجدنا فيضا من العناية وموفورا من الاهتمام بالطلاب وتيسير حياتهم ولنسمع الى Stanley Lane Poole [٢] يتحدث عن الأزهر فيقول : « وفى الأزهر يجتمع جمهرة من الطلاب ، قدموا من البلاد المختلفة فى العالم الاسلامى ، ابتداء من الساحل الذهبى حتى جزر الملايو . وقد حدد رواق خاص لكل قطر من الأقطار ، ويتلقى الطلاب دروسهم من شيوخ أجلاء ورعين ... وليس التعليم بالمجان فحسب ، بل إن الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة من أوقاف معينة تسد حاجاتهم . فالأزهر مثال نموذجى لمجانية التعليم ، تلك المجانية الممنوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير أى تمييز لعنصر أو طبقة من الطلاب » [٣] .

وفى العهد الأيوبى كان كل تلميذ بمصر يجد مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء يقوم به فى جميع أحواله [٤] .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٥ .

(٢) The Story of Cairo p. 124.

(٣) لقد كان الأزهر كذلك منذ اكثر من الف عام ولايزال كذلك حتى اليوم ، ولاتزال جموع الطلاب تؤمه من كل حدب وقطر ، تنتال العلم والعون المالى ، وكثيرا ما استقبل الازهر طلابا شعثا معوزين ، لم يكن لهم لفقرهم ملجأ على سواه ، فكان لهم كالاب البار رءوم الرؤوم : رباهم وعلمهم ، وفيه بدات عبقرياتهم تبرز واخلاقهم القويمة تلمع ، ثم القى بهم الازهر الى المجتمعات حيث اخذوا اهبتهم واصبحوا فيها قادة ومصلحين .

ومع هذا الثناء على الأزهر والاجلال له فمن حقه علينا ومن حق البلاد الاسلامية التى تعد الأزهر جامعتها الأولى ، أن نقرر ان تعديلا سريعا وشاملا ينبغى ان يدخل على مناهج الأزهر معاهده وكلياته ، وأن روحا جديدة يجب أن تدب فيه ، وأن تيارات متعددة يتحتم ان تنحى عنه ، ليؤدى الأزهر رسالته الكبرى ، على أن صيحة الاصلاح هذه يجب أن يهتف بها شباب الأزهر ، وما اجدر هؤلاء الشباب بصيحات الاصلاح .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٤٢ .

وعلى هذا استطاع الفقراء أن يشقوا طريقهم الى المجد العلمى وأن يتزودوا بالمعرفة فى مختلف الفنون دون صعوبة أو مشقة ، فنشأ فى مصر مئات من العلماء ذوى الشهرة البعيدة والصيت الذائع ، من الذين ينتمون الى أصل لا مجد له ، والذين نبتوا فى بيئة فقيرة ذات اليد ، ومن هؤلاء على بن رضوان الطبيب المصرى الشهير الذى مات سنة ٤٦٠ هـ بعد أن نبغ فى الطب والفلسفة والمنطق وصار رئيس الأطباء فى مصر فى عهده ، ومن هؤلاء أيضا الفقيه المشهور نجم الدين الخبوشانى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ .

وقبل أن نختتم هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير الى أن إتاحة الفرصة لم تكن مكفولة فقط فى المدارس والمساجد ، وإنما كانت مكفولة أيضا فى الكتاتيب حتى يستطيع الصبى اليتيم أو الفقير أن يسير منذ مطلع حياته فى طريق معبَّد لا يقف الفقر عقبة أمامه ، ولا يحول العوز دون النبوغ والعبقرية ، وانتشرت هذه الكتاتيب المجانية فى نواح مختلفة من العالم الاسلامى ، وفيما يلى ذكر عنها :

بكرت الكتاتيب المجانية فى الظهور فى العالم الاسلامى ، فقد ذكر الجهشيارى [١] أن يحيى بن خالد أنشأ الكتاتيب للأيتام ، ولما انتشرت المدارس انتشرت معها الكتاتيب لتعد الطلاب للالتحاق بهذه المدارس : فقد ذكر عماد الدين الأصفهانى [٢] أنه لما تولى عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد منصب الاستيفاء فى عهد وزارة شمس الملك بن نظـــام الملك بنى بمحلة العتابين ببغداد مكتبا للأيتام ، ووقف عليه وقوفا مستمرة الجدوى على الدوام ، والأيتام مكفولون منها الى أن يبلغوا الحلم ، بالنفقة والكسوة والطعام ، وتعلم الآداب وحفظ القرآن ومعرفة الحلال والحرام .

وبنى نور الدين فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى تعليمهم الجرايات الوافرة [٣] . وفى عهد صلاح الدين كان للأيتام من

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢١٢ .
(٢) تاريخ آل سلجوق ١٣٦ — ١٣٧ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٥ — ١٦٦ مخطوط .

الصبيان فى دمشق محضرة كبيرة بالبلد ولها وقف كبير يأخذ منه المعلم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم [١] .

أما فى مصر فيذكر ابن جبير [٢] أن من مآثر صلاح الدين الكريمة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم ، كما أوقف القاضى الفاضل أوقافا لتعليم الأيتام بالكتاب [٣] .

وهكذا كان تكافؤ الفرص فى العالم الاسلامى مرعيا فى جميع مراحل التعليم ، ولم يكن الفقر قط سبب حرمان من العلم ، فلقد تغلب عليه القوم بما بذلوا للموهوبين والأذكياء .

* * *

إعطاء العلم لغير المستحق :

وبعد أن تحدثنا عن ضرورة إتاحة الفرصة للموهوبين من الأولاد ليتعلموا ولو كانوا فقراء ، بحيث لا يحرمهم الفقر من تحقيق ما يستحقونه من العلوم والمعارف .

بعد هذا نعود لما سبق أن اقتبسناه من الامام الغزالى وهو قوله : « إنه ليس الظلم فى إعطاء العلم لغير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق » فنعلن ان رعاة الفكر يقررون أننا نشاهد فى هذه الأيام مأساة ترتبط بالعلم ، فقد أصبح العلم تجارة ووسيلة للحصول على درجة علمية ، وبالتالى على وظيفة ، وكثير من الذين يصلون لهذه الدرجة لا كفاءة لهم ، وبالتالى فإنه من الظلم إعطاؤهم العلم ، وكان أحرى بهم ، وأنفع لوطنهم أن يعملوا فى المصانع والمتاجر والحرف .

إنها مأساة أن نعطى العلم لغير المستحق ، وهى مأساة لا تقل عن حرمان المستحق .

---

(١) ابن جبير ص ٢٧٢ . (٢) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٦ ، النعيمى ١ : ٩٢ ، الروضتين ٢ : ٢٤١ .

توجيه التلاميذ حسب مواهبهم

عرف المسلمون فى العصور الوسطى فكرة توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم ، وكانت عملية التوجيه هذه تبدأ بعد أن يجتاز التلميذ المرحلة الأولى للتعليم ، وقد ذكر حاجى خليفة [١] وأبو يحيى الأنصارى [٢] ان **على كل صبى أن يعرف طرفا من العلوم الضرورية فى الحياة كالقراءة والكتابة والحساب ... ثم عليه بعد ذلك أن يتجه الى العلم أو الحرفة على حسب استعداده وتكوينه ، إذ ليس كلٌ أحد يصلح لتعلّم العلوم ، فإذا اتجه الى العلم فليقصد العلم الذى يقبله طبعه ، فما كل من يصلح لتعلّم العلوم يصلح لجميعها .**

وينبغى للطالب كما يقول الزرنوجى [٣] ألا يختار نوع العلم بنفسه ، بل يفوض أمره الى الأستاذ ؛ فإن الأستاذ قد حصل له من التجارب فى ذلك ما يفيد ، فهو أعرف بما ينبغى لكل واحد وما يليق بطبيعته . أما المدرس فكان عليهِ أن يتصفح طلابه كما يتصفح خُطّاب محارمه كما ذكر ذلك الأصفهانى [٤] **وألا يدع الى حلقته الا من كان قادرا على استيعاب ما يجرى فيها ، فليست كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه [٥] .**

اختبارات الذكاء وطرقها :

وفى منهاج المتعلم [٦] حديث طريف عن اختبارات الذكاء يقرر أنه يجب على المدرس أن يشخّص طبيعة المبتدىء من الذكاوة والغباوة ، ويعلّمه

---

(١) كشف الظنون ١ : ٢٩ .
(٢) اللؤلؤ النظيم فى روم التعليم ص ٥ .
(٣) تعليم المتعلم طريق التعلم ص ١٣ .
(٤) محاضرات الادباء ١ : ٢٥ . (٥) ابن سينا : القانون ١ : ٢٧
(٦) من مخطوط غير معروف المؤلف وجدته بحلب وتوجد صـــورته بمكتبتى الخاصـة ، ظهر الورقة رقم ٩ .

على مقدار وسعه ولا يكلف الزيادة عن مقداره ، فإنه إذا كلف ييئس عن تحصيل العلم ويتبع الهوى ويتشكل تعليمه .

وقد وضح تفاوت الذكاء لدى المربين المسلمين ، وعبّر عنه الإمام الغزالى [1] بقوله : « واذا غلبت القوة البدنية على النفس يحتاج المتعلم الى زيادة التعلم وطول المدة ، واذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثرة العلم » وعلى هذا فإن من واجب المدرس « ألا يشرك الذكى مع الغبى فى التلقى فهو تقصير فى الذكى وإزهاق للغبى [2] » .

أما طرق اختبارات الذكاء التى كانوا يستعملونها فلم يذكر لنا المؤرخون والكتاب تفصيلا دقيقا عنها فيما أعرف ، وكل ما ورد الينا عنها أن المربين كانوا يعتمدون على التجربة ؛ فهم يعلّمون الطفل ثم يحكمون عليه بمقدار النتيجة التى يستطيع أن يحصل عليها ، كما كانوا يختبرون ذاكرة التلميذ ليروا ما إذا كان يميل الى الحفظ ، أو التعمق والتفكير ، فان كانت الأولى فليدرس علم الحديث مثلا ، وإن كان الثانية فليدرس الفلسفة والمناظرة وعلوم الجدل والكلام .

فإذا وجّه التلميذ أو التحق بحلقة دون توجيه ، ورأى المدرّس فى هذه الحالة أو تلك أنّ التميذ ينبغى له أن يفارق هذه الحلقة الى سواها ، فإن المدرس ما كان يتردد فى إبلاغ التلميذ هذه النتيجة ، وينصحه بأن يغيّر الموضوع الذى شغل نفسه به ، ويدرس موضوعا آخر . قال ابن جماعة [3] : واذا علم أن تلميذا لا يفلح فى فنّ أشار عليه بتركه والانتقال الى غيره مما يرجى فيه فلاحه ؛ روى أن يونس بن حبيب كان يختلف الى الخليل بن أحمد يتعلم منه العروض ، فصعب عليه تعلمه ؛ فقال له الخليل يوما : من أى بحر قول الشاعر ؟

---

(١) الرسالة اللدنية ص ٢٣

(٢) منهاج المتعلم ٩ ب .

(٣) تذكرة السامع ص ٥٧ .

إذا لم تستطيع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

ففطن يونس لما عناه الخليل ، فترك العروض وأخذ يتعلم النحو ، وقواعد اللغة حتى أصبح في ذلك إماماً وعالما شهيرا [١] .

وقد بدأ محمد بن اسماعيل البخارى يتعلم الفقه على محمد ابن الحسن فقال له محمد بن الحسن : اذهب فتعلم علم الحديث ، لما رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه ، فطلب البخارى علم الحديث فصار فيه مقدما [٢] .

* * *

مراحل التعليم وتصنيف الطلاب :

وعلى هذا فالفكر الإسلامى يرى أن يقدَّم لكل طفل مبادىء العلوم ، وهى تشمل القراءة والكتابة وبعض الحساب والتاريخ وهكذا ... ويكون ذلك فى حوالى ست سنوات . ومن العيوب الخطيرة أن توجد الأُمِّيَّة أو تنتشر فى البلاد الإسلامية ، مع كل ما أوردنا من نصوص تحث على طلب العلم .

وبعد هذه المرحلة الأولى تتّجه الغالبية العظمى من الأولاد للأعمال الزراعية والصناعية والتجارية والفنية والحِرَف ، وتكون التجربة والخبرة وسيلتهم .

وقلةٌ منهم تُوَجَّه إلى مدارس متوسطة تُعِدُّهم لنفس الأعمال السابقة ولكن بمستوى علمى أدق وأحسن .

ويكون التعليم فى هاتين المرحلتين بدون مصروفات للجميع .

---

(١) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ص ٢٥ .

(٢) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٣ .

أما الطلاب الأذكياء الموهبون فيوجّهون لدراسة أعلى مستوى تهيئهم للجامعة وتعايشهم فيها وهؤلاء بطبيعة الحال نسبة قليلة إذا قيسوا بمجموع الطلاب ، ويُحدَّد عددهم تبعا لمواهبهم من جانب وللحاجة لتخصصاتهم من جانب اخر ، والفقراء منهم يعلّمون بالمجان ، بل يمنحون ما يساعدهم على المعاش بالاضافة إلى المجانية ٠

وفى حالة توجيه هؤلاء للعلوم فى المستويات العليا ينبغى تصنيفهم حسب مواهبهم وقدراتهم ، فمنهم من يذهب للطب أو للتدريس أو الهندسة وهكذا ٠

أما وجود أُمّيّة فى البلاد الإسلامية ، وبجانبها جامعات كثيرة تخرّج طلابا يظلون عاطلين ، إذ لا أحد يحتاج لجهدهم ، فذلك يمثل الهرم المقلوب ، وهو مأساة لا تقبلها التربية الإسلامية ٠

سنّ التعلم

روى عن الرسول صلوات الله عليه انه قال « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » [١] وعلى هذا فلم تكن هناك سنّ محدودة لطلب العلم ، بل كان كل مسلم يدرك أن من واجبه أن يطلب العلم ما أتيح له ذلك فى أى فترة من فترات عمره ، حتى ولو كان شيخا تقدمت به السن ، قيل لأبى عمرو ابن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دامت الحياة يحسن به أن يتعلم [٢] . وقيل لحكيم : ما حدّ التعلم ؟ فقال : حد الحياة [٣] . ويروى الزرنوجى [٤] أنه ليس لصحيح البدن والعقل عذر فى ترك طلب العلم مهما كان عمره . ويروى ابن قتيبه [٥] أنه « لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

وفى ضوء هذه الأفكار نجد أن أصحاب رسول الله قد تعلموا مع تقدّم سنّهم كما يروى البخارى ذلك [٦] ، ونجد كذلك حرص بعض العلماء على أن يحققوا ما تشككوا فيه من مسائل العلم وهم على فراش الموت [٧] .

فالنتيجة لكل هذا أن العمر كله يجب أن يكون مسرحا لتلقى العلم ، ولكن المربين المسلمين يدركون بوضوح أن التبكير فى تلقى العلم أعظم واجدى ، ذلك لنشاط الجسم ، وصفاء النفس ، وفراغ البال . قال حاجى خليفة [٨] : إن من شرائط تحصيل العلم أن يكون الطالب شابا . فارغ القلب ، غير ملتفت الى الدنيا ، قليل العوائق حتى من الأهل والأولاد

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ١ : ١٣ .
(٢) ابن خلكان : الوفيات ١ : ٥٥١ .
(٣) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .
(٤) تعليم المتعلم ص ٢٥ .
(٥) عيون الأخبار ٢ : ١١٨ .
(٦) صحيح البخارى ١ : ٣٠ .
(٧) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٠٩ .
(٨) كشف الظنون ١ : ٢٨ .

والوطن ، ويقول ابن جماعة : وعلى الشخص أن يغتنم وقت فراغه ونشاطه ، وزمن عافيته ، وشرخ شبابه ، ونباهة خاطره ، وقلة شواغله ، قبل عوارض البطالة ، أو موانع الرياسة [١] ، ويستحب للطالب أن يكون عزبا ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجية وطلب المعيشة عن إكمال الطلب [٢] ، وعليه أن يبادر شبابه وأوقات عمره الى التحصيل ، ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل ، فان كل ساعة تمضى من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ويقطع الطالب ما قدر عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل ، فانها كقواطع الطريق ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة اذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق ، ويقال : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك [٣] ويروى الأصفهانى [٤] قول بعضهم : بادروا بتعليم الاطفال قبل تراكم الأشغال ، وإنه وإن كان الكبير أوقد عقلا الا أنه أشغل قلبا .

وقد ترددت هذه النصائح فى العالم الاسلامى ، فاستمع لها الناس واستجابوا اليها ، وحرص الآباء على أن يلحقوا أبناءهم بحلقات العلم وهم فى سن مبكرة ، كما حرص الصبيان أنفسهم ، بل تنافسوا فيما بينهم فى الجلوس المبكر أمام المدرسين للاستماع اليهم ، والانتفاع بهم ، حتى أن بعض المحدثين كان لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحيا ، ويروى أن صبيا كان شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومنع ذلك ، فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة [٥] .

وكان من نتيجة اقبال الطلاب على حلقات التعليم وهم فى سن مبكرة أن حذقوا قسطا كبيرا من العلوم ، ووصلوا الى مراكز علمية مرموقة وهم فى مطلع الشباب ، ومقتبل العمر ، وتدل النتائج التى حصل عليها كثير من

---

(١) تذكرة السامع ص ١٣٤ . (٢) المرجع السابق ص ٧٢ .
(٣) تذكرة السامع ٧٠ — ٧١ . (٤) محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .
(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية ١ : ٣٠٢ من الترجمة العربية .

التلاميذ على أنهم بذلوا جهدا كبيرا يدعو الى الدهشة والاعجاب • قال قتادة : حفظت القرآن فى سبعة أشهر [١] • وقد أتم سهل بن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات [٢] ، وأكمل تاج الدين الكندى القراءات العشر وله عشرة أعوام [٣] • ويروى عمر بن أحمد ابن العديم أنه ذهب الى المكتب وعمره سبع سنوات وختم القرآن ولـه تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشر سنين [٤] •

وكان الامام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، ويحفظ الموطأ وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وكان يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أفت يا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة اذا جاءه شيء من الفتيا أو التفسير التفت الى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام [٥] • ولما بلغ ابن سينا عشر سنين كان قد أتقن حفظ القـرآن وحفظ أشياء من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة [٦] •

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٧ .
(٢) الغزالى : الاحياء ٣ : ٥٩ .
(٣) النعيمى : الدارس ١ : ٤٨٣ — ٤٨٤ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ ، ٢٦ .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٦٣٧ .
(٦) المرجع السابق ١ : ٢١٤ .

عدد التلاميذ فى الفصل أو الحلقة

من المبادىء التربوية التى يُعنى بها المربون المحدثون أن يهيئوا للصبى فرصة ليجتمع بأترابه من الصبيان ، يتحدث اليهم ويسمع منهم ، ويعدون ذلك ضروريا لتنشئة الصبى تنشئة صالحة ، وتربية الصبى مع الصبيان وسيلة لنجاح الصبى وأدعى لإقباله وحبه للدرس من أن يحاط بالرجال الذين يكبرونه فى السن وفى التفكير وفى الآمال • ومما يدعو للفخر والاعجاب أن المربين المسلمين الأوائل أدركوا هذا الاتجاه وصاغه فيلسوفهم ابن سينا أحسن صياغة فها هو ذا يقول : « ويكون مع الصبى فى مكتبه صبية حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم ، لأن الصبى عن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس [١] » وعلى هذا كان الخلفاء لا يكتفون باستدعاء المربين لأولادهم فى القصور ، بل كانوا مع هذا يرسلون الأولاد لينضموا للحلقات وليستمعوا مع لداتهم الى الدروس ، ثم يتلقون من المؤدب فى القصر لونا آخر من الدروس يؤهلهم الى المستقبل الذى ينتظرهم ، وقد مرت نماذج كثيرة لأولاد الخلفاء والعظماء الذين كانوا يسعون للانضمام للحلقة وللاستماع مع الأتراب الى المحاضرات •

وإذا عدنا إلى هذه الحقبة التى نعنى بدراستها لنشاهد مجموعات الطلاب الذين يجلسون أمام شيوخهم لاحظنا أن عدد هؤلاء الطلاب يختلف اختلافا بينا فى المسجد عنه فى المدرسة ، ومع أن عدد الطلاب فى المسجد كان يكثر فى حلقة عنه فى أخرى تبعا لشهرة الشيخ وتعمقه فى مادته فإن عدد طلاب الحلقة فى المسجد كان على العموم أكثر من عددهم فى المدرسة ؛ إذ كان المسجد مفتوحا للجميع ، وكان عدد طلاب الحلقة فيه غير محدود ، ومن هنا كانت حلقات المشاهير من الشيوخ تشمل مئات من الطلاب ؛ روى القزوينى [٢] أنه كان فى حلقة درس رضى الدين النيشابورى أربعمائة فقيه من الفضلاء • وكـان يحضر مجلس أبى الطيب الصعلوكى مفتى

---

(١) ابن سينا : القانون ١ : ٧٩ — ٨٠ •

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣١٧ •

نيشابور أكثر من خمسمائة طالب علم [١] . وكان أبو حامد الاسفرائينى يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة طالب [٢] . وفى مصر كان محمد بن سليمان الثعالى إمام المالكية فى عصره ، وكانت اليه الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودا من كثرة من يحضرها [٣] .

فاذا تركنا المسجد وذهبنا الى المدرسة وجدنا أمام المدرس عددا معينا من الطلاب لا يصح تجاوزه فى الغالب ، ثم ان هذا العدد قليل جدا بالقياس الى عدد الطلاب فى حلقات المساجد ، وكان مما جرت عليه العادة فى المدارس أن يعيّن منشىء المدرسة مدرساً لها ، ويحدد فى الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم بالالتحاق بها ، ولعل أكبر عدد سمح له بالالتحاق بمدرسة هو ذلك الذى كان موجوداً بالمدرسة المستنصرية ، فتبعا لرواية ابن العبرى [٤] جعل المستنصر بمدرسته إيوانا لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ورتب لكل إيوان مدرسا ، وعين له خمسة وسبعين طالبا ليتعلموا منه . أما فى دمشق ومصر فكان العدد يقف تقريبا عند العشرين ، فقد مر عند الحديث عن وقف مدرسة ست الشام الجوانية أن سجل الواقف يشترط ألا يزيد عدد الطلاب عن عشرين طالبا بما فيهم المعيد ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم ، إلا أن يوجد فى ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقدر العدد بقدر ما زاد ونما [٥] وفى المدرسة المجدية الخليلية بمصر قرر الواقف مدرسا شافعيا ومعيدين وعشرين طالبا [٦] .

تلك كانت النظم فى المدارس غير أن هذه النظم لم تستطيع البقاء فى بعض الأحيان أمام الرغبة الجامحة التى أبداها الطلاب للاستماع لمدرس

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٧٠ .
(٢) المرجع السابق ٣ : ٢٥ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٢١٢ .
(٤) تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٥ .
(٥) النعيمى : الدارس ١ : ٣٠٣ .
(٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٤٠٠ .

ما عيّن للتدريس بمدرسة ؛ يحكى السبكى [1] أن حلقة إمام الحرمين فى المدرسة النظامية بنيشابور كانت تضم ثلثمائة طالب •

ويجدر بنا أن نذكر أن التعليم فى مرحلته العليا هو الذى كان يباح فيه هذا العدد الضخم من الطلاب ليجلسوا أمام المدرسين ، أما المرحلة الأولى (الكتّاب) فقد كان على المدرس فيها أن يعلم عددا محدودا من الصبيان فاذا كثر التلاميذ فى كتابه عين من المدرسين عددا يتناسب مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان ، قال ابن عبدون [2] ويجب لمعلم الصبيان ألا يكثر من الصبيان ويمنعون من ذلك • فانه لن يستطيع أن يعلمهم شيئا على ما ينبغى •

وإذا كان لنا أن ندوّن هنا ملحوظة قصيرة فهى أن هذا النظام — وهو إباحة عدد كبير من الطلاب فى المرحلة العليا وتحديد العدد فى المرحلة الأولى — هو الذى يتبعه المربون فى العهد الحاضر ، فالمدرس الجامعى يلقى محاضراته الى عدد قد يصل الى بضع مئات ، فى حين يشكو مدرسو التعليم الابتدائى إذا تجاوز العدد فى فصولهم بضع عشرات •

---

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٢٥٢ •
(٢) رسالة ابن عبدون نشرت فى The Journal Asiatique 1934.

العقل والجسم

أدرك المسلمون فى عصورهم الأولى أن هناك صلة وثيقة بين الجسم والعقل ، وقد عبّروا عن هذه الصلة بالحكمة القائلة « العقل السليم فى الجسم السليم » ومن أجل هذا عنُوا بالجسم ، وخففوا عنه الأعباء ، ليستطيع أن يحمل النفس الكبيرة ، ويساعد العقل على الدرس والتدريس ، والتعلم والتعليم .

ولم يُجِزْ المسلمون أن يرْهق الانسان قواه الجسمانية أو يضعف من احتمالها من أجل عبادة يسرف فيها ، أو حرمان مما أحِلّ للناس ، فيحكى البخارى [1] أن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد رجلا يكثر الصلاة ويصوم ولا يفطر فأمره بعدم الاسراف فى العبادة وقال له : « إن لبدنك عليك حقا » .

وقد اتبعت هذه المبادىء فى المعاهد التعليمية ، وأدرك المربون المسلمون أن الجسم المجهد أو المريض لا يساعد العقل على الفهم ، وأوصى الأصفهانى [2] بترفيه النفس فى طلب العلم محذرا الطالب من مواصلة الدرس والجهد دون أن يتخلل ذلك راحة ورياضة ، فهذا الجهد المتواصل ستكون نتيجته الفشل ، ويستشهد الأصفهانى بقوله صلى الله عليه وسلم أن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . ويضيف الأصفهانى ان على الطالب أن يواصل الدرس مانشط عقله وفطن ، فاذا أحس فى عقله فتورا فليتوقف عن العمل ، وليجأ الى اللعب ، فان العقل المكدود ليس لرويته لقاح ولا لرايه نجاح .

وكان المربون المسلمون يدركون أن من طبيعة الطفل أن يكون نشيطا كثير الحركة ، وكانوا يغذون فيه هذه الطبيعة لعلمهم أن فى

---

(١) صحيح البخارى ٣ : ٤٨٩ .
(٢) محاضرات الأدباء ١ : ٢٨ .

نشاط الجسم يقظة العقل وصفاء الذهن . وبالتالى كانوا يرون أن من غير الطبيعى أن يكون الطفل هادئا ساكنا ويرجعون سكونه الى مرض أصابه أو بأس نزل به ؛ سأل أبو القاسم عبد الله بن محمد أحد علماء المغرب معيقب بن أبى الأزهر : ما حال صبيانكم فى الكتاب ؟ فأجاب معيقب : ولع كثير باللعب . فقال أبو القاسم : إن لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمائم [١] .

وقد حفل كتاب الإرشاد والتعليم بنصائح هامة فى ذلك الموضوع نقتبس بعضها فيما يلى :

ومن العجب أن يفرح الناس بالأطفال القليلى الحركة البعيدين عن اللعب ، ويعتبروهم عقلاء متزنين ، ويتوسموا فيهم الخير ، ولم يعلموا أن الأطفال الذين طبعوا على السكون وعدم الحركة لابد أن يكونوا مصابين بأمراض جسمانية أو عقلية ، بحيث ينتهى أمرهم الى ضعف الحياة وكدر المعيشة اذا لم يؤخذوا من الصغر بالرياضة والحركة وتنبيه أجسامهم . ولذلك يجب ان يترك التلاميذ بل أن يوجهوا الى اللعب والجرى والأعمال المساعدة على نمو أجسامهم ، لتطيب لهم لذة العيش ويفرحوا بالحياة . وتنمو أجسامهم ويتربى إحساسهم [٢] .

ومن الضرورى تعويد الجسم على الرياضة ، واستنشاق الهواء النقى ، والحركات المعتدلة فى المشى ، وتعليمهم ركوب الخيل ، أو السباحة ، أو نحو ذلك ، فإن ذلك من أقوى الدواعى على تقوية الجسم ، ومتى قوى الجسم قويت الروح ، وعظم الأمل ، وانبعثت المسرة للعمل [٣] .

فعلى القائمين على تربية الطفل سواء أكانوا فى المدرسة أو فى المنزل

---

(١) انظر مقالا نشر بمجلة المعلم الجديد — السنة التاسعة العدد الرابع ص ٢٥ .

(٢) كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٣٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٦ .

أن يجعلوا للأطفال نصيبا من اللعب والرياضة ، خصوصا فى أواسط النهار ، وبعد انصرافهم وحضورهم الى المنزل ، وإذا آنسوا منهم ضعفا فى الجسم ، أو ملا فى القوى العقلية ، طالبوهم بالرياضة والتفسح فى الهواء الجيد [١] .

وللعب أنواع كثيرة منها ما يدعو الى كثرة الحركة كلعب الكرة والجرى ، ومنها ما يدعو الى قليلها كاللعب بالأشياء والحيوانات ، ومهما كان نوعها يجب على الآباء والأمهات أو المدرسين والمدرسات أن يلاحظوا أطفالهم وقت لعبهم ، وأن يرشدوهم كيف يلعبون لتمرينهم على النظام ، وأن يلعبوا معهم أحيانا لينتهزوا فرصة اللعب معهم فيربوا عقولهم ويعلموهم [٢] .

وكما جعل النوم للراحة ، جعلت اليقظة للحركة والعمل ، واللعب للأطفال هو جزء من العمل ، والأطفال مطبوعون عليه بالفطرة ، وهو يبعث فى الأطفال نشاطا فى أجسامهم وقوة فى عقولهم ، ولذة فى حياتهم ، مادام سائرا على محور النظام والترتيب ، ومناسبا لعمر الطفل وقواه العقلية .

ويقول الغزالى [٣] : ينبغى أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعبا جميلا يستريح به من تعب الكتاب ، ومنع الصبى من اللعب ، وإرهاقه بالتعليم دائما ، يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا [٤] .

ويقول ابن مسكويه [٥] : وينبغى أن يؤذن للطفل فى بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الأدب ، ولا يكون فى لعبه ألم ولا تعب شديد ، فالرياضة تحفظ الصحة ، وتنفى الكسل ، وتطرد البلادة ، وتبعث النشاط وتذكى النفس .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤٠ .
(٢،٣) كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٤١ .
(٤) الأحياء ٣ : ٥٩ .
(٥) انظر أيضا العبدرى . المدخل ٣ : ٣١٢ .
(٦) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .

وقد اتبعت المعاهد التعليمية الاسلامية نظما مفيدة ، ورياضة منظمة للترويح عن التلاميذ وتجديد إقبالهم على العلم ، فكان التلاميذ يمنحون أجازة يوم الجمعة ونصف يوم الخميس من كل أسبوع ، كما كانوا يمنحون إجازات أخرى فى مناسبات مختلفة أهمها إجازة عيد الفطر وعيد الأضحى ، وهذه تمتد الى أسبوع فى الغالب •

وكانت هناك تمرينات رياضية يمارسها التلاميذ ، وقد نصح عمر بن الخطاب أن يعلم التلاميذ السباحة ورمى السهام وركوب الخيل [1] كما كان الجرى أيضا من أنواع الرياضة التى يمارسها التلاميذ المسلمون [2] ، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق •

---

(١) المبرد : الكامل ص ١٥٠ •

(٢) كتاب الارشاد والتعليم ص ٤٥٠ •

أخلاق التلاميذ وواجباتهم

عنى كثير من المربين المسلمين بالكتابة عن أخلاق التلاميذ وواجباتهم ، ومن المؤلفين من خصص لهذا الموضوع حيزا كبيرا فى كتبه ومباحثه ، وسنقتبس من المصادر المتعددة موجزا نورده فيما يلى :

على الطالب أن يكون طاهر النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، فطهارة النفس وحسن الأخلاق أساس للنبوغ فى العلم ، وربما حصل ردىء الأخلاق على العلم غير أنه لن ينتفع ولن ينفع به ولذلك فكأنه لم يحصله [١] .

وعلى الطالب أن يقلل من علائقه بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن حتى لا يشغله ذلك عن تحصيل العلوم كما سبق [٢] ، وألا ينوى بطلب العلم إقبال الناس ، ولا استجلاب حطام الدنيا ، أو الكرامة عند السلطان ، قال رسول الله صلوات الله عليه « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولتماروا به السفهاء ، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم » بل يكون المقصود إزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال [٣] .

وعليه أن يتواضع لمعلمه ، وأن يجله ويحترمه ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، ملاحظا أن حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وقد قيل : الآباء ثلاثة : أب ولدك ، وأب ربك ، وأب علمك وخير الآباء من علمك [٤] . وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه النصائح فأحلوا المعلمين منهم فى مكان رفيع ، قال الشافعى :

---

(١) الغزالى : الاحياء ١ : ٤٠ ، العبدرى : المدخل ٢ : ٩٨ .
(٢) الاحياء ١ : ٤١ .
(٣) الزرنوجى : تعليم المتعلم ٦ — ٧ ، الاحياء للغزالى ١ : ٤٨ .
(٤) منهاج المتعلم ١٢ ب مخطوط .

كنت أقلب الورق بين يدى مالك تقليبا رقيقا هيبة أن يسمع وقعه . وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبةً منه (١)

ويعدد الزرنوجي بعض الآداب التي يجب على الطالب أن يلاحظها مع أستاذه فيقول : يجب ألا يمشي الطالب أمام المعلم ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء الكلام عنده إلا بإذنه ، ولا يكثر الكلام عنده ، ولا يسأله شيئا عند ملالته ، ويجتنب سخطه ، ويمتثل أمره في غير معصية (٢) .

ولما كان معروفا في المعاهد العلمية الاسلامية أن الطالب هو الذى يختار الأستاذ الذى يعجبه ليلتحق بحلقته فينْصَح الطالب ألا يتعجل في اختيار أستاذه ، وأن يلاحظ فيه العلم والأخلاق ، ولا يتقيد بالمشهورين فقد يكون بين خاملى الذكر علماء أفاضل (٣) ، فإذا اختار أستاذه فليتعلم الصبر والثبات عليه ، فإنَّ تركه بعد اختياره يسىء الى الاثنين جميعا ، وكما يتعلم الصبر والثبات على الأستاذ يتعلم ذلك أيضا على كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر بغير ضرورة ، فإن ذلك يفرق الأمور ، ويشغل القلب ، ويضيع الوقت (٤)

وعلى الطالب المبتدىء أن يتحرز عن الاصغاء الى اختلاف الناس ؛ فإن ذلك يدهش عقله ، وأن يؤجل النظر في ذلك إلى أن يصير متقدما في العلم ، وأن يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف ، فينظر فيه نظرا يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحدا من

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع ص ٨٨ .
(٢) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٢ .
(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع ٨٥ — ٨٦ .
(٤) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٠ .

هذه العلوم ، ليتبحر فيه ، على ألا يخوض فى ذلك الموضوع دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم [١] .

وعلى الطالب أن يحبب الى نفسه العلم حتى يألفه ويلزمه ، ويكون العلم لهوه ولذته وسلوته [٢] ، كما أن عليه ألا يتورع عن أخذ العلم واصطفاء الأخلاق من أى شخص ولو كان صغير الشأن ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان بهوان غائصها الذى استخرجها [٣] ، ويجب أن يكون الطالب مملوءا بالحماسة والنشاط وأن يقبل على عمله برغبة وشغف [٤] .

وإذا كتب الطالب لنفسه أو عن شيخه شيئاً فيلزم أن يجوّد ما يكتب ، وأن يترك حاشية ، ولا يكتب بين الأسطر [٥] .

ومهما تقدم الطالب وحصل من العلم فحذار أن يظن أنه وصل الغاية فى تحصيل العلوم ، وقد مر قول ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل [٦] .

---

(١) الغزالى : الاحياء ١ : ٤٢ .
(٢) ابن المقفع : الدرة اليتيمة ص ٨٣ من رسائل البلغاء .
(٣) ابن المقفع : الأدب الصغير ص ٢٢ من رسائل البلغاء .
(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ١ : ٢٩ .
(٥) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٤ ، تذكرة السامع لابن جماعة ٨٥ — ٨٦ .
(٦) الغزالى : الاحياء ١ : ٤٩ .

صلة التلميذ بالتلميذ

بين الطالب والطالب علاقة قدّرها المربون المسلمون بأنها لا تقل عن علاقة القريب بقريبه ، والشخص بذى رحمه ، قال الإمام الشافعى : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل [١] ، فإذا كان هؤلاء الطلاب يتلقون العلم عن شيخ واحد ، أو فى مدرسة واحدة ، فان العلاقة حينئذ يجب أن تكون آكد وأقوى ، إذ انهم يُعتبَرون أبناء روحيين لأب واحد هو المربّى ، ومن اجل هذا فان رباطا كرباط الأخوة يجب أن يؤلف بين قلوبهم ، قال الغزالى [٢] : وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد . ويطلق الزرنوجى [٣] وحاجى خليفة [٤] على الزميل فى المدرسة لفظ (الشريك) ولعلهما لاحظا أن هناك منفعة مشتركة ، تربط الزميل بالزميل ، وأن تعاونهما ينتج الخير لهما جميعا كالذى يحدث بين الشريك والشريك فى تجارة أو أى تصرف مالى ، إذ أن تعاونهما وإخلاص كل منهما للآخر سيدرّ الربح عليهما معا ، وسيعمل على نجاح الهدف المشترك الذى يسعى له الاثنان .

وهناك آداب يذكرها المربون المسلمون لينيروا للطالب الطريق وليدلّوه على ما يفعل وما يدع فيما يتصل بعلاقته بزملائه ، فينصحه الزرنوجى [٥] :

« ألا يصادق من زملائه إلا المجد الورع ، وصاحب الطبع المستقيم ويفر من الكسلان والمعطّل والمكثار . ».

وينبغى ألا يفتخر الطالب على أقرانه بشىء مما يمتاز به ، ولا يتوصل بشرف إن كان له ، أو سلطان من أهله إلى إغضاب مَنْ دونه ، أو تطاوله عليه ، ويعوّد ألا يُوحش الصبيان ، بل يبرّهم ويكافئهم على الجميل بأحسن منه ، وألا يعوّد الربح من الصبيان [٦] .

---

(١) الغزالى : الاحياء ١ : ٣٨ . (٢) المرجع السابق ١ : ٤٩ .
(٣) تعليم المتعلم ص ١٤ . (٤) كشف الظنون ١ : ٢٩ .
(٥) تعليم المتعلم ص ١٠ .
(٦) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢١ .

جهود التلاميذ لتحصيل العلم

الذى يقرأ فى الأدب العربى وفى الآداب المتصلة به كالأدب الفارسى يدرك أن للمسلمين مواقف رائعة يبدو فيها حرصهم على العلم وتضحياتهم من أجله ، وتروى لنا المصادر المختلفة قصصا مثيرة ، تسجل للطلاب المسلمين حماسة ربما كانت نادرة المثال ، وحرصا على طلب العلم يصل بهم الى القمة فى قوة العزم والاستهانة بالمصاعب .

وفيما يلى مجموعة قليلة من هذه القصص قصدت بها أن أدلل على هذه الحقيقة وأن أطرى هذه الهمة العالية ، ثم أروح بها عن نفس القارىء ففى بعضها طرافة وجمال :

قرأ أبو بكر بن الإخشاد فى أول كتاب الحيوان ما عده الجاحظ من أسماء كتبه ، فرأى بينها كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » وقد حاول أبو بكر الحصول عليه دون نجاح ، فلما دخل مكة حاجا أقام مناديا بعرفات ينادى : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[١] » .

ويروى عن أبى يوسف قاضى القضاة أنه قال : مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفا أن يفوتنى منه يوم[٢] .

ورغب أبو اسحق الكازرونى أن يلتحق بمعهد ليتعلم العلم ، فقال له أبوه : يا بنى ، نحن فقراء فتعلم التجارة لتربح نفقاتك . فأجاب الابن : نعم يا أبى التجارة لنا ضرورية وسأعمل بها نهارى كله ، ولكنه كان يذهب عند الفجر ليتلقى الدروس فاذا أقبل النهار التحق بعمله التجارى وكان يختلس الوقت للنظر والاستذكار وأصبح بذلك عالما من خيرة العلماء[٣] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٧٢ — ٧٣ .
(٢) الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ٢٠ .
(٣) Vita des Schich p. 14, Abu-Ishaq al Kazaruni, Edited by Fritz Meier 1948.

وكان إبراهيم الزجّاج يكسب فى اليوم درهما ونصف درهم ، فاشتهى العلم ، فذهب الى المبرد وطلب منه أن يعلّمه ، واتفق معه على أن يدفع له ثلثى إيراده ، (درهما فى اليوم) وزاد فى الشرط فقال له : سأعطيك درهما فى اليوم أبدا الى أن يفرق الموت بيننا وبرّ بوعده [١] .

ومر محمد بن القاسم أبو بكر الأنبارى بسوق النخاسين فرأى جارية حسنة الصورة كاملة الوصف . قال : فوقعت فى قلبى ، ثم مضيت الى دار أمير المؤمنين الراضى بالله فقال : أين كنت ؟ فعرفته الأمر ، وأخبرته بالجارية . فأمر بشرائها وحُملت الى منزلى فلما عدت الى المنزل كنت أطلب مسألة قد خفيت علىّ فاشتغل قلبى بالجارية ، فقلت للخادم : خذها إلى النخّاس فليس يبلغ قدرها أن يشغل بها قلبى عن علمى [٢] .

حدّث الفقيه على بن عيسى الولواجى قال : دخلت على أبى الريحان البيرونى وهو يجود بنفسه الأخير ، فقال لى وهو فى تلك الحال : كيف قلت لى يوما حساب الجدات ؟ فقلت له إشفاقاً عليه : أفى هذه الحال ؟ فأجاب : يا هذا ، أدَعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها [٣] .

وكان الأحمر صاحب الكسائى رجلا من رجال النوبة على باب الرشيد وكان يُحِبُّ علم العربية ، فكان يرصد مصير الكسائى الى الرشيد ، ويعرض له فى طريقه كل يوم ، فإذا أقبل تلقاه ، وأخذ بركابه ، ثم أخذ بيده وأنزله وماشاه الى أن يبلغ الستر ، وسأله فى طريقه عن المسألة بعد المسألة ; فاذا دخل الكسائى رجع الأحمر الى مكانه ، فاذا خرج الكسائى من الدار تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وساءله الى أن يركب ويجاوز

---

(١) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٤٧ .
(٢) المرجع السابق ٧ : ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ٦ : ٣٠٩ .

المضارب ، ثم ينصرف الى الباب . فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى قويَ وتمكن . وقد أصبح الأحمر فيما بعد معلما لأولاد الرشيد [١] .

ويبدو أن الطلاب ساروا سيرة معلميهم فى هذا النشاط وتلك الحماسة ، فقد كان حرص الطلاب على الأخذ والتلقى صورة صادقة لحرص المعلمين على التدريس والتعليم ، وفيما يلى أقصوصتان قصيرتان تدلان بوضوح على شغف الشيوخ بالتلقين والتحقيق مهما وجدوا فى ذلك من عناء ومشقة .

اعتَقَل أحمد بن طولون بكار بن قتيبة لامتناعه عن لعن الموفَّق ، ووَضَعَه فى السجن ، وبقى فيه مدة سنتين ، ولكن بكارا ظل يحدِّث وهو فى السجن ، فقد كان تلاميذه ومريدوه يجتمعون حول طاق بالحجرة التى سجن فيها ، وكان بكار يقف الى هذه الطاق ليلقى خلالها درسه [٢] .

وجاءت امرأة الى أبى الحسن الزيات فاستفتته فأجابها ، ثم مضت لسبيلها ، فما هو إلا قليل وإذا الشيخ رحمه الله تعالى قد تغيَّر وجهه ، وأخذ ثوبه فجعله فى فمه وخرج يجرى حافيا الى أن لحق المرأة فصحح لها الفتوى ، ثم رجع ، فسأله أصحابه عن سبب قيامه وجريه فقال : ذكرت أنى وَهِمْتُ فى جوابها ، فأسرعت لئلا تفوتنى ؛ فقالوا له : لو أمرتنا لفعلنا ذلك . فقال : ما هى فى ذمة أحد منكم فلو فعلت ذلك فقد يتباطأ أحدكم فتفوت المرأة ولا تعلم جهتها [٣] .

---

(١) ياقوت معجم الادباء ٥ : ١٠٨ — ١٠٩ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ٢٦ مخطوط ، ابن خلكان ١ : ١٢٨ .

(٣) العبدرى : المدخل ٢ : ١٠٨ — ١٠٩ .

الرحلات لطلب العلم

لعل من الخير أن نفتتح حديثنا عن الرحـلات لطلب العلم بقـول الرسول صلوات الله عليه لا ينال العلم براحة الجسم • وقوله : من سافر فى طلب العلم كان مجاهدا فى سبيل الله ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شـــهيدا [١] •

وقد شاع هذا الدستور الذى وضعه الرسول ليحث به الناس على طلب العلم ويهوّن ما يناله المرء فى سبيل العلم من عناء وجهد ، فاحتذى الشعراء والأدباء حذو الرسول ، وعبروا عن هذه المعانى بأساليب مختلفة تجدد العزم وتقوى الهمم ، قال الشاعر :

تريدين إدراك المعـالى رخيصــة ولابدّ دون الشهد من إبر النحل [٢]

وقال الأصفهانى [٣] : لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطىء والدثار الدفىء • وقال ابن جماعة [٤] : ويقطع الطالبُ ما قدِرَ عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل فإنها كقواطع الطريق ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبُعد عن الوطن لأن الفكرة اذا توزعت قصّرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق •

وقال أبو الدرداء : لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها علىّ إلا رجلا ببرك الغماد لرحلت اليه • وقال الشعبى : لو أن رجلا سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت ان سـفره ضـــاع [٥] •

---

(١) ابو الحاج : الالف باالالبا ٨ ا مخطوط . منهاج المتعلم ١٦ ـ مخطوط . (٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٢٧ .
(٣) محاضرات الادباء ا : ٢٨ .
(٤) تذكرة السامع والمتكلم ٧٠ — ٧١ (٥) جامع بيان العلم ص ٩٥ .

وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه الدعوة ، وهبوا يسافرون لطلب العلم ، فى عهد كان السفر شاقا والرحلات مجهدة ، إذ لم تكن هناك طرق معبدة ، ولا قوافل منتظمة ، ولكن الطلاب لم يأبهوا بعناء ولم يخشوا جهدا ، بل خرجوا فرادى وجماعات يسعون فى عزم قوى ، ومثابرة فائقة ، وبدا لهم ذلك العالم الاسلامى المترامى الأطراف وكأنه قطر واحد ، وندر أن أحس عراقى بمصر ، أو أندلسى بالشام أنه غريب •

ويتحدث العلامة ابن خلدون [1] بإفاضة عن الرحلات لطلب العلم ، وفيما يلى موجز للفصل الذى عقده لهذا الغرض :

الرحلة فى طلب العلوم مفيدة ، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعليماً وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا ، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها ، فتعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق إذ أن لكل منهم طريقته فى التعليم [2] •

والمتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنهـا ابتدأت منـذ الجيل الإسلامى الأول ، وقد دعت الضرورة الى أن تبتدىء هكذا مبكرة ؛ فقد تفرق علماء الصحابة فى الأقطار المفتوحة عقب فتحها ليعلموا الناس شئون الدين وليقرئوهم القرآن ويرووا لهم الأحاديث ؛ وأقام كل واحـد من هؤلاء مركزا علميا بالبلد الذى نزل فيه ، ومن مشاهير علماء هذا الجيل :

عبد الله بن عمر	وكانت حلقته فى المدينة
عبد الله بن عباس	» » » مكة
معاذ بن جبل	وكانت حلقته فى اليمن
أبو موسى الأشعرى	» » » البصرة

---

(١) المقدمة ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٢) انظر ايضا كشف الظنون ١ : ٥٧ .

عبد الله بن مسعود	« « « الكوفة
عبد الله بن عمرو بن العاص	« « « مصر

وأصبح لكل واحد من هؤلاء مدرسة خاصة وطابع معين ، ثم إن هناك بضعة أحاديث لم يروها عن الرسول الا عدد قليل من الصحابة ، وكان للناس شغف كبير برواية الأحاديث فأخذ الناس يسعون الى هؤلاء الصحابة لينتفعوا بعلمهم وليأخذوا عنهم الأحاديث التى تلقوها عن الرسول .

ولما جاء الجيل الثانى كان الملاحظ أن هناك فرقا بيّنا بين حلقة وأخرى ، إذ تفاوتت ميول العلماء تفاوتا واضحا ، واختلفت اتجاهاتهم اختلافا ظاهرا ، فأصبح منهم من يميل الى تفسير القرآن ، ومنهم من هو راوية للحديث ، ومنهم من يتعرض لعلم الكلام ، ومنهم من تبحّر فى الفقه ، وهكذا ، وفيما يلى أسماء بعض المشاهير من علماء هذا الجيل وهذه الأسماء عناوين واضحة لاتجاهات أصحابها وميولهم :

سعيد بن المسيب	فى المدينة
ربيعة الرأى	فى قباء
عطاء بن رباح	فى مكة
عطاء بن عبد الله الخراسانى	فى خراسان
الحسن البصرى	فى البصرة
النخعى	فى الكوفة
مكحول	فى سوريا
يحيى بن كثير	فى اليمامة
طاووس	فى اليمن
يزيد بن أبى حبيب	فى مصر [1]

(١) انظر ياقوت : معجم الأدباء : ٤١٢ — ٤١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ١٣٤ .

ثم كانت قيمة الطالب فى نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ، ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم ، وكل هذه الظروف شجعت الطالب أو قل دفعته دفعا ليتلقى أفانين من العلم فى أى من بقاع الأرض ، ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ، ولكنها شملت أيضا طلاب الدراسات اللغوية والفلسفة والطب وغيرها وقد تحدث Professor Nicholson (١) عن الرحلات حديثا طريفا حيث يقول : « وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ، ثم يعودون الى بلادهم كما يعود النحل محملا بالعسل الشهى ، ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم ليرووا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عميما ، كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبا هى بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام رائع وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهى مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون » .

ولنرو فيما يلى بعضا من الأمثلة التى توضح هذا النشاط الذى يدعو للتقدير والإعجاب .

سمع جابر بن عبد الله الأنصارى أن عبد الله بن أنيس الجهنى سمع حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى جابر بعيراً ثم شد رحله حتى قدم مصر على عبد الله ، وسمع الحديث منه (٢) .

وقد كان جابر فى حالة مالية تمكنه من شراء بعير ليرحل عليه ، ولكن طلابا آخرين وقفت بهم حالهم المالية دون شراء أو استئجار لما يركبون ،

---

(1) A Literary History of the Arabs p. 281.

(٢) صحيح البخارى ١ : ٣١ ، جامع بيان العلم ١ : ٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٨١ .

ومع هذا قفزت بهم همومهم العالية غير مبالين بوعثاء السفر ولا بطول الطريق ؛ كان لابن الخطيب التبريزى نسخة من كتاب التهذيب فى اللغـة للأزهرى فى عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُلَّ على أبى العلاء المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة ، وحملها على كتفه وسار راجلا من تبريز الى معرة النعمان ، فنفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل ، ومن شعره :

فمن يسأم من الأسفار يوماً فإنى قد سئمت من المقام [١]

وقد نشأ يحيى بن يحيى الليثى فى قرطبة ، ورحل الى المشرق وعمره ٢٨ سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ فى المدينة ، ورحل الى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ، ورحل الى مصر فسمع من الليث بن سعد وعبد الله ابن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ، ثم عاد إلى الأندلس [٢] .

وأراد البخارى (٢٥٦هـ) المحدث الشهير أن يجمع أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، فجمع أحاديث بخارى ، ثم رحل الى بلخ وسمع محدثيها وروى أحاديثهم ، ثم رحل كذلك الى مرو ونيشابور والرى وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقيسارية وعسـقلان وحمص فجمع بهذا ما تفرق من الحديث فى الأمصار ، وأمضى فى هذه الرحلات ستة عشر عاما ، لقى فيها عناء شـديداً لا يتحمله إلا الأبطـال الصابرون ، وأخيرا عاد الى وطنه [٣] .

وكان سهل بن عبد الله التسترى يستذكر العلم ويحضر حلقاته فى سن مبكرة ، وقد أشكلت عليه مسألة علمية وهو فى سن الثالثة عشرة ، ولما لم يجد لها جوابا شافيا فى بلده سأل أهله أن يبعثوه الى البصرة ليسأل عنها ففعلوا ، فلما جاء البصرة سأل علماءها فلم يسعف أحدٌ منهم غلته ؛

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٤٦ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٨٦ .
(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ .
(٣) ابن خلكان ٢ : ٦٤٩ .

فخرج الى عبادان الى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله فسأله عنها فأجابه إجابة شافية ، فأقام الصبى عنده مدة ينتفع بكلامه ويتأدب بآدابه [١] .

وكان حنين بن اسحق الطبيب البحاثة كثير السفر لجمع الكتب وللتزود من العلم ، وقد وصل فى رحلاته الى أقصى بلاد الروم كما طاف بمدن العراق والشام ومصر [٢] .

وقد سبق لنا الكلام عن الطلاب الذين رحلوا الى البادية ليتلقوا هناك اللغة العربية التى لم يدخلها لحن ولا تصحيف ، وليرووا عن الأعراب الشعر والأدب والتاريخ ، وقد احتمل هؤلاء الطلاب الذين تركوا الحضر الى البادية ألوانا من شظف العيش والخشونة ، اللذين هما طابع الحياة هناك ، ومع هذا فقد كانت حماستهم للعلم قوية ، وسعادتهم به ظاهرة، روى أن أبا العباس ابن عم الأصمعى هلع مرة من الغربة فى البادية واشتاق الى أهله فهمَّ بالرجوع ، ثم صادف عربيا أسمعه قصيدة مطلعها :

لقد طال يا سوداء منك المواعِدُ ودون الجَدَا المأمول منك الفراقدُ

فقال أبو العباس : قد والله أنسيت أهلى ، وهان علىّ طول الغربة ، وشظف العيش سروراً بما سمعت [٣] .

ويتحدث Sayid Ameer Ali [٤] عن البيرونى أحد الرحالة المسلمين فيقول : البيرونى مواطن من خراسان نشأ فى عهد السلطان محمود الغزنوى والسلطان مسعود ، وقد قام برحلة علمية طويلة الى الهند ، عاش فى خلالها

---

(١) الغزالى : الاحياء ٣ : ٥٩ .

(٢) انظر ابن ابى اصيبعة : عيون الأخبار ١ : ١٨٧ ، القفطى : تاريخ الحكماء ص ١٧٣ .
وانظر ايضا Khuda Bukhsh. Islamic Civilization p. 277

(٣) احمد أمين : ضحى الاسلام ٢ : ٣١٨ .

(٤) A. Short History of the Saracens p. 463

بين الهنود ، حيث عرف لغتهم ، ودرس علومهم وفلسفتهم وآدابهم ، وتعرف على عاداتهم وأخلاقهم ، وعرف قوانينهم وديانتهم ، وخرافاتهم العجيبة ، ثم درس جغرافية البلاد وطبيعتها ، وحشد كل هذه المعلومات فى مؤلف ضخم اعتبر طيلة عدة قرون أهم مرجع عن الهند وسكانها .

هذه أمثلة قليلة من صور النشاط الرائع الذى قام به الطلاب المسلمون ، وقد كان هذا النشاط فى قمته خلال القرون الأولى للاسلام ، وكانت دراسة الحديث هى الدعامة الهامة التى حفزت الطلاب على أن يبذلوا هذا الجهد العظيم ، وقد قبلت فى القرن الرابع الهجرى فكرة لم تكن مسلما بها من قبل ، تلك هى جواز تدوين الأحاديث وجواز الاعتماد فى دراستها على هذه الكتب المدونة من غير حاجة الى مقابلة المحدث ورواية الحديث عنه رواية مباشرة [١] .

وقد ترتب على هذا أن قل بعد ذلك عدد الذين يرحلون لدراسة الحديث وجمعه حتى عد ابن مندة : أبو عبد الله محمد بن اسحق الحافظ الجوال (٣٥٥ هـ) ختام الرحالين ، وقد كان ابن مندة معروفا بالحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التأليف ، وقد قام برحلة طويلة جلس فيها الى ١٧٠٠ شيخ وجمع جملة من الكتب كانت عند عودته أربعين حملا [٢] .

الرحلة المدارس التى جمعت كبار العلماء :

وقد ظل الطلاب على كل حال يرحلون لمقابلة الشيوخ والأخذ عنهم ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الخامس جد حادث آخر ذلك هو نشأة المدارس وتزويدها بالعتاد والأساتذة الممتازين ، ومن ثم تحولت رحلات الطلاب فاتجهت الى هذه المدارس للاستماع الى شيوخها والانتفاع بما فيها من مميزات وتسهيلات .

---

(١) الخطيب البغدادى : تقييد العلم ص ١٠١ .

(٢) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ١ : ٢٣٠ .

وهناك نوع آخر من الرحالة المسلمين لا يمكن إغفاله هنا ، هؤلاء الرحالة ليسوا طلابا يسعون ليجلسوا أمام الأساتذة والشيوخ أو يتلقوا بعض الأحاديث ، وانما هم علماء باحثون لهم ميول فى دراساتهم ، فمنهم من يميل الى الدراسات الدينية ، ومنهم من يهوى الدراسات الاجتماعية أو التربوية أو الجغرافية أو نحوها ، وقد عمد هؤلاء الباحثون الى جمع المادة التى تغذى ميولهم لا من الكتب أو النقلة . بل من أبحاثهم وملحوظاتهم الخاصة ، فزاروا البلاد ، وجابوا البقاع ، يدونون ما يرون ، ويسجلون ما يلاحظون • وقد ترك هؤلاء زادا كبيرا للباحثين فى الدراسات الاسلامية ، ويعتبر نتاجهم المصدر الغنى الموثوق به لطلاب هذه الدراسات حتى العهد الحاضر ومن هؤلاء اليعقوبى والاصطخرى والمقدسى وابن حوقل وناصرو خسرو وابن جبير وياقوت وابن بطوطة •

مساعدات كبيرة للعلماء الرحالة :

وقد شجع الطلاب والباحثين على السفر ما كانوا يلاقونه من تيسير عظيم وتسهيلات نادرة وعون لا ينقطع فى كل خطوة يخطونها وفى كل بلد ينزلونه ، ولنقرأ معا صفحات قليلة متتابعة من رحلة ابن بطوطة لنقتبس منها نماذج لهذه المساعدات وهذا العون :

يقول ابن بطوطة [1] لما نزلنا مدينة اقصرا وهى فى طاعة ملك العراق قابلنا الشريف حسين النائب بها عن الأمير ، فأكرمنا إكراماً متناهيا ••• وسافرنا الى مدينة سيواس وهى من بلاد العراق ، فدعينا لننزل عند أخى جلبى وقبلنا الدعوة ، وبعد ذلك طلبنا آخرون لننزل عندهم فلم يمكن ذلك لسبق الأولين ، وكان الذين سبقوا الينا فى أشد الفرح لنزولنا عندهم ••• وبعث لنا أمير هذه البلدة بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه فى البلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا • ، •• ونزلنا الى مدينة أرز الروم ضيوفا عند شيخ كبير السن قد تجاوز المائة والثلاثين •

---

(١) تحفة النظار ٢ : ٢٨٦ — ٢٩٥ .

أكرمنا وكان يخدمنا بنفسه فى الطعام ، ولما أردنا الانصراف فى اليوم الثانى شق عليه ذلك وأبى ، وقال : إن فعلتم نقصتم حرمتى وإنما أقل الضيافة ثلاث ••• ونزلنا الى مدينة يركى فقابلنا رجلا من أهلها فسألناه عن منزل مضيف كان دعانا لننزل عنده ، فقال : أنا أدلكم عليه فاتبعناه ، فذهب الى منزله هو وأكرمنا جدا ، وفى اليوم التالى صحبنا الى منزل مضيفنا •

سلوك الطالب عقب عودته لبلده :

ونختتم هذا الموضوع بأن نورد موجزا لنموذج من النصائح التى كان يتوجه بها العلماء لطلابهم الذين جاءوا اليهم قبيل عودة هؤلاء الطلاب الى أوطانهم :

قال أبو حنيفة النعمان لتلميذه يوسف بن خالد السمتى حين استأذنه فى الرجوع الى وطنه البصرة : لا ترجع حتى أفرغ اليك ، وأعرفك من الأمر ما تجعل نفسك عليه حتى يكون علمك آلة تزينك ولا تشينك ، ووسيلة لحب الناس لك لا لعداوتهم اياك • فصبر يوسف يوما حتى خلا به أبو حنيفة فأوصاه قائلا [1] •

كأنى بك وقد دخلت البصرة ، وأقبلت على مناقضة مخالفيك ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وهجرتهم فهجروك ؟ قال السمتى : لقد كنت على وشك أن افعل هذا • قال أبو حنيفة :

إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فانزل كل رجل منهم منزلته ؛ أكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ، ودار التجار ، واصطحب الأخيار ، ولا تتهاون بالسلطان ، ولا تقولن من الكلام ما ينكر عليك فى ظاهره ، ولا تجيبن دعوة ، ولا تقبلن هدية ••• وابذل طعامك فانه ما ساد

---

(١) الوصية كاملة مدونة فى مخطوط بجامعة اسطنبول .

بخيل قط ، واعمد الى زيارة من يزورك ومن لا يزورك ، والى الإحسان الى من أحسن أو أساء اليك ، وخذ العفو وأمر بالعرف ، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك ، ومن غاب افتقد أحواله ، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه ، وصل من جفاك ، وأكرم من أتاك ، واعف عمن أساء اليك ، وعزّ المحـزون وهنىء من أتته فرحـة ، ومن استنصرك فانصره ، وإذا حضرت مجلس علم وخاض الناس على خـلاف ما عندك فلا تبْدِ لهم خلافا ، فاذا سئلت أجبت بما يعرفه القوم ثم تقول : وفيه قول آخر وتقول ما عندك وبمقدار استقبالهم لرأيك اشرحه ودلل عليه ، وارض للناس ما رضوا لأنفسهم .

ووصية أبى حنيفة هذه جديرة بكل تقـدير ، وانها لعمرى وصـية متجددة ينبغى الأخذ بها ، واتباع نهجها ، وكم أعرض الناس عن عـالم فكسدت بضاعته لأنه لم يعرف السبيل الصحيح للقرب من الناس وتوصيل معارفه اليهم .

تعليم المرأة *

كتبت ستة أجزاء عن « الإسلام والمرأة » فى « المكتبة الاسلامية لكل الأعمار » (من جـ ٤٧ الى ص ٥٢) وتحدثت فيها بالتفصيل عن حال المرأة فى البيئات غير الاسلامية عبر العصور ، وعن ما قدمه الاسلام للمرأة ، كما أوردت تراجم لنماذج من السيدات المسلمات من بيت النبوة ، ومن قصور الخلفاء والملوك ، كما ترجمت لبعض مَنْ بَرَعْنَ فى الآداب والعلوم والفنون ، وتحدثت عن زيجات شهيرة فى التاريخ .

ولما كانت المرأة لم تحظ بنصيب من الميراث الا فى ظل الاسلام فقد كتبت الجزء رقم ٥٢ عن « الميراث فى الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة » .

وأنا اذكّر من يقرأ هنا عن « تعليم المرأة » أن يتعرف على الدراسة التى أوردناها فى هذه الأجزاء الستة .

ونتساءل الآن : الى أى مدًى كانت ثقافة المرأة الغربية فى الوقت

(*) تقضى البحوث المنهجية التى نتبعها فى هذه الدراسة ان نجعل الحديث فى هذا الفصل مقصورا على **المرأة المسلمة وتعليمها** وعلى هذا فلن نعرض للكلام عن المرأة العربية قبل الاسلام ولا عن غير مشكلة التعليم من المشكلات الأخرى التى تتصل بالمرأة المسلمة ، وفى المراجع الآتية مادة نافعة للباحث فيما لن نتعرض له هنا من مشكلات تتعلق بالمرأة :

1 — The Arab Woman by M. E T. Mugannam. Cambridge printers Limited, 1937.

2 — Women in Ayyam al-Arab by Ilse Lichtenstadter. The Royal Arabic Society, 1935.

3 — Marriage in Early Islam by Gettrude H. Sterm. The Royal Aramic Society, 1939.

4 — The Real Status of Women in Islam. An article published in the 19th c. Sept. 1891.

كتاب « الاســلام » من سلسلة « مقارنة الأديان » وكتاب « الحيــاة الاجتماعية فى الفكر الاسلامى » هو الجزء رقم ٧ فى موسوعة الحضــارة الاسلامية للمؤلف .

الذى نعمت فيه المرأة المسلمة بالحياة العلمية الخصبة التى وصفناها فى هذه الأجزاء الستة والتى سنصفها هنا فيما بعد ؟

والإجابة عن حياة المرأة الغربية فى العصور الوسطى نقتبسها من المراجع الأوربية التى تصور المستوى العلمى للمرأة الغربية فى أثناء هذه العصـــــور :

رأى Kundsen :

« خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جدا تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعدّ المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية ، وقد حرصت القرون الوسطى أن تحدّ من سلطة المرأة الأوروبية وألا تمنحها أى لون من ألوان النفوذ ، فيما عدا المجال الضيق الذى كانت تعيش فيه وهو البيت [1] » .

وهناك تفاصيل أشمل وإيضاحات أدق عن الطبقات المختلفة للمرأة الأوروبية ، وحظ كل طبقة من التعليم نوردها فيما يلى :

رأى The Encyclopaedia of Education

كان Francesco da Barberco يسمح لطبقة النبيلات من الفتيات أن يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكنّ فيما بعد من إدارة شئونهن ، وأما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط وكذلك بنات القضاة والأطباء ومن على شاكلتهم فانه تردد لمدة ما فى الحكم عليهن ثم قرر أنه من الخير لهن ألا يتعملن القراءة والكتابة ، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازما بألا يتاح لهن أى لون من ألوان التعليم [2] .

---

(١) Feminism by K. A Wieth-Kundsen, translated from the Danish by Arthur G. Chater, p. 209.

(٢) The Encyclopaedia of Education IV p. 1790.

رأى John Langdon Davies

وهناك صورة واضحة أخرى يكتبها John Langdon Davies عن المرأة من الطبقة العليا ، وهو يبدأ حديثه بأن يتساءل : كيف كانت السيدة من طبقة الأميرات تعيش فى قصرها ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : انها فى كثير من الأحيان نالت طرفا من التعليم فقد أمضت بضع ساعات وهى طفلة مع مؤدب خص أو التحقت بنوع من المدارس يلتحق به الهواة ليتعلمن القراءة ، وأقصى ما كانت تستطيع أن تصله بثقافتها أن تقرأ القصص والحكايات التى كانت تشتريها من الباعة المتجولين الذين كانوا يقصون هذه القصص بأنفسهم مع نوع من النشيد والغناء ثم يبيعونها لمن يهوى استعادتها من حين إلى آخر [1] .

ومن الممكن أن نؤكد دون تردد أن المرأة من غير طبقة الأميرات لم تصل الى هذا المستوى المتواضع من الثقافة الذى وصلت له نسـاء الطبقة العليا .

رأى Abram :

أما عن حالة المرأة الانجليزية قبيل نهاية العصور الوسطى فقــد أوجزها A. Abram بقوله :

إن الاهتمام بتعليم المرأة كان أقل كثيرا من الاهتمام بتعليم الرجل وكان المستوى العلمى الذى تحاوله المرأة محدودا جدا بالقياس الى المستوى الذى يتطلبه الرجل ؛ ويقتبس Abram رأى أحد النبلاء ويعده مرجعا هاما فى ذلك الموضوع لأنه يصوِّر آماله تجاه بناته وثقافتهن ، إذ يقول : أحب أن تكون بناتى قادرات على القراءة ، وفيما عدا ذلك فالبنت ينبغى أن تتعلم الفضائل من الكتاب المقدس لتعيش فى بيتها عيشة غير شريرة .

---

(1) A Short History of Wom.n p. 229.

ثم تواصل Abram كلامه بقوله : وظاهر أنه لم يطلب أن تنال المرآة أى مستوى ثقافى أرقى من ذلك ، ومن أجل هذا كانت الأوقاف على التعليم مقصورة على تعليم الصبيان ، وليس فيها نصيب لتعليم الفتيات ، وكان أغلب الآباء يكتفون بقسط ضئيل من التعليم الأولى لبناتهم ، ثم يعملون على تزويدهم بالجانب العملى فى الحياة المنزلية ليعدوهن ليكن زوجات [1] .

قلة نسبة المتعلمات عن نسبة المتعلمين فى العالم الاسلامى لماذا ؟

هذا وصف موجز لثقافة المرآة الأوروبية فى العصور الوسطى مقتبس من مراجع أوربية ، فإذا تركنا المرأة الغربية وعدنا الى المرأة المسلمة كان من الأوفق أن اعترف بحقيقة لم يشأ كثير من الكتاب المسلمين أن يعترفوا بها ، هى أن التعليم بين النساء لم يكن منتشرا انتشاره بين الرجال وكانت نسبة المتعلمات بين النساء أقل بكثير جدا من نسبة المتعلمين بين الرجال ، ويسأل المرء نفسه ما الذى دعا الى هذه النتيجة مع أن الدين الاسلامى لم يجعل الجنس عائقا للمرأة دون تلقى العلم ؟ وأعتقد أن الذى عاق النساء المسلمات عن مجاراة الرجال فى التعلم إنما هو الصعوبات التى كان يستهدف لها طلاب العلم فقد كانت الرحلات والحرمان والتقشف شارات الطالب المسلم . وكان العرب يضعون المرأة فى مكانة أسمى ومنزلة أعلى ، فلا يسمحون أن تتعرض لنصب العيش وشظف الحياة ، وقد عبر الشاعر العربى عن هذا بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وعلى هذا هبطت نسبة المتعلمات من النساء ، غير أنه يجدر بنا أن نسجل أن كثيرات من المسلمات تغلبن على هذه الصعوبات بطريق أو بآخر فحصلن على جانب من الثقافة التى يمكن أن توصف بأنها عميقة ومتنوعة وهذا مالم تنله المعاصرات الأوربيات .

(1) English Life & Manners in the Later Middle Ages p. 218.

أين تعلمت الفتاة ؟

وقبل أن نعطى نماذج توضح ثقافة المرأة وعمقها وتنوعها يجدر بنا أن نحقق قضية هامة هى : أين كانت تتعلم الفتاة ؟ هل التحقت بالكتّاب صغيرة ؟ وانضمت الى حلقات الرجال شابة ؟ أو كان لها مؤدب خاص ولم تختلط بالصبيان والرجال ؟

يقول الدكتور محمد فؤاد الأهوانى [١] إن البنات كن يتعلمن فى الكتاتيب ٠ ولكن الدكتور الأهوانى يرجع عن رأيه هذا الى الرأى الذى نعتقده صوابا فيقرر [٢] أن العادة قد جرت على تعليم البنات داخل الدور ٠

وقد تعرض لهذا الموضوع أيضا الدكتور خليل طوطح فى كتابه التربية والتعليم عند العرب فذكر تحت عنوان « البنت والمكتب [٣] » ما يلى : ومما يذكر فى كتاب الأغانى تردد البنـات الى المكتب فى القرن الثـانى للهجرة ، ثم أورد الدكتور طوطح اقتباسات غير كاملة من الأغانى يرى أنها تؤيد رأيه (وسنوردها فيما بعد) ويعلق على هذه الاقتباسات بقوله : فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعلم فى المكتب ، وفى بعض الأحيان تعلمن مع الفتيان كما هو معروف اليوم فى بعض الأماكن ٠

ومرجع الدكتور طوطح هو الأغانى ١٤ : ٤٩ ، ٢١ : ٤٨ فإذا ذهبنا الى الأغانى فى الموضعين المذكورين وجدنا النص الأول كالآتى : كان بالكوفة رجل يقال له على بن آدم وكان يهوى جارية لبعض أهلها (أهل الكوفة) وأنه علِقَها وهى صبية تختلف الى الكتاب ،فكان يجىء الى المؤدب فيجلس عنده لينظر اليها ، فما أن بلغت حتى باعها مواليها لبعض الهاشميين فملت جزءا عليها [٤] ٠

(١) التعليم عند القابسى ص ٨٧ ٠ (٢) المصدر السابق ص ١٦٣ ٠
(٣) التربية والتعليم عند العرب ص ٦٩ ٠
(٤) الأغانى ١٤ : ٤٩ طبعة الساسى ٠

أما النص الثانى فهو كما يلى :

حدثنى القطرانى المغنى عن محمد بن حسن قال : كان خليل المعلم يلقب (خليلان) وكان يؤدب الصبيان ويعلم الجوارى الغناء فى موضع واحد ، فحدثنى مَنْ حضره قال : كنت يوما عنده وهو يردد على صبى يقرأ بين يديه قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » ثم يلتفت الى صبية يردد عليها :

اعتاد هـذا القلبَ بَلباله   أن قُرّبت للبين أجماله [1]

وأنا إذ أنظر الى هذين النصّين لا أوافق الدكتور طوطح على الاستنباط الذى استخرجه منهما ، لأن البنت التى نقول إنها تعلمت فى عصور الاسلام الأولى ونالت قسطا ملحوظا من الثقافة هى البنت الحرة قبل كل شىء ، وهذان الاقتباسان يتعلقان بالجوارى فلا يمكن أن نأخذ منهما حكما عاما على أن البنت تعلمت بالمكتب مع الأولاد ، لأن تعليم الجوارى بالمكتب لا يدل بحال من الأحوال على تعليم الحرائر به ، إذ أن كراهية اختلاط الجنسين ما كانت تنطبق على الجوارى ؛ فقد كن متبذلات مُنِحْن كثيرا من التسهيلات التى لم تستمتع بها الحرائر .

ولم يكن المراد بتعليم الجوارى هو الثقافة بقدر ما كان يراد به رفع أثمانهن بتعليمهن الكتابة ، كما فى الاقتباس الأول ، أو الغناء كما فى الاقتباس الثانى ، على أن الاقتباس الثانى ابعد جدا عن الموضوع لتعلقه بالغناء الذى هو صنعة أخرى صادف أن المؤدب كان يجيدها ، وكان يزاولها مع عمله البعيد عنها كل البعد كما يزاول بعض معلمى مكاتب الريف المصرى فى هذه الأيام بعض الصناعات اليدوية السهلة وهم يشرفون على أطفال المكتب ، فلم تكن هذه البنت فى الحقيقة ملتحقة بالكتاب .

وعندنا من النصوص الصريحة ما يؤكد لنا أن البنت لم تلتحق بالكتاب

---

(١) الأغانى ٢١ : ٤٨ طبعة مصر .

صبيةً ولم تجلس فى حلقة الرجل شابة . وكان الغالب أن تتعلم فى المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يُدْعى لها :

يروى البلاذرى [١] أنه عند مجيء الاسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن ، وهن حفصة بنت عمر . وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد ، وكريمة بنت المقداد ، والشفاء بنت عبد الله العدوية ، التى كانت تعلم حفصة وقد طلب الرسول منها أن تستمر فى تعليمها لحفصة حتى بعد زواج الرسول منها .

ويروى البخارى [٢] أن النساء قلن للنبى صلى الله عليه وسلم غَلَبَنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك . فعيَّن لهن يوما يلقاهن فيه ويعلمهن .

وقد ثقَّف الأعشى ابنته وعلمها حتى أصبحت أديبة ناقدة ، ويُرْوَى أن الأعشى كان إذا قال القصيدة عرضها عليها ثم يقول لها : عُدِّى لى المخزيات فتعددها له [٣] .

وكان عيسى بن مسكين (٢٧٥ هـ) يجلس للطلبة الى العصر ، فاذا كان بعد العصر دعا بنتيه وبنات أخيه وحفيداته ليعلمهن القرآن والعلم [٤] ، وكذلك علم أسد بن الفرات ابنته أسماء ، والامام سحنون ابنته خديجة ، كما كان يُدْعى مؤدبون خاصون لتعليم البنات فى بيوت أهل الثراء وقصور الأمراء [٥] .

وهنا يبرز لى سبب آخر يضاف الى ما سبق ايراده عن السبب فى أن نسبة عدد المتعلمات بين النساء أقل كثيرا من نسبة عدد المتعلمين بين الرجال ، ذلك هو أن الطريق الى تعليم المرأة كان بواسطة أحد من ذويها

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٨ .　　(٢) صحيح البخارى ١ : ٣٨ .
(٣) الأغانى ١٥ : ١٠٦ .
(٤) ص ٢٢ من مقدمة حسن حسنى عبد الوهاب لكتاب آداب المعلمين لابن سحنون .　　(٥) المصدر نفسه ص ٢٣ .

أو يقوم به معلم خاص وكلا هذين لا يتيسر للجمهرة العظمى من النساء فى حين أن الوسيلة لتعليم الولد سهلة فهو يلتحق بالكتاب صبيا وينضم الى الحلقات بالمساجد إذا شب ونمت ثقافته .

وعلى كل حال فقد أنتج التعليم الخاص مجموعة من النساء اللاتى كانت ثقافتهن لا تقل عن ثقافة الرجال بل ربما بزتها فى كثير من الأحوال .

المرأة والأخلاق الاسلامية :

وحقيق بنا أن نشير الى أن المرأة المسلمة كثيرا ما برهنت على أنها متزودة لا بالثقافة الاسلامية فحسب ولكن بالأخلاق الاسلامية والنبل فى أرفع صوره ، وفى هذا المجال تحفل كتب التاريخ والأدب بصور رائعة نسوق منها مثالا شهيرا ولكنه مع شهرته لم يفقد روعته وبهاءه :

لبث عبد الله بن الزبير على إمرة المؤمنين ثمانى سنوات ودانت له العراق والحجاز واليمن ، ثم بدأ ينهزم أمام جيوش عبد الملك بن مروان التى يقودها الحجاج بن يوسف ، حتى لم يبق له الا مكة المحاصرة بجند الحجاج والتى كانت هدفا للمجانيق والحجارة ، فقلَّ أصحابه وكثر عدوُّه ، والحجاج من حين الى آخر يمنّيه بالامارة فى ظل الأمويين لو أغمد سيفه وبسط يده للبيعة . ودخل عبد الله حينذاك على أمه أسماء بنت أبى بكر فدار بينهما الحوار الآتى :

عبد الله : يا أمه ، خذلنى الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومالا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطانى القومُ ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

أسماء : الله الله يا بنى ! ! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض عليه ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت أنك كنت على حق ، فلما وهن أصحابك ضعفت فليس هذا فعل الأحرار . كم

خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير .
والله لضربة بالسيف فى عزّ أحب إلىَّ من ضربة بالسوط
فى ذلّ .

عبد الله : يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى
ويصلبونى .

أسماء : يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، امض غير
متردد ولا هياب [1] .

نماذج من ثقافة المرأة المسلمة

والآن فلنتحدث عن ثقافة المرأة التى وصفناها بأنها كانت عميقة ومتنوعة ، وهذا الوصف حقيقة لا مبالغة فيها ، فقد تصدَّت المرأة لموضوعات ثقافية متعددة فبرَّزت فى جميعها ، وكانت فى كل منها تضارع الرجال ، وتدل على مقدرة ممتازة وكفاءة طيبة ، وفيما يلى حديث موجز عن الموضوعات التى باشرتها المرأة ، وعن بعض الشهيرات من النساء :

الدراسات الدينية :

اهتمت المسلمات اهتماما كبيرا بالدراسات الدينية ليعرفن تعاليم الدين الجديد ، وليَنعمن برواية أحاديث الرسول ، وقد مرت بنا حديثا رواية البخارى أن النساء قلن للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فعين لهن يوما يلقاهن ويعلمهن ، وقد نتج عن هذا أن حظى الجيل الاسلامى الأول وبخاصة نساء الأنصار بمجموعة من السيدات كان لهن القدح المعلى فى هذه الدراسات ، روى عن عائشة أنها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى

---

(1) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ٧ : ٤١٥ — ٤١٦ ، ابن الأثير ٤ : ١٤٧ .

الدين [١] وقد كانت عائشة نفسها واسطة العقد بين نساء هذا الجيل فقد ورد فى الأثر : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، ومما يذكر لها أنها روت عن الرسول ألف حديث رواية مباشرة ، وهذا ما لم يتوافر لسواها [٢] .

وأقبلت النساء على رواية الحديث إقبالا عظيما فى هذا الجيل وبعده ، وقد عقد محمد بن سعد جزءا من كتاب الطبقات الكبير لرواية الأحاديث عن النساء أتى فيه على أكثر من سبعمائة امرأة روين عن الرسول أو عن الثقات من أصحابه ، وعنهن روى أعلام الدين وأئمة المسلمين وترجم ابن حجر حياة ١٥٤٣ [٣] محدثة وقال عنهن إنهن كن ثقات عالمات ، كما خصص كلّ من النواوى فى كتابه تهذيب الأسماء ، والخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد ، والسخاوى فى الضوء اللامع حيزا كبيرا للحديث عن النساء اللائى كانت لهن ثقافة عالية وبخاصة فى العلوم الدينية ورواية الحديث .

ومما يدل على دقة النساء فى الرواية والحفظ أن الحافظ الذهبى اتهم أربعة الاف من المحدثين ، ولكنه قال عن المحدثات : وما علمت من النساء مَنْ اتُّهِمت ولا من تكوها [٤] .

وهناك أسماء لامعة لبعض السيدات كان لهن فى الدراسات الدينية شأن عظيم وفيما يلى بعض منهن :

ـ نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على : وكانت راوية محدثة من خيرة المحدثات فى عصرها ، وكان يجلس فى حلقتها مشاهير العلماء والمجتهدين ، ولما دخل الإمام الشافعى مصر حضر إليها وسمع عنها الحديث [٥] .

---

(١) البخارى ١ : ٤٦ .
(٢) النواوى : تهذيب الأسماء ص ٨٤٨ .
(٣) الاصابة فى تمييز الصحابة ٤ : ٤٢٤ — ٩٨٤ .
(٤) ميزان الاعتدال ٣ : ٣٩٥ .
(٥) ابن خلكان ٢ : ٢٥١ .

ـ الشيخة شهدة وكانت تلقب « فخر النساء » وكانت تحاضر للجماهير في مسجد بغداد فيجلس للاستماع منها جمهور عظيم من الطلاب وكانت تحاضر ـ بالاضافة الى العلوم الدينية ـ في الأدب والبلاغة والشعر وقد استطاعت بثقافتها وفصاحتها أن تأخذ مكانتها بين مشاهير العلماء وفطاحل المدرسين [1] .

ـ زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْرِى : كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة ، سمعت من محمد بن أبى القاسم ابن أبى بكر النيشابورى وأبى المظفر القشيرى وغيرهما ، وأجاز لهما الحافظ أبو الحسن الفارسى والعلامة أبو القاسم الزمخشرى صاحب الكشاف وغيرهما من الحفاظ . وقد أجازت ابن خلكان سنة ٦١٠ وهو طفل جريا على العادة التى كانت متبعة آنذاك من أجازة الأطفال الذين ينبتون فى بيوت العلم تشجيعا لهم عندما يشبون ، وأملا فى نجاحهم فى المستقبل [2] .

ـ عُنَيْدة جدة أبى الخير التينانى الأقطع ، وكانت عالمة فاضلة تجلس للتدريس فيجلس أمامها خمسمائة تلميذ من الرجال والنساء [3] .

ولا بد لنا أن نشير الى فضليات النساء اللائى يدين لهن كثير من عظماء الرجال ومشاهيرهم :

فالخطيب البغدادى قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى وقد أسهمت بنصيب كبير فى تكوين هذا العالم الكبير [4] .

وقد عدَّ ابن عساكر أساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ، وكان من بينهم إحدى وثمانون امرأة [5] .

---

(١) Ameer Ali : The Spirit of Islam p. 255.

(٢) ابن خلكان : الوفيات ١ : ١٧٨ .

(٣) ص ٥٠ من كتاب الشكوى المنشور بالمجلة الآسيوية سنة ١٩٣٠ .

(٤) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٢٤٧ ، ابن بشكوال : الصلة فى تاريخ علماء الأندلس ١ : ١٣٣ .

(٥) ياقوت : معجم الادباء ٥ : ١٤٠ ، النعيمى ١ : ١٠١ .

الأدب :

تحفل كتب الأدب العربى بالحديث عن كثيرات من الأديبات والبليغات والشاعرات اللائى كن فى كثير من الحالات نظيرات للرجال المعاصرين لهن ، وربما كان لهن التفوق عليهم ، وفيما يلى أمثلة موجزة لبعض منهن :

— قتيلة أخت النضر بن الحارث ، وكان هذا قد تعود أن يسب الرسول ويعتدى عليه قبل الهجرة ، ثم كان النضر بين الأسرى يوم بدر فأمر الرسول به فقتل ، فرثته أخته قتيلة بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

هل يسمعنّى النضر إن ناديتُه	أم كيف يسمع ميّت لا ينطقُ
أمحمد ، يا نسل خير كريمة	فى قومها ، والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مَننْتَ وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقرب من أسرتَ قرابةً	وأحقهُم إن كان عتق يُعتَقُ
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه	لله أرحام هنالك تُشقَقُ

قال ابن هشام : إن الرسول صلوات الله عليه لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه [1] .

— وكانت زوجة الفرزدق أديبة ناقدة ، يحتكم لها شعراء العصر وأدباؤه ، وقد حكّمها الفرزدق بينه وبين جرير فقالت : انه قد غلبك فى حلوه وشاركك فى مره [2] .

— رابعة العدوية : أخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة ، وكانت شاعرة أديبة متصوفة تستعمل فى مناجاتها لله أسلوبا مملوءا بالرقة والعذوبة والصفاء ، ومن ذلك قولها : إلهى ، أتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ وقولها :

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ١١٨ — ١١٩ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٢ : ٩٣ .

إنى جعلتك فى الفـؤاد محـدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مـؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى [١]

— زبيدة أم جعفر زوجة الرشيد : كانت تنظم الشعر وتناظر الرجال فى شتى نواحى الثقافة والفكر ، وكانت فى شعرها رقيقة مجيدة ، وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتا شعرية الى زوجها الرشيد ، ولما قتل محمد الأمين فى الحرب بينه وبين أخيه المأمون أرسلت زبيدة الأبيات التالية الى المأمون :

لخير إمام قام من خـير عنصر وأفضل راقٍ فـوق أعـواد منبر
ووارث عـلم الأولين وفخرهم وللملك المأمون ، مـن أم جعفر
كتبت وعينى تسـتهل دموعها إليك ابن عمى من جفونى ومحجرى
أصبت بأدنى الناس منك قرابة ومن زال عن كبدى فقل تصبرى

ولما قتل ولدها الأمين رثته بقصائد رائعة منها :

أودى بالفتين من لم يترك الناسا فامنح فؤادك عن مقتولك الباسا
لما رأيت المنايا قـد قصـدن لـه أصبن منه سـواد القلب والراسا
فبت من شجنى أرعى النجوم له إخال وجنته فى الليل قرطاسا
والمـوت كان بـه والهم قـارنه حتى سقاها التى أودى بهـا الكاسا
رزئته حـين باهيت الرجـال بـه وقد بنيت به للدهر آسـاسا [٢]

— حمدة بنت زياد المؤدب وأختها زينب : يقول عنهما لسان الدين ابن الخطيب [٣] : شاعرتان أديبتان ، من أهل الجمـال والمال والمعـارف

---

(١) انظر ترجمتها فى ابن خلكان .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣١٥ — ٣١٩ المطبعـة البهيـة ١٣٤٦ هـ .
(٣) الاحاطة فى أخبار غرناطة ١ : ٣١٦ .

والصون . الا أن حب الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ويقول ياقوت [١] إن حمدة كانت تلقب بخنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس . وقد خرجت مرة للتنزه بالرملة من نواحى وادى آش فرأت فتاة ذات وجه وسيم أعجبها فقالت تصف منظرها :

ابـاح الدمعُ أسرارى بوادى	لـه فى الحسـن آثـار بوادى
فمن نهـر يطـوف بكـل روض	ومن روض يرفّ بكـل وادى
ومن بـين الظبـاء مهـاة إنس	سبت لبى وقـد ملكت فـؤادى
لهـا لحظ ترقـّـده لأمـر	وذاك الأمـر يمنعنى رقـادى
إذا سدلت ذوائبهـا عليهـا	رأيتَ البـدرَ فى أفق السـواد
كأن الصبح مـات لـه شـقيق	فمن حـزن تسربل بالسـواد [٢]

— مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى : أديبة شاعرة ، كانت تعلم النساء الأدب وعمرت عمرا طويلا ومن شعرها وقد كبرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجةٍ	وسبع ، كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا	وتمشى بها مشى الأسير المكبل [٣]

— بدانية ، مولاة أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون : أخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته فى ذلك وبرعت فى العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما ، قال أبو داود سليمان بن نجاح قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض [٤] .

— حفصة بنت الحاج الركونى : يقول عنها لسان الدين بن الخطيب [٥] إنها كانت فريدة الزمان فى الحسن والظرف والأدب واللوذعية ، أديبة

---

(١) معجم الادباء ٤ : ١٤٤ .
(٢) انظر ايضا المقرى : نفح الطيب ص ١١٤٢ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ص ١١٤٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٧٨ .
(٥) الاحاطة فى اخبار غرناطة ١ : ٣١٦ وما بعدها .

نبيلة جيدة البديهة سريعة الشعر . ويضيف ياقوت [١] إنها كانت مشهورة بالحسب والأدب والجمال ، أستاذة وكَـيِّسَة تعليمَ النساء فى دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على وقد تولع بها أمير المؤمنين المذكور وتغير بسببها على الوزير أبى جعفر أحمد بن عبد الملك وكان عاشقا لها متصلا بها يتبادلان رسائل الغرام ويتجاوبان تجاوب الحمام ، ومما جرى بينهما أنه بات معها فى بستان (بحوز مؤمَّل) فلما حان وقت التفرق قال :

رعى الله ليلاً لم يُرَعْ بمذمَّمٍ ... عشية وارانا (بحوز مؤمَّــلِ)
وقد خفقت من نحو نجد أريجــةٌ ... إذا نفحت جاءت بريا القَرَنْفُلِ
وغرَّد قُمْرىٌّ على الدوح وانثنى ... قضيبٌ من الريحان من فوق جدولِ
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له ... عناقٌ وضمٌّ وارتشــافُ مقبَّلِ

فقالت :

لعمرك ما سَرَّ الرياض بوصــلنا ... ولكنه أبدى لنا الغِلَّ والحســدْ
ولا صفق النهر ارتياحا لقربنــا ... ولا غرد القُمْرىّ إلا لما وجــد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله ... فما هو فى كل المواطن بالرَّشَدْ
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه ... لأمر سوى كيما تكون لنا رصدْ

وبلغها أن أبا جعفر علق بجارية سوداء فكتبت إليه :

عشقتَ سوداء مثــل ليــلٍ ... بدائعَ الحسن قــد ســترْ
لا يظهــر البشرُ فى دجــاها ... كــلا ولا يُبْصَرُ الخَفَرْ
بالله قــل لى وأنت أدرى ... بكل من هام فى الصــورْ
من ذا الــذى حب قبلُ رَوْضاً ... لا نَوْرَ فيــه ولا زهَرْ [٢]

وللسيوطى مؤلف قيم عنوانه « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » وهو لا زال مخطوطا بالمكتبة الظاهرية بدمشق وهو يحوى تراجم سبع وثلاثين

---

(١) معجم الأدباء ٤ : ١١٩ — ١٢٢ .
(٢) انظر أيضا المقرى : نفح الطيب ص ١٠٧٨ وما بعدها .

شاعرة مع نماذج رائعة من أشعارهن ، وفيما يلى بعض ما كتبه السيوطى عن واحدة من هؤلاء :

ــ تقية أم على بنت أبى الفرج : كانت أديبة فاضلة وشاعرة ممتازة ، لها شعر وقصائد ومقطوعات ... نظمت قصيدة تمدح الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، وكانت القصيدة خمرية فوصفت آلة المجلس والخمر وما تفعله بالنفوس أحسن وصف ، فلما وقف عليها تقى الدين قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من عهد صباها ، فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن صفة ثم سيرتها اليه تقول : علمى بهذا كعلمى بذاك . ومن شعرها :

نأيت وما قلبى عن النأى بالراضى ... فلا تغترر منّى بصدى وإعراضى
وإنى لمشتاق إليهم متيم ... وقد طعنوا قلبى بأسمر عراض
إذا ما تذكرت الشآم وأهله ... بكيت دما حزنا على الزمن الماضى
أبيتُ أراعى النجم والنجمُ راكد ... وقد حجبوا عن مقلتى طيب إغماضى
فهل طارقَ منهم يلمّ بناظرى ... فإن لقاء الطيف أكبر أغراضى

وقد ولدت تقية بدمشق سنة ٥٠٥ وماتت سنة ٥٧٧ (١) .

الموسيقى والغناء :

يقول H. G. Farmer (٢) حفلت حياة العربى بالموسيقى من المهد إلى اللحد ، سمعها منذ كان طفلا يهدهَد بالغناء والموسيقى ، وظل يسمعها طوال عمره حتى عزفت الألحان تفجعه وترثيه . وكان لكل مناسبة من المناسبات التى تمر بالعربى موسيقاها الخاصة ، فللفرح ألحانه المرحة ، وللحزن أنغامه المشْجية ، ولكل من العمل أو اللعب نوع من العزف ، وللحروب موسيقاها التى تبعث الهمم وتقوى العزائم ، وللمواقف الدينية ترانيمها العذبة الفياضة . وقد حرص كل عربى ذى شأن فى تلك

(١) ورقة رقم ٢ أ ، ب .
(٢) The Legacy of Islam p. 258.

الأيام على أن تكون عنده جارية مغنية ، وقلما كان يخلو منها بيت ؛ إذ كان انتشارها يشبه الى حد كبير انتشار جهاز (البيانو) فى العهد الحاضر فى منازل الطبقة العليا من الناس .

ويستطيع قارىء هذه العبارة أن يدرك العدد الضخم من الموسيقيين والموسيقات والمغنين والمغنيات الذين كانت تنبعث ألحانهم وأنغامهم فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، ويكفى أن يذكر كتاب الأغانى ليستعرض الإنسان فى خاطره هذه المكانة السامية التى نعم بها فن الموسيقى وفن الغناء ، وليدرك أن طوائف متعددة أسهمت فى الرقى بهذين الفنين الجميلين ، فقد نشط الموسيقيون والمغنون والموسيقيات والمغنيات للاستجابة لنداء العصر ، وبذل الخلفاء والأثرياء من أموالهم لهؤلاء وأولئك ما شجعهم على الإجادة والإبداع ، كما نشط المؤلفون يدونون وينشرون على الملأ ما يكتبون .

وكتاب الأغانى خير مرجع لنا فى ذلك الموضوع ويجىء بعده نهاية الأرب للنويرى ونفح الطيب للمقرى ، ومن هذه المصادر نسوق الحديث عن عدد قليل ممن برزن فى هذه الصناعة :

— جميلة مولاة بنى سليم : يرى الأصفهانى [1] أنها أصل من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة ، وحبابة وسلامة ، وعقيلة العقيقية ، والشماسيتان خليدة وربيحة ، وكانت أعلم خلق الله بالغناء ، وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن مغنين ، وكان يقصد لها الناس ويجلسون للتعلم ، كما كان يقصدها مشهورو المغنين ليحتكموا لها ، فكانت تفاضل بينهم ، وكان حكمها دائما موضع القبول والرضا ، وكانت تعتز بفنها اعتزازا كبيرا حتى أنها آلت على نفسها ألا تغنى أحدا الا فى منزلها ، ومن أجل هذا كان يسمى لمنزلها سادة الدولة

---

(١) الأغانى ٧ : ١٢٤ .

وعظماؤها لينعموا بصوتها الساحر ، وليسعدوا بغنائها الحنون ، وكان عناء الانتقال لها لا يعدل اللذة التى ينعمون بها والمتعة التى يحصلون عليها [١] .

ـ دنانير : كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد ، وكانت صفراء مولدة ، وكانت من أحسن الناس وجها ، وأظرفهن ، وأكملهن ، وأحسنهن أدبا ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر ، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر السير الى مولاها ليسمعها ، وكان يكثر الاقامة عنده حتى ألفها ، واشتد اعجابه بها ، فوهب لها هبات سنية ، وعلمت أم جعفر خبره فشكته الى عمومته فساروا اليه فعاتبوه .

فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وانما أربى فى غنائها ، فاسمعوها فان استحقت أن يؤْلَف غناؤها والا فقولوا ما شئتم ، ثم انتقلوا الى منزل يحيى فلما سمعوها عذروه .

ومما يدعو للاعجاب بدنانير وصنعتها الغنائية ما يحكيه الأصفهانى أنه كان لها كتاب مشهور فى الأغانى [٢] .

ـ علية بنت المهدى : أخت هارون الرشيد وهى من الحرائر اللاتى فقن الجوارى فى الغناء ، وكانت من أحسن الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيد ، وتصوغ فيه الألحان الحسنة ، وكان بها عيب ؛ إذ كان فى جبينها فضل سعة فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيئا ما ابتدعت نساء ذلك العصر أجمل منه .

ويقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إنه ما اجتمع فى الاسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من ابراهيم بن المهدى وأخته علية ، وكانت تَقَدَّم عليه . ويحكى عن « عريب » أنها قالت : أحسن يوم رأيته

---

(١) انظر ايضا النويرى : نهاية الأرب ٥ : ٤٩ — ٥٠ .
(٢) الأغانى ١٦ : ١٣٦ — ١٣٩ ملخص .

وأطيبه يوم اجتمعتُ مع ابراهيم بن المهدى عند أخته عليّة وعندهم أخوهم يعقوب وكان أحذق النـاس بالزمر ، فبدأت عليّة فغنتهم من صـنعتهم وأخوها يعقوب يزمر عليها ، وكان مطلع المقطوعة التى غنتها عليّة هو :

تحبب فإن الحبَّ داعيـة الحب   وكم من بعيد الدار مستوجِب القرب

وكانت عليّة تحب خادما من خـدم الرشيد اسمه (طل) وكـانت تراسله بالشعر فحلف عليها الرشيد ألا تكلم (طلا) ولا تسميه باسمه . فضمنت ذلك ، وكانت مرة بعد ذلك تقرأ القرآن والرشيد يستمع اليها فوصلت الى قوله تعالى « فإن لم يصبها وابل فطل » ولكنها لم تشأ أن تنطق كلمة طل حفظا على عهدها للرشيد فقالت : فان لم يصبها وابل فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وقبل رأسها .

ومن شعرها الذى غنته فأبدعت فيه قولها :

نام عـذّالى ولـم أنَم   واشتفى الواشـون من سَقَمى
وإذا مـا قـلتُ بى ألم   شـك مـن أهـواه فى ألمِى [1]

ـ متيم الهاشمية : نشأت متيم بالبصرة وفيها تأدبت وغنت ، وأخذت عن إسحق وعن أبيه من قبله ، وعـن طبقتهما مـن المغنين ، وكانت مـن أحسن الناس وجها وغناء وأدبا .

حكى الهشامى قال : كانت متيم ذات يوم جالسة بين يدى المعتصم ببغداد وابراهيم بن المهدى حاضر ، فغنت متيم :

لزينب طيف يعتريني طوارقـه   هدوءاً إذا ما النجم لاحت لواحقه

---

(١) الاغانى ٩ : ٨٣ — ٩٥ ، نهاية الأرب ٤ : ٢٣١ — ٢٣٧ .

فأشار اليها إبراهيم أن تعيده ، فقالت متيم للمعتصم : يا سيدى . إبراهيم يستعيدنى الصوت وكأنه يريد أن يأخذه . فقال المعتصم لها : لا تعيديه . فلما كان بعد أيام كان ابراهيم حاضرا مجلس المعتصم ومتيم غائبة فانصرف إبراهيم بعد حين الى منزله ومتيم فى منزلها بالميدان وطريقه عليها ، وكانت هى فى منظرة لها مشرفة على الطريق وهى تغنى هذا الصوت وتطرحه على جوارى سيدها على بن هشام ، فتقدم ابراهيم الى المنظرة وهو على دابته وتطاول حتى أخذ الصوت ، ثم دق الباب بمقرعته وقال : قد أخذناه بلا حمدك [1] .

— خديجة بنت الخليفة المأمون : حدثت ملح العطارة — وكانت من أحسن الناس غناء وانما سميت العطارة لكثرة استعمالها العطر المطيب — قالت : غنت إحدى المغنيات يوما بين يدى المتوكل مقطوعة عذبة منها :

باللهِ أخبرنَ : لمن ذا الرشا   المثقلِ الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان إذا ما صحا   وأملح الناس إذا ما انتشى

فطرب المتوكل وقال للمغنية : لمن هذا الغناء ؟ فقالت أخذته من دار المأمون ولا أدرى لمن هو . فقالت ملح : أنا أعلم الناس به . قال المتوكل لمن هو يا ملح ؟ قالت : الشعر والغناء جميعا لخديجة بنت المأمون [2] .

وكان فى قصر الخليفة عبد الرحمن الثانى جناح يسمى « دار المدنيات » وكان ينزل فيه المغنيات اللائى جلبن من المدينة ، وبخاصة قلم وعلم وفضل ، وكانت فضل أبرعهن غناء وجمالا وأكثرهن حظوة عند الخليفة [3] .

---

(١) الأغانى ٧ : ٣١ — ٤٨ .
(٢) الأغانى ١٤ : ١١٤ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ٢ — ٥٧٨ .

— وكانت عنيدة الطنبورية امرأة فاتنة الجمال عالية الأخلاق موفورة الذكاء ، وكانت تجيد العزف على الآلة الموسيقية المسماة بالطنبور ، ومنها أخذت عنيدة لقب الطنبورية ثم كان صوتها غاية فى الرقة والعذوبة [١] .

الطب :

تقول Mugannam [٢] « إن النساء المسلمات قمن فى الحروب الاسلامية بالدور الذى تقوم به فى العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر » . فيروى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك هذا — وهو يسير الى خيبر — فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله [٣] . وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ونرد القتلى والجرحى الى المدينة [٤] .

وبالاضافة الى هذا فان عندنا نساء برعن فى الطب وكانت لهن شهرة عظيمة بين الأطباء ، وقد ترجم ابن أبى أصيبعة لبعضهن فى مؤلفه طبقات الأطباء ، كما ورد ذكر بعضهن فى تاريخ الحكماء للقفطى وفى الاحاطة للسان الدين بن الخطيب . وفيما يلى نماذج قصيرة لبعضهن :

— زينب طبيبة بنى أود : كانت عارفة بالأعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك ، حدث حماد

(١) Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 456.
(٢) The Arab Women p. 25.
(٣) ابن هشام ٢ : ٢٤٣ .
(٤) ابن حجر : الاصابة ٤ : ٥٨٥ وانظر ايضا عبد الله عفيفى : المرأة العربية ٢ : ٤٤ — ٤٦ .

ابن إسحق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جده قال : أتيت امرأة من بنى آود لتكحلنى من رمد قد أصابنى ، فكحلتنى ثم قالت : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينك • فاضطجعتُ ثم تمثلتُ قول الشاعر :

أمخترمى ريبُ المنون ولـم أزر   طبيبَ بنى أود ـعلى النأى ـ زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا • قالت : فىَّ والله قيل ، وأنا زينب التى عناها ، وأنا طبيبة بنى أود ، أفتدرى من الشاعر ؟ قلت : لا • قالت : عمك أبو سماك الأسدى [١] •

ـ أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى : كانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف أجادت عدة علوم مع الطب ، ولكنها فى الطب كانت أبرز وأشهر [٢] •

ـ أخت الحفيد بن زهر وابنتها كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يَقْبَلُ لمداواة أهل المنصور سواهما [٣] •

الشئون الحربية :

نبغ فى ظل الاسلام عدد كبير من النساء المحاربات ، وقد قـامت نسيبة زوجة زيد بن عاصم بدور هام فى موقعة أحد ، إذ أنه لما قـامت قريش بالهجوم على جيوش المسلمين المنهزمة قبيل نهاية المعركة حاربت نسيبة بشجاعة نادرة وجرحت بسيفها أحد عشر محاربا وكانت من الأسباب التى عطلت تقدم جيوش قريش [٤] •

(١) ابن أبى اصيبعة ١ : ١٢٣ •
(٢) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة ١ : ٢٦٥ — ٢٦٦ •
(٣) ابن أبى اصيبعة ٢ : ٧٠ •
(٤) Mugannam. The Arab Women p. 25.

ـ وقاتل يوم اليرموك نسوة من نساء المسلمين قتالا شديدا . وجعلت هند بنت عتبة تقول : عضدوا الرجال بسيوفكم [1] وكانت إحدى بنات أبى سفيان مع زوجها وأمها فى حومة الوغى [2] .

ـ وفى موقعة صفين كان يتميز جمل أحمر تركبه الزرقاء بنت عدى الهمدانية وهى توقد الحرب وتحض شيعة علىّ على القتال قائلة : أيها الناس إن المصباح لا يضىء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ... أيها فى الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين .

وقد استدعاها معاوية أيام خلافته فسُيِّرَتْ إليه ، فقال لها : والله يا زرقاء . لقد شركت عليا فى كل دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله . فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، ثم سألها أن تذكر حاجتها . فقالت : يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبداً [3] .

ـ وفى نفس المعركة كانت عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل السيف تقاتل أهل الشام وتحثث قومها على الجهاد والنضال [4] .

ـ وفى سنة ١٣٩ هـ غزا صالح بن على والعباس بن محمد بلاد الروم ووغلا فيها وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة [5] .

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ١٤١ .
(٢) الطبرى : ٢١٠٠ — ٢١٠١ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢١٢ .
(٤) المرجع السابق ١ : ٢١٥ .
(٥) ابن الأثير ٥ : ٣٧٢ .

أعمال أخرى أسهمت فيها المرأة

أسهمت المرأة المسلمة فى نواح أخرى من جوانب الحياة الاسلامية . فقد أهلتها ثقافتها الى أن تشتغل بالسياسة وشئون الحكم ، وأن تكون مصلحة اجتماعية ممتازة ، أو أن تشغل بعض المناصب العامة ذات الأهمية الكبرى ....

— فقد كان للخيزران نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة ، وكانت تتدخل فى شئون السياسة تدخلا سافرا فى عهد زوجها الخليفة المهدى ، وعهد ولديها الخليفتين الهادى والرشيد ، وكان الهادى فى بدء عهده بالخلافة كثير الطاعة لها مجيبا لها ما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ، فكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد الى اجابتها سبيلا ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت لابد من إجابتى .. واشتد الخلاف بينهما ، فيقال أنها دبّرت الخلاص منه لتستأنف فى عهد خلفه الرشيد نفوذها السياسى فى الدولة [1] .

— وإذا كان مزاج الخيزران حادا فإن عندنا سيدة أخرى هى زبيدة زوجة الرشيد ، وقد تدخلت فى السياسة ولكن بفطنة وتؤدة ؛ يروى أنه كان لها فى السياسة رأى تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطن مَنْ يكون من الرجال [2] .

ولكن زبيدة مصلحة اجتماعية كانت أبرز منها سياسية ، يقول المسعودى : وكان أحسن الناس فعلا فى أيام الرشيد أم جعفر بنت المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع بها ، وما أحدثته من دور

---

(١) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٥٥ وما بعدها . المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ .

(٢) جميل نخلة : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٧ .

للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف .
ومن أروع آثارها الخالدة حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز وقصة ذلك أنها حجت سنة ١٨٦ هـ فأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال ليبدأ الحفر وليشق الطريق للماء فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ، مسافة اثنى عشر ميلا حتى يوصل الماء الى مكة . وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف . فأدركت زبيدة سبب تردده فقالت له بحزم : اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا وعمل العمال وتم المشروع ، ولا يزال حتى اليوم يحمل اسمها (عين زبيدة) ، وقد بلغت تكاليفه مليونا وسبعمائة ألف دينار [١] .

— وفى قرطبة كانت لبانة تشغل وظيفة قل أن شغلتها امرأة ، تلك أنها كانت سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم [٢] .

— ونختم حديثنا عن ثقافة المرأة بهذه القصة الشهيرة التى لا نظن أنها سلمت من المبالغات عبر الأجيال ولكنها طريفة على كل حال :

عُرِضت على الرشيد جارية حسناء ، طلب صاحبها عشرة آلاف دينار ثمنا لها ، وعلل ارتفاع ثمنها بإجادتها وبراعتها فى الدراسات المختلفة ، وقد أغرى هذا الادعاء الرشيد ، فقرر أن يختبر الفتاة أولا ، ودعا لاختبارها مشاهير الأساتذة فى علم الكلام والفقه والتفسير والطب وعلم النجوم والفلسفة والأدب والشطرنج ، وأخذ هؤلاء يمتحنونها واحدا بعد واحد ، ولم تكن الفتاة تجيب عن أسئلتهم فحسب وإنما كانت فى نهاية كل اختبار توجه الى الممتحن سؤالا ، وما استطاع أحد منهم أن يجيب عن السؤال الذى وجه إليه . ولما أيقن الرشيد من مواهبها وثقافتها النادرة دفع فيها الثمن الغالى الذى طُلِب فيها .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٥١٦ طبعة المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ .
(٢) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 295.

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نقرر أن بيع الرقيقات لم يكن مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيرا من الإماء كن يدفعن أنفسهن بطريق أو آخر إلى السوق مختارات رجاء أن يصلن إلى القصور ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء [1] . وذلك ما يطلق عليه « الرق الصناعى » .

(١) جميل نخلة : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٨ . (بتصرف

الباب الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية



منشئو المعاهد العلمية

عبد الله المأمون ، ونظام الملك ، ونور الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ، أسماء لامعة فى تاريخ الحركة العلمية التى رعاها المسلمون فى العصور الوسطى ، وقد ارتبطت هذه الأسماء بتاريخ هذه النهضة ارتباطا وثيقا ، إذ كان كل من هؤلاء أمةً وحدهُ ، وقام كل منهم بعمل ضخم كان ذا أثر كبير فى تاريخ الأمة الاسلامية • وقد حفل هذا الكتاب بالحديث عن هؤلاء الأشخاص فى مواضع متعددة وعُنِىَ بتعداد مآثرهم وأياديهم ، وسأحاول هنا أن أضع بعض التفاصيل عن واحد من هؤلاء هو نظام الملك ، الحسن بن على بن اسحق الطوسى ، منشىء المدارس النظامية ، ذائعة الصيت وعظيمة القدر • وقبل أن نبدأ هذا نخصص سطورا قليلة لكل من الثلاثة الآخرين نشير فيها الى مجمل النشاط العلمى الذى رعاه كل منهم :

المأمون (٢١٨ هـ) : يقول خودا بخش [1] : عند الحديث على النهضة الأدبية والنشاط العلمى فى العالم الاسلامى يبدو عصر المأمون وهو أزهى العصور ، ومكانه القمة بالنسبة الى سواه ••• ومن الحق أن يقال ان جميع الحركات الثقافية فى الأقطار الاسلامية منذ عهد المأمون هى فروع للأصول التى غرسها وسقاها ذلك الخليفة العظيم •

فهذا بيت الحكمة أول مؤسسة ثقافية عند المسلمين يدين للمأمون بما منحه له من عناية ، وما أضفى عليه من قوة ، وما أنفق من مال ، وعن طريق هذا المعهد كسبت اللغة العربية كثيرا من الزاد والمعرفة بما أجرى فى بيت الحكمة من ترجمة اليها من اللغات الأجنبية ، وبواسطة بيت الحكمة حُفِظَ للإنسانية كثير من تراث العالَم القديم الذى ضاعت أصوله ، ولم

(1) Islamic Civilization pp. 276-277.

يجد العالم الحديث غير الترجمات العربية وسيلة للوصول إلى هـذا التراث •

نور الدين (٥٦٩ هـ) : كانت مملكة نور الدين فى سوريا أقوى مملكة قامت على أنقاض السلاجقة ، وقد خلد نور الدين اسمه كبطل من أبطال المسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين ، واستطاع أن يضم الى سـمعته الحربية مكانه كمصلح اجتماعى كبير ، ومن أبرز اصلاحاته فى هذا المجال رعايته لشئون العلم ، فلقد أعد مملكته لتواصل حركة النشاط الذى بدأه نظام الملك ، أو لتتلقى عن العراق وخراسان ما ضعفتا عن حمله بعد انهيار السلاجقة ، ومن هنا جاءت أهمية الدور الذى قام به نور الدين فهو لم يكن راعيا للعلم فقط ، وانما كان مشرفا على نهضته وحـاميا لها حتى أسلمها الى خلفه صلاح الدين ، ولولا نـور الدين لخيف على هـذه النهضة أن تفنى وأن تضيع ، ولكنه واصل السير فى الطريق الذى بدأه سلفه ، فبنى فى الشام لأول مرة عدة من المدارس سبق الحديث عنها وفتح قلبه ومعاهده للمدرسين والعلماء الذين ضاقت بهم العراق وخراسان بعد مـا حل بهما من شقاق واضطراب ، وهكذا كان نور الدين حلقة الاتصال بين نظام الملك الذى غرس النهضة التعليمية ورعاها وبين صلاح الدين الذى كتبت لها على يديه البركة والنماء •

صلاح الدين (٥٨٩ هـ) : الحديث عن صلاح الدين الأيوبى متشعب النواحى ، ومجاله خصب فى أى ناحية من نواحيه [١] ، ولكنا نريد فى هذه الإلمامة السريعة المقتضبة أن نذكر المعنى الذى سبقت الاشارة اليه عند كلامنا على نور الدين ، فان صلاح الدين كان أولا قائدا من قواد نور الدين ثم حكم مصر باسمه ، ثم خلفه على عرش مصر ، ثم عرش الشام ، ومن هنا يظهر بوضوح سبب التشابه بين صلاح الدين ونور الدين •

وتلقى صلاح الدين غرس النهضة من سلفه ، فشيد لأول مرة المدارس

---

(١) تحدثنا عنه بكثير من الافاضة فى الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الاسلامى » .

فى مصر ، وفى سبيل العلم والنخل كانت تهون عليه نفقات بيوت المال (١) وكان يقول للخبوشانى المشرف على احدى مدارسه : زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمئونة ذلك (٢) . ودخول المدارس مصر ليس سهلا فى نظر من يكتب تاريخ التربية الاسلامية ، لأن معناه حفظ ذلك التراث من غوغاء التتار الذين اجتاحوا معظم العالم الاسلامى ، وأفنوا كثيرا من مظاهر الرقى فيه ، وكان كرم صلاح الدين وسخاؤه داعيا لجذب العلماء والطلاب لا من العراق فحسب بل من شمالى إفريقية أيضا حيث كانت مصر فى منتصف المسافة ، فرحل لها من هنا وهناك جمهرة كبيرة وجدوا فى صلاح الدين ملكا بارا كريما وحاميا عظيما ، فجمعهم الاحسان الصلاحى كما يقول عبد اللطيف البغدادى (٣) .

نظام الملك (٤٨٥ ﻫ)

الذى حدا بى الى اختيار نظام الملك لاعطاء بعض تفاصيل عنه ، هو الاستجابة الى الرغبة التى سبقت الاشارة اليها والتى أبداها الكثيرون يأملون معلومات أوفى وحديثا أوسع عن المدارس النظامية ، ولذلك سنجعل حديثنا عن نظام الملك تحليلا لنقطتين هامتين تتصلان بهذه المدارس ، وفى خلال الكلام عن النقطة الثانية سترد سيرة ذلك الوزير العظيم ، أما هاتان النقطتان فهما :

١ — من كان أول منشىء للمدارس فى الإسلام ؟

٢ — لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة ؟

والإجابة عن السؤال الأول موضع خلاف بين المؤرخين . يقول ابن خلكان (٤) إن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس . ولكن السبكى (٥) والمقريزى (٦) يذكران أن نظام الملك ليس أول من أنشأ

---

(١) ابن جبير ص ٥٢ . (٢) المرجع نفسه ص ٤٨ .
(٣) الافادة والاعتبار ص ١٦ . (٤) الوفيات ١ : ٢٠٢ .
(٥) طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧ . (٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٣ .

المدارس فى الاسلام ، فقد وُجِدَت المدرسة البيهقية بنيشابور قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيشابور أيضا بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود عندما كان واليا بنيشابور ، ومدرسة ثالثة بنيشابور بناها أبو سعيد إسماعيل بن على ، ومدرسة رابعة بنيشابور أيضا بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفرائينى ، ويحاول السبكى [1] أن يوفق بين الرأيين فينسب الى نظام الملك أنه كان أول من قدَّر المعاليم للطلبة ، فكأنَّ المقصود بإنشاء المدارس هو انشاء هذه المعاليم وتقديرها وصرفها للطلبة ٠

فماذا يمكن أن يقال بعد سرد هذه الآراء ؟

لا يطيب لى أن أوافق على ما اقترحه السبكى من أن المراد هو أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة ، فإن قول ابن خلكان صريح فى أن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس لا أول من قدر المعاليم ، ثم أن العزيز بالله الفاطمى سبق نظام الملك بقرن تقريبا فى تقدير هذه المعاليم للطلاب [2] ٠

فالمشكلة إذاً هى : هل كان نظام الملك أول من أنشأ المدارس أوْ لا ؟ الجواب عندى بالايجاب اذا أريد المعنى الفنى الدقيق لهذا التعبير ؟ وأما ما يطلق عليه كلمة مدارس مما ظهر قبل نظام الملك فجهد محدود ضحل لم يعمر طويلا ولم يكن قوى الأثر فى الحياة الاسلامية ، وهذا الجهد المحدود الضحل ظهر قبل مدارس نيشابور بعهد طويل ٠

فالذى ينسب الى نظام الملك هو هذه النهضة التعليمية التى لم تتوقف قط ، هو هذا النظام الذى وُضِعَ لتعليم المسلمين فى جميع البقاع ، هو هذه الشبكة من المدارس التى انتشرت فى القرى والكفوز والمدن ٠ ولا يستطيع إنسان أن يدعى أنه يجارى نظام الملك فى هذا المجال ٠

---

(١) طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧ ٠

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٤١ ٠

أما لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة فإن هذا يتضح إذا تعرفنا على شخصية هذا الوزير ، لنرى مكانها وسلطانها ونفوذها بين سلاطين السلاجقة ، ودراسة هذه الشخصية يقتضينا أن نورد طرفا من نشأته وهو ما سنشرع فيه [١] .

ولد نظام الملك يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ثمان وأربعمائة للهجرة بنوفان إحدى مدينتى طوس ، وليس يعنينا كثيرا أن نتتبع طفولة نظام الملك أو صباه لأن ذلك لا يهمنا كثيرا فيما نحن بصدده ، ولأننا فى الواقع ليس عندنا معلومات موثوق بها عن حياته الأولى ، فمن المعروف أن هذه الفترة من حياة الرجل العصامى تكتب فى عهد متأخر عندما يبرز نبوغه وتظهر عبقريته ، ولهذا يدخلها كثير من المبالغة والتحريف ، لتأثر الكاتب بما وصل له صاحب الترجمة من مجد وعظمة .

اتصل نظام الملك فى مطلع شبابه بخدمة على بن شاذان والى مدينة بلخ وعمل كاتبا له ، ولكن على بن شاذان كان يصادره فى كل سنة ، فهرب منه وقصد داود بن ميكائيل السلجوقى والد السلطان ألب أرسلان ، فظهر لداود منه النصح والموهبة ، فسلمه الى ولده ألب أرسلان وقال له اتخذه والدا ولا تخالفه فيما يشير به [٢] . وقبيل وفاة السلطان طغرلبك عم ألب أرسلان أوصى السلطان بالأمر لسليمان بن داود أخى ألب أرسلان ،

---

(١) من أوفى التراجم التى كتبت عن نظام الملك تلك التى كتبها السبكى فى طبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ — ١٤٥ وقد كتبت بأسلوب رائع وصورت نظام الملك على انه من اعظم المصلحين الاجتماعيين فى الاسلام وأن شخصيته من اقوى الشخصيات التاريخية ، ونحن اعتمادا على هذه الترجمة وعلى ما كتبه عماد الدين الأصفهانى وابن الأثير وابن خلكان وابن الجوزى عن نظام الملك نقدم ترجمة موجزة لهذا الوزير العظيم .

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٠٢ .

ولم يكن اختيار سليمان لكفاءته بل لأن أمه كانت عند طغرلبك ، فتبع هواها فى ولدها ، وقام سليمان بالأمر عقب وفاة طغرلبك ، ولكن ثار عليه أخوه ألب أرسلان يساعده نظام الملك ، كما ثار شهاب الدين قتلمش . فلم يتم الأمر لسليمان بل تم لألب أرسلان الذى عظمت مملكته ورهبت سلطته [١] . ولما تم الأمر لألب أرسلان عزل الكندرى وزير عمه طغرلبك لأن هذا الوزير كان فى بادىء الأمر يناصر سليمان [٢] وأصبح نظام الملك بذلك ألمع شخصية فى القصر الملكى ، فأسند له ألب أرسلان أمر الوزارة ، فقام بها خير قيام وبرهن على مقدرة فائقة ، ومواهب عظيمة ، وبهذا خطا نظام الملك الى قمة المجد ، ووضعت بين يديه مقاليد الأمور ، وكان بجانب تفوقه فى السياسة رجلا له دراية كاملة بشئون الحرب وميادين القتال ، وقد صحب السلطان ألب أرسلان فى معظم حروبه كما غزا مع الأمير الشاب ملكشاه بن ألب أرسلان عدة غزوات ، استوليا فيها على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، كما قاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كتب له فيها النصر [٣] .

فلما اغتيل ألب أرسلان سنة خمس وستين وأربعمائة ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب نظام الملك دورا هاما حتى وطد الملك لملكشاه ، الذى كانت سنه لا تتجاوز الثمانية عشرة ، ولم يتم لنظام الملك هذا إلا بعد أن خاض مع الأمير الشاب عدة معارك ضد أعداء الدولة من جانب ، وضد الذين قادوا ثورات داخلية من الأمراء السلجوقيين وغيرهم من جانب آخر [٤] . كما استطاع نظام الملك بحكمته وسياسته أن يتغلب على

---

(١) ابن الاثير : الكامل : ١٠ : ١٨ — ١٩ ؛ ابن خلكان ٢ : ٦٦ — ٦٧ .

(٢) ابن الاثير نفس الصفحة وقد وجئت عنق هذا الوزير بعد ذلك .

(٣) ابن الاثير ١٠ : ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ١٠ : ٢٥ ، وابن خلكان ١ : ٢٠٢ .

بعض المشكلات . وأن يجعل الأمور تستقر دون كثير من إراقة الدماء . يروى ابن خلكان [١] أن بعض أعمام ملكشاه قد خرج عليه فعاجله جيش السلطان وهزمه ، وتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه الى السلطان . فأظهر ذلك الأسير خريطة مملوءة بكتب أرسلها الأمراء الذين يظهرون الطاعة للسلطان ، يحثون فيها الثائر على الخروج عن الطاعة ويحسّنون له ذلك ، فدعا السلطانُ نظامَ الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها فلم يفتحها ، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه ، فاحترقت الكتب ، فسكنت قلوب الأمراء والعساكر ، وأمنوا ووطّنوا أنفسهم على الخدمة بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة ، لأن أكثرَهم كان قد كاتبه ، وكان هذا سبب ثبات قدم ملكشاه فى السلطنة ، كما كانت هذه معدودة من جميل آراء نظام الملك .

وكل هذه العوامل جعلت السلطان يحس أنه مدين لنظام الملك وأن اباه من قبله مدين له ، ثم — بالإضافة الى هذا — استجاب ملكشاه الى داعى الشباب ، فشغل نفسه بالصيد واللذة ، وتمتع بالأبهة والتنوع فى الملذات [٢] ، ورد الأمور كلها كبيرها وصغيرها الى نظام الملك قائلا له : أنت الوالد ، وحلف له وأقطعه اقطاعا زائدا على ما كان ، من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ولقّبه ألقابا من جملتها (أتابك) ومعناه الأمير الوالد فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور [٣] .

وبهذا أصبح نظام الملك هو الآمر المتصرف لا يجرى جليل ولا حقير

---

(١) الوفيات ٢ : ١٨١ .
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ٣ : ١٣٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٠ : ٥٤ .

إلا بأمره ، مستبدا بذلك ، واكتفى السلطان بالاسم وبإنفاق وقته فى اللذة والصيد [١] .

وكانت مواهب نظام الملك المتنوعة تساعده مساعدة كبيرة فى إدارة شئون الدولة التى سيطر على أمورها ، فكانت له إصلاحات ذات بال ، إذ أسقط المكوس والضرائب الجائرة ، وأزال لعن الأشعرية من المنابر [٢] كما كان حسن المعاملة للرعية كثير الحدب عليهم [٣] .

وبالإضافة الى نجاحه فى السياسة وتدبير الملك فانه كان تبعا لرواية السبكى [٤] واسع الثقافة ، سمع الحديث بأصفهان من محمد بن على الأديب وأبى منصور شجاع ، وبنيشابور من الأستاذ أبى القاسم القشيرى وفى بغداد من أبى الخطاب بن البطر وغيره ، وأملى ببغداد مجلسين أحدهما بجامع المهدى والآخر بمدرسته ، وحضر إملاءه الأئمة ، وروى عنه جماعة من العلماء ويضيف ابن الأثير [٥] أنه كان يقول تعليقا على جلسته مجلس المُمْلِى : إنى لست من أهل هذا الشأن ، ولكنى أحب أن أجعل نفسى ضمن قطار نقلة حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وكان إقباله على العلماء ، وسماحته معهم وإبطاله لعن الأشعرية داعيا الى أن يعود الى البلاد العلماء الأفاضل من أمثال إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى بعد أن كانوا هجروا البلاد ورحلوا عنها [٦] .

وكان أهل الدين والعلم والفضائل راتعين فى نِعَمه ، وكان بابه مجمع

---

(١) السبكى : ٣ : ١٣٩ ، وابن خلكان ١ : ٢٠٢ .
(٢) ابن الأثير : ١٠ : ١٤١ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٤ .
(٤) طبقات الشافعية ٣ : ١٤٠ .
(٥) الكامل فى التاريخ ١٠ : ١٤١ .
(٦) ابن الأثير : ١٠ : ١٤١ .

الفضلاء وملجأ العلماء ، وكان نافذا بصيرا ينقب عن أحوال كل منهم فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ••• ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع الى افادة العلم ونشره وتدريسه ، وربما سيَّره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيى به حقه ، ويميت باطله [١] •

وبنى نظام الملك المدارس والربط والمساجد فى البلاد وأمدَّها بما تحتاج إليه من كتب ، وعين لها المدرسين والطلاب والخدم ، وبذل لهم العطايا الكريمة فأحيا بذلك معالم الدين ، ونشط من العلم وأهله ما كان خاملا مهملا فى أيام مَنْ قبله •

فإنشاء المدارس إذاً إنما هو واحد من أفضـــاله وأياديه ، ومأثرة ترجع له وحده ولا ترجع لسواه ، ومن هنا نسبت له هذه المدارس وحملت اسمه وعرفت به ، هذا وإذا كان من المتبع أن تنسب مثل هذه المؤسسات الى أعظم شخصية فى الدولة فإن تسمية المدارس النظامية مطابقة لهذه القاعدة ، فما كان فى الدولة فى ذلك العهد من يجارى نظام الملك أو يناظر ذلك الوزير الخطير •

صدام مع الملك :

ويبدو أن طول الزمن ، ورغبة ملكشاه فى استعادة سلطانه الشرعى ، وإحساسه بألا سلطان له بجوار نظام الملك ، كل هذا أدخل الغيرة على نفس السلطان فبدأ يتغير ، وانتهز فرصة تصرف خاطىء [٢] قام به أحد أحفاد نظام الملك ، فأرسل السلطان للوزير يقول : إن كنت شريكى فى الملك ويدك مع يدى فى السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائبى فيجب أن تلزم حـــد

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق ٥٦ — ٥٧ •
(٢) القصة بكاملها فى ابن الأثير ١٠ : ١٣٨ •

التبعية والنيابة ، وهؤلاء أولادك قد جاروا وانحرفوا ... فقال الوزير لرسل السلطان : قولوا له : إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم . فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي ، أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ، وقدت الأمور اليه . وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، حتى أطاعه القاصي والداني ، والآن أقبل يتجنى لي الذنوب ويسمع في السعايات ، قولوا له عني : إن ثبات تلك القلنسوة (التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك [1] .

وهكذا وقف نظام الملك موقف عزة وكرامة وإباء ، وأشعل هذا الرد الصريح ثورة الغضب والحقد في نفس ملكشاه فيقال أنه دبر قتله ، وقيل إن الذي اغتاله صبي ديلمي من الباطنية تقدم اليه في صورة مستميح أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه [2] .

وانطفأت هذه الشعلة المتوهجة التي بعثت النور في عصر الظلام ، ولكن سيرته وسيرة أعماله بقيت عاطرة بعده أجيالا وقرونا ، وها نحن أولاء نجدد ذكراه بكثير من الإجلال والتقدير .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ : ٦٧ ، وابن الاثير ١٠ : ٢٠٨ .
(٢) انظر ابن الاثير في المكان السابق .

الأوقاف على التعليم

قبل بيت الحكمة كان التعليم يجرى فى أمكنة غير مخصصة له ، كان يلتقى العلماء بالطلاب فى المساجد ، كما كان الراغبون فى العلم يسعون الى دور الشيوخ للسماع منهم فيها ، وهكذا ، ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معينة تبذل فى سبيل نشر العلم • فلما ظهرت الحاجة الى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة ، ظهرت فى الوقت نفسه فكرة أن يوقف على هذا المعهد وقف ينتج إيراداً يكفى للإنفاق على شئونه وشئون القائمين بالعمل فيه ، وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة للوجود ، فإنه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفا على سخاء الخلفاء والأمراء ، بل أراد أن يجعل نشاطه قويا متصلا سواء أكان الخليفة كريما أم شحيحا ، فهيأ للعلماء رزقا سخيا يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية [١] • وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعظماء ، فأصبح من ضروريات انشاء معهد ثقافى أو مدرسة أن يعين لها وقف ثابت ، تتلقى منه ما يفى بنفقاتها ، وما يمدها بما تحتاجه من مصروفات ، ثم تطور هذا الاتجاه ، فظهرت الأوقاف أيضا على الذين يشغلون أنفسهم بخدمة العلم فى المساجد ، بل إن بعض الأركان أو الأعمدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقاف سخية يصرف ريعها الى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلى عرض سريع لنماذج من هذه الأوقاف :

نظام الملك :

سبق الحديث عن النهاية الأليمة التى نزلت بالمدارس النظامية ، وكيف أن نظامية بغداد مثلا اختفت فى ظروف غامضة ، وإن مكانها اغتصب منذ عهد سحيق ، فلم يعد معروفا بوجه الدقة للباحثين والدارسين • ويبدو —

(١) Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 274.

للأسف — إن هذه النهاية الأليمة لحقت لا بالبناء فقط وإنما بكثير مما كتب عنه أيضا ، فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التى كتبت فيها وقفية نظام الملك على مدارسه . لقد ورد ذكر هذه الوثيقة فى عدة مراجع ولكن الباحثين قديما وحديثا لم يستطيعوا أن يحصلوا على ذاتها أو نصها .

وعلى كل حال فعندنا من المصادر ما يمد الباحث فى هذا الموضوع بمعلومات إن لم تكن كاملة فهى قريبة من الكمال :

قال سبط بن الجوزى [١] : وفيها (أى فى سنة ٤٦٢ هـ) أوقف نظام الملك الأوقاف على النظامية . وحضر الوزير والقضاة والعدول بيت النوبة ، وكتبوا الكتب وسَجّلت ، ومما وقف سوقُ المدرسة ، وضياعٌ ، وأماكن . وشَرَطَ [نظام الملك] الشروط المعروفة .

ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى [٢] فى حوادث نفس السنة : وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة جمع العميد أبو نصر الوجوه ، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير فخر الدولة والنقيبين والأشراف وقاضى القضاة والشهود إلى المدرسة النظامية وقرئت كتب وقفيتها ، ووكّف الكتب فيها فكان من الوقف ضياع وأملاك وسوق أقيمت على بابها .

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحوا من ثلاثين مدرسة وهو يقول إنه ما فيها مدرسة إلا وهى يقصُر القصرُ البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية التى بناها نظام الملك ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة للإنفاق على الفقهاء والمدرسين بها ، وللإجْراء على الطلبة [٣] .

---

(١) مرآة الزمان ١٢١ — ٢ مخطوط بباريس .
(٢) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ٢٥٦ .
(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

أما ما خصص من المال لرعاية الشئون الثقافية على العموم ، وكذلك ريع الأوقاف المعينة للمدارس فان المراجع التى بين أيدينا أوردت تفصيلات نافعة عنها ، فقد ورد أن ما كان ينفقه نظام الملك فى السنة على التعليم قد بلغ ٦٠٠٫٠٠٠ دينار [١] .

أما الريع الذى كانت تنتجه الأوقاف المخصصة لنظامية بغداد فقد ورد أنه كان ١٥٫٠٠٠ دينار فى العام [٢] وقد كـان ذلك الريع كافيا لمرتبـات الشيوخ ولمـا يدفع للطلبة ، وكان يشمل مئونة طعامهم وملابسهم وفرشهم وغير ذلك من ضرورات معاشهم حتى نبغ فيها جمع من الفقهاء الأفاضل ممن لا يحصون كثرة [٣] أما أوقاف نظام الملك على نظامية أصفهان فقـد بلغ ١٠٫٠٠٠ دينار سنويا [٤] .

نور الدين :

فيما يختص بنور الدين سبق أن أوردنا وثيقة هامة تبين بوضوح الأوقاف التى عينها للمدرسة النورية الكبرى ، وقد ظهر منها أن ريعها الوفير كان يكفى للإنفاق على الطلاب والمدرسين إنفاقا متواصلا سخيا . ومن الممكن هنا أن نعطى مثـالا آخر لنؤكد هـذه الحقيقة ، فقـد ذكر أبو شامة [٥] أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى أئمتها ومدرسيها وفقهائها أوقافا كافية ، ومن مناقبه أنه عين للمغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافا كثيرة منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ، ودكانان بالعطارين ، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفا على هذه الأوقاف [٦] .

---

(١) ناجى معروف : المدرسة المستنصرية ص ٨ .
(٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٩٨ .
(٣) تاريخ مساجد بغداد للألوسى ص ١٠٣
(٤) سعيد نفيس : مدرسة نظامية بغداد ص ٣ .
(٥) الروضتين ١ : ١٦ .
(٦) [illegible] : الرحلة ص ٢٨٥ .

الأوقاف على التعليم فى مصر * :

وجدت الأوقاف على التعليم فى مصر قبل عهد نظام الملك ونور الدين بوقت طويل ، فمنذ سنة ٣٧٨ ه فى عهد العزيز بالله أصبح الأزهر معهدا علميا أكثر منه مسجدا [١] ، ولذلك نجد أن الوزير يعقوب بن كلس يسأل الخليفة العزيز بالله فى تحديد أجور لجماعة من الفقهاء ، فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض (أى نقداً) وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فإذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى العصر ، وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة [٢] . فلما جاء الحاكم عمد الى الأوقاف يعينها للإنفاق من ريعها على المساجد والمؤسسات الثقافية ؛ فلقد أوقف على الجامع الأزهر ، والجامع براشدة ، ودار العلم ، أوقافا عظيمة ذكرها فى سجل أشهد عليه قاضى القضاة مالك بن سعيد الفاروقى . وكانت الأوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار القرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، ويؤكد الحاكم أن هذه الوقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين [٣] .

فلما جاء الأيوبيون الى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين ، وحمايتهما للعلم ، ثم وجدوا أنفسهم فى مصر ، أمام تراث الفاطميين العريق ، ومدنيتهم العريضة ، التى كان الفن والعلم من أنضر فروعها ، فحافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج ، ورعوا العلم ، وما بخلوا فى الإنفاق عليه ، أنشأوا كثيرا من المدارس ، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية ، وظهرت موجة من التنافس فى هذا السبيل أخذ فيها الأمراء

---

* الحديث عن مصر سيشمل ايضا الحديث عن سوريا ، اذ امتد نفوذ الفاطميين والأيوبيين والمماليك الى بلاد الشام فى فترات طويلة من حكم هذه الأسر ، وعلى هذا نستذكر امثلة عن الأوقاف فى سوريا خلال هذا الحديث .

(١) Stanley Lane-Poole : Cairo 123. 121.

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ٢٧٣ — ٢٧٤ .

والوزراء والعلماء بنصيب ملحوظ ، وفيما يلى أمثلة موجزة لهذه الأوقاف :

يقول ابن جبير [١] إن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه [٢] يعين لها السلطان صلاح الدين أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها ، ويضيف المقريزى أن صلاح الدين عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماما بجوارها ، وفرنا تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة [٣] .

واقتدى بصلاح الدين غيره ممن أنشأوا المدارس ورعوا العلم فى العهد الأيوبى ، ومن هؤلاء تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذى اشترى منازل العز التى كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهة الخلفاء الفاطميين ، ثم جعلها مدرسة للفقه الشافعى ، ووقف عليها الحمام وما حولها ، وبنى فندقا عرف بفندق النخلة ووقفه عليها ، ووقف عليها جزيرة الروضة التى كان قد اشتراها من قبل [٤] .

ومن المدارس التى حظيت بوقف سخى المدرسة الدماغية بدمشق وكانت دارا لشجاع الدين بن الدماغ فلما مات جعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهما من المزرعة الدماغية ، والحصة من رجم الحيات ، والحصة من حمام إسرائيل خارج دمشق ، والحصة بدير سلمان من المرج ، ومزرعة شخب عند قصر أم حكيم ، ومحاكرات ، وغير ذلك [٥] .

ويذكر المقريزى [٦] ثمانية من زوايا جامع عمرو التى كانت تقام

---

(١) الرحلة ص ٢٧٥ .

(٢) خانقاه او خانكاه كلمة فارسية الأصل جمعها فى العربية خوانق ومعناها دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية والعباد .

(٣) انظر كذلك الخطط ٢ : ٤٠٠ .

(٤) الخطط ٣ : ٣٦٤ .

(٥) النعيمى : الدارس ١ : ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٦) الخطط ٢ : ٢٥٥ — ٢٥٦ .

بها حلقات تعليمية ويشير الى الأوقاف التى وقفت على كل من هذه الزوايا وفيما يلى إلمامة موجزة ببعضها :

- زاوية الإمام الشافعى التى دُرس بها فعرفت به ، ووُقِفت عليها أرض بناحية سندربيس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين .
- الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يُدْخَل إليه من سوق الغزل ، رتبها كمال الدين السمنودى وعليها فنــدق بمصر موقوف عليها .
- الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب ، رتبها تاج الدين الســطحى وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها .

وهكذا كانت الأوقاف فى الغــالب هى المورد الذى ينفق منه عــلى التعليم فى العالم الاسلامى ، ولكن فى بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة ، ذكر المؤرخون أن الوزير ابن كلس كان يُجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار فى كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين (١) .

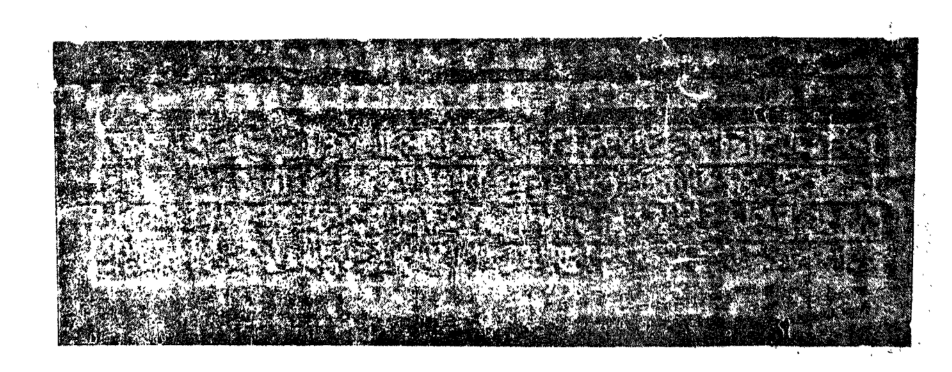
ومن الأمثلة التى تدعو للعجب والدهشة ما رواه ابن بطوطة (٢) من أن أحمد ملك إيذج كان يقسم خراج بلاده أثلاثا ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس .

وفى ختام هذا البحث نورد وقفية هامة هى تلك التى وقفتها ســت الشام أخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية ، وقد خُرِّبت هذه المدرسة واتُّخِذت داراً ، ولكن بقى منها بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية ، وعلى الصفحة التالية صورة هــذه العتبة (شكل رقم ١٥) وتمتاز هذه الوقفية بـ فوق أن مرجعها هو النص

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ٢٩٤ من الترجمة العربية .

(٢) تحفة النظار لابن بطوطة ٢ : ٣١ .



شكل رقم (١٥) : اللوح الذى سجلت عليه اوقاف المدرسة الشامية الجوانية

المكتوب على العتبة وهو مرجع موثوق به تماما — بأنها وقفية مفصلة دقيقة ، ثم بأن طريق إنفاق ريع الأوقاف ورد لنا مفصلا فى مرجع هام هو تاريخ مدارس دمشق للنعيمى ، وفيما يلى نص الوقفية :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام أم حسام الدين بنت أيوب بن شادى رحمها الله ، وقفتها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام (الشافعى) رضى الله عنه ، والموقوف عليها وعليهم وعلى ما يتبع ذلك ، جميع القرية المعروفة ببزينة ، وجميع الحصة وهى أحد عشر سهما ونصف من أربعة وعشرين سهما من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا ، وجميع الحصة وهى أربعة عشر سهما من القرية المعروفة بالتينة ، ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا ، وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستمائة .

أما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتى :

أولا — يبدأ فى الإنفاق بعمارة المدرسة ، وثمن زيت ، ومصابيح ، وحصر ، وبسط ، وقناديل ، وشمع ، وما تدعو الحاجة اليه .

ثانيا — يدفع للمدرس غرارة من الحنطة ، وغرارة من الشعير ، ومائة وثلاثون درهما فضة ناصرية .

ثالثا — عشر الباقى يصرف الى الناظر عن تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده عليها .

رابعا — إخراج ثلثمائة درهم فضة ناصرية فى كل سنة ، تصرف فى ثمن بطيخ ومشمش وحلوى فى ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر .

خامسا — الباقى يصرف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيّم المعدّ لكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها ، ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر فى أمر هذا الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان .

وقد ذكرت الواقفة أن من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة ، كما شرطت — رغبة منها فى أن يظل الملتحقون بالمدرسة فى مستوى مالى لائق — ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ، من جملتهم المعيد بها والإمام ، بخلاف المدرس والمؤذن والقيم إلا أن يوجد فى ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة ، فللناظر أن يقيم بقدر ما زاد ونما [1] .

---

(1) النعيمى ١ : ٣٠٢ — ٣٠٣ بتقديم وتأخير .

حلقة التعليم

ظهرت حلقة التعليم فى العالم الاسلامى مبكرة ، أو قل إنها ظهرت مع ظهور الاسلام ، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولا تزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضى المجيد ، وحسبك أن تزور الأزهر ، أو تزور أحد المساجد الشهيرة فى العالم الاسلامى كله ، لترى الشيخ مقبلاً على طلابه بحماسة ظاهرة ، وترى الطلاب تركزت عيونهم فى الشيخ لا يرون سواه ، ولا يستمعون إلا إليه ، كأنما شُدَّت عيونهم بوجه الشيخ ، وآذانهم بما ينطق به لسانه •

الجلسة فى الحلقة :

ويجلس الشيخ على حشيّة صغيرة (شلتة) أو على منصة ، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سوارى المسجد ، ويكوّن الحضورُ حلقةً أمامَهُ ، يكون هو فى أبرز نقطة فى محيطها ، ويجلس المستمعون فى الحلقة بترتيب دقيق ، لكل طبقة منهم مكان معين فيها ، فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار عن يمين الشيخ ويساره ، ويجلس الرفقاء فى درس واحد فى جهة واحدة من الحلقة ، ليكون نظر الشيخ اليهم جميعا ، ويترك فى الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب أن يستمع الى الدرس من الطارئين أو الذين لا يحضرون الدرس بانتظام • والعادة أن يحرص كل فرد أن يكون قريبا من الشيخ ولكن على ألا يتعدى المكان الذى هو أهل له [1] •

افتتاح الدرس :

ويفتتح الشيخ الدرس بالبسملة وبالصلاة والتسليم على الرسول وعلى آله وصحبه ، وربما تلا بعض آيات من الذكر الحكيم ، أو بعض

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم موجز ص ١٤٧ — ١٥١ وانظر ايضا العبدرى : المدخل ١ : ١٩٩ •

أحاديث الرسول التى يحث الطلاب فيها على طلب العلم للعلم ، وعلى التواضع فى طلبه ، وعلى حسن السيرة والأخلاق ، مبينا لهم أن ذلك يعين على حل المشكلات وإدراك المعميات ، ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقديم .

الأمـــالى :

فإذا كان المدرس يلقى من محفوظاته ، أو من مذكرات كتبها لأول مرة ليقرأ منها فإن الدرس يســمى إملاءً ، وفى هذه الحالة يكون إلقــاء الدرس بطيئا فقرة فقرة أو حديثا حديثا مع اتصال السند ، ويكتب الطلاب خلْف المدرس ما يمليه [١] ، فإذا ما انتهى المدرس من إلقاء حديث أو فقرة مستقلة عرّج بالشرح والإيضاح والتفسير لما يكون قد غمض فى الفقرة أو الحديث ، ويدوّن الطلاب هذه الشروح على هامش الأوراق التى كتبت عليها الأصول . فاذا ما اكتملت أمالى الشيخ فى ذلك الموضوع فانه ربما قرأ الأمالى أو قُرِئت عليه لتصحيحها ، ويجب أن نلاحظ الدقة فى النقل وفى التصحيح ، قال الوليد بن بكر [٢] « وليس النصح فى أداء الشريعة باتخاذ مجالس الأمالى مع وجود فساد الألفاظ فى النقل ، ولكن النصح يستلزم الاحتياط فى الأداء والدقة فى النقل ، ثم يقرأ الطالب ما كتبه عــلى الراوى ؛ فإن الراوى يثبت صــوابه وينفى خطــأه حتى لا يختلف لفظ الفرع عن لفظ الأصل » فإذا تم ذلك فان الشيخ قد يوقع على نسخة أو أكثر ، من نسخ تلاميذه ذاكراً أن هذا التلميذ قرأها عليه ، ويضيف أحيانا أنه يجيزه فى أن يروى ذلك عنه أو أن يدرّسه بإذنه .

ومن هذه الأمالى تكونت المخطوطات التى طبع كثير منها فأصبحت كتبا شهيرة ومنها مازال مخطوطا حتى الآن ، واتخذت تلك الكتب أو هذه المخطوطات عناوين مختلفة حسب موضوعــاتها ، واحتفظ بعضــها بلفظ « الأمالى » عنوانا ، مثل أمالى القالى وأمالى المرتضى وأمالى ابن الحاجب .

---

(١) معجم ابن حجر ٨ ب و ١٩ .

(٢) الوجازة فى صحة القول بأحكام الاجازة ١٨ ب ، ١٩ أ مخطوط .

إذا كان الدرس من كتاب :

وإذا كان الدرس سيلقى من كتاب يمكن الحصول عليه فقد كان المتبع أن يحصل الطالب على نسخة منه ، وأن يقرأ بنفسه الدرس وحده أو مع أحد زملائه قبل أن يلقيه المدرس ، ثم يجيء الشيخ فيعطى فكرة عامة عن موضوع الدرس ، ثم يبدأ فى قراءته فى الكتاب ، والطلاب يستمعون اليه ناظرين فى نسخهم ، ويقطع المدرس قراءته من حين الى آخر ليشرح للتلاميذ اللفظة الشاذة أو الجملة الصعبة أو الخبر الغريب [1] • ويكتب التلاميذ على هامش الكتاب ما يلقيه الشيخ عن شروح وإيضاحات ، وكانت لهذه الشروح وتلك الايضاحات أهمية كبيرة يرحل لها الطلاب المسافات الطويلة ويتحملون من أجل الحصول عليها ألوانا من المشقة والجهد ، ثم إذا حصلوا عليها يعدونها غُنْمًا يجب الحرص عليه والبخل بـه أن يضيع • روى أن الغزالى سار من طوس الى جرجان ليستمع الى الامام أبى نصر الإسماعيلى وقد علّق عنه تعليقات مفيدة ، ثم رجع الى طوس • قال الغزالى : فقُطِعَت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتُهم ، فالتفت إلىَّ مقدمُهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت • فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىَّ تعليقتى فقط ، فما هى شىء تنتفعون به • فقال : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابة تعليقات عليها ، فأمر بعض صحبه فسلم إلىَّ المخلاة [٢] •

وكانت فقرات أغلب الكتب تنتهى بدائرة مثل O كالدائرة التى بين آيات القرآن الكريم فى بعض طبعات المصاحف ، فإذا ما انتهى الدرس عند فقرة معينة فإن الشيخ والتلاميذ يضعون خطا مائلا بهذه الدائرة علامة لما وصل اليه الشرح •

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٨٢ .

(٢) ترجمة الغزالى : الاحياء ١ : ٢ .

الأسئلة وآدابها :

وكان لكل طالب الحق فى أن يسأل أى سؤال لاستيضاح ما صعب عليه فهمه ، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : شفاء الجهل السؤال . وأنه قال : العلم خزانة مفتاحها السؤال . وحثّ على بن أبى طالب الطلاب ألا يهابوا السؤال ويستحيوا منه فقال : قُرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان (١) . وقال شيخ للمأمون : أقبيح بى أن أستفهم ؟ فقال : بل قبيح بك أن تستبهم (٢) وقيل لدغفل : بم أدركت هذا العلم ؟ فقال بلسان سئول وقلب عقول ، وكنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته (٣) .

ولكن الأسئلة كانت تجرى تبعا لآداب خاصة فكان على الطالب أن يسأل تفقها لا تعنتا (٤) ولا رياء (٥) ثم كان عليه أن يختار الوقت المناسب لإلقاء سؤاله ، فلا يقاطع مدرسه وهو يتكلم ، ولا زميله وهو يسأل (٦) .

وكان الطلاب يشجّعون على أن يسألوا ، ولكن على أن تفتح أسئلتهم آفاقا جديدة ، وأن تدل على عمق وإعمال فكر ؛ فاذا حدث ووُجّه سؤال تافه للمدرس فان ذلك ربما أثار الضحك أو السخرية ، ففى مجلس أبى عبيدة (على بن عبيد الله السمسمى المتوفى سنة ٤١٥ هـ) سأل أحدُ الحاضرين قائلا : رحمك الله يا أبا عبيدة ما العنجيد ؟ قال أبو عبيدة : ما أعرف هذا . قال الرجل : سبحان الله أين يذهب عنك قول الأعشى :

يوم تَبْدِى لنا قتيلةُ عن جيدٍ تليع تَزينه الأطواق

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٢٣ .

(٢) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .

(٣) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٧ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١١٨ .

(٤) ابن قتيبة : المكان السابق .

(٥) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٧ .

(٦) العبدرى : المدخل ١ : ٩٠ .

فقال أبو عبيدة : عافاك الله ، عن حرف جر والجيد العنق ، ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه واشتد ساعيا فى مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حشرت البهائم علىَّ اليوم ؟ من أين حشرت البهائم على اليوم ؟ [١] .

وكان المدرس أحيانا يقوم مقام السائل • فيلقى على الطلاب بضعة أسئلة ليختبر فهمهم ، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه ، وهو بهذا يعطى فرصة للطلاب محدودى المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة بسطٍ لمسائله •

* * *

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ٢٧٠ .

مراحل التعليم

تنقسم مراحل التعليم فى العهد الحاضر فى أغلب الدول المتمدينة الى أربعـــة :

- ـ التعليم الابتدائى •
- ـ التعليم الثانوى •
- ـ التعليم الجامعى •
- ـ الأبحاث والدراسات العليا •

ومما يدعو الى الدهشـــة أن هـــذه المراحل كانت متبعـــة ومتميزة فى العصور الوســطى عنـــد المســلمين • صـــحيح أنهم لم يضـــعوا الحدود الفاصلة بين كل مرحلة وأخرى كما هو متبع فى العهد الحاضر ولكنهم عرفوا هذا التطور الطبيعى فاتبعوه فى معاهدهم • وقبل أن نسوق كلام المؤرخين المسلمين عن هذه المراحل ، لعل من الأوفق أن نتذكر أن التعليم الابتدائى فى العهد الحاضر يشمل تعليم القراءة والكتابة ثم دراسة موجزة سريعة واضحة للتاريخ والجغرافيا والرياضة وغيرها ، وأما التعليم الثانوى فزيادة فى الإيضاح والتفاصيل لهذه الموضوعات ، وفى التعليم الجامعى يكون التخصص والتعمق والتحليل ، فإذا تذكرنـــا ذلك فلندع ابن خلـــدون يذكر لنا نظريته عن مراحل التعليم وكيف يجب أن تكون عند المسلمين ، قـــال :

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلم إنما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيا وقليلا قليلا ، يلقى عليه المدرس أولا مسائل من كل باب من الفن ، هى أصول ذلك الباب ، ويشرحها لـــه على ســـبيل الإجمـــال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله ، واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهى الى آخر الفن ، وعند ذلك تحصل له ملكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله •

---

(١) المقدمة ص ٣٩٤ .

ثم يرجع الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجْهِه ، إلى أن ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته .

ثم يُرْجَع به ثالثا وقد شذا ، فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضَّحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته .

وليس بعيدا عن هذا ما ذكره الغزالى فى ذلك الموضوع فهو يقول : وعلى الطالب المبتدىء أن يتحرز عن الإصغاء الى اختلاف الناس ، فان ذلك يدهش عقله ، وينبغى أن يؤجل النظر فى ذلك إلى أن يصير متقدما فى العلم ، وأن يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف فينظر فيه نظرا يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحدا من هذه العلوم ليتبحَّر فيه ، على ألا يخوض فى ذلك الموضوع دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم [1] .

ويحث ابن خلدون [2] المعلم على أن يتبع هذه المراحل بكل دقة ويعيب على بعض المعلمين جهلهم بطرق التعليم وإفادته ؛ إذ يلقون على المتعلم فى أول تعليمه المسائل المغلقة من العلم ويطالبونه بإعمال ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم ، وصوابا فيه ، فهم بذلك يخلطون على المتعلم بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها قبل أن يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثال الحية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بدراسة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب

(١) احياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ٤٢ — وقد مر ذكر هذه الفقرة فى الفصل السابق عند الحديث عن أخلاق التلاميذ وواجباتهم ، واعيد ذكرها هنا لأنها وثيقة الصلة بما نتحدث عنه الآن .

(٢) المقدمة ص ٣٩٤ .

الذى فوقه ، حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ويحيط بمسائل الفن .

تلك هى نظرية المسلمين فيما يتعلق بمراحل التعليم فإذا ذهبنا الى الواقع وجدنا أنه فى أغلب الأحوال لم يكن بعيدا عن الفكرة النظرية ؛ فقد وجد التعليم الابتدائى فى الكتّاب حيث كان التلاميذ يتلقون مبادىء عامة فى الموضوعات ، أما التعليم الذى يشبه الأبحاث والدراسات العليا فى العهد الحديث فقد وجد فى دكاكين الوراقين ومنازل العلماء والصالونات الأدبية كما مرّ ذلك موضحا بجملة من الأمثلة .

أما المسجد فقد وجدت فيه المرحلتان الثانية والثالثة ، إذ كان يعقد فيه حلقات يختلف مستواها : فمنها ما هو الى الاجمال والوضوح أميل ، وهذه أقرب الى التعليم الثانوى ، ومنها ما هو أرفع مستوى وأكثر عمقا وتلك بالتعليم الجامعى أشبه . ويتضح من هذا أننى لا أميل الى أن أوافق على الرأى الشائع الذى يجعل المسجد فى مستوى التعليم الجامعى فقط ، فالحقيقة أن المسجد اتسع للنوعين جميعا ، فاننا لا يمكن أن ندعى أن الزوايا الثمان التى كانت فى جامع عمرو هى جميعها فى مستوى واحد ، فالمقريزى يصف إحداها وهى زاوية الامام الشافعى بأنها نسبت للشافعى حيث كان يجلس بهـا للتـدريس ، ويضـيف بأنه لـم يزل يتـولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء ، ويتحدث المقريزى عن غيرها من الزوايا ناسبا إياها الى مؤسسها أو الى مـدرس أقل شهرة وأهميـة من الإمام الشافعى ومن جاء بعده فى التدريس بزاويته [1] .

وكانت الحال فى مسجد دمشق كالحال فى مسجد عمرو ، بل إن كلام ابن جبير يفيد أن المراحل الثلاث وجدت فى هذا المسجد ؛ إذ ينص على أن الصبيان كان لهم موضع فيه يقرءون القرآن ويتلقون مبادىء العلوم [2] وقد

---

(١) الخطط ٢ : ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٢) الرحلة ٢٦٥ ، ٢٧٢ .

سبق أن ذكرنا عند الحديث عن الكتاب أن بعض معلمى الكتاتيب كانوا يتخذون من المسجد مكانا لتعليم الصبيان •

وعلى هذا فقد كان الصبى المسلم يتلقى تعليمه الأولى فى الكتّاب الذى غلب أن يكون خارج المسجد •

فاذا انتهى بنجاح من تلقى هذه الطائفة من مبادىء العلوم فانه حينئذ يلتحق فى المسجد بحلقة من الحلقات التى تدرس بها كتب سهلة التناول غير معقدة ولا كثيرة التفاصيل ، فاذا قطع فى هذا الدور شوطا موفقا استطاع إذاً أن يلتحق بحلقات أخرى فى نفس المسجد أو فى مسجد آخر حيث يجلس الى الشيوخ المشاهير الذين يدرسون كتبا عالية المستوى كثيرة التفاصيل والتعمق والإحاطة •

واختلفت مكانة المساجد العلمية وشهرتها ، فمساجد الأقاليم وبعض المساجد الصغيرة بالعاصمة كان أغلب حلقاتها مما يناسب الصبيان الذين فرغوا حديثا من الكتاتيب ، كما تخصص الأزهر مثلا فى الدراسة الجامعية فلا يؤم حلقاته إلا من شذا عناه — كما يقول ابن خلدون — ومن كانت له معرفة تؤهله للاستفادة من الدراسة العالية التى كانت تعقد فيه •

ولما أنشئت المدارس فى العالم الاسلامى كان من الملاحظ أن مستوى المدرسة يتوقف على مستوى من يُعين للتدريس بها ، فاذا تركت المدرسة للمعيدين أو إذا عُيِّن فيها مدرس غير متبحر فى العلوم فهى حينئذ فى مستوى التعليم الثانوى ، فإذا أتيح لهذه المدرسة نفسها أن يعين فيها مدرس من المعروفين بالتعمق ، وسعة الاطلاع ، وحسن العرض ، فإن مستوى المدرسة يرتفع وتصير بالتعليم الجامعى أشبه ، وتدلنا المراجع التى بين أيدينا (١) على أن مستوى كثير من المدارس كان يتأرجح تبعا للمدرس الذى يقوم بالعمل ؛ غير أن بعض المدارس كالمدارس النظامية كانت جامعية

---

(١) انظر النعيمى وحسن المحاضرة فى مواضع متعددة .

المستوى دائما ؛ ذلك لأنها ما كان يعين بها إلا خيرة الشيوخ ومشـــاهير العلماء وقد مرّ ذكر كثير منهم ٠

أما المرحلة الرابعة وهى مرحلة الأبحاث والدراسات العليا فقد عرفت أيضا فى العالم الاسلامى ٠ يروى ابن الأنبارى [١] أن أمير المؤمنين المأمون أمر الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ، وصيَّر له الوراقـين وألزمه الأمنـاء والمُنْفِقين ليؤدُّوه بما يحتاجه من كتب ، ووكل به الجوارى وخدما القيام بما يحتاج اليه ، فجعل الوراقون يكتبون عنه حتى صنف كتاب المعانى ، وأمر المأمون به نكتب فى الخزائن ، ثم خرج الفراء الى الناس ليملى عليهم ذلك النتاج ٠

وقد تحدثنا فى مكان آخر من هذا الكتاب عن الترجمة التى كانت تدور فى بيت الحكمة وفى بيت بنى شاكر وغيرهم ، مع اضافة شروح وتعليقات على الأصل الذى يترجم عنه ، ومثل هذا العمل إنما هو نوع من الأبحاث والدراسات العليا ٠

* * *

(١) طبقات الأدباء ١٢٧ — ١٢٨ ٠

الداخلية فى المدارس

عرف المسلمون النظام الداخلى فى دور العلم منذ عهد مبكر ؛ فمنذ شُيِّد الأزهر منذ أكثر من ألف عام ، استقبل هذا المعهد العظيم أفواج الطلاب من بلدان القطر المصرى ومن بلدان العالم الاسلامى كله ، وكان كثير من هؤلاء يلازمون الإقامة فيه ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وتحمل اليهم الأطعمة والخبز والحلوى بانتظام • ويذكر المقريزى [١] أن عدتهم فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة بلغت سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعة ومن ريف مصر والمغاربة •

وأما عن النظام الداخلى بمصر فى عهد الدولة الأيوبية فيحدثنا عنه ابن جبير [٢] حديث شاهد عيان فيقول : وقد جعل السلطان صلاح الدين جامع ابن طولون مأوى للغرباء يسكنونه ويحلّقون فيه وأجـرى عليهم الأرزاق فى كل شهر ••• وما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكن فيها •

ويذكر Stanley Lane Poole [٣] أن المدرسة الناصرية التى بناها صلاح الدين بمصر كانت تشمل مساكن للطلاب والمدرسين ، بالاضافة الى أمكنة الدراسة وغيرها من الملحقات الضرورية • وعلى ذكر الداخلية التى خصصت للمدرسين بهذه المدرسة نذكر أن الملك الأشرف موسى بن العادل (٦٣٥ هـ) اشترى دار صارم الدين قايماز وبناها مدرسة خرّب حمام الدار وبناه مسكنا للشيخ المدرس بها [٤] •

ويبدو أن الداخلية وُجِدَت أول ما وجدت متصلة بالأزهر الشريف ،

---

(١) الخطط : ٢٧٦ — ٢٧٧ • (٢) الرحلة ص ٣٢ •

(٣) The Story of Cairo p. 160.

(٤) النعيمى ١ : ١٩ •

ولكنها انتقلت منه الى سواه من المدارس فى العالم الاسلامى كله ، ففى العراق كانت الداخلية بالمدارس النظامية شيئا أساسيا ، ذكر عماد الدين الأصفهانى [١] ما نصه : « وسكن المدرسة النظامية ببغداد من حملة الشريعة رجالها » وكانت داخلية المدرسة المستنصرية غاية فى الفخامة ، وكان الملتحقون بها من طلاب ومدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه فى الانفاق عليهم ، يقول ابن العبرى [٢] : إن المدرسة المستنصرية لم يعمر فى الدنيا مثلها ، إذ كانت فى أعظم وصف فى صورتها ، وآلاتها ، واتساعها ، ودورها ، وزخرفتها ، وكثرة فقهائها ، ووقوفها ، رتب فيها المستنصر أربعة من المدرسين ، لكل مذهب مدرس ، كما رتب ثلثمائة فقيه لكل مذهب ٧٥ فقيها ، ورتب لهم من المشاهرات والخبز والطعام فى كل يوم ما يكفى كل فقيه ويفضل عنه ، وبنى لهم داخل المدرسة حماما خاصا للفقهاء ، وعيّن طبيبا خاصا يتردد عليهم فى بكرة كل يوم يتفقدهم ، وبنى مخزنا فيه كل ما يحتاج اليه من أنواع ما يُطبخ من الاطعمة ، ومخزنا آخر فيه أنواع الأشربة والأدوية [٣] .

أما عن سوريا فقد أجمعت كل المراجع على أن الداخلية كانت تعد مرفقا هاما من مرافق مدارسها ، وقد زرت هذه البلاد ورأيت عدة من مدارسها الأثرية وكان فى كل منها أمكنة مخصصة لبيت الطلاب . وتعتبر المدرسة النورية الكبرى التى أوردنا عنها دراسة مفصلة نموذجا صادقا لمدارس سوريا الأخرى وللنظام الداخلى بها وقد تحدث ابن جبير [٤] حديثا ممتعا وهو يصف إحدى مدارس حلب وموقع القسم الداخلى بهذه المدرسة فقال بعد حديثه عن جامع حلب وفخامته : ويتصل بالجامع من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى كله

---

(١) زبدة النصرة ص ٦٢ . (٢) تاريخ ابن العبرى ص ٤٢٥ .
(٣) انظر ايضا فى ذلك Khuda Bukhsh · Islamic Civilization p. 287.
(٤) رحلة ابن جبير ٢٥٣ .

بيوت وغرف لها طيقان تطل على عريش كرم يثمر عنبــا ، ولكل طــاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها فيمدُّ الساكن فيها يــده ويجنيه دون كلفة ولا مشقة .

آداب الطلبة فى الداخلية :

وللطــالب فى القســم الداخلى آداب فصَّلها ابن جماعة فى كتــابه « تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » ونحن نورد منها هنا طرفاً :

يهتم ابن جماعة بهذا المجتمع الذى سيقوم فى المدرسة ، فــيرى أن تخَصَّص الداخلية إلى الطلاب الذين عُرِفوا بحسن أخلاقهم وسماحتها حتى يكونوا فى الداخلية متوادِّين متحابين ، كما يرى أن تكون الداخلية المخصصة للفتيات فى أمكنة منعزلة لا يكثر أن يمر بها الرجال [١] وإذا سكن الطالب فى البيوت العليا خفَّف المشى والاستلقاء عليها ، وخفف وضع ما يثقل كى لا يؤذى من تحته [٢] ولا يجلس أو يقف على باب المدرسة أو فى صحنها ، ويقلل الدخول والخروج ما أمكنه [٣] ، وألا يعمل ما يؤذى زملاءه الساكنين [٤] ، ويتجنب على العموم كل العادات القبيحة [٥] .

---

(١) تذكرة السامع ص ٢٢٩ .　(٢) تذكرة السامع ص ٢٣ .
(٣) تذكرة السامع ص ٢٣١ .
(٤) تذكرة السامع ص ٢٣٣ .
(٥) تذكرة السامع ص ٢٣٤ .

الباب السادس

موضوعات الدراسة



بين التعليم والعلم :

هناك حقيقة هامة حددت موقفى فيما ينبغى أن يكتب فى هذا الباب من معلومات ؛ تلك أن موضوعنا الأساسى فى هذه الدراسة هو ما يسمى « العملية التعليمية » ، ومن أجل هذا لزم أن نتحدث عن : المكان الذى تدور الدراسة فيه ، وعن المعلّم ، والمتعلم ، والموضوع الذى يُدْرَس ، ثم نذكر فذلكة ختامية هامة عن أشهر من أسسوا المدارس وعن الأوقاف على التعليم ونظام الحلقة وغيرها من فلسفة النظم بالمعاهد العلمية ، ويبدو أن أبواب الدراسة السابقة بهذا الكتاب قد استوعبت الحديث عن كل هذه العناصر .

أما عن منهاج الدراسة فمن الواضح أنه كان يختلف اختلافا يسيرا أو كبيرا باختلاف الأمكنة التى تدور فيها الدراسة ؛ فللكتّاب منهاجه ، وللمؤدبين خطة خاصة يرتسمونها ، وللمسجد اتجاهه ، وللصالونات الأدبية تنوّعها وتطورها ، ومن أجل هذا تحدثنا عن الموضوعات التى كانت تدرس عند حديثنا عن كل مكان انعقدت فيه أو قامت به دراسة ، وأعطينا من الأمثلة مجموعة كافية للإيضاح والإبانة .

أما العلوم التى ارتقت فى العالم الإسلامى والتى أولاها كثير من قادة المسلمين عناية وتشجيعا كعلوم الشريعة والفلسفة والطب والرياضة فليس هنا مكان الحديث عنها لأنها تخرج بنا من التعليم الى العلم ، ثم هى فى الوقت نفسه موضوعات معقدة طويلة يحتاج الواحد منها الى كتاب قائم بذاته ، بل إن الكثير منها دُرِس فى كتب قائمة بذاتها [1] .

من أجل هذا لم يكن من الطبيعى أن نتعرض هنا للحديث عن هـذه العلوم ، وكانت النية أن تقف هذه الدراسة عند نهاية الباب الثامن ؛ غير أن التعليم فى مصر فى العهد الفاطمى اتخذ صبغة خاصة ، ومال إلى اتجاه جديد ؛ ذلك هو نشر المذهب الإسماعيلى الذى كان يعتنقه خلفاء الدولة .

---

(١) من الابحاث الحديثة عن الطب مثلا عند المسلمين

١ — قوانين الصحة عند المسلمين — الدكتور احمد صدقى — القاهرة ١٩١٠ .
=

وكان نشر هذا المذهب والدعاية له يتبعان خططا جديدة لم يكن هناك عهد بها ، فتغير بذلك موضوع الدراسة وطريقتها ، ولا يزال كلاهما غير واضح تماما ، إذْ فَقَدَ العالَمُ الإسلامي كثيرا من المؤلفات المهمة التي كتبها قادة الشيعة ، وكان فقدان هذه المؤلفات غالبا على يد مسلمين يعتنقون المذهب السنى ، لاعتقادهم أن ما تدعو اليه انما هو انحراف عن الدين الحق الذي يدينون به ، ثم إن مـا نجا من كتب الإسماعيلية احتفظ قـادتهم بالأكثرية الغالبة منه سراً ، ورغبوا عن طبعه وإذاعته لاعتقادهم أنه كتب للخاصة لا لعامة الناس • وقد انتهزت فرصة رحلتي بدول الشرق الأوسط سنة ١٩٥٠ فقابلت بعض شيوخ الشيعة الأفاضل ، وكثيرا ممن يعنون بهذه الدراسة ، وقد أتيح لي بذلك أن أقرأ جملة من مخطوطاتهم ، وأتعرف على الكثير من آرائهم التي أدون قبساً منها فيما يلي ، وسأجعل الدراسة في هذا الباب في حدود عملي ، أي أني سأجعلها إلى التاريخ أقرب ؛ فأجمع أقوال الإسماعيلية ومعتقداتهم ، وأرتبها ، وأعرضها ، ولنبدأ هذا العمل باسم الله •

=

٢ — فضل العرب على الجراحة — الدكتور حسين الهوارى — القاهرة

٣ — Arabian Medicine : Edward Browne, London 1921.

٤ — آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب — الدكتور احمد عيسى — القاهرة ١٩٢٥.•

٥ — Arabian Medicine : Campbell, London 1926.

٦ — الطب العربي وآثاره — الدكتور زكي على — القاهرة ١٩٣١ •

٧ — Encyclopoedia Baitannica, S. V. Medicine.

ومن الابحاث الحديثة عن علوم الرياضة عند المسلمين :

١ — History of Physics in its Elementary Branches : Cajoria, New York 1929.

٢ — علوم العـرب الرياضية وانتقالها الى اوروبا — احمـد فهمى ابو الخير •

٣ — Mathematical Recreations : Rouse Ball, London 1914.

٤ — Encyclopoedia Britannica, S. V. Mathematics.

٥ — The Encyclopoedia of Eduction p. 1041.

وعشرات او مئات من الكتب الاخرى وبخاصة فى العلوم الاسلامية •

المذهب الإسماعيلى فى مصر

عندما فتح الفاطميون مصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة أدركوا أنهم أمام شعب له قَدَم فى الثقافة والمدنية منذ عهد طويل ، كما أدركوا أن استسلام المصريين كان تبعية سياسية ، لا خضوعا يتصل بالعقيدة والمذهب ، ومن أجل هذا نجد ذلك الشعب المغلوب يطلب من قائد الفاطميين وثيقة مكتوبة يعلن فيها أن يكون للمصريين الحق المطلق فى الاستمرار على مذهبهم الدينى الذى يرتضونه ، وأنه لن يكون هناك أى ضغط من هذه الجهة على ميول الناس ومعتقداتهم ، وقد هدد المصريون بالمقاومة إن لم تتحقق لهم هذه الرغبة ، ومنحهم « جوهر الصقلّى » هذه الوثيقة المفصّلة التى يقول فيها : « ... وذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم ومن التابعين بعدهم ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم [1] ... » وعلى هذا أدرك الفاطميون أن نشر مذهبهم بين المصريين لن يكون عملا يسيرا ، ومن هنا بدءوا يرسمون الخطط ويحشدون القوى للتأثير فى هذا العناد أو قل العداء الذى أظهره المصريون ضد التشيع منذ اللحظات الأولى .

وكانت خطة الفاطميين تشمل مرحلتين : المرحلة الأولى مرحلة التعليم والتشريع ، والمرحلة الثانية مرحلة الدعوة السرية ، وقد اتضحت هاتان المرحلتان من السجل الذى صدر عن الخليفة الفاطمى بتولية داعى الدعاة وقد سبق إيراده ، ونحن نعود فنقتبس منه الفقرة التالية قال :

« واتل مجالس الحكم على المؤمنين والمؤمنات ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقلْ أفهامهم بتقبله ، وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدّ العَقْد على كل منقاد ظاهر [2] » .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٦٧ — ٧٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ — ٤٣٩ .

وعلى هذا النحو سار داعى الدعاة ونوابه ، فهم يدرسون فى الجهر علوماً وتشريعات عامة مع لمحات حول المذهب الشيعى ، حتى إذا عثروا بين جماهير المستمعين على مستجيب الدعوة الشيعية راغب فى الاستزادة من علومها وأفانينها نقلوه من المجالس العامة الى المجالس الخاصة ومن علوم الجهر الى علوم السر .

ثم هم فى العلوم السرية ، لا يُطلعون المستجيب عليها دفعة واحدة بل يتدرجون به من مرتبة الى مرتبة من مراتبها التى تبلغ تسعا ، ولا ينقلونه من واحدة إلى أخرى إلا إذا تقبل السابقة وهضمها . فإذا انتهى من الدرجات التسع كان قد وصل إلى أعلى درجات التشيع وأسمى مراتبه .

ولن يكون لجانب السرى ومراتبه التسع نصيب من الحديث فى هذا الكتاب ، لأن هذا الكتاب يبحث عن التعليم العام لا عن الاتجاهات السرية ، هذا إلى أن المقريزى قد تحدث بإفاضة عن هذه الدرجات ، فمن الممكن أن يعود اليه من يرغب فى الاستزادة من هذا الموضوع [1] وسيكون حديثنا إذاً عن المرحلة الأولى وهى مرحلة التعليم ، وسنتبع الخطة التالية فى عرض هذا الموضوع :

أولا — العقائد الإسماعيلية فى العهد الفاطمى .
ثانيا — الجهد الذى بذله الفاطميون للدعوة لهذه العقائد .
ثالثا — المصريون والمذهب الإسماعيلى .

مبادىء مهمة أسجلها هنا :

وقبل أن أشرع فى هذه الدراسة يتحتم أن أسجل هنا بعض المبادىء المهمة :

أولا — إن الفكر السنّى الذى عاش عليه المصريون قبل دخول الفاطميين ، لم يَختَفِ من مصر خلال العهد الفاطمى ، على الرغم من محاولات الفاطميين بل ظلّ يصارع ليستبقى وجوده ، وكان أحيانا يتغلب

(١) الخطط ١ : ٣٩١ — ٣٩٧ .

على عقيدة النظام الحاكم ، وقد أشرفت حديثا على رسالة دكتوراه تدارسنا فيها صراع المذهب السنى خلال ذلك العهد ، عنوانها : **مصر بين المذهب السنى والمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى** وقام باعدادها الدكتور أحمد كامل المدرس بكلية دار العلوم •

ثانيا — مما لا يحتاج الى تنبيه أننى أتحدث عن المذهب الاسماعيلى بمصر خلال العهد الفاطمى كمؤرخ ، يتعقب الأحداث ، ويجمع عناصرها ، ويرتبها ، ويدونها ، ولما كان من واجب المؤرخ فى العصر الحديث أن يعلق على الأحداث ، فانى أثبت استنكارى لمبادىء هذا المذهب ، واعتقادى أن جذورها ليست إسلامية ، وكما رفضها أجدادى كما ذكرت آنفا فانى أرفضها وأتمسك بالاتجاهات السنية وأرجو أن يعتبر ذلك تعليقا على جميع العقائد الاسماعيلية التى سنرويها فيما بعد •

ثالثا — قلت آنفا إن جذور هذه العقائد ليست اسلامية ، وأريد هنا أن أوضح هذا القول ، وقد قمت بإيضاح هذه القضية فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى ووضعت لذلك عنوانا مهما هو :

الشيعة ومدعو التشيع

وإذا فهمنا الفرق بين الشيعة وبين مدعى التشيع فان القضية لا يبقى بها أى غموض ، فالشيعة هم أحباب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكانوا يرون عند وفاة الرسول صلوات الله عليه أن عليا أولى بالخلافة ، فلما اختير أبو بكر للخلافة أجمع عليه الناس ومنهم أحباب على ثم على نفسه ، وأصبح على أحد أعضاء مجلس شورى أبى بكر ، ثم كان قاضى المسلمين فى عهد عمر ، وبايع لعثمان عندما أعلن عبد الرحمن بن عوف اختيار خليفة •

تلك هى الشيعة الحقيقية ولا شىء أكثر من هذا أما مدعو التشيع

فلغز خطير فى التاريخ ، انهم جماعة ليسوا مسلمين بل ادَّعوا الاسلام . وليسوا شيعة بل ادَّعوا التشيع ليشعلوا النار فى العالم الاسلامى ، وقد ظهرت طلائعهم فى عهد علىّ ، عندما قال له زعيم من زعمائهم : « أنت هو » فسأله على من هو ؟ فقال : أنت الله .

ذلك هو قمة الضلال الذى قال به مدعو التشيع ، ثم تفرع هـذا الضلال وامتدت أعضائه ، وحرص آل البيت على عقوبة هؤلاء كلما بدر منهم ما يخالف الإسلام .

ومدَّعو التشيع يستمدون فكرهم من الفكر اليهودى أو الفكر الفارسى الذى كان مسيطراً قبل الاسلام ، وكانوا يعملون للنيل من الاسلام عن طريق إشاعة المعتقدات المنحرفة بعد أن فشلوا فى الانتصار على الاسلام فى الميادين العسكرية .

ومدعو التشيع ظهروا قبل ادعائهم التشيع فى صور مختلفة ، فمنهم اليهود والمنافقون الذين حاربوا الرسول . ومنهم من أثار حركات الردة والتنبؤ فى عهد أبى بكر ، ثم عظم شأنهم بعد فتح بلاد فارس ، وكان منهم الذين قتلوا عمر وأخيرا وجدوا فى عهد عثمان طِلبتهم ، فلجئوا لادّعاء التشيع ليتخذوه وسيلة لصراع طويل .

وينبغى أن نثبت هنا أن هؤلاء هم الذين قتلوا عثمان ثم قتلوا عليا ، ثم قتلوا الحسين ، وأثاروا مشكلات راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين .

وقال مدّعو التشيع باشياء كثيرة يرفضها الاسلام ومنها المعتقدات التى سنرويها مرتبطة بعقائد الاسماعيلية ورفض الشيعة الحقيقون هذه المعتقدات ، ولكن الشيعة الحقيقيين اختلطوا بمدعى التشيع فى الصراعات الطويلة التى خاضوها ابتداء من معركة الجمل وما تلاها عَبْر التاريخ ، ودخل مدعو التشيع الى صفوف الشيعة خلسة ، ثم بدءوا يذيعون افكارهم ، وقد طردهم الشيعة احيانا ، واحيانا أخرى اغضى الشيعة النظر عنهم لحاجتهم لهم ولسيوفهم وأموالهم ، وفى خلال هذا الاختلاط الذى طـال ،

تسربت أفكار مدعى التشيع للشيعة الحقيقيين ، وعلى مر الزمن لم يبق هناك شيعة لم يتاثروا ، أو قل لم يفترقوا من أفكار مدعى التشيع ، وزال الحاجز بين هؤلاء وأولئك •

وأشهد الله أننى فى بعض الجلسات الخاصة ، مع بعض زعماء الشيعة الذين يعتنقون الآن أفكار مدعى التشيع بحذافيرها ، فى هذه الجلسات دارت أحاديث علمية عميقة صرح فيها هؤلاء الزعماء أنهم يدينون بما أدين به ، وأنهم يعتقدون أن هذه الأفكار أو هذه المعتقدات التى يظهرونها باطلة وأن جذورها ليست اسلامية ، وعندما صرخت فيهم قائلا : لماذا لا تعلنون ذلك ؟

كان الجواب بشعا ؛ هو أنهم يخافون الجماهير ، وهكذا أصبحت العربة هى التى تجر الحصان ولا حول ولا قوة إلا بالله •

فى ضوء هذا نروى عقائد الاسماعيلية ، وهى صورة من صور الأباطيل التى تنسب لمدعى التشيع ، أو قل انها أخف هذه الأباطيل لأن زعماء الاسماعيلية كانوا حريصين على ألا يثيروا المصريين ، فلم يكشفوا عن كل أباطيلهم كتلك التى تجعل علىّ بن أبى طالب إلها ، أو تجعل الأئمة ، لا يموتون ، وأنهم يعلمون الغيب •

ولعلى بذلك — أيها القارىء الكريم — أبرىء نفسى من هذا الزيف الذى طال أمده ، وأرجو أن أكون بذلك قد ساعدت على القضاء عليه •

وعلى من يرغب فى الاطلاع على دراسة مفصلة مؤيدة بالأحداث والأمثلة أن يطالع هذا الموضوع فى كتابى « الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى » وفى الجزء رقم ٤٠ من المكتبة الاسلامية لكل الأعمار للمؤلف •

والآن نروى هذه الأباطيل كأشياء حدثت فى التاريخ ، معلنين — مرة أخرى — بعدها عن الإسلام واستنكارنا لها :

أولا — عقائد الإسماعيلية *

(أ) الوصى والأئمة :

يعتقد الشيعة (مدعو التشيع كما ذكرنا من قبل) أن لكل نبى وصياً ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يختار الوصى لنبيه ، وقد كان وصى آدم هابيل ، ووصى نوح ابنه سام ، ووصى إبراهيم ابنه إسماعيل ، وكان وصى موسى أخاه هارون ، ووصى عيسى بن مريم حواريه شمعون فوجب لمحمد وصى وسبب الحاجة الى الوصى أن سـنة الله مضـت فى جميع من أرسله من رسله أن يكون الرسول هو الناطق بظاهر الشريعة والتنزيل ، ويقيم الله له أساسا (الأساس اصطلاح إسماعيلى معناه القائم بأمر الباطن) من أقرب الناس اليه ممن اسـتجاب لدعوته ورضى محبته

---

* ١ — دعائم الاسلام ، تاويل دعائم الاسـلام ، اسـاس التاويل الباطن ، المجـالس المستنصرية ، المجـالس المؤيدية وغيرها من الكتب والمخطوطات الواردة هنا هى فى الواقع مراجع يوثق بها تمام الثقة عنـد الحديث عن عقائد الاسماعيلية ، اذ أن كل كتاب من هذه الكتب يغلب أن يكون مؤلفه هو داعى الدعا ة فى عهده .

(٢) تفضل الأستاذ عباس العزاوى المحـامى ببغداد فاطلعنى على مخطوط مهم فى مكتبته الخاصة الفه الداعى على بن حنظلة — والمخطوط عبارة عن أرجوزة شعرية تضم عقائد الاسماعلية ومن اجل هذا اسماها مؤلفها « سمط الحقائق » وفيما يلى مقتطفات منهـا وبخاصة عن الوصى والناطق :

نفى الصفات	: الحمد لله العلى السامى	عن صفة الكمال والتمـام
الوصى	: وبابنـا الى ولى الوصى	من بعده مولى الورى على
لولا الأئمة ماخلق الخلق	: واوجدوا نفوسنا من العدم	تمننا منهم علينـا والكرم
الناطق والصامت	: وبعـد كل ناطـق وصى	يخلفه موفـق مرضى
الظاهر والباطن	: مبينا تاويـل ما اتى به	من سـنة الله ومن كتابه
الابن بعد الوصى	: ثم يقيم بعـده ائمـة	مطهرين ينشرون الحكـمة

للقيام بأمر الباطن [١] . ومن أجل هذا اختار الله علياً ليكون وصى الرسول محمد والقائم بأمر الباطن ، وأعلم الله محمدا بذلك ، فهم الرسول بأن يطلع أصحابه على ما أوحاه الله اليه ، ولكن كان على أحدث الصحابة سنا ، وكان من المصلحة أن يرجأ هذا الاعلان ، فأنزل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة « لا تحرك به لسانك لتعجل به ... ثم إن علينا بيانه [٢] » فعلم الرسول من هذه الآيات أن إعلان التعيين لا يكون إلا بإذن الله ، فكتم ذلك إلى أن أنزل الله عليه فى حجة الوداع الآية الكريمة « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته [٣] » ومعناها عند مدعى التشيع : أخبر قومك أن علياً قد اختير ليكون وصياً .

فلما رجع رسول الله من حجة الوداع وصار « بغدير خم» أمر بالدوحات فقمن له ، ونادى بصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، وأخذ بيد على فأقامه إلى جانبه وقال : أيها الناس ، اعلموا أن علياً منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ، وهو وليكم بعدى ، فمن كنت مولاه ، فعلى مولاه ، ومن كنت وليه فعلى وليه وأميره ، ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطه وقال : اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار [٤] .

وكان هذا التصرف من الرسول هو نهاية الفرائض ، ولذلك نزل بعد ذلك قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا [٥] » .

وتولى الحسن بعد على فكان الحسن بذلك أول إمام ؛ ولم تنتقل الولاية من الحسن بعد موته لأولاده بل تولاها

---

(١) جعفر بن منصور : الفترات والقرانات ٢ ا ب مخطوط .
(٢) القاضى النعمان : اساس التأويل الباطن ١٧٣ أ مخطوط ، والآيتان من سورة القيامة رقم ١٧ و ١٩ .
(٣) سورة المائدة الآية ٦٧ .
(٤) القاضى النعمان : اساس التاويل الباطن ١٨٩ أ والمناقب والمثالب ٦٨ ب ، ودعائم الاسلام ١٣ ب مخطوطات .
(٥) سورة المائدة الآية الثالثة .

الحسين لأن الحسن تنازل لمعاوية عن الخلافة والسلطة ، فلما مات الحسين انتقلت الامامة فى ذريته لقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله [1] » .

ويعتقد الشيعة أن الامام ضرورى للجنس البشرى ، وأن الأرض لا تخلو قط من امام ظاهر أو مستور تبعا للقوة المادية التى تؤيده ، ولابد لكمال الاسلام أن يعرف الشخص إمام عصره ، روى عن الامام الباقر أنه قال : بنى الاسلام على سبع دعائم : الولاية هى أفضلها [2] . ويقول الكلينى : أثافى الاسلام ثلاثة : الصلاة والزكاة والولاية ، لا تصلح واحدة منهن إلا بصاحبتيها [3] ، ويروون عن الرسول أنه قال : من مات ولم يعرف أمام زمانه مات ميتة جاهلية [4] ، ويشرح المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى هذه الفكرة بقوله فى أحد مجالسه : لو أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسنته التى جاء بها رسوله كلها ، ثم لم يقترن بعمله شهادة أن محمد رسول الله لم يغن عنه ما عمل فتيلا ، ولم يتبع غير أهل النار سبيلا ، إذ ولاية الرسول كالمركز الذى تدور عليه الفرائض فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، وإذا كانت هذه نَصْبة الرسول [مكانته] فى حياته ، كانت نصبة من يوليه أمر الدين بعده مثلها ، وكمثل ذلك نصبة من يليه ، ومن يلى منه وهكذا [5] .

ويروون عن الرسول أنه قال : يا على ، أنت والأئمة من ولدك أعراف الله بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه ، ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه [6] .

وتجب طاعة الوصى والأئمة من بعده طاعة شاملة لا تردد فيها ، إذ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٦ ، انظر دعائم الاسلام ٢٦ أ ، ب .
(٢) تاويل دعائم الاسلام ج ١ ص ٧ .
(٣) اصول الكافى ١٧٤ ب مخطوط .
(٤) المجالس المؤيدة ١ : ١،٥٦ مخطوط .
(٥) المجالس المؤيدة ج ١ ص ٥ .
(٦) دعائم الاسلام ١٨ ب مخطوط .

يروى النعمان عن أبى جعفر محمد بن على أنه قال فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم [١] » إيانا عنِىَ بهذا [٢] ، وفى قوله تعالى « ولو ردوه إلى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم [٣] » قال هم الأئمة [٤] .

(تذكَّرْ أيها القارىء أن هذه العقيدة وماتلاها مما جاء أو يجىء هى من اباطيل مدعى التشيع) .

(ب) العصمة :

قال الإسماعيلية بعصمة الامـام والرسـول ، بل لعلهم لم يدينوا بعصمة الأنبياء إلا ليتاح لهم القول بعصمة أئمتهم [٥] .

وعصمة الأنبياء وعدم ارتكابهم الخطيئة صغيرة كانت أو كبيرة من الضرورات الأولية عند الشيعة ، إذ لو جاز الخطأ عليهم لكان جائزا بوجه عام من غير تقييده بنوع دون نوع ، ولو لم يكن الرسول معصوما من الزلل لقلت الثقة به ولا نتفت فائدة البعثة [٦] ، والعلة التى اقتضت عصمة الأنبياء هى التى اقتضت عصمة الأئمة ، إذ أن جواز الخطأ على الإمام يحول دون قيامه بأمور الامامة ، فوجبت لهم العصمة كما وجبت للأنبياء ، والدليل على ذلك قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا [٧] » فالإمام حافظ الشرع قائم به ، والحاجة الى الإمام إنما هى للانتصاف للمظلوم من الظالم ولرفع الفساد ، وحسـم مادة الفتن ، وإن الإمام يمنع القاهرين عن التعدى ، ويحمل الناس على فعل الطاعات واجتناب المحارم ، ويقيم الحـدود والفرائض ، ويؤاخذ

(١) سورة النساء الآية ٥٩ . (٢) دعائم الاسلام ١٦ ا .
(٣) سورة النساء الآية ٨٥ . (٤) دعائم الاسلام ١٨ ا .
(٥) دكتور محمد كامل حسين : فى ادب مصر الفاطمية ص ٧ .
(٦) السيد محمد صادق الصدر : الشيعة ص ١١٧ .
(٧) سورة الأحزاب الآية ٣٣ والاقتباس من « الشيعة » للسـيد محمد صادق الصدر ص ١١٨ ، ١١٩ ومنتهى المراد للموسوى ٥٩ ، أ ، ب مخطوط .

الفساق ، فلو جازت عليه المعصية أو صدرت عنه لانتفت هذه الفوائد [١] .
وعلى هذا فالأنبياء والرسل والأئمة والملائكة معصومون مطهرون لا يذنبون ذنبا كبيرا ولا صغيرا [٢] . ويسوق الشيعة ادعاءات تؤيد وجهة نظرهم ، فيروون عن الرسول أنه قال : « أنا وعلى والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون » ويروون عن بعض الأئمة قوله : الإمام مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب . وعن إمام آخر قوله : الإمام مبرأ عن العاهات معصوم من الزلات [٣] .

ومن أشهر الكتب التى ألفت فى ذلك الموضوع كتاب تنزيه الأنبياء للسيد الشريف المرتضى أبى القاسم على بن الحسين الموسوى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ [٤] ومؤلف الكتاب يضع المنهاج الذى اتبعه فيه فى مقدمته التى يقول فيها : سئلت — أحسن الله توفيقك — إملاء كتاب فى تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام عن الذنوب والقبائح كلها ، كبيرة أو صغيرة ، والرد على من خالف فى ذلك على اختلافهم وضروب مذاهبهم . وأنا أجيب إلى ما سئلت على ضيق الوقت وتشعيب الفكر ، وأبتدىء بذكر الخلاف فى هذا الباب ثم بالدلالة على المذهب الصحيح من جملة ما أذكره من المذاهب ، ثم بتأويل ما تعلق به المخالف من الآيات والأخبار التى اشتبه عليه وجهها ، وظن أنها تقتضى وقوع كبيرة أو صغيرة من الأنبياء والأئمة عليهم السلام ... قالت الشيعة لا يجوز على الأنبياء شىء من المعاصى والذنوب كبيرا كان أو صغيرا لا قبل النبوة ولا بعدها ، ويقولون فى الأئمة مثل ذلك .

وهكذا ينساق المؤلف فى كتابه الكبير يؤيد مذهب الشيعة (مدعى التشيع) فى عصمة الأنبياء والأئمة ، ويرد على من خالفهم فى ذلك ويؤول ما احتج به المخالفون .

---

(١) سليمان بن الحسين : ارشاد البشر ، ابو جعفر القمى : اعتقاد الصدوق — مخطوطان بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف غير مرقمين .
(٢) اعتقاد الصدوق للقمى .
(٣) الموسوى : منتهى المراد ٥٩ ب .
(٤) المطبعة الحيدرية بالنجف ١٢٥٠ هـ .

(جـ) صفات أخرى للأئمة :

تصف بعض كتب الشيعة الأئمة بأوصاف تسمو بهم الى مراتب الأنبياء بل الى مرتبة الواحد القهار ، ويمدح الشعراء أئمة الشيعة بقصائد ومقطوعات تحمل نفس المعنى ، وسيرد من هذه وتلك بضعة نماذج فيما يلى من صفحات ، ولكنى أشير الآن الى الفكرة التى اتخذها هؤلاء أساسا لينسبوا للإمام مثل هذه الصفات أو ليمدحوه بمثل تلك القصائد ، فقد أرجع الدكتور كامل حسين هذا الى ما سماه « نظرية المثل والممثول » وهو يقول : لا نعدو الصواب إذا قلنا إن « نظرية المثل والممثول » هى مركز الدائرة التى تدور عليها الاسماعيلية ، وهى التى تشرح لنا شعر المدح فى العصر الفاطمى ، وفحوى هذه النظرية أن مخلوقات الله المحسوسة كالسماء والأرض وغيرها ليس كل منها الا مثلا لممثول معقول غير مرئى ، وإن كل محسوس أو مثل معقول ممثولا ، ويعتقد الاسماعيلية أن :

١ — أول ما خلق الله القلم (ويطلقون عليه أيضا العقل الكلى) .

٢ — الله منزه عن الصفات التى يصفه بها أهل السنة وإنما الذى يتصف بهذه الصفات هو القلم (العقل الكلى) .

٣ — هذا العقل الكلى أو القلم ممثول والنبى فى عصره هو المثل لهذا العقل ، فإذا انتقل النبى الى العالم الآخر أخذ الأئمة من أهل بيته مكانه .

٤ — المثل يأخذ نفس الصفات التى لممثوله فى الحدود العلوية . وبهذا يأخذ الأئمة الصفات التى للقلم تلك الصفات التى ينسبها السنيون لله جل وعلا ، فكل الصفات التى تذكرها كتب الشيعة للأئمة ، أو المدائح التى يذكرها شعراء الشيعة فى قصائدهم إنما هى فى الواقع (عند الإسماعيلية) موجهة للأئمة على أن كلا منهم مثل لممثول يستحق هذه

الصفات وتلك المدائح [١] .

ذلك موجز نظرية المثل والممثول وفى ضوئها أسند الشيعة لأئمتهم الصفات التالية :

الإمام وجه الله ويده ونوره ، ونور الله لا يزال ينتقل من إمام إلى امام ، والأئمة سبب وجود المخلوقات ، وهم خلفاء الله فى أرضه ، والأوصياء أبواب الله التى يؤتى منها [٢] ، والأئمة والأنبياء يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمته مالا يؤتيه غـيرهم [٣] ، وتعرض عليهم أعمـال الناس [٤] ، وإذا أراد الإمام أن يعلم شيئا أعلمه الله إياه ، ويعلمون متى يموتون ، ولا يموتون إلا باختيارهم [٥] وتدخل عليهم الملائكة وتأتيهم بالأخبار [٦] .

ويروى الموسوى فى كتابه « منتهى المراد » عن الباقر أنه قال : نحن سبب خلق الخلق [٧] . وروى كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال مخاطبا عليا : يا على:أنت الإمام والخليفة بعدى ، حربك حربى وسلمك سلمى ، وأنت أبو سبطىَّ وزوج ابنتى ، من ذريتك الأئمة المطهرون ، فأنا سيد الأنبياء وأنت سيد الرؤساء ، وأنا وأنت من شجرة واحدة ، ولولانا لم يخلق الله الجنة والنار ، ولا الأنبياء ولا الملائكة [٨] ، ورَوَى أن علياً خطب فى البصرة فكان مما ذكره من خصائصه قوله : أنا عالم بضمائر قلوبكم والأئمة من أولادى يعلمون [٩] .

ويروى الكرمانى فى الرسالة الوضية [١٠] : أن معرفة الإمام عبادة

---

(١) انظر نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية للدكتور كامل حسين .
(٢) الكلينى : اصول الكافى ورقة ٧٥ أ .
(٣) المصدر السابق ٦٠ أ .
(٤) المصدر السابق ٦٥ أ ، ب .
(٥) المصدر السابق ٧٧ أ .
(٦) المصدر السابق ١٢٠ ب .
(٧) ورقة رقم ١٥ أ
(٨) ١٧ أ .
(٩) ٣٩ ب .
(١٠) الرسالة الوضية ٤١ ب .

لله واستكمال للدين ، والولاءُ له ، عقدُ الضمير على أنه القائم مقام الله تعالى ومقام رسوله ، وأمره أمر الله ، ورضاه رضاء الله ، وسخطه سخط الله .

(د) الظاهر والباطن :

القول بالظاهر والباطن مبدأ مهم من مبادىء الاسماعيلية ، وترجع تسميتهم بالباطنية الى قولهم بالظاهر والباطن . وهذا المبدأ خطير جدا فقد استغله بعض الاسماعيلية ليفسروا القرآن والحديث على النحو الذى يصل بهم إلى غاية معينة ، وكانت بعض تفسيراتهم لا يربطها أى رابط بنص القرآن أو الحديث بل لا توحى بها هذه النصوص .

ويستدل الاسماعيلية على مبدأ الظاهر والباطن بقوله تعالى « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » (١) وقوله : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (٢) . ويقول الداعى : إن الظاهر والباطن كالروح والجسد ، إذا اجتمعا انقدحت الفوائد ، وعرفت المقاصد ، وأدركت النفس ما فى العالم من البدائع (٣) . وقد ورد فى سجل تولية داعى الدعاة قول الخليفة الفاطمى : إن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفسٌ والظواهر أرواحها ، وإنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الإيجاد بالاعدام (٤) .

وجاء فى تأويل دعائم الإسلام (٥) ما نصه : مَثَلُ الاسلام مثل

---

(١) سورة الانعام الآية ١٢٠ . (٢) سورة لقمان الآية ١٩ .

(٣) المجالس المستنصرية ص ٢٧ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ١٠ : ٤٣٧ .

(٥) جـ ١ ورقة ١٧ .

الظاهر ومثل الإيمان مثل الباطن ولا يقوم ظاهر إلا بباطن ولا باطن إلا بظاهر • ونص الاسماعيلية على أنه من عَبَدَ الله بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر فهو ممن يعبده على حرف [1] ولنورد فيما يلى بضعة أمثلة لبواطن بعض الآيات على ما يقوله الاسماعيلية (مدعو التشيع) •

— « ألم نشرح لك صدرك » [2] المعنى الباطن لها : أقمنا لك الأســــاس •

— « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى » [3] المعنى الباطن لها : جعلنا فى ذريتك سبعة أئمة [4] •

— « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » [5] المعنى الباطن لها : إن النصباء اثنا عشر ، منهم أربعة أصول [6] •

— « وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » [7] المعنى البـاطن لهـا : الصدقة المقبولة ما كانت لإرضاء الرسول أو الأئمة من بعده [8] •

— « وما ننسخ من آية أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها » [9] المعنى الباطن لها : ما ينقرض إمام من الأئمة الذين هم آيات الله وأعلامه وأركان دينه وقوامه ••• إلا ونقيم مقـامه مِثْله فى فضـله أو أفضـل منه [10] •

---

(١) المجالس المستنصرية ص ٢٩ (٢) سورة الانشراح الآية الأولى

(٣) سورة الحجر الآية ٨٧ •

(٤) القاضى النعمان : أساس التأويل الباطن ١٨٢ أ ، ب •

(٥) سورة التوبة الآية ٣٦ •

(٦) أساس التأويل الباطن ٢٥ ب ، ٢٦ أ •

(٧) سورة البقرة الآية ٢٧٢ • (٨) المجالس المؤيدية ١ : ١١١

(٩) سورة البقرة الآية ١٠٦ •

(١٠) المجالس المؤيدية ١ : ١٩ أ •

(هـ) الأئمة والتشريع :

المصادر الرئيسية للشريعة الإسلامية هى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ، غير أنه بعد وفاة الرسول جدت بعض حالات لم يكن فى القرآن ولا فى الأحاديث إجابة مباشرة لها ، ومن أجل هذا اجتهد علماء أهل السنة فى الإجابة عن هذه الأسئلة باستعمال الرأى الناتج عن العلم والاجتهاد ، أو بقياس هذه المسألة بأقرب نظير لها وَرَدَتْ عنه إجابة صريحة ، وأصبح بذلك الرأى والقياس معترفا بهما بين علماء أهل السنة لسدّ ذلك الفراغ الذى قد يظهر أمام الباحثين ورجال الإفتاء .

ولكن الشيعة — كما مرّ — يعتقدون فى أئمتهم أن الله يؤتيهم من مخزون علمه وحكمته ما لا يؤتيه غيرهم ، وتنزل عليهم الملائكة ، وتأتيهم بالأخبار ، وإذا أراد الإمام أن يعلم شيئا أعلمه الله إياه . وهم من أجل هذا لا يحتاجون للرأى والقياس ، فكلما جدّ أمر ليس فى القرآن ولا فى أحاديث الرسول إجابةٌ صريحة عنه تلقّى الإمام من الله الردّ على هذا السؤال ، كما كانت الحال مع الرسول تماما ، ومن أجل هذا يبطل استعمال الرأى والقياس .

ثم أن الشيعة يستمدون أحكامهم من أحاديث الرسول التى روتها سلسلة من علماء الشيعة ، فقد روى جعفر بن محمد عن آبائه عن الرسول عليه السلام أنه قال : تعلموا من عالم أهل بيتى ، ومن تعلم من عالم أهل بيتى نجا من النار [1] .

وقد روى القاضى النعمان فى كتابه (دعائم الإسلام) مجموعة من الحوار الذى دار بين جعفر بن محمد والإمام أبى حنيفة النعمان ، والذى كان هدف الأول فيه أن يوضح للثانى بطلان الأخذ بالرأى والقياس ، وفيما يلى طرف من ذلك الحوار اللطيف :

---

(1) القاضى النعمان : دعائم الاسلام ٥٤ أ .

جعفر : ما الذى تعتمد عليه فيما لم تجد فيه نصاً من كتاب الله ولا خبراً عن الرسول ؟

أبو حنيفة : أقيسه على ما وجدتُ من ذلك .

جعفر : إن أول من قاس ، إبليس ، فأخطأ ، اذ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فرأى أن النار أشرف عنصراً من الطين فخلده ذلك فى العذاب المهين .

يا أبا حنيفة ، أيهما أطهر : المنى أو البول ؟

أبو حنيفة : المنى .

جعفر : قد جعل الله فى البول الوضوء وفى المنى الغسل ولو كان يُحْمل على القياس لكان العكس أولى . وأيهما أعظم الصلاة أو الصوم ؟

أبو حنيفة : الصلاة .

جعفر : أمر رسول الله الحائض أن تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، ويقضى القياس أن يكون الأمر بالعكس [١] .

وبناء على اختلاف الأسس التى تؤخذ منها الشريعة ، وبسبب المصدر الجديد الذى اعتمده الشيعة ، أصبح لهم فقه خاص بهم يتفق ويختلف مع فقه أهل السنة ، وفيما يلى امثلة لفقه الشيعة مقتبسة من الترجمة العبقرية للعلامة غلام حليم بن قطب الدين الهندى [٢] ومن غيره من الكتب الهامة :

الطهارة : يقولون بطهارة الخمر [٣] .

---

(١) القاضى النعمان : دعائم الاسلام ٥٩ ب ، ٦٠ أ .
(٢) مخطوط بدار الكتب ٣٦٠٨ تاريخ .
(٣) المخطوط المذكور ٣٧ أ .

— لا يحتّمون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق بالثوب [1] .

الصلاة : يجيزون الجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء من غير عذر [2] .

— يقنتون فى الركعة الثانية فى صلاة الجمعة [3] .

— لا يجيزون القصر فى الصلاة للمسافر إلا إذا كان مسافرا إلى مكة أو المدينة أو الكوفة أو كربلاء أو النجف [4] .

— تختلف عدد التكبيرات على الميت تبعا لمكانته [5] .

الصوم : صوم اليوم الثامن عشر من ذى القعدة سنة مؤكدة [6] .

— لا يبحثون عن هلال رمضان ولا عن هلال شوال ، ودائما يبدأون رمضان قبل أهل السنة بيوم أو يومين ، ورمضان عندهم كامل دائما [7] .

الزكاة : لا تجب الزكاة فى أموال التجارة .

— يدفع الشيعى خمس إيراده للإمام [8] .

النكاح : يجوّزون نكاح المتعة [9] .

— لا يقع الطلاق إلا بشاهدين كالزواج [10] .

---

(١) المخطوط السابق ٣٧٣ ا .

(٢) نفس المصدر ٣٧٤ ب .

(٣) الخطط ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٠ .

(٤) الترجمة العبقرية ٣٧٥ أ .

(٥) الخطط ١ : ٣٥٣ .

(٦) الترجمة العبقرية ٣٧٦ ! .

(٧) سيرة المؤيد فى الدين ٥ — ٦ .

(٨) القاضى النعمان : كتاب الهمة ٦٦ — ٦٧ .

(٩) الترجمة العبقرية : ٣٨١ ب .

(١٠) المصدر السابق ٣٨٥ ب .

الميراث : يقدمون القرابة على العصبة (ولعلهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس) .

يقدمون البنت على العم فى الميراث [١] .

لا يورثون الجد عند وجود ابن الابن [٢] .

الأذان : يزيدون فيه عبارة : حى على خير العمل [٣] .

ثانيا — جهود الفاطميين الدعوة لعقائدهم

(أ) حلقات التعليم :

سبق القول بأن الفاطميين كانوا يهتمون بنشر مذهبهم اهتماما كبيرا ، وأنهم لمسوا أن المصريين لن يستجيبوا بسهولة لذلك المذهب الجديد ، وأنه لابد للوصول لهذا الهدف من بذل جهود كبيرة ، وكان من أهم هذه الجهود إنشاء معاهد للعلم ، وتعيين الشيوخ ليجلسوا للناس ليعلموهم ويرشدوهم ، وهكذا بكرَّ الفاطميون بإنشاء الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، أو قل أقدم جامعة عالمية ذات شأن . وجاء بعد الأزهر عددٌ من المساجد التى انتظمت فيها حلقات تعليم ، وضنَّ الحاكم بأمر الله بالجهود أن توزع فى المساجد بين العبادة والعلم فأنشأ دار العلم [٤] حيث يخلو العلماء للطلاب وحيث لا يأوى إلا الراغبون فى الثقافة وتحصيل العلم ، ثم أعدَّ الفاطميون ووزراء الفاطميين قصورهم [٥] لتقوم بها مجالس منتظمة للثقافة الرفيعة ، وفى هذه أو تلك كان يجلس داعى الدعاة أو الوزراء للدعاية الصريحة أو المستترة للمذهب الجديد .

---

(١) المقريزى : الخطط ١ : ١١١ و ٢ : ٣٤٠ .
(٢) الترجمة العبقرية ٣٩٠ أ .
(٣) على بن ظافر : الدول المنقطعة ٤٨ مخطوط .
(٤) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤١ .
(٥) ابن حجر : رفع الإصر ٩٢ أ ، ب .

وكان يعقوب بن كلس يجلس بنفسه للناس ليقرأ لهم كتابا ألفه فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله ، وهو مبوب على أبواب الفقه ، ويقع فى حجم نصف صحيح البخارى ، ويشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية ، وكان يجلس ليقرأ منه وبين يديه خواص الناس وعوامهم ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وأفتى الناسُ بـه ودرسوا فيه بالجامع العتيق .

وكان القاضى النعمان يجلس بالمسجد [١] ليقرأ للناس ، ثم كان قاضى القضاة على بن النعمان يجلس بالجامع الأزهر ليقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت .

أما عن دار الحكمة فقد مر حديث قصير عنها ، ونريد أن نضيف الآن أن الحاكم بأمر الله أراد فى بادىء الأمر أن يجذب لها الناس على أنها للدراسة الحرة فى جميع المذاهب فدعا اليها الشيوخ من السنيين والشيعيين وقرئت فيها فضائل الصحابة ، ولكن سرعان ما أُبْعِد عنها شيوخ أهل السنة ، بل قُتِلَ بعضهم وتأكدت بذلك ميولها المذهبية وأصبحت بما فيها من استعداد وتيسير على الطلاب من أبرز الأمكنة فى الدعاية لمذهب الدولة [٢] ، كما كانت هذه الدار المكان الذى يجتمع فيه داعى الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة [٣] ، وقد حصل أكثر ذلك بعد عهد الحاكم بأمر الله .

أما عن قصور الخلفاء فقد فتحها الخلفاء لأتباعهم ليلقوا فيها الدرس ، وقلدهم فى ذلك وزراؤهم ، وفى قصر الخليفة كان هناك مكان يسمى (المحوّل) وهو يشبه ما نسميه الآن (قاعة المحاضرات) ، وقد كان المحول قبلة لأنظار المصريين من مختلف الطبقات ، وكذلك كان يرد اليه

---

(١) الخطط ٢ : ٣٤١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٣ .
(٣) الخطط ١ : ٣٩١ .

الطارئون على مصر ليتلقى فيه هؤلاء وأولئك علوم أهل البيت ، وكانت هذه المجالس تعرف بمجالس الحكمة أو مجالس الدعوة [1] .

قال القاضي النعمان : أخرج إليَّ المعز لدين الله كتابا عن علم الباطن ، وأمرني أن أقرأه على الناس في كل يوم جمعة في مجلس قصره المعمور ، فكثر ازدحام الناس وغصَّ بهم المكان [2] . وكان القاضي محمد بن النعمان يجلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم أهل البيت وكان يقبل عليه الناس إقبالا عظيما حتى أنه في إحدى جلساته في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ كثر الحاضرون مما سبب أن مات في الزحام أحد عشر رجلا [3] .

وكانت هذه المجالس تتقرر للناس كل على حسب طبقته ، فكان لآل عليٍّ مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، وللخدم مجلس ، وللنساء مجلس ، وهكذا . ثم كان للمبتدئين مجلس ، وللمستجيبين مجلس على حسب درجاتهم . وكانت إذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون أو المؤمنات على الداعي فيمسح على رءوسهم بالقطعة التي بها إمضاء الخليفة [4] .

وكان الدعاة في الأقاليم يؤدون المهمة التي كان داعي الدعاة يقوم بها في القاهرة من شرح المذهب الشيعي والدعاية للعقائد الاسماعيلية [5] .

وقد جُمعت هذه الدروس المذهبية في مجموعة كبيرة من الكتب فُقِد أغلبها في ظلام الأحداث التي مرت بالدولة الفاطمية في أثناء قيامها ، والتي أطاحت بكثير من تراثها العلمي بعد سقوطها ، ولكن على كل حال لا تزال هناك مجموعة قيمة من هذه الكتب نذكر منها : أساس التأويل

---

(١) الخطط ١ : ٣٩٠ — ٣٩١ .
(٢) المجالس والمسايرات ٦٨ أ ، ب .
(٣) الخطط ١ : ٣٤١ و ٣٩١ .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) الخطط ١ : ٣٩١ .

الباطن . دعائم الاسلام . تأويل دعائم الاسلام ، المجالس المؤيدية ، المجالس المستنصرية ، المجالس والمسايرات ، وفيما يلى نماذج موجزة لهذه المجالس العلمية :

١ — من المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الاسلام .

(درس من داعى الدعاة للدعاة)

قال النعمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صـُّوا صفوفكم ، وحاذوا بين مناكبكم ، فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفـُرَج من واجب الصلاة وحدودها فى الظاهر . ومثله فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حـُدَّت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حدَّه الى غيره ، ومن رأى منهم خللا فليجتهد حتى يسده [1] .

٢ — من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيدية .

(درس للعامة)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد ، وعلى أخيه ، وابن عمه على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين : العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتـمِّين كلمة عدله وصدقه ... أيها المؤمنون ، صِلـُوا ما أمر الله به أن يوصل بقولــه « أطيعــوا الله وأطيعوا الرســول وأولى الأمر منكم » [2] فأولو الأمر هم الأئمة ، وتذكروا قوله تعالى « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » [3] والنعيم فى بعض الروايات هو ولاية على بن أبى طــــالب [4] .

---

(١) المجلس كله ١٧٢ ب — ١٧٥ ب .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) سورة التكاثر الآية ٨ .

(٤) المجلس كله من وجه الورقة ١٩ الى ظهر الورقة ٢١ .

(ب) الشعر فى خدمة المذهب الإسماعيلى :

كان الشعر هو صحافة ذلك العهد أو محطات الإرسال والاذاعة فيه ، يقول Nicholson [(١)] إن الشعراء كانوا يقودون أفكار الجماهير ويوجهونها ، فكانت مقطوعاتهم الشعرية تقوم مقام النشرات السياسية أو خطب البلغاء والفصحاء الذين يؤيدون حكومة ما أو يعارضونها • ومن هنا اتجه الخلفاء الفاطميون للشعراء ليجذبوهم نحوهم ، وليستغلوا لصالح الدعوة هذه القوة الكبيرة ، وبالغ الخلفاء فى إكرام الشعراء ومنحهم الهدايا العظيمة بين الحين والحين ، فأغرى ذلك الشعراءَ وانطلقوا يؤيدون الدعوة الجديدة ويجمعون بشعرهم لها الأنصار والأتباع ، وقد أصبح مما يشين الشاعر أن يمدح الخليفة دون أن يضمّن شعره فنونا من العقائد الإسماعيلية ، داعيا لها حاثا على اعتناقها ، ومن هنا أصبحت دواوين شعراء الفاطميين مصدرا هاما من المصادر التى نستقى منها عقائد الاسماعيلية ، وقد أدى شعر هؤلاء الشعراء مهمته فى أثناء حياتهم من الدعوة للمذهب كما بقى هذا الشعر يؤدى نفس المهمة بعد وفاتهم ؛ إذ ظل شعرهم يُروى ويُدرس وينتقل من جماعة الى أخرى ومن جيل الى جيل ، ولكن كمصدر من مصادر هذا الفكر فقط •

وفيما يلى نماذج مختارة من شعر ثلاثة من شعراء الفاطميين ذوى الأثر الكبير فى ذلك الموضوع :

١ — من شعر ابن هانىء [(٢)] :

ص ٣ — ٧

هو علة الدنيا ومن خُلِقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء
هذا أمين الله بين عباده وبلاده ، إن عُدّت الأمناء
فاسلم إذا راب المنيةَ حادثٌ واخلُدْ إذا عمّ النفوس فناء

(١) A. Literary History of the Arabs p. 241.

(٢) ديوان ابن هانىء طبعة القاهرة ١٢٧٤ .

ص ٧ — ١٠

وللّه عـلم ليس يُحجَب دونكم ولكنه عن سـائر الناس محجوب
وأنت معدٌ وارث الأرض كلّهـا فقد حُم مقدورٌ وقد خط مكتوب

ص ٣٦

حـل بِرَقّادةَ المسـيحُ حـل بهـا آدم ونـوح
حل بها الله ذو المعـالى وكـل شىء سـواه ريح

ص ٣٠

ما أجزل الله ذخـرى قبل رؤيته ولا انتفعت بإيمـان وتوحيـد

ص ٣١ — ٣٥

إمام لـه ممـا جهلت حقيقـةٌ وليس له — فيما علمت — مزيد
وإن الذى سمّاك خـير خليفـة لمُجْرى القضاءَ الحتم حيث تريد

ص ٥٥ — ٥٩

إمـام رأيت الدين مرتبطاً بـه فطـاعته فـوز وعصـيانه خسر

ص ٦٢ — ٦٤

ما شئتَ لا ما شـاءت الأقـدار فـاحكم فأنت الواحـد القهـار
هـذا الذى ترجى النجاة بحبـه وبـه يُحَطّ الإصر والأوزار
هذا الذى تُرْجى شفاعته غـداً حقـاً وتَخمد أن تـراه النـار
أنتم أحبـاء الإلـه وآلـه خلفـاؤه فى أرضـه ، الأبـرار
شرفت بك الآفاق ، وانقسمت بك الـ أرزاق والآجـال والأعمـار

ص ٩٦ — ١٠٠

فافخر فمن إنشائك الفردوس إن عُدّت ، ومن إحسـانك التنزيل

ص ١٠٠ — ١٠٤

وعلمتَ من مكنون عـلم الله مـا لم يؤتِ فى الملكـوت ميكـائيلا

ص ١٠١ — ١٢٨

ومتصل ، بين الإله وبينه ممرٌ من الأسباب لم يتصرم

ص ١٣٧ — ١٤٠

ماذا نريد من الكتاب ؟ نواصب وله ظهور دونها وبطون
لو كان رأيك شائعا فى أمة علموا بما سيكون قبل يكون

ص ١٥٠ — ١٥٣

هو الوارث الأرضَ عن والديـ ـن أب مصطفى وأب مرتضى
شهيدى على ذاك حكم النبى بين المقام وبين الصفا

٢ — من شعر الأمير تميم [١] :

ص ٢٣

وإنك أنت المصطفى الملك الذى بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك فى غير أهله وكان على أفق الشريعة غيهب

ص ٥١ — ٥٢

لولا العزيز أمين الله ما لجأت نفسى إلى ملجأ منه ولا وَزَرِ
يا ابن الأئمة والهادين متصلا بصفوة الله أهل الوحى والسور
ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس فى جسم من البشر
وأنت بالله دون الخلق متصل وأنت لله فيهم خير مؤتمر

ص ٦١

يا صفوة الله من بَرِيتِه وسرُّ عليائه الذى ظهرا

ص ٦٣

يا حجة الله التى أشرقت فينا ، ويا صاحب كنز الجبار
ويا هدى من ضل عن رشده واشتبه الحق عليه فجار
أبوك جلا الظلم والبغى عن شرائع الدين وأنت المنار

(١) الديوان نسخة خطية فى مكتبة الدكتور كامل حسين .

ص ٦٨ — ٦٩

بـدت لك آيـات عليك شـواهد بأنك أنت المصطفى من أولى الأمر
وإنك أنت الخامس القائم الذى تدين له أرض العراقـين بالقسر
وإنـك مهـدىُّ الأئمـة كلهم وصاحب ذا الوقت المسمى وذا العصر

ص ٢٦٦

يا حجة الرحمن عند عبـــاده وشـهابه فى كـل أمـر مقبل
من لم يكن فى صـومه متقربـا بك للإلـه فصومه لـم يتقبّل

٣ — من شعر المؤيد فى الدين [1] (داعى الدعاة فى عهد المستنصر) :

ص ٢٠١

بنفسى مستنصرٌ بالإلـــــه جنود السماء لـه ناصره
شهدت بأنك وجـه الإلـــه وجوه الموالى بـه ناضره

ص ٢٠٥

وهم أولو الأمـر أئمة الهـدى عصمة من لاذ بهم مـن الردى
مفروضـة طـاعتهم عـلى الأمم قاطبة مـن عـرب ومن عـجم
اقـرأ : أطيعـوا الله والرسـولا ثـم أولى الأمـر بهم موصـولا

ص ٢٣١ — ٢٣٢

فوجهك وجـه الإلـه المنـير ونورك من نوره كالحجـــاب
يداك يـدا الله مبســـوطتان وأنت له الجنب غيرَ ارتيـــاب
وأنت المثيب لأهل الثـــواب وأنت المعاقب أهـل العقـاب

ص ٢٧٣

قصر به يصلى السـعيرَ عـدوُّه وإلى الولى بـــه تحنُّ جنانهُ
قد حله وجـه الإلـه وجنبـه ولسانُ صـدق محمدٍ وجنَانهُ
ملكٌ ، وملائكةُ السماء جنـودُه وملوكُ مَنْ فوق الثرى عُبدانه

---

(١) طبعة القاهرة ١٩٤٩ .

أيصح توحيد بغير ولائه ... وولاؤه لكتابه عنوانه
أم هل لقرآن كريم منزل ... فى بيته إلا عليه بيانه

ص ٢٧٩

مَعَدٌ أمير المؤمنين الذى بدا ... شهاباً يضئ الغرب والشرق ثاقبا
يقوم مقام الله بين عباده ... متيحاً لهم روح الحياة وسالبا
وتلقى النبى المصطفى إن لقيته ... خلائق لاهوتية وضرائبا
ترى منه إن صلى النبى مصليا ... وتحسبه إن قام يخطب خاطبا

(نستنكر بشدة ما ورد بهذه المقطوعات الشعرية من باطل وانحراف وكفر) .

(جـ) الاحتفالات بمناسبات معينة :

اهتم الفاطميون بأن يقوّوا الدعوة فى نفوس أتباعهم ، وأن يعملوا على كسب أتباع جدد بين الحين والحين ، واقترحوا لذلك مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى فى هذه الاحتفالات رسوم ونظم تجدد الدعوة وتقربها الى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : (مولد النبى ﷺ ، ومولد على ، ومولد فاطمة ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر) وكانوا يحتفلون كذلك بمناسبة رأس السنة وعاشوراء وعيد الفطر وعيد النحر وعيد الغدير ونحوها مما وُزّع خلال العام حتى تتجدد الذكرى وتظل العقائد حاضرة فى الأذهان ، وفيما يلى تفاصيل موجزة عن بعض هذه الاحتفالات :

عيد الغدير :

سبق أن تحدثنا عن غدير خم الذى يعتقد مدعو التشيع أن الرسول ﷺ أعلن عنده قوله : « إن علياً منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ، وهو وليكم بعدى » وقد تم ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة عقب حجة الوداع . وغدير خم موضع يبعد عن الجحفة بثلاثة أميال .

ويوم الغدير عيد من أسعد الأعياد عند الشيعة ، حافل بمظاهر السرور والغبطة ، حكى المقريزي [1] أن الشيعة كانوا يُحْيُون ليلته بالصلاة ويصلون في صبيحته ركعتين . ويلبسون فيه الجديد . ويعتقون الرقاب ، ويكثرون من عمل البر . ومن الذبائح ، وكان الناس يجتمعون بجامع القاهرة وفيهم القراء والفقهاء والمنشدون ، فيكون جمعا عظيما يستمر الى الظهر . وحينئذ يصل ركب الخليفة الذي يكون قد أرسل الى الخطيب بدلة من الحرير يخطب فيها ، وأرسل له كذلك ثلاثين دينارا ، فاذا وصل الركب دفع الى الخطيب كراس محرر من ديوان الانشاء يتضمن نص ما قاله النبي ﷺ الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب يوم الغدير فيلقيه الخطيب مع الخطبة حتى إذا فرغ ينزل صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين [2] ، فإذا انتهت الصلاة خرجت الجموع الى القصر فتخرج لهم الجائزة [3] وروى المقريزي [4] أيضا أن الاسماعيلية كانوا يتبادلون التهانى بهذا العيد وأنه عندهم أعظم من عيد النحر وينحر فيه أكثرهم . وكان الخليفة يذهب بنفسه الى الميدان ويذبح ما جرت به العادة ، ثم يذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد النحر ، ويأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم (كان غير الشيعة لا ينالون شيئا من عطايا وهبات ذلك اليوم) ولنعطى فكرة عن عدد ما يذبح في ذلك اليوم ننقل ما رواه المقريزي [5] من أن عدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر وفي عيد الغدير سنة ٥١٥ هـ كان ألفين وخمسمائة وواحدا وستين رأسا من النوق والبقر والجاموس والكباش نصفها في عيد النحر والنصف الآخر في عيد الغدير .

(وأهل السنّة لا يعترفون بيوم الغدير ، ويرونه من وضع الشيعة وخيالهم وقد اعترف الإمام عليّ بأنه ليس لديه عهد من الرسول ، وأقسم أنه لو كان لديه مثل ذلك العهد ما استطاع ابن أبى قحافة (أبو بكر) أن يأخذ الخلافة منه) .

---

(١) الخطط ١ : ٣٨٨ — ٣٨٩ و ٤٩٢ .

(٢) الخطط ١ : ٣٨٩ . (٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر نفسه ١ : ٣٨٩ — ٣٩٠ . (٥) الخطط ١ : ٤٣٦ .

عاشـــــوراء :

هو يوم العاشر من المحرم وهو التاريخ الذى قتل فيه الحسين بن على بكربلاء سنة ٦١ هـ على يد جيوش الأمويين ، ومن هنا يظهر أنها كانت مناسبة حزينة باكية ، وكان الفاطميون يتخذون ذلك اليوم يوم حـزن تتعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون الى جامع القاهرة وينزلون فيه بين النوح والنشيد ، وكان الخليفة يجلس فى ذلك اليوم على الأرض ، متلثماً يُرَى به الحزن ، كما كان القاضى والداعى والأشراف والأمراء يظهرون بغير مناديل وهم ملثمون حفاة ، ويُعْمَل فى ذلك اليوم السماط العظيم المسمى سماط الحزن ، ويتكوّن الطعام الذى يُقَدَّم عليه فى ذلك اليوم من العدس الأسود والملوحات والمخللات والأجبان وخبز الشعير المغيّر لونه قصداً ، وكان الشعراء ينشدون فى هذه المناسبة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام ، وينحون باللائمة على من غَصَبَ الخلافة من أصحابها الحقيقيين ، ثم يذكر قصّاصهم ما رواه أصحابهم من أن السماء لما قتل الحسين بكت عليه ، وأنه لم يُقْلَب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلا وجد تحته دم ، وأن الدنيا أظلمت يوم قُتِل ، ولم يمسّ أحد شيئا من زعفران فيجعله على وجهه إلا احترق ، وأن الأمويين أصابوا إبلا فى عسكر الحسين فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئا [١] .

اعياد الميلاد :

سبق أن عددنا الموالد الستة التى كان يحتفل بها الفاطميون وقـد وضح المقريزى طريقة الاحتفال بهذه الموالد ونصيبها فى الدعاية للمذهب الاسماعيلى ، ولم يكن مـن المتبع أن تنحر الذبائح فى هذه المناسـبات

---

(١) الخطط ١ : ٤٣٠ — ٤٣٢ و ٤٩٠ .

بل كانت تصرف بدل اللحوم كميات كبيرة من الحلوى والكعك [1] ، وكان يصرف لدار الفطرة عشرون قنطارا من السكر لتصنعها حلوى يابسة من طرائفها ، وتعبأ الحلوى فى بضع مئات من الصوانى النحاسية وتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم ، كما توزع كميات كبيرة للقراء والفقراء ، وكان الناس يجتمعون فى جموع حاشدة وعلى رأسهم قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، والنقباء ، والرؤساء ، وخطباء المساجد . وكان خطباء المساجد يخطبون فى هذه الجموع خطيبا بعد خطيب ويتحدثون عن النبى ﷺ والسعادة بمولده وما منّ الله به على ملة الاسلام من رسالته ، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ، فإذا كان الاحتفال بمولد الحسين تحدث عن فضله وعلمه ، ودعاء الرسول له ، ومكانته من علىّ وفاطمة ، وكيف ثبتت له الإمامة ، وكيف جهر برأيه لاعلاء كلمة الله غير مستضعف ولا مكترث بقوة ... وينتهى أيضا بالدعاء للخليفة الحاضر وهكذا [2] .

(د) إسناد الوظائف للإسماعيلية :

وكان من الطبيعى أن يعتمد الخلفاء الفاطميون فى قيادة أمور الدولة على رجال يعتنقون مذهبهم ويدينون باتجاههم ويرجع السبب فى ذلك كما ذكره ابن منجب أحد رؤساء الكتاب فى الدولة الفاطمية الى « أن موظفى الديوان يجب أن يكونوا شيعيين ، فالتشيع لموظف الدولة الفاطمية لا يقل عن الاسلام » بل إن التاريخ يحدثنا أن بعض الخلفاء الفاطميين اشترطوا التشيع فى الموظف اذا كان مسلما ولم يشترطوا الاسلام فيه ، وعلى هذا فقد عيّن العزيز — والدولة فى أوج عظمتها — عيسى بن نسطورس

---

(١) انحدرت الى العهد الحاضر فى مصر عادة بيع الحلوى وشرائها فى اثناء الاحتفال بمولد الرسول ومولد الحسين وغيرهما ، بل ان اعياد الميلاد التى تقيمها الأسر فى المناسبات الخاصة تقدم فيها الفطائر والحلوى اكثر مما تقدم اللحوم والطعام ، مما يوحى بأن الناس فى حياتهم العامة والخاصة تأثروا — دون أن يفطنوا — بما ابتكره الفاطميون .

(٢) الخطط ١ : ٤٣٢ — ٤٣٣ ، ٤٩١ .

المسيحى وزيرا ومِنَشَّا اليهودى واليا على الشـام . ويبدو أن فكـرة الفاطميين كانت إن اليهود والنصارى لن يتعصبوا ضد مذهب الدولة . أما المسلمون السنيون فمن المحتمل أو المتوقع أن يحـاربوا المـذهب الاسماعيلى فى السر أو العلانية . ثم كان من الطبيعى أن يكافىء الفاطميون أتباعهم من المغاربة بإسناد المناصب الرئيسية إليهم ، فهم الذين استجابوا لهذا المذهب من قبل ، ودرسوه ودانوا به ، وتحمسوا له ، وهم الذين حملوا لنشره السيوف ، وقهروا به الأعداء ، ودخلوا به ديار مصر .

غير أن الفاطميين وجدوا من الحكمة أن يعملوا على استقرار الحياة ، وأن يتجنبوا ثورة المصريين ريثما يتم الاستقرار والهدوء ، ولهذا أرجئوا بعض الوقت شغل الظائف بأتباعهم وتركوها فى يد الموظفين السنيين الذين كانوا يشغلونها حين دخول الفاطميين ، فأقِرّ جعفر بن الفرات فى الوزارة ، وترك أبو طاهر محمد بن أحمد فى كرسى القضاء ، واستمر بنو عبد السميع يقومون بالخطابة (١) .

ومن الطبيعى أن هذا كان حلا مؤقتا للمشكلة ، وأن الفاطميين أخذوا ينتقصون من نفوذ هؤلاء ويمكّنون معهم من يستولى على السلطة شيئا فشيئا ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت أمور الدولة الهامة فى أيدى الشيعيين، فأسندت الوزارة ليعقوب بن كلس واضطلع بنو النعمان بشئون القضاء (٢) وصرف بنو عبد السميع عن الخطابة وجعلت خطابة الجامع العتيق لجعفر بن الحسن الحسينى وجعل الى أخيـه الخطابة بالجـامع الأزهر (٣) .

وجاء بعد ذلك سلسلة من الوزراء وجلّهم بين عالم اسماعيلى واسع

---

(١) ابن دقماق ٤ : ٦٤ .

(٢) ابن ظافر : الدول المنقطعة ٤٩ ب ، ٥٠ ا ، ٦٦ ب مخطوط .

(٣) المقريزى ٢ : ٢٤٨ .

الثقافة فى المذهب ، أو على الأقل تابع من أتباع المذهب الذين يدينون بـه [1] .

أما منصب قاضى القضاة فقد تولاه فى العهد الفاطمى بضع وأربعون قاضيا ، وكانوا جميعا اسماعيلية فيما عدا قليلا جدا منهم ، وقد اشترط على هؤلاء أن يحكموا بمذهب الخليفة ، وأول سنى شغل منصب القضاء فى العهد الفاطمى هو أبو طاهر محمد بن أحمد الذى سبق ذكره ، وقد أمره جوهر أن يحكم فى المواريث بقول أهل البيت ، وكذلك فى الطلاق ، وفى هلال رمضان [2] . وممن ولى القضاء من غير الفقهاء الاسماعيلية أيضا احمد بن محمد بن أبى العوام وكـان حنبليا فاشترط عليـه الخليفـة (الحاكم بأمر الله) أنه اذا جلس للحكم أن يكون معه أربعة من فقهاء الاسماعيلية لئلا يقع الحكم بغير ما يذهب اليه الخليفة [3] .

ولما اختير أبو العباس أحمد للقضاء وهو سنى المذهب اشترط ألا يحكم بمذهب الدولة فلم يتمكن من ذلك [4] .

أما منصب داعى الدعاة فهو عميق الصلة بالمذهب الاسماعيلى ، وكان بطبيعة الحال لا يشغله إلا من تعمق فى هذا المذهب وأجاده ، وكان داعى الدعاة أعظم شخص فى الدولة بالنسبة للإشراف على نشر تعاليم المذهب ، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ، وطالما أسند منصبا قاضى القضاة وداعى الدعاة لشخص واحد .

وكان الوزير وقاضى القضاة وداعى الدعاة يختارون من الشيعيين من يعمل معهم ويعاونهم على القيام بما وكل لهم ، وكان داعى الدعاة على

---

(١) انظر قائمة وزراء الفاطميين : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٩ — ١٣٧ .
(٢) رفع الأصر ورقة ٩٨ مخطوط .
(٣) المرجع نفسه ١٩ ب .   (٤) حسن المحاضرة ٢ : ١٠٤ .

وجه الخصوص يختار الدعاة والنقباء من خاصـة العارفـين بالمـذهب المتحمسين له ، وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه ، وقد وجد كثير من المصريين ألا مناص لهم من الخضوع لرغبة الخلفاء فتظاهروا بالاستجابة للمذهب الجديد كى ينعموا بهذه الوظائف وكى لا يعرضوا أنفسهم لنقمة القائمين بالأمر .

ثالثا — المصريون والمذهب الإسماعيلي

تظاهر المصريون أو بعضهم باعتناق المذهب الاسماعيلي خلال حكم الدولة الفاطمية طلبا للسلامة وتخلصا من عنت الفاطميين ورجال دولتهم [١] • ويبدو أن هؤلاء المصريين لم يتأثروا كثيرا بالدعاية والشعر والتدريس ، وكان سيرهم في موكب الاسماعيلية مجرد تظاهر لتفادي العسف والقسوة دون اعتقاد أو إيمان ، ومن أجل هذا نجد أنه ما كادت الدولة الفاطمية تسقط حتى هوى المذهب الاسماعيلي دون أن تقوم له قائمة بعد ذلك ، ومما يدل على أن الفكرة الاسماعيلية لم تتغلغل في نفوس المصريين أن الحركات التي ظهرت في عهد الأيوبيين لاعادة النفوذ الفاطمي كانت حركات هزيلة شاحبة لم تجد استجابة من الجماهير ولا قبولا من أفراد الشعب ؛ ويحدثنا ابن واصل [٢] أن اثنى عشر شيعيا انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين عن مصر في احدى حملاته الحربية فطافوا بشوارع القاهـرة يهتفـون ويدعون الناس أن ينضموا لهم لاعادة سلطان الفاطميين ، ولكن أحدا لم يستجب لدعوتهم فتفرقوا مذعورين •

وقد استطاع صلاح الدين أن يقضي على المذهب الاسماعيلي في مصر دون كبير عناء ، وأعلن استئناف المذهب السني ، وكان أول ما فعل أن حذف اسم الخليفة العاضد الفاطمي من الخطبة ودعا للخليفة المستضيء بالله العباسي ، وقد تردد صلاح الدين في تنفيذ ذلك بادىء الأمر ثم أوعز الى أحد أتباعه أن يفعل ذلك في أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولكن أحدا لم يحرك ساكنا مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك في الجمعة التالية [٣] وشرع صلاح الدين في تغيير الدولة

---

(١) ذكر المقريزي امثلة من التعذيب والتنكيل اللذين كانا ينصبان على من يظهر المقاومة لمذهب الدولة او عدم الرضاء به او التحدى له ؛ وقد لقى هذا التعذيب في بعض الحالات الى الموت (الخطط ١ : ٣٥٥ ؛ ٢ : ٣٤١) •

(٢) مفرج الكروب ورقة ٣٢٩ أ و ب مخطوط •

(٣) الروضتين ١ : ١٩٤ •

وإزالتها فحجر على العاضد ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، وقتل ابن عبد القوى آخر داعى دعاة لدولة الفاطمية ، وكان قتله على أثر المؤامرة التى كان يراد بها اعادة الحكم الفاطمى (١) ، وأنشأ بمدينة القاهرة مدرسة للفقهاء الشافعية ، ومدرسة للفقهاء المالكية (٢) ، وصرف قضاة مصر المتشيعين كلهم ، وفوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى فلم يستتب عنه فى اقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب فاختفى مذهب الشيعة حتى فُقِد من مصر كلها (٣) .

وبرزت مصر كما كانت دائما مركزا للفكر الإسلامى السليم الذى يُطلق عليه فكر أهل السنة والجماعة ، وانحسرت هذه المحاولة الكريهة التى خلقها مدعو التشيع ، وعادت أدراجها إلى المركز الذى نبتت به وهو بلاد فارس فلله الحمد والمنة .

* * *

وفى ختام دراستنا الشاملة عن التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى ، نرجو أن نكون قد ملأنا الفراغ الواسع حول هذا الموضوع ، فأبرزنا جانبا مهما من جوانب الحضارة الاسلامية ، تلك الحضارة التى تُعَدّ بحق منحة السماء لسكان الأرض .

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٢١٩ .
(٢) المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٩ و ٢ : ٣٤٣ .
(٣) المصدر السابق ١٢٠ ب .

مصـــادر البحث

ملاحظتان : (١) الكتب التى ستذكر هنا هى فقط الكتب التى وردت فى ذيل صفحات هذا الكتاب وأما الكتب التى أسهمت فى هذا البحث بطريق غير مباشر فلا داعى لإيرادها فى هـــذه القائمـــة

(٢) نظمت المراجع فيما يلى حسب الترتيب الأبجدى للاســـم الذى اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن (ابن — ابو — ال) .

أولا المخطوطات والمصورات

١ — تميم (الأمير تميم) : ديوان الأمير تميم — مخطوط ملك الدكتور كامل حســـين .

٢ — الجاحظ : رسالة المعلمين — مخطـــوط بالمتحف البريطانى رقم ٣١٣٨ وبمدرسة الحجيات بالموصل .

٣ — جعفر بن منصور : الفترات والقرانات — مصور ملك الدكتور كامل حســـين .

٤ — ابن الجوزى (سبط) : مرآة الزمان — مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٥١ تاريخ .

٥ — أبو الحاج : الألف باللألبا — مخطوط بمكتبة بايزيد باستامبول ٥٣٣٦ .

٦ — ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر — مخطوط بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ .

٧ — ابن حجر : معجم ابن حجـــر — مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٥ مجاميع م .

٨ — ابن حجر : انباء الغمر فى انباء العمر — مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٤٧٦ تاريخ .

٩ — ابن حجر : تاويل التاسيس — مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٤٦ تاريخ .

١٠ — ابن خنزابة : مجالس ابى مسلم — مخطوط بدار الكتب المصرية ٧٧ أدب .

١١ — ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى — مخطوط بمكتبة تيمور بدار الكتب المصرية ١٤٦١ .

١٢ — سبط بن العجمى : كنوز الذهب فى تاريخ حلب — مخطوط ملك الدكتور سامى الدهان .

١٣ — السلفى : أصول سماعات ابى الحسن — مخطوط بمكتبة Professor Arberry .

١٤ — سليمان بن احمد : ارشاد البشر — مخطوط بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف .

١٥ — السيوطى : نزهة الجلساء فى اخبار النساء — مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٤٥٨٦ .

١٦ — ابن شداد (محمد بن على) : الأعلاق الخطيرة — مخطوط بلاهاى رقم ١٤٦٦ .

١٧ — الصابى : رسوم دار الخلافة — مخطوط بالمتحف العراقى رقم ١٥ .

١٨ — الصفدى : التذكرة الصلاحية — مخطوط ملك Professor Arberry .

١٩ — طاش كبرى زاده : رسالة فى علم الأدب — مخطوط بالمتحف العراقى رقم ٧٢١ .

٢٠ — ابن ظافر : تاريخ الدول المنقطعة — مخطوط بالمتحف البريطانى ٣٦٨٥ .

٢١ — ابن عبد البر : ادب المجالسة — مخطوط بدار الكتب المصرية ١٢٣ مجاميع م .

٢٢ — على بن حنظلة : عقائد الاسماعيلية — مخطوط ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد .

٢٣ — عمارة اليمنى : النكت المصرية — مصور بدار الكتب المصرية ٨٠٤٨ م .

٢٤ — ابن عنبة : عمدة الطالب فى انساب آل ابى طالب — مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد رقم ٢٨٠٨ .

٢٥ — العينى : عقد الجمان — مخطوط بدار الكتب المصرية ٨٢٠٣ ا .

٢٦ — القابسى : الفضلة — مخطوط نشره الدكتور احمد فؤاد الأهوانى .

٢٧ — ابن قاضى شهبة : مناقب الشافعى واصحابه — مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٥٧ تاريخ .

٢٨ — القمى : اعتقاد الصدوق — مخطوط بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف .

٢٩ — الكرمانى : الرسالة الوضية — مخطوط ملك الدكتور كامل حسين .

٣٠ — الكلينى : أصول الكافى — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١ مواعظ شيعية .

٣١ — المؤيد فى الدين : المجالس المؤيدية — مخطوط ملك الدكتور كامل حسين .

٣٢ — الموسوى : منتهى المراد — مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٣٤٤ تاريخ .

٣٣ — النعمان بن محمد (داعى الدعاة) : دعائم الإسلام — مصور بدار الكتب ١٩٦٦٥ ب .

٣٤ — النعمان بن محمد (داعى الدعاة) : تأويل دعائم الاسلام — مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٣٥ — النعمان بن محمد (داعى الدعاة) : اساس التأويل الباطن — مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٤٢٤٦ ب .

٣٦ — النعمان بن محمد (داعى الدعاة) : المناقب والمثالب — مخطوط بدار الكتب المصرية ١١٥٤٧٢ .

٣٧ — النعمان بن محمد (داعى الدعاة) : المجالس والمسايرات — مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٣٨ — ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب — مخطوط بجامعة Cambridge 1-1-1-6 .

٣٩ — الوليد بن بكر : الوجازة فى صحة القول بأحكام الاجازة — مخطوط ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد .

٤٠ — المؤلف غير معروف : منهاج المتعلم — مخطوط بالمكتبة العثمانية بحلب ١٢٢١ .

٤١ — المؤلف غير معروف : نصيحة الى هارون الرشيد — مخطوط بمكتبة جامعة استانبول رقم ٦٢٧٧ أ .

٤٢ — المؤلف غير معروف : فى اللّبس — مخطوط بمكتبة اسعد أفندى باستانبول مجموع ٦٩٦ .

ثانيا — كتب عربية مطبوعة

٤٣ — ابن الأثير : عيون الانباء — الناشر : Ed. August Müller 1884 .

٤٤ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ — طبعة ليدن ١٨٥١ .

٤٥ — الدكتور أحمد أمين : فجر الاسلام — القاهرة ١٩٣٢ .

٤٦ — الدكتور احمد امين : ضحى الاسلام — القاهرة ١٩٣٢ .

٤٧ — الدكتور احمد امين : ظهر الاسلام — القاهرة ١٩٣٢ .

٤٨ — الدكتور احمد فؤاد الأهوانى : التعليم عند القابسى — الطبعة الأولى .

٤٩ — احمد بن يحيى المرتضى : المنية والأمل — حيدر اباد ١٣١٦ هـ .

٥٠ — اسعد طاس : ذيل ثمار المقاصد — الطبعة الأولى .

٥١ — ابن الأنبارى : طبقات الادباء — القاهرة ١٢٩٤ هـ .

٥٢ — البخارى : صحيح البخارى — ليدن ١٨٦٢ .

٥٣ — ابن بشكوال : الصلة — مدريد ١٨٨٢ .

٥٤ — ابن بطوطة : تحفة النظـــار — باريس ١٨٥٣ .

٥٥ — البلاذرى : فتوح البلدان — القاهرة ١٣٥٠ هـ .

٥٦ — بهاء الدين العاملى : الكشكول — القاهرة ١٣٠٥ هـ .

٥٧ — البيهقى : المحاسن والمساوىء — ليبسك ١٣٢٠ هـ .

٥٨ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — القاهرة ١٩٣٨ .

٥٩ — الثعالبى : يتيمة الدهر — دمشق ١٣٠٥ هـ .

٦٠ — الجاحظ : الحيوان — الناشر الأستاذ عبد السلام هارون ١٩٣٨ .

٦١ — الجاحظ : البيان والتبيين — القاهرة ١٣٣٢ هـ .

٦٢ — الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك — القاهرة ١٩١٤ .

٦٣ — الجاحظ : رسائل الجاحظ — نشرها النوبى .

٦٤ — ابن جبير : الرحـــلة — ليدن ١٩٠٧ .

٦٥ — ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العـــالم والمتعـــلم — حيدر اباد ١٣٥٣ هـ .

٦٦ — الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب — القاهرة ١٩٣٨ .

٦٧ — جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي — القاهرة ١٩٠٢ .

٦٨ — ابن الجوزي (عبد الرحمن) المنتظم — حيدر اباد ١٣٥٩ هـ .

٦٩ — ابن الجوزي (عبد الرحمن) : اخبار الحمقى والمغفلين — دمشق ١٣٤٨ هـ .

٧٠ — ابن الجوزي (عبد الرحمن) : مناقب بغداد — بغداد ١٣٤٣ هـ .

٧١ — ابن الجوزي (عبد الرحمن) : صيد الخاطر — القاهرة ١٩٢٧ .

٧٢ — ابن الحاج (العبدري) : المدخل — القاهرة ١٩٢٩ .

٧٣ — حاجي خليفة : كشف الظنون — ليبسك ١٨٢٥ .

٧٤ — ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة — كلكتا ١٨٧٣ .

٧٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة — حيدر اباد ١٣٤٩ هـ .

٧٦ — ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق (على هامش المستطرف) — القاهرة ١٣٠٨ هـ .

٧٧ — الحريري : المقامات — القاهرة ١٢٦٦ هـ .

٧٨ — دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر — القاهرة ١٩٣٢ .

٧٩ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي — القاهرة ١٩٤٠ .

٨٠ — حسين الأصفهاني : محاضرات الادباء — القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٨١ — ابن حنبل : المسند — القاهرة ١٣١٣ هـ .

٨٢ — ابن حوقل : كتاب صورة الأرض — ليدن ١٩٣٨ .

٨٣ — ابو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة — القاهرة ١٩٢٩ .

٨٤ — ابو حيان التوحيدي : الصداقة والصديق — طبعة القاهرة .

٨٥ — ابو حيان التوحيدي : المقابسات — القاهرة ١٩٢٩ .

٨٦ — الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد — القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٨٧ — الخطيب البغدادي : تقييد العلم — دمشق ١٩٤٩ .

٨٨ — ابن خلدون : المقدمة — الناشر عبد الرحمن بن محمد بدون تاريخ .

٨٩ — ابن خلدون : العبر — القاهرة ١٢٨٤ هـ .

٩٠ — ابن خلكان : وفيات الأعيان — القاهرة ١٢٧٥ هـ .

٩١ — دكتور خليل طوطح : التربية عند العرب — الطبعة الاولى .

٩٢ — الخياط المعتزلى : الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد — طبعة دار الكتب ١٩١٥ .

٩٣ — ابن دقماق : الانتصار — القاهرة ١٣٠٩ هـ .

٩٤ — الذهبى : تاريخ الاسلام — حيدر اباد ١٣٣٧ هـ .

٩٥ — الزرقانى : شرح المواهب اللدنية — القاهرة دون تاريخ .

٩٦ — الزركشى : تاريخ الدولتين — تونس ١٢٨٩ هـ .

٩٧ — الزرنوجى : تعليم المتعلم — استامبول ١١٩٢ هـ .

٩٨ — زكريا الانصارى : اللؤلؤ النظيم فى روم التعليم — القاهرة ١٣١٩ هـ .

١٠٠— زين الدين العاملى : منية المريد فى ادب المفيد والمستفيد — القاهرة ١٩٤٦ .

١٠١— ابن السباعى : الجامع المختصر — بغداد ١٩٣٤ .

١٠٢— السبكى : طبقات الشافعية الكبرى — القاهرة ١٣٢٤ هـ .

١٠٣— السبكى : معيد النعم ومبيد النقم — ليدن ١٩٠٨ .

١٠٤— ابن سحنون : آداب المعلمين — تونس ١٣٤٨ هـ .

١٠٥— السخاوى : الضوء اللامع — القاهرة ١٣٤٨ هـ .

١٠٦— السمعانى : كتاب الانساب — Gibb Memoral Edition .

١٠٧— ابن سيده : المخصص — القاهرة ١٣١٦ هـ .

١٠٨— ابن سينا : القانون — روما ١٥٩٣ .

١٠٩— السيوطى : حسن المحاضرة — القاهرة ١٣٢١ هـ .

١١٠— السيوطى : تاريخ الخلفاء — دمشق ١٣٥١ هـ .

١١١— السيوطى : تبييض الصحيفة فى مناقب ابى حنيفة — حيدر اباد ١٣٣٤ هـ .

١١٢— السيوطى : بغية الوعاة — القاهرة ١٣٢٦ هـ .

١١٣— السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن — القاهرة ١٢٨٧ هـ .

١١٤— ابو شامة : الروضتين — القاهرة ١٢٨٧ هـ .

١١٥— ابن شحنة : الدرر المنتخب فى تاريخ حلب — بيروت ١٣٠٩ هـ .

١١٦— ابن شداد (بهاء الدين) : المحاسن السلطانية — القاهرة ١٣١٧ .

١١٧— شهاب الدين بن احمد المستطرف فى كل فن مستظرف — القاهرة ١٣٠٨ هـ .

١١٨— الشهرستانى : الملل والنحل — ليبسك ١٩٢٣ هـ .

١١٩— الشهيد : المنية فى آداب العلم — طبعة القاهرة .

١٢٠— الشيزرى : نهاية الرتبة — القاهرة ١٩٤٦ .

١٢١— صلاح الدين المنجد : خطط دمشق — بيروت ١٩٤٩ .

١٢٢— طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة — حيدر اباد ١٣٢٩ هـ .

١٢٣— الطبرى : تاريخ الأمم والملوك — ليدن ١٨٨١ .

١٢٤— ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والأمم الاسلامية — القاهرة ١٩٢٣ .

١٢٥— ابن طولون الصالحى : القلائد الجوهرية — دمشق ١٠٤٩ .

١٢٦— ابو الطيب محمد : الموشى — ليدن ١٣٠٢ هـ .

١٢٧— ابن ظافر : بدائع البدائه — القاهرة ١٢٩٨ هـ .

١٢٨— عباس العزاوى : العراق بين احتلالين — بغداد بدون تاريخ .

١٢٩— ابن عبد البر : جامع بيان العلم — القاهرة ١٩٣٧ .

١٣٠— ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع — طبعة بغداد .

١٣١— ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز — القاهرة ١٩٢٧ .

١٣٢— ابن عبد ربه : العقد الفريد — القاهرة ١٩١٣ .

١٣٣— عبد الرازق الحصان : الحسبة : بغداد ١٩٤٦ .

١٣٤— عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار — الناشر Faulder .

١٣٥— عبد الله بن بشر : حق اليقين — صيدا ١٣٥٢ هـ .

١٣٦— عبد الله عفيفى : المرأة العربية — القاهرة ١٩٣٥ .

١٣٧— ابن عبدون : رسالة ابن عبدون — نشرت فى
The Journal Asiatique 1934

١٣٨— ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول — بيروت ١٨٦٠ .

١٣٩— ابن العربى : احكام القرآن — طبعة القاهرة بدون تاريخ .

١٤٠— ابن عساكر : تاريخ دمشق — دمشق ١٣٢٤ هـ .

١٤١— ابن العماد : شذرات الذهب — القاهرة ١٣٥٠ هـ .

١٤٢— عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق — ابريل ١٨٨٩ .

١٤٣— الغزالى : أحياء علوم الدين — القاهرة ١٣٠٦ هـ .

١٤٤— الغزالى : الرسائل العشرة — القاهرة ١٩٣٤ .

١٤٥— الغزالى : الجلم العوام — القاهرة ١٣٠٦ هـ .

١٤٦— الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب — حلب ١٣٦٢ هـ .

١٤٧— ابن الفقيه : كتاب البلدان — ليدن ١٣٠٢ هـ .

١٤٨— ابو الفدا : البداية والنهاية — القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٤٩— ابو الفرج الاصفهانى : الاغانى — طبعة الساسى .

١٥٠— دكتور فريد رفاعى : عصر المأمون — الطبعة الاولى .

١٥١— ابن الفوطى : الحوادث الجامعة — بغداد ١٣٥١ هـ .

١٥٢— القالى : الامالى — القاهرة ١٣٤٨ هـ .

١٥٣— ابن قتيبة : عيون الأخبار — القاهرة ١٩٢٨ .

١٥٤— ابن قتيبة : المعــارف — القاهرة ١٣٠٠ هـ .

١٥٥— القرشى : معالم القربة — الناشر Prof. Levy .

١٥٦— القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد — الطبعة الأولى .

١٥٧— القسطلانى : المواهب اللدنية — الطبعة الأولى .

١٥٨— القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء — ليبسك ١٣٢٠ هـ .

١٥٩— القلقشندى : صبح الاعشى — القاهرة ١٩١٣ .

١٦٠— الكتبى : فوات الوفيات — القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٦١— كشاجم : ادب النديم — الاسكندرية ١٣٢٩ هـ .

١٦٢— كمال الدين هبة الله : الدرارى فى الذرارى — استامبول ١٢٩٨ هـ .

١٦٣— الكندى : كتاب الولاة والقضاة — Gibb Memorial .

١٦٤— كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة فى العراق — بغداد ١٩٤٨ .

١٦٥ — لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة فى تاريخ غرناطة — القاهرة ١٣١٩ هـ .

١٦٦ — الماوردى : الأحكام السلطانية — القاهرة ١٨٥٣ .

١٦٧ — الماوردى : ادب الدنيا والدين — استانبول ١٢٩٩ هـ .

١٦٨ — المؤيد فى الدين : ديوان المؤيد — القاهرة ١٩٤٩ .

١٦٩ — المبرد : الكامل — الناشر Wright .

١٧٠ — المتنبى : ديوان المتنبى — طبعة الحلبى ١٩٣٦ .

١٧١ — مجير الدين : الانس الجليل — القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٧٢ — محمد زاهد الكوثرى : حسن التقاضى فى سيرة ابى يوسف القاضى — القاهرة ١٩٤٨ .

١٧٣ — محمد صادق الصدر : الشيعة — بغداد ١٣٥٢ هـ .

١٧٤ — محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله — القاهرة (الطبعة الأولى) .

١٧٥ — محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية — القاهرة ١٣٢٣ هـ .

١٧٦ — دكتور محمد كامل حسين : نظرية المثل والممثول — القاهرة ١٩٤٨ .

١٧٧ — محمد كرد على : خطط الشام — الطبعة الاولى .

١٧٨ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية — طبعة لجنة التأليف ١٩٣٤ .

١٧٩ — محمد كرد على : رسائل البلغاء — القاهرة ١٩٤٦ .

١٨٠ — محمود الالوسى : تاريخ مساجد بغداد — بغداد ١٣٤٦ هـ .

١٨١ — محمود دهمان : المقصورة التاجية — دمشق ١٩٥٠ .

١٨٢ — محمود عكوش : الجامع الطولونى — القاهرة ١٩٢٧ .

١٨٣ — المرتضى : تنزيه الانبياء — النجف ١٢٥٠ هـ .

١٨٤ — المرزبانى : الموشح — القاهرة ١٣٤٣ هـ .

١٨٥ — المسعودى : مروج الذهب — الناشر babeir .

١٨٦ — ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق — القاهرة ١٣٢٣ هـ .

١٨٧— ابن مسكويه : سقوط الخلافة العباسية — القاهرة ١٩١٤ .

١٨٨— ابن المعتز : ديوان ابن المعتز — القاهرة ١٨٩١ .

١٨٩— المعرى : رسالة الغفران — القاهرة ١٩٠٣ .

١٩٠— المعرى : رسائل ابى العلاء — اكسفورد ١٨٩٨ .

١٩١— المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — ليدن ١٩٠٦ .

١٩٢— المقرى : نفح الطيب — القاهرة ١٢٨٩ هـ .

١٩٣— المقريزى : الخطط — القاهرة ١١٧٠ هـ .

١٩٤— المقريزى : اتعاظ الحنفا — القدس ١٩٠٩ .

١٩٥— ابن منجب : قانون الرسائل — الطبعة الأولى .

١٩٦— ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة — القاهرة ١٩٢٤ .

١٩٧— ناجى معروف : العوسة المستنصرية — بغداد ١٩٣٥ .

١٩٨— ابن نباته المصرى : سرح العيون — القاهرة ١٢٧٨ هـ .

١٩٩— ابن النديم : الفهرست — القاهرة ١٣٤٨ هـ .

٢٠٠— النعيمى : الدارس فيما فى دمشق من المدارس — دمشق ١٩٤٨ .

٢٠١— ابو نواس : ديوان ابى نواس — القاهرة بدون تاريخ .

٢٠٢— النويرى : نهاية الأرب — طبعة دار الكتب المصرية .

٢٠٣— ابن هانىء الأندلسى : ديوان ابن هانىء — القاهرة ١٢٧٤ هـ .

٢٠٤— ابن هشام : السيرة — القاهرة ١٣٣١ هـ .

٢٠٥— ياقوت : معجم الادباء — الناشر Margolioth .

٢٠٦— ياقوت : معجم البلدان — القاهرة ١٣٢٢ .

٢٠٧— اليعقوبى : البلدان — ليدن .

٢٠٨— يوسف بن عبد الهادى : ثمار المقاصد — بيروت .

ثالثا — كتب مطبوعة بلغات اجنبية

209 — Barthold, W. : Turkestan Down to the Mongol Invasion. — Lubzac, 1928.

210 — Brockelmann, C. : Ge chichte der Arabisher Litteratur. — Weimar 1896 - 902.

211 — Browne, E. : A Literary History of Persia. — London 1906.

212 — Dozy, R. : Dictionnaire des Noms des Yétements chdz les Arabes. — Amesterdanm 1845.

213 — Gertrude Stern : Marriage in Early Islam. — The Royal Asiatic Society 1939.

214 — Gibb, H. : Arabic Literature. — Oxford 1928.

215 — Gibb, H. : Muhammadanism. — Oxford 1949.

216 — Hitti P. : The History of the Arabs. — London 1949.

217 — Ilse Lichtenstadter Women in Ayyam al - Arab. The Royal Society 1935.

218 — John Longdom : A Short History of Women. — The Royal Society 1987.

219 — Khuda Bukhsh : Contribution to the History of Islamic Civilization Calcutta 1905.

220 — Lammens : Etudes sur le Régne du Calife Omayade Moawia, ler. p Paris 1908.

221 — Lane - Poole : Cairo. — London 1912.

222 — Lane - Poole : History of Egypt in the Middle Ages. — London 1901.

223 — Matiel Mugannam : The Arab Women. — London 1937.

224 — Mez. Adam : Die Renaissance des Islams; (Arabic translation). Cairo 1940.

225 — Nicholson, A. : A Literary of the Arabs. — Cambridge 1920.

226 — Palmer, E. : Harun al-Rashid. — Marcus Ward 1881.

227 — Paul Monroe, : The Educational Renaissance of the Sixteenth Century. — New York 1904.

228 — Richard Coke : Baghdad, the City of Peace. — Thornton 1927.

229 — Rosenthal : The Tecknique and Apprrooch of Muslim Scholarshib. — Analecta Orientalia 1947.

230 — Sarre, E. : Islamic Bookbindings. — Berlin 1923.

231 — Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens. — London 1916.

232 — Sayid Ameer Ali : The Spirit of Islam. — London 1940.

٢٣٣ — طهران ١٣١٣ هـ مدرسة نظامية بغداد (فارسى) — سعيد نفيسى .

224 — Thomas Arnold and Adolf Grohmann : The Islamic Book. — Germany MCMXXIX.

235 — Thomas Arnold and Guillaume : The Legacy of Islam. — London 1949.

236 — Wellhausen : The Arab Kingdom and Its Fall, (English Translation). alcutta 1927.

237 — William Muir The Life of Mühammad. — London 1894.

رابعا — دوائر معارف

238 — Encyclopaedia of Islam.

239 — Eneyclopaedia and Dictionary of Education.

240 — Eneyclopaedia of Religion and Ethics.

241 — The Dcitionary of Islam.

٢٤٢ — دائرة معارف البستانى .

٢٤٣ — دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى .

خامسا — مطبوعات دورية

244 — Islamic Culture.

245 — The Nineteenth Century.

247 — The Journal Asiatique.

٢٤٨— المشرق .

٢٤٩— المعلم الجديد (عراقية) .

٢٥٠— مجلة الجامعة الاسلامية (تصدر فى حلب) .

٢٥١— يادجار (فارسية تصدر فى طهران) .

سادسا — وثائق وكتب لم يعرف مؤلفوها

٢٥٢— وقفية الملك المعظم على مدرسته بالشـــام (مخطوط لدى الأستاذ صلاح الدين المنجد) .

٢٥٣— لوحات اثرية ورد صور بعضها فى الكتاب .

٢٥٤— كتاب الارشاد والتعليم لبعض الرجال الصوفية .

٢٥٥— المجالس المستنصرية .

٢٥٦— رسائل اخوان الصفا .

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

5
Muslim Edusation

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Eighth Edition (1987)

Published by:
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

- تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.
- زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية.
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية، وقد حاضر — منتدبا وزائرا ومُعارا — فى جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفى معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات:

١ — موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة أجزاء.
٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء.
٣ — مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء.
٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة.
٥ — المكتبه الاسلامية لكل الاعمار: ١٠٠ جزء من السّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال.
٦ — ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
٧ — HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وتُرجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية والفرنسية، والفارسية.